

العصور

مجلة علمية نصف سنوية ، محكمة ، تعنى بنشر البحوث التاريخية والآثارية والحضارية

المجلد الثاني عشر

١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م

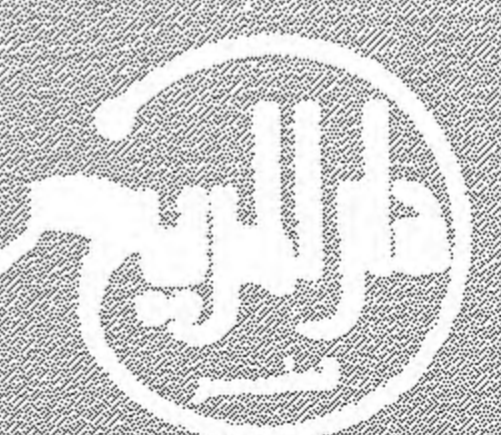


تصدر عن : دار المريج للنشر - لبنان

المصور

مجلة علمية نصف سنوية، مُحَكَّمة، تعنى بنشر البحوث التاريخية والآثرية والحضارية

المجلد الثاني عشر
الجزء الأول
يناير ٢٠٠٢م
شوال ١٤٢٢هـ



تصدر عن : دار المريخ للنشر - لندن

قواعد النشر

المعارف ، ١٩٧٧ م) . ص ٧ .
بعد الذكر الأول للحاشية مشتملة على جميع البيانات المرجعية يشار إليها بعد ذلك في الشكل المختصر وهو يشتمل على اسم العائلة للمؤلف يتبعه أرقام الصفحات المطلوب الإشارة إليها .

(١٧) نوصير ، ص ص ٢٧ - ٥٣ .
وفي حالة وجود عمل أو أكثر للمؤلف نفسه في المقال نفسه فإن الشكل المختصر للحاشية يشتمل بالضرورة على مختصر العنوان بعد اسم العائلة للمؤلف مباشرة .

(٢٨) نوصير . مدرسة جركسية ص ص ٢٧ - ٥٣ .
تأخذ الحواشي أرقاماً متسلسلة حتى نهاية البحث دون استخدام نجوم أو أية رموز أخرى وتطبع في المتن في موضع أعلى قليلاً من السطر بعد علامات الترقيم .
في حالة الكتب التي تفتقر إلى بيانات النشر ، يشار إلى أحدها أو أكثر من الاختصارات الآتية :

د . م . = بدون تاريخ النشر ، د . ص = بدون اسم ناشر ، د . ت = بدون تاريخ النشر ، د . ص = بدون أرقام صفحات .

٩ - أصول البحوث والمقالات وترتيبها داخل العدد لاعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الكاتب .

١١ - لما كانت المجلة تصدر نصف سنوية بصفة دورية ، وتوزع في موعد محدد فإن ذلك يتطلب ضرورة جمع موضوعاتها وتنسيقها وإخراجها وطباعتها في وقت يسبق موعد التوزيع بفترة كافية .

١٢ - لا تقبل المجلة نشر البحوث أو المقالات أو الترجمات التي سبق نشرها . كما لا يجوز إعادة النشر في مجلات علمية أخرى بعد إقرار نشرها في هذه المجلة إلا بعد الحصول على إذن كتابي من رئاسة تحرير المجلة .

١٣ - تقبل البحوث المكتوبة باللغتين العربية والانجليزية .

١٤ - تأمل رئاسة التحرير من السادة الأساتذة الباحثين والكتاب الذين يرغبون في نشر بحوثهم ومقالاتهم في الأعداد القادمة من المجلة أن يلتزموا بالقواعد هذه . لأن هذا يساعد رئاسة تحرير المجلة على أداء عملها كما يساهم في خدمة أهداف المجلة وسنتعذر عن قبول أي مقالة أو بحث لا يلتزم مؤلفها بتلك التعليمات .

١٥ - يقوم المؤلفون بمراجعة تجارب الطبع الأخيرة بمطابقتها على الأصول ، مع مراعاة عدم إجراء أي تغييرات فيها تختلف عما ورد في الأصول ، سواء بالإضافة أو الحذف ، على أن تعاد تجربة الطبع خلال ٤٨ ساعة فيما أو رأت رئاسة التحرير غير ذلك .

١٦ - تمنح إدارة المجلة لمؤلف كل بحث أو مقالة نسخة مجانية من المجلد الذي نشر به البحث أو المقال .

١٧ - توجه جميع المراسلات الخاصة بالمجلة إلى : دار المريخ للنشر - ص ب ١٠٧٢٠ ، الرياض ١١٤٤٣ ، المملكة العربية السعودية .

١ - « العصور » مجلة نصف سنوية تتولى نشرها دار المريخ للنشر بالرياض وتصدر عن مكتبها بلندن .

٢ - تقدم البحوث والمقالات والترجمات مطبوعات على الآلة الكاتبة على مسافتين من أصل وصورتين على ورق مقاس ٢١ × ٢٩.٧ سم (A4) وعلى وجه واحد فقط ، ترقم جميع الصفحات شاملة الجداول والصور التوضيحية .

٣ - يراعى ألا يتجاوز عدد صفحات أي بحث أو مقال ٣٠ صفحة (أي في حدود ٧٠٠٠ كلمة) ، أما بالنسبة للكتب المحققة فيراعى ألا يتجاوز عدد صفحاتها ٥٠ صفة (أي في حدود ١٢.٠٠٠ كلمة) .

٤ - يرفق الباحث ملخصاً لبحثه في حدود ٢٠٠ كلمة (مائتي كلمة) تصدر البحث باللغتين العربية ولأجنبية .

٥ - ترسم الخرائط والأشكال والرسوم البيانية بالحبر الصيني على ورق « كلك » حتى تكون صالحة للطباعة ، أما الصور الفوتوغرافية فيراعى أن تكون مطبوعة على ورق لامع ، وإذا كانت ملونة فلا بد من تقديم الشريحة الأصلية .

٦ - يراعى وضع خطوط متعرجة تحت العناوين الجانبية ، وكذلك الألفاظ والعبارات التي يراد طبعتها بينط ثقيل ، كما توضع خطوط عادية أسفل عناوين الكتب والدوريات .

٧ - يراعى كتابة علامات الترقيم بعناية (النقطة ، علامة الاستفهام ، علامة التعجب ... الخ) في كتابة البحث ويصفة عامة يتبع أسلوب الـ « MLA » في الكتابة .

٨ - الحواشي

تطبع الحواشي على الآلة الكاتبة وعلى مسافتين في صفحات مستقلة في نهاية البحث ولا تقبل قائمة للمراجع كل حاشية تمثل جملة مستقلة ولا تشمل على نقط بداخلها .
ويأخذ الترتيب العام للحاشية الشكل الآتي :

اسم (أسماء) المؤلف (ين) ، عنوان الفصل أو الجزء من الكتاب ، عنوان الكتاب ، اسم (أسماء) المحرر (ين) ، المترجم (ين) ، المبدع (ين) ؟ رقم الطبعة المستخدمة ، رقم السلسلة عدد المجلدات ، مدينة النشر ، الناشر ، سنة النشر ، رقم المجلد ، وأرقام الصفحات ، ويتبع في الحواشي النظام الآتي :

عبد المحسن مدعج ، علي بن الفضل ودعوته في اليمن (٢٦٨ - ٣٠٣ هـ) . « العصور » مجلد ٣

جزء ١ ، ١٩٨٨ م . ص ص ٨٣ - ١٠٦ .
الكتب

المقريري . تقي الدين أحمد بن علي النقود القديمة والإسلامية ، تحقيق رأفت محمد النبراوي ، العصور ، المجلد الثالث ، الجزء الأول ١٩٨٨ م . ص ص ١٤٩ - ١٥٣ .

محمود محمد الروسان ، القبائل الثمودية والصفوية : دراسة مقارنة (الرياض : جامعة الملك السعود ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م) . ص ص ٢٥ - ٢٧ .

عاطف وصفي الثقافة والشخصية (القاهرة : دار

المصور

مجلة علمية ، مُحَكَّمة نصف سنوية ، تعنى بنشر البحوث التاريخية والآثرية والحضارية

رئاسة التحرير

الأستاذ الدكتور	عبد الفتاح حسن أبو عليّة
الأستاذ الدكتور	سيد فرج راشد
الأستاذ الدكتور	رأفت محمد النبيراوي
الدكتور	عدنان محمد الحارثي
الدكتور	عبد الله عبد الرحمن الوزرة
المدير المسؤول	عبد الله الماجد

المجلد الثاني عشر
الجزء الأول
يناير ٢٠٠٢م
شوال ١٤٢٢هـ



تصدر عن : دار المريخ للنشر - لندن

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبِّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ الْمَجِيدِ

© دار المريخ للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار المريخ للنشر - الرياض
المملكة العربية السعودية، ص. ب. ١٠٧٢٠ - الرمز البريدي ١١٤٤٣
فاكس ٤٦٥٧٩٣٩، هاتف ٤٦٤٧٥٣١ / ٤٦٥٨٥٢٣
البريد الإلكتروني : email : marspub1@zajil.net
لا يجوز استنساخ أو طباعة أو تصوير أي جزء من هذا الكتاب أو إقتزائه بأية
وسيلة إلا بإذن مسبق من الناشر.

*** ما ينشر في هذه المجلة من مواد تعبر عن آراء أصحابها**

المستشارون

الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح الهلالي ،
قسم التاريخ - جامعة الملك سعود -
الرياض .

الأستاذ الدكتور عبد الله بن يوسف الشبل ، مدير
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
(سابقاً) - الرياض .

الأستاذ الدكتور عرفان شهيد ، جامعة جورج تاون ،
واشنطن دي . سي - الولايات المتحدة
الأمريكية .

الأستاذ الدكتور علي محافظة ، كلية الإنسانية
والدراسات الإسلامية ، الجامعة الأردنية -
المملكة الأردنية الهاشمية .

الدكتور فهد بن عبد الله السماري أمين
عام دار الملك عبد العزيز - المملكة
العربية السعودية

الأستاذ الدكتور محمد زياد كبة ، كلية الآداب -
جامعة الملك سعود - المملكة العربية السعودية .
الأستاذ الدكتور محمد فطر ، مدير مركز الدراسات
البونيقية واللوية ، تونس - الجمهورية
التونسية .

الأستاذ الدكتور محمد عدنان البقيت ، رئيس جامعة
آل البيت - المملكة الأردنية الهاشمية .

الأستاذ الدكتور مصطفى كمال عبد العليم ، قسم
التاريخ ، جامعة القاهرة - جمهورية
مصر العربية .

الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد ، رئيس المجمع
الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ،
عمان - المملكة الأردنية الهاشمية .

الأستاذ الدكتور إبراهيم شيوخ ، المدير العام لدار
الكتب الوطنية ، تونس - الجمهورية
التونسية .

الأستاذ الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو ، مدير
عام مركز الأبحاث للتاريخ والفن والثقافة
الإسلامية ، استانبول - الجمهورية التركية .

الأستاذ الدكتور جمال زكريا قاسم ، أستاذ التاريخ
الحديث ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ،
القاهرة ، جمهورية مصر العربية .

الأستاذ الدكتور خليل إنالجيك ، قسم دراسات الشرق
الأوسط ، جامعة شيكاغو - الولايات المتحدة
الأمريكية .

الأستاذ الدكتور خيرية قاسمية ، قسم التاريخ -
جامعة دمشق - الجمهورية العربية السورية .

الأستاذ الدكتور ريتشارد تشيمبرز ، قسم دراسات
الشرق الأوسط ، جامعة شيكاغو - الولايات
المتحدة الأمريكية .

الأستاذ الدكتور عبد الجليل التميمي ، أستاذ التاريخ
الحديث بالجامعة التونسية ، مركز الدراسات
والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق ،
زغوان ، الجمهورية العربية التونسية .

الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري ، أستاذ التاريخ
الإسلامي ، الجامعة الأردنية ، عمان -
المملكة الأردنية الهاشمية .

الاشتراكات السنوية :

- المملكة العربية السعودية (١٠٠) ريال سعودي
- الدول العربية (٣٥) دولارا أمريكيا أو ما يعادلها.
- الدول الأوروبية (٤٠) دولارا أمريكيا .
- أمريكا وكندا (٤٥) دولارا أمريكيا .
- استراليا وجنوب شرق آسيا (٥٠) دولارا أمريكيا .

تكون جميع المراسلات والاشتراكات لجميع دول العالم
على العنوان التالي :

- دار المريخ للنشر - ص . ب ١٠٧٢٠
- الرياض : ١١٤٤٣ - المملكة العربية السعودية
- دار المريخ للنشر - ٤ ش الفرات - مدينة
المهندسين - جمهورية مصر العربية
- هاتف ٣٣٧٦٥٧٩ فاكس ٧٦٠٩٤٥٧
- الدار العربية للنشر والتوزيع - ٤٩ جولد هوك
رود، لندن - W128QP المملكة المتحدة

المحتويات

القسم العربي

- العصور الحجرية في وادي النيل
د. يوسف مختار الأمين ٧
- شعيب المصانع : قرية تعدينية في منطقة المدينة المنورة (دراسة أثرية)
د. علي بن إبراهيم غبّان ٣٥
- التأديب والتثقيف الموجه نحو الخلفاء العباسيين وأبنائهم في مرحلة ما قبل العهد البويهي (٢٧٩ - ٣٣٤هـ)
د. عبد الرحمن بن علي السندي ٧٩
- نقش تأسيسي عثماني من حي القلعة بالقطيف مؤرخ في عام ١٠٣٩هـ
د. مشلح بن كميخ المريخي ١٠١
- سكان القدس في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي
د. محسن يوسف ١١٣

English Section

- Analysis of Jund Coins Using XRF Techniques
Dr. K. F. Al-Tarawneh, M. M. Al-Kofahi, J. M. Shobaki 9

العصور الحجرية في وادي النيل

د. يوسف مختار الأمين

ملخص البحث:

يشتمل هذا البحث على استعراض لأهم الخصائص الحضارية لفترة ما قبل التاريخ في وادي النيل (مصر والسودان) من خلال تقييم المادة المنشورة من مختلف مصادرها المتنوعة.

ويبدأ البحث بعرض للتاريخ الجيولوجي لنهر النيل وأثر فيضاناته المتكررة على المناخ، وبالتالي على أنماط الاستيطان وموارد الاقتصاد المعيشي لمجتمعات ما قبل التاريخ في المنطقة. وبعد وصف المخلفات الأثرية من أوار ما قبل التاريخ المتعاقبة، تُجرى مقارنة بين مناطق وادي النيل المختلفة بحثاً عن أوجه الشبه والاختلاف بين تلك الحضارات وأسبابها، وكذلك المؤثرات الحضارية الناتجة عن الهجرات والاتصال بين الصحراء والنيل. ويناقش البحث التطورات الحضارية التي حدثت في نهاية الفترة، وكيف أدت بدورها إلى ظهور المدن المركزية في المنطقة.

مقدمة:

تعارف علماء الآثار والتاريخ والجغرافيا على إطلاق مسمى وادي النيل على تلك ذالأرض الواقعة على جانبي نهر النيل من الدلتا في الشمال حتى منطقة الخرطوم بأواسط السودان في الجنوب. ليس معروفاً تماماً الأسباب التي أدت إلى حصر وادي النيل في هذه المنطقة إلا أن الدراسات الأثرية والجغرافية المبكرة لها دور في ذلك، إضافة إلى أن فرعي نهر النيل الرئيسيين، النيل الأبيض والنيل الأزرق يلتقيان في الخرطوم ليكونا مجرى مائياً واحداً. تقسم مصر عادة إلى إقليمين هما: مصر العليا (الوجه القبلي)، ومصر السفلى (الوجه البحري). الأولى تمتد من الشلال الأول حتى الأطراف الجنوبية للدلتا حيث يجري نهر النيل شاقاً أرضاً صحراوية، مكوناً شريطاً ضيقاً من الأرض الزراعية، أما مصر السفلى فتشمل منطقة الدلتا حيث يتفرع النيل إلى عدة أفرع تصب في البحر المتوسط، وتكثر فيها البحيرات والمستنقعات. لقد كان لفيضانات النيل وطبيعة هذه المنطقة أثر واضح في إخفاء مواقع ما قبل التاريخ أو إتلافها، مما سبب مشكلة في معرفة تفاصيل تلك الفترة في هذه المنطقة. ومن جهة أخرى يقسم المؤرخون شمال السودان إلى قسمين، النوبة السفلى وتمتد من الشلال الأول إلى

على تنقل الناس، ومن ثم المؤثرات الثقافية من مناطق البحر الأحمر وشرق المتوسط وهكذا. فالدراسات الأثرية الحديثة أوضحت أن وادي النيل لم يكن منعزلاً أو مغلقاً على نفسه في فترة ما قبل التاريخ، بل إنه شارك تأثراً وتأثيراً في تشكيل الثقافة الإنسانية القديمة في هذا الجزء من العالم. ونسبة لاتصال وادي النيل بالمناطق المجاورة يصبح من الضروري الإشارة من وقت لآخر إلى المكتشفات الأثرية المهمة في الصحراء بغرض المقارنة وإكمال الصورة.

نستمد معرفتنا بعصور ما قبل التاريخ في وادي النيل من تلك الأعمال الميدانية، التي بدأت بوتيرة بطيئة منذ السنوات الأولى للقرن الميلادي الحالي حيث أوضحت أعمال أمثال بوفير - لابيني بالقرب من القاهرة، وساندفورد وأركل في النوبة المصرية والنوبة السودانية وكاتون - طومسون في الفيوم وفيينارد في كوم أمبو خلال الثلاثينيات، وجود آثار دالة على الاستيطان البشري في وادي النيل منذ أقدم عصور ما قبل التاريخ، ثم تلتها حفريات أنطوني أركل في منطقة الخرطوم ومسوحاته الأثرية في كثير من أقاليم السودان^(٤). وعلى الرغم من أن هذه الأعمال أكدت وجود إنسان العصر

الشلال الثاني والنوبة العليا وتمتد من الشلال الثاني حتى الخرطوم جنوباً^(١). ويطلق بعضهم على منطقة الخرطوم وأجزاء من شمال السودان مصطلح وادي النيل الأوسط^(٢). ومهما يكن من الأمر، فلا يوجد سبب مقنع يجعلنا نستثني المنطقة الممتدة من الخرطوم حتى جوبا في جنوب السودان، من وادي النيل.

لا يكتمل التعريف الجغرافي لوادي النيل دون الإشارة إلى أهمية ظاهرة الصحراء وتأثيرها، إذ أوضحت الدراسات الجيولوجية والمسوحات الأثرية أنها كانت مأهولة بالناس خلال معظم حقبة ما قبل التاريخ، وأن المؤثرات الحضارية انتقلت إليها من شمال إفريقيا عبر الصحراء الغربية في فترات متقطعة. كما أن الأودية الرئيسية القريبة من الضفة الغربية للنيل ومناطق الأبيار والواحات أدت دوراً مهماً في التطور الثقافي في وادي النيل في فترة ما قبل التاريخ في المنطقة، وأن تأثيرها المباشر على تسلسل الأدوار الثقافية المتعاقبة فيه بصفة خاصة ثابت ومؤكد^(٣)، أما الضفة الشرقية من النهر فتميزها الأودية الكثيرة المنحدرة من المرتفعات الشرقية. وقد ساعدت الأحوال المناخية والبيئية القديمة

(٣) Wendorf, F. and Schild, R. 1980. *Prehistory of Eastern Sahara*. Academic Press. pp. 1 - 15

(٤) Arkell, A.J. 1975. *The Prehistory of the Nile Valley*, Leiden.

(١) Adams, W.Y., *Nubia Corridor to Africa*. (Allen Lane, 1977). pp. 20 - 24 .

(٢) Haland, R. *Problems in the Mesolithic and Neolithic in the Central Nile Valley, Sudan*. In, *Nubia Culture, Past and Present*, 1987, (ed) Tomas Hagg. Stockholm. pp. 48 - 74.

الحجري القديم في المنطقة إلا أن فترة ما قبل التاريخ عموماً لم تثل اهتمام العلماء في ذلك الوقت، إذ اكتسب وادي النيل أهميته التاريخية باكتشاف حضارة مصر الفرعونية، إحدى أقدم وأثرى حضارات العالم القديم. وقد قلل من أهمية المنطقة في دراسات ما قبل التاريخ ندرة المواقع المكتشفة في ذلك الوقت، حيث يعتقد أنها إما طمرت فيضانات النيل، وإما أنها لم تكن موجودة أصلاً مما جعل بعضهم يقول إن وادي النيل كان متأخراً وراكداً، بل إنه ظل منطقة معزولة لم تساهم بشيء يذكر في تطور ثقافات ما قبل التاريخ في المنطقة^(٥).

إن أهم نقطة تحول في تاريخ العمل الآثارى وزوال مثل هذه الأفكار هي حملة إنقاذ آثار النوبة (١٩٥٩ - ١٩٦٥م) عندما تقرر بناء السد العالي، فعملت في منطقة النوبة أكثر من أربعين بعثة أجنبية بعد النداء الذي وجهته الأمم المتحدة وحكومتا مصر والسودان. ويرجع الفضل الأعظم في دراسة آثار ما قبل التاريخ للبعثة الأمريكية المتحدة بقيادة فريد وندورف وأعضاء آخرين من الأمريكيين والبولنديين والمصريين. وقد كشفت المسوحات والتنقيبات التي قامت بها هذه البعثة مع غيرها من بعثات عن معلومات مثيرة وجديدة عن الأدوار الثقافية في ما قبل التاريخ في المنطقة، إذ اتضح من الوهلة الأولى خصوصية المنطقة وثراء

الحضارات وتنوعها فيها، حيث يرتبط بعضها بما هو معروف في شمال إفريقيا ويعرف بعضها الآخر لأول مرة. وقد لفت الانتباه لمساهمة بلاد النوبة في التنوع الثقافي الذي عرفته منطقة شمال إفريقيا خلال الجزء الأخير من عصر البلايستوسين الجيولوجي، خلافاً لما كان يظن أنها تعاني ركوداً وعزلة ثقافية. وثقت البعثة الأمريكية المتحدة أكثر من عشرين تقليداً في صناعة الأدوات الحجرية المتميزة وضعت في تسلسل زمني يمتد من الدور الأشولي وحتى نهاية العصر الحجري الحديث. لقد اتخذت أعمال هذه البعثة طابع الشمولية بإجرائها الأبحاث الجيولوجية والبيئية جنباً إلى جنب مع التنقيب الأثري، إضافة إلى جمع المعلومات عن أنماط الاستيطان البشري القديم، والكثافة السكانية وأنماط الاقتصاد المعيشي. وقد كانت الوحدة الأساسية في تحليل المادة الأثرية هي أن كل مجموعة من الأدوات والمعثورات تربطها خصائص تقنية ونوعية عبر فترة زمنية محدودة، تمثل في رأي الباحثين مخلفات مادية لثقافة مجموعة بشرية معينة، ونتيجة ذلك أطلق العديد من الأسماء على الصناعات الحجرية التي تمثل هذه الثقافات وهي أحياناً من منطقة جغرافية محدودة جداً مما جعل احتمالات التجزئة غير الضرورية أمراً ممكناً^(٦).

إن أهمية أعمال حملة إنقاذ آثار النوبة لا

Caton - Thompson, G. 1952. **Kharga Oasis** (٥) in **Prehistory**. Althone Press. pp. 57 - 58.

Wendorf, F. 1968. **The Prehistory of Nubia**. (٦) 2 vol. Introd. Wendorf, F. and Schild, R. 1976. **Prehistory of the Nile Valley**. p. 237.

البريطاني في شرق إفريقيا ونشرت نتائجها في عام ١٩٨٢م^(٨). وهكذا فإن معلوماتنا عن هذه الفترة تظهر محدودة للغاية عن الجزء الجنوبي من السودان.

التاريخ الجيولوجي لنهر النيل والبيئة القديمة:

يمثل نهر النيل، أطول أنهار العالم، شريان الحياة وعصبها في مصر والسودان، ليس في الوقت الحاضر فقط، وإنما على امتداد تاريخ استيطان البشر على ضفتيه. فالنيل هو مصدر المياه الدائم للإنسان والحيوان. وفي انحداره من الهضبة الأثيوبية يجلب معه الطمي لتخصيب الأرض على ضفتيه مما جعلها صالحة للزراعة مصدر الاقتصاد المعيشي الأساسي للسكان منذ آلاف السنين وقد ربط بين الشمال والجنوب لأنه كان الوسيلة الوحيدة المتوفرة للنقل، وحوله تشكلت حياة الإنسان وقامت الفنون والأساطير ولا يستطيع المرء استيعاب التاريخ الحضاري للمنطقة دون النظر في مزايا نهر النيل وعطاياه. والإنسان عاش في وادي النيل منذ عشرات الآلاف من السنين قبل ظهور الحضارة المصرية القديمة.. فما هو تأثير نهر النيل على إنسان ما قبل التاريخ؟ ومتى شق النيل مجراه الحالي؟.

طرح علماء الآثار والجيولوجيا مثل هذه

تقتصر على النتائج العملية التي حققتها في المنطقة، بل إنها لفتت انتباه العلماء إلى أهمية المنطقة كلها في دراسات ما قبل التاريخ وبالفعل وفد إلى مصر والسودان العديد من البعثات الأجنبية لتجري أبحاثاً أكثر عملية ودقة في مناطق جديدة مختارة لمعالجة قضايا علمية معينة^(٧). أما البعثة الأمريكية فقد نقلت أعمالها إلى الصحراء المصرية ومنطقة الأبيار وعلى امتداد وادي النيل في جنوب مصر، وفي الفيوم، كذلك عمل فرع منها لفترة محدودة في دنقلا بشمال السودان وخشم القرية على نهر عطبرة (شكل ١). واستمر عملها لأكثر من خمس وعشرين سنة تبحث في ثقافات العصور الحجرية وبخاصة المتأخرة منها التي تشكل أساساً موضوعياً لظهور الحضارة المصرية القديمة، وكانت حصيلة المنشورات من أعمالها نحو ستة عشر كتاباً وعشرات المقالات إضافة إلى عدد كبير من أبحاث رسائل الدكتوراه والماجستير. ومن جهة أخرى تجمع عدد من البعثات الأجنبية التي كتفت أعمالها في منطقة الخرطوم وشرق السودان وشماله مما جعل وادي النيل اليوم يعد من أكثر أودية الأنهار في العالم حظاً في بحوث فترة ما قبل التاريخ، ما عدا ما قامت به بعثة واحدة نظمها المعهد

(٨) Mack, J. and Robertshaw, p. 1982. Culture History in the Southern Sudan. BIEA, Nairobi.

(٧) محمد علي، عباس سيد أحمد، والأمين، يوسف مختار ١٩٩٢م، مشروع البطانة الأثري - شرق السودان في: دراسات في الآثار، (تحرير)، عبد الرحمن الطيب الأنصاري، الرياض، ص ص ٦٥-٩٩.

والطبيعي الذي يمكن للمرء أن ينظر من خلاله إلى تعاقب الأدوار الثقافية في فترة ما قبل التاريخ، ذلك أن تركيب البيئة والمناخ القديمين ساعد في تفسير بعض أوجه الشبه والاختلاف بين مجاميع الأدوات الحجرية من العصر الحجري القديم الأوسط على سبيل المثال^(١٠).

تختلف هذه الدراسات حول قضية قدم النهر كمجرى مائي تتجمع مياهه من منابعه المعروفة اليوم في وسط وشرق إفريقيا، وكذلك حول تحديد التكوينات الطبيعية الدالة على تطور النهر وتاريخ هذه التكوينات. فهناك رأي يقول إن النهر بدأ في حفر مجراه الحالي تقريباً منذ نحو ربع مليون سنة، كما تشير الرسوبيات الطميّة من أصل أثيوبي في تكوين دندرة، وإن النيل تقطع بعد ذلك ولم يأخذ مجراه مرة أخرى إلا بعد حلول العصر الحجري القديم الأوسط نحو ٦٠٠٠٠ ق.م. والرأي الآخر يقول إن النهر اتخذ أشكالاً متعددة، تأتيه المياه أحياناً من الأمطار المحلية إضافة إلى المنابع الأثيوبية بعد التاريخ المذكور مباشرة. وتتضارب الآراء كثيراً عندما يحاول العلماء الربط بين الفيضانات الكبيرة والأحوال المناخية المحلية، وعندما يبحثون في المصاطب، أو التكوينات الرسوبية العالية، التي تمتد أحياناً

الأسئلة منذ وقت طويل، فقد شاهدوا المصاطب ذات المستويات المختلفة على ضفتي الوادي ووجدوا في طبقات بعضها الأدوات الحجرية من عصور مختلفة، كما شاهدوا ترسبات الأودية التي تصب في النيل. لم تكن الملاحظات المبكرة هذه ذات شمولية أو طبيعة علمية محددة. ولكن ما حدث خلال حملة إنقاذ آثار النوبة وما بعدها أوضح الكثير من التاريخ الجيولوجي للنهر، فقد تم حفر العديد من المواقع وربطها بالتكوينات الجيولوجية كما درست مقاطع مختارة من الرسوبيات الطميّة ورسوبات الأودية وتمت مقارنتها لتحديد أعمارها ومدلولاتها المناخية. وعلى الرغم من صعوبة هذه المقارنات واحتمالات الخطأ فيها فقد نشرت أبحاث وافية حول تاريخ النهر والمناخ القديم، إذ كان أحد أهداف العمل الآثارى ربط الاستيطان البشري بأحوال البيئة وما تتيحه من موارد طبيعية صالحة للإنسان والحيوان. ويكفي هنا الإشارة إلى أهم هذه الدراسات مثل ما نشره داينزلن ١٩٦٨م، بتزر وهانسن ١٩٦٨م، رشدي سعيد ١٩٧٥م، بهي العيسوي ١٩٧٦م، ونسورف وشيلد ١٩٧٦م، وفيرمش ١٩٨٧م^(٩). إن أول نتيجة إيجابية لهذه الدراسات كانت توفر الإطار البيئي

(٩) لتفاصيل هذه الأعمال، انظر:

Paulissen, e. and Vermeerch, p. 1987. Earth, Man and Climate in the Egyptian Nile Valley during the Pleistocene in: *Prehistory of Arid North Africa*, (ed) Close, A, pp. 29 - 67.

Elamin, Yousif. M. 1981 *Later Pleistocene Cultural Adaptations in Sudanese Nubia*, BAR 114. pp. 37 - 53.

عليه حول المناخ القديم لأنه يمس طبيعة الاستيطان البشري على ضفتي النهر مباشرة، فخلال الفترة المبكرة من العصر الحجري القديم الأسفل والتي تمثلها الحضارة الأشولية شهدت المنطقة ثلاث فترات مطيرة وجدت أدلتها الجيومورفولوجية في منطقة الأبيار نحو ٣٠٠ كم غرب أبو سمبل وتتخللها فترتان جافتان يصعب تحديد مدتهما كما يصعب مقارنتهما بما وجد بالقرب من وادي النيل. وعلى الرغم من قلة الشواهد الدالة على مناخ هذه الفترة فإن انتشار مواقع العصر الأشولي على ضفاف الأودية وأطراف الجبال بعيداً عن النهر وفي أجزاء من الصحراء الغربية مؤشر مقبول لجودة الأحوال المناخية مما مكن الإنسان من العيش في تلك المناطق. وبحلول المرحلة الثقافية التالية في العصر الحجري القديم الأوسط تأسس نهر النيل جالباً مياهه من شرق ووسط أفريقيا، وأصبحت تتجمع التكوينات الطميية عقب الفيضانات الرئيسية للنهر. وقد تم اكتشاف مواقع أثرية من هذه الفترة داخل طبقات الرسوبيات في منطقة وادي حلفا وفي أوساط مصر. ومن جهة أخرى تنتشر مواقع العصر الحديث أيضاً في أطراف الصحراء والأودية القريبة من النهر، ويبدو أن الناس كانوا يستغلون ظروف المناخ الرطب - الممطر وبيئة سهل السافانا. وهكذا فالناس

لمسافات على طول الوادي، فبعضهم يرى أنها تقابل فترات امتداد الجليد في المناطق الشمالية، أما عندما ينخفض مستوى مياه النهر لسنوات قد تطول أو تقصر فذلك يقابل الفترات الدافئة التي تقع ما بين كل عصر جليدي وآخر. ويرى بعضهم أن النيل كوّن هذه المصاطب عندما كان ضعيفاً بحيث لم يتمكن من إكمال جريانه حتى الدلتا وأن أولها تكون منذ أكثر من ٣٠٠٠٠ ق.م. ثم نحو ٢٠٠٠٠ ق.م. تمكن النهر من حفر مجراه مرة أخرى واستمر في جريانه حتى الدلتا. وبحلول العصر الحجري القديم المتأخر تكوّن ما يسمى بمصاطب الصحابة - دراو ومسمس واستمر ذلك حتى حوالي ١٠٠٠٠ ق.م. حيث زاد اندفاع النهر مرة أخرى بعد ذلك، وهي الفترة التي ظهرت فيها أقدم مستوطنات العصر الحجري الحديث في المنطقة. وفي دراسات جيولوجية / أثرية في منطقة وادي الكيانية جنوب مصر، أجريت لاحقاً اقترح الباحثون أن نموذج الفيضان الكبير الذي يعقبه انحسار واضح في مستوى النهر وانتشار الرمال ثم فيضان آخر كبير غير صحيح. بل يعتقدون بحدوث ارتفاع هائل لمستوى النهر تخللته انخفاضات بسيطة^(١١).

ومهما يكن من أمر تفسير هذه الظواهر الطبيعية فلا بد من الإشارة إلى ما هو متفق

(١١) Wendorf, F. and Schild, R. 1989. The Prehistory of Wadi Kubbania, Vol. 2. SUM Press. pp. 89 - 100.

التنافس المؤدي إلى الاقتتال على الموارد المحلية كما يدل على ذلك ما اكتشف في جبانات جبل الصحابة في النوبة السودانية إذ إن كثيراً من الأفراد ماتوا متأثرين بإصابات رؤوس أسهم حجرية^(١٤).

في عصر الهولسين الجيولوجي عندما ازدهرت في المنطقة ثقافات العصر الحجري الحديث يجد المرء نمطاً جديداً لدورات المناخ في المنطقة. فبعد آخر فيضان كبير للنيل أدى إلى ترسيب تكوين عنيبة وانتهى نحو ٦٠٠٠ ق.م.، أصبحت الفيضانات النهرية سائدة على النمط السنوي المعروف اليوم تقريباً، ويلاحظ من توزيع مواقع العصر الحجري الحديث أنها تتركز على ضفاف النهر أو بالقرب من الأودية التي تصب فيه. وفي السودان يتسع مثل هذا التوزيع ليشمل سهل البطانية، الممتد نحو الشرق، وفي أواسط وغرب البلاد. وكما هو متوقع تتنوع وتتباين الأحوال البيئية من منطقة لأخرى وأصبح المناخ المحلي يؤدي دوراً مهماً في عمليات الاستيطان. وشهد عصر الهولسين فترتين مطيرتين رئيسيتين تتخللهما فترات جفاف يزيد أو يقل أثرهما من مكان لآخر. وكما تشير الأدلة الأثرية فإن الإنسان اتجه منذ أواخر العصر الحجري القديم نحو التركيز على استغلال بيئات تسمح

يستغلون منطقة النيل عندما تكون الظروف الطبيعية مواتية عند انخفاض منسوب النهر وتكون المياه متوفرة بالبرك والأودية القريبة منه، حيث يمكن صيد الأسماك ضمن موارد مائية أخرى ويلجأون إلى أطراف الصحراء في حالة هطول الأمطار وتحسن ظروف المناخ المحلي^(١٢).

عندما ظهرت ثقافات العصر الحجري القديم الأعلى نحو ٣٠٠٠٠ ق.م بدأت مرحلة جفاف، شدتها تزداد بمرور الوقت، فالتكوينات الرسوبية تخلو من مترسبات الأودية الدالة على الأمطار المحلية إضافة إلى شواهد جيولوجية أخرى، ولم تتحسن الأحوال إلا في فترات قصيرة والأمر نفسه ينطبق على الصحراء المصرية، حيث بدأ الجفاف يعم بنهاية العصر الحجري القديم الأوسط، ولم تتحسن الأحوال المناخية فيها إلا في مرحلة الانتقال إلى مرحلة العصر الحجري الحديث. كما هي الحال في منطقة نبطة وبئر قصيبة في مصر^(١٣). إن موجات الجفاف في نهاية العصر الحجري القديم الأعلى أدت بطبيعة الحال إلى هجرات بشرية نحو النيل، المورد المائي الدائم، مما كان له الأثر الواضح في التمازج الثقافي، بحلول مجموعات سكانية نوات تقاليد ثقافية متنوعة في منطقة واحدة، لم تخل الفترة من

Wendorf, F. 1968. *The Prehistory* Vol. 2. (١٤) pp. 954 - 982.

Wendorf, F. and Schild, R. 1989. *Wadi Kubbania*, Vol. 2. p. 96.

Wendorf, F. and Schild, R. 1976. *Prehistory of Nile Valley*. pp. 236 - 245.

بالاستقرار في أمكنة معينة لفترات أطول وتدل المخلفات على الوفرة الطبيعية النسبية، واستمر الناس في هذا الاتجاه حتى تحقق لهم إنتاج القوت متمثلاً في الزراعة وتربية الحيوان وغيرها من نشاط في ما يطلق عليه العصر الحجري الحديث.

تعاقب الأدوار الثقافية في فترة ما قبل التاريخ:

استناداً إلى الإطار البيئي، السابق الذكر يمكننا الآن النظر في تسلسل أدوار فترة ما قبل التاريخ في المنطقة^(١٥). وكعادة العاملين في هذا المجال فقد كانت الأدوات الحجرية وما يوجد معها من مواد أخرى، وهو الشيء القليل، تشكل المحور الأساسي للتصنيف الثقافي الذي يقومون به، وفي حالة وادي النيل يزداد الأمر صعوبة بالنسبة إلى الباحثين لأن مواقع ما قبل التاريخ، وبخاصة المبكرة منها، وجدت على السطح حيث تأثرت الأدوات بعوامل التعرية كما تلفت البقايا العضوية. ونتيجة ذلك أصبح تصنيف الأدوات، نوعاً وشكلاً، هو الأساس الذي بُنيت عليه التقسيمات الثقافية في المنطقة. وقد استخدم الباحثون وسائل التصنيف المجربة في أوروبا أو الشرق الأدنى، وقد تظهر بعض المشكلات عندما تكون المادة الأثرية متفردة ولا تتناسب مع التقسيم الثقافي

أو الأنماط المعهودة في تلك المناطق. ومهما حدث من اختلاف في وجهات النظر فإنه من الممكن تقديم موجز لأهم المميزات الثقافية لهذه الفترة انطلاقاً من وصف التقاليد المتبعة في صناعة الأدوات الحجرية، فما يوجد في مكان واحد من أدوات وغيرها من معثورات، ويحمل صفات تقنية ونوعية مشتركة، ويكثر وجوده في مواقع أخرى في المنطقة نفسها، يطلق عليه عادة مصطلح "صناعة" وهي، كما أشرنا، تمثل البقايا المادية لثقافة مجموعة من الناس عاشت في فترة ما من فترات ما قبل التاريخ في رأي من قاموا بالعمل الميداني في بلاد النوبة على وجه التحديد.

العصر الحجري القديم:

يقسم هذا الدور الثقافي عادة إلى ثلاثة أقسام رئيسة هي الأسفل، والأوسط والأعلى. وبالرغم من أن السجل الأثري في وادي النيل قد لا يطابق هذا التقسيم كما هو معروف في أوروبا أو غيرها إلا أن العاملين في آثار وادي النيل فضلوا استخدام هذه المصطلحات مع إبداء ملاحظاتهم عن التميز والتنوع في هذه المنطقة^(١٦).

أ- العصر الحجري القديم الأسفل:

يعود تاريخ أقدم أدوات حجرية من صنع الإنسان وغيرها من شواهد على بواكير

= أعمال أخرى كثيرة لم يشر إليها مباشرة نسبة لضيق الحيز وطبيعة المقال نفسه.

(١٦) Wendorf, F. 1968. The Prehistory of Nubia. Vol. 1. pp. 3 - 18.

(١٥) يعتمد استعراض تسلسل ثقافات ما قبل التاريخ في وادي النيل في هذا المقال على نتائج الأبحاث الميدانية الرئيسية والمهمة. وهناك بطبيعة الحال =

المبكرة المسماة الألدوانية، وإنما وُجد العديد من المواقع الأشولية على طول وادي النيل وفي الصحراء المصرية، وكذلك في أجزاء من غرب السودان، وفي منطقة خشم القربة على نهر عطبرة بشرق السودان (شكل ١). والملاحظة الثانية تتعلق بعدم تمكن العلماء من الحصول على تاريخ علمي مؤكد لأي من المواقع الأشولية في وادي النيل، لذا فإنهم قدروا عمرها بالمقارنات الشكلية للأدوات ومقارنة الطبقات الرسوبية التي وجدت فيها. وصعوبة الحصول على تاريخ مؤكد هي الأمر الغالب لأن معظم هذه المواقع كانت على السطح أو منقولة بواسطة العوامل الطبيعية من أمكنتها الأصلية.

وإذا كانت المواقع الأشولية في مصر موجودة بكثرة في الصحراء والواحات والأبيار فإن القليل منها قد اكتشف بالقرب من نهر النيل، ومن ذلك مثلاً ما اكتشف في أوائل هذا القرن في العباسية وما وصفه ساندفورد وأركل من جنوب مصر وبلاد النوبة حيث حاولا رصد تسلسل الصناعات الأشولية وربطها بالمصاطب القريبة من النيل. أما المسوحات الأثرية الحديثة فقد كشفت العديد من المواقع الأشولية في أواسط مصر حيث أمكن ربطها بتاريخ نهر النيل^(١٧). وتنتشر الأشولية أيضاً في شمال السودان وبصفة خاصة في منطقة وادي حلفا حيث أجريت المسوحات المكثفة. ومن هذه

الثقافة إلى نحو مليونين وربع من السنين. وقد وجدت هذه الشواهد محصورة في الأجزاء الشرقية والجنوبية من القارة الإفريقية. وتقسم الصناعات الحجرية في هذا الدور إلى جزعين، الأول يسمى الألدواني، ويشتهر بالأدوات الحصوية الثقيلة التي شذبت بطريقة بدائية بسيطة، إضافة إلى شظايا وكسر الحجارة التي تبدو عليها آثار الاستعمال دون تشذيب يذكر. أما الثاني، وهو الأحداث عمراً، فيسمى الصناعة الأشولية، التي تميزها الفؤوس اليدوية جيدة التشذيب من على وجهي الأداة، وذات الرأس المدبب، وهي تصنع في أحجام وأشكال مختلفة. فهذه مع غيرها من أدوات تمثل تطوراً ملحوظاً في تقنية أدوات تلك الفترة، كما تمكن الإنسان في الوقت نفسه من اكتشاف النار واستغلال بيئته بصورة مناسبة. والأشولية ظهرت لأول مرة في شرق إفريقيا نحو مليون ونصف سنة مضت. وبالنظر إلى موقع مصر والسودان في الجزء الشمالي من القارة وفي ضوء المكتشفات آنفة الذكر وما وجد من شبيه لها في شرق المتوسط في حدود المليون سنة، فإنه لمن المتوقع أن يكون الإنسان قد ارتاد منطقة وادي النيل في حوالي التاريخ نفسه، لأن هذه المنطقة تمثل أحد المعابر الطبيعية للإنسان من إفريقيا إلى آسيا. ومما يجدر تقريره ملاحظتان، الأولى هي أنه لم يعثر على دليل قاطع لوجود أدواته من المرحلة

Wendorf, F. and Schild, R. 1976. Prehistory (١٧) of Nile Valley. p. 235.

على وجود الأشولي بوادي النيل إلا أن معلوماتنا عن هذه الفترة تبقى شحيحة للغاية مقارنة بالمناطق المجاورة.

العصر الحجري القديم الأوسط:

كشفت التنقيبات والمسوحات الأثرية، إبان حملة إنقاذ آثار النوبة وما بعدها من أعمال ميدانية عن الكثير من مواقع هذا الدور الثقافي في كل من مصر والسودان، مما أتاح قدراً كبيراً من المعلومات أدت إلى مراجعة الآراء التي طرحها أمثال ساندفورد وأركل عن تطور صناعات هذه الفترة في وادي النيل، وآراء كاتون - طومسون عما اكتشفته في واحة الخارجة، حيث وجدت التقنية اللفالوازية المعروفة في أوروبا وغرب آسيا، كما أن الأدوات أصبحت تصنع أكثر فأكثر على الرقائق والشظايا وبدرجة عالية من التشذيب ونمطية واضحة، مما يوحي بقدرات ذهنية أكبر عند إنسان تلك الفترة مكنته من تشكيل أسلحته بصورة أفضل، ومن ثم السيطرة على بيئته. ولكن هناك الكثير من المواقع في سفوح الجبال تحوي الأدوات. وعلى الرغم من وجود بعض الاختلافات بين ما وُجد في وادي النيل وفي أوروبا أو آسيا من أدوات تنتمي إلى هذه الفترة فإن العلماء وجدوا ما يكفي لجعل وادي النيل ضمن الدائرة الحضارية التي تشمل حوض المتوسط وغرب آسيا

المواقع يجدر ذكر موقع أرقين ٨، وهو من المواقع ذات الدلالات المهمة حول الاستيطان المبكر، إذ كشفت فيه عن ثمانية أكوام تتوزع فوقها الأدوات، وعلى مساحة قدرها ٥٠٠ متر مربع تقريباً. وقد وجدت فيه كمية من الأحجار المرصوفة في شكل دائري ربما تكون بقايا كوخ مما يُعد شاهداً على أن الموقع كان معسكراً لإقامة الصيادين في ذلك الوقت. ومن الأدوات الرئيسة وجدت الشظايا الكبيرة والقواطع والأقراص والفؤوس اليدوية نوات الأشكال المتنوعة إضافة إلى أدوات أخرى صغيرة الحجم مصنوعة من الشظايا. وفي النوبة السودانية، والمرتفعات بعيداً عن ضفة النهر، وأمكن تصنيفها إلى عدة أنواع تشير إلى تطور تقني ونوعي استغرق وقتاً طويلاً مما يوحي بأن المنطقة أصبحت مأهولة بالصيادين لفترة طويلة^(١٨). وقد لاحظ أنطوني أركل من قبل، هذا الاستمرار في الاستيطان عندما نقب في موقع خور أبو عنجة جنوب أم درمان بالقرب من نهر النيل، حيث وصف تسلسلاً لطبقات جيولوجية إحداها مكونة من مترسبات فرع لنهر قديم يسبق النيل الحالي، وفيها تم الكشف عن كمية كبيرة من الأدوات الأشولية تميزها الفؤوس اليدوية المتعددة الأشكال والأحجام. وقد وجد أركل بعض السمات التقنية المعروفة في أواسط القارة الإفريقية. وبما أن هذه الأمثلة تدل بوضوح

Wendorf, F. (ed.) 1968. a.. The Prehistory of (١٨) Nubia Vol. 1. pp. 110 - 193.

وأوروباً^(١٩). ومن النتائج المهمة للدراسات الحديثة أيضاً أن هذه الصناعات، بالرغم من تنوعها تمثل امتداداً طبيعياً للأشولية التي سبقتها. وبحلول هذه الفترة تمكن الإنسان من التكيف مع البيئة النيلية التي أصبحت جزءاً من دورة الحياة والاقتصاد المعيشي، إذ إن بعض الصناعات مثل صناعة خور موسى بالقرب من وادي حلفاء، وجدت في مواقع قريبة من النهر، وكشف فيها عن مخلفات عظمية تشير إلى أن الناس استفادوا من سهل السافنا حيث تتوفر الحيوانات الكبيرة مثلما استفادوا من الأسماك وغيرها من الموارد المائية في الوقت نفسه^(٢٠). وهناك من الصناعات من الفترة نفسها ما يقتصر وجوده على أطراف الصحراء والهضاب القريبة من النيل. ومن جهة أخرى، أوضحت هذه الدراسات أن ثقافة العصر الحجري القديم الأوسط بتقنياتها المختلفة استمرت في وادي النيل لفترة طويلة بعد أن اختفت من أمكنة كثيرة في الشرق الأدنى. وكما سيأتي ذكره فإننا نجدها أحياناً جنباً إلى جنب مع تقنيات العصر الحجري القديم الأعلى وأنها تستمر في شكل معدّل حتى نهاية هذا الدور الثقافي من فترة ما قبل التاريخ.

توجد أكثر مواقع هذه الفترة في أواسط مصر وجنوبها والنوبة السودانية، إضافة إلى

الصحراء المصرية، ويعرف القليل عنها في بقية شمال السودان حيث تم الكشف عن عدد محدود منها في منطقة دنقلا^(٢١). وقد لوحظ انتشار مثل أدوات هذه الفترة على السطح في كثير من بقاع السودان، إذا وجدت بعض الأدوات اللفالوازية في جنوب النيل الأزرق. ولكن السمة العامة هي قلة المعلومات عن هذه الصناعات في أواسط السودان لأنه لم تجر الأبحاث الميدانية الكافية بعد، ولا توجد تواريخ عملية مؤكدة لمعظم مواقع العصر الحجري القديم الأوسط، بل تؤرخ على أساس مقارنة الأدوات ومقارنة الظواهر الجيومورفولوجية المرتبطة بها. وقد أمكن الحصول على تواريخ كربون ١٤ لمواقع صناعة خور موسى التي تعد الآن ضمن صناعات هذه الفترة، فأتضح أنها تعود إلى فترة أقدم من ٣٥٠٠٠ ق.م. ومن الأمثلة الجديرة بالذكر من هذه الصناعات ما اكتشف مؤخراً في أواسط مصر في منطقتي أبيدوس وسوهاج، حيث تم الكشف عن بعض المواقع التي كانت متصلة بنظام نهر النيل، ووجدت الأدوات والمخلفات الأخرى في أمكنتها الأصلية، ولا تختلف هذه المجاميع الحجرية عن مثيلاتها في المنطقة، إذ تظهر فيها بوضوح التقنية اللفالوازية. وتنتشر مواقع هذه الفترة أيضاً في النوبة حتى الشلال

Marks, A.E. The Khormusan Industry. In the (٢٠) Prehistory pp. 315 - 391.

ElAmin, Yousif. M. 1981, Pleistocene (٢١) Cultural Adaptations... pp. 101 - 118.

Marks, A.E. 1968. The Mousterian (١٩) Industries of Nubia. In Wendorf, F. (ed) The Prehistory ... pp. 149 - 314.

السثاني كما وجدت مجموعة منها في وادي الكبانية إلى الغرب من أبي سمبل^(٢٢).

وفي النوبة السودانية كشف عن عدد من الصناعات الحجرية ذات السمات الخاصة بهذه المنطقة، أطلق عليها صناعة العصر الحجري القديم الأوسط النوبية، ولوحظ، فيها تقنية ذات صبغة محلية تتمثل في تشكيل بعض أنواع النوى غير المعروفة من قبل كما وجدت فيها أنواع من الأدوات المعروفة من الفترة نفسها في شرق إفريقيا ووسطها، مما يشير إلى احتمالات الاتصال الثقافي مع داخل القارة. إن أهم ما هو معروف في النوبة السودانية هو ما يسمى بالصناعات المoustيرية النوبية، التي أخذت اسمها من المoustيرية الأوروبية. وتشير نتائج حملة إنقاذ آثار النوبة إلى نوعين أساسيين من هذه الصناعة، أولهما المoustيري النوبي، وثانيهما المoustيري ذو الأدوات المسننة، وهذا اسم مستعار أيضاً من المصطلحات الأوروبية. لقد بُنيت هذه التقسيمات على أساس التصنيف النوعي والتقني على نحو ما تم في دراسة الصناعات المoustيرية في أوروبا والشرق الأوسط.

والمادة الأثرية النوبية وجدت كلها فوق السطح في الجبال القريبة من النهر، ولا

يتعدى عدد المواقع التي تمت دراستها أحد عشر موقعاً. وقسم المoustيري النوبي إلى نوعين (أ، ب) على أساس وجود أو غياب الرؤوس اليدوية في كل منهما، وتشمل المجموعة (أ) ستة مواقع بينما تشتمل المجموعة (ب) على ثلاثة مواقع فقط. تتميز الأدوات في المجموعة (أ) بكثرة الأنواع المoustيرية المعروفة مثل المكاشط والمسننات والسكاكين، ولكنها تختلف عن مثيلاتها في أوروبا بغياب الرؤوس اللفالوازية المعروفة. أما المoustيري ذو الأدوات المسننة فإنه يستخدم التقنية اللفالوازية كالمoustيري النوبي إلا أن نسبة الأدوات المسننة فيه عالية جداً. لقد كان من المعتقد أن هذه الصناعات تمثل مخلفات لمجموعات بشرية ذوات تقاليد ثقافية مختلفة وهو التفسير نفسه الذي قدم من قبل في حالة الصناعات المoustيرية في جنوب غرب فرنسا^(٢٣). وفي دراسة مفصلة لاحقة، تخطت التصنيف الشكلي للأدوات إلى اعتماد عناصر أخرى دقيقة، أمكن الحصول على تقسيم مغاير لهذه المادة، واقتراح نموذج تحليلي يرجع ظاهري الشبه والاختلاف، إلى تنوع في مستويات التكيف البيئي، واختلاف في وظائف المواقع نفسها وما وجد فيها من معثورات^(٢٤).

Marks, A.E. 1968 The Mousterian Industries of Nubia in Wendorf, F. The Prehistory....Vol. 1. pp. 194 - 314.

Elamin, Yousif. M. 1981. Pleistocene Cultural Adaptations pp. 184 - 185.

Wendorf, F. and Schild, R.1989. Prehistory ... p., 251.

نقطة شمالية لها هي وادي الكبانية في جنوب مصر^(٢٦).

وأوضحت دراسة أخرى أن صناعة خور موسى معاصرة للموستيري النوبي وأن الاثنين معاً يعودان للمجموعة البشرية نفسها التي عاشت في منطقة وادي حلفا في الفترة ما بين ٦٠٠٠٠ و ٣٠٠٠٠ ق.م. تقريباً. إن الاختلاف في أمكنة وجود المواقع وفي محتوياتها يرجع أساساً إلى تنوع في البيئة من تغير في المناخ وتغير في منسوب النهر مثلما يرجع الاختلاف في أشكال الأدوات إلى الاختلاف في استراتيجيات التكيف البيئي والوظائف، المتمثل في التنقل الموسمي بين السهل الفيضي (مواقع خور موسى) وبين سهل السافنا (مواقع الموستيري النوبي). وهكذا فإن وادي النيل شهد في فترة العصر الحجري القديم الأوسط عدداً من الصناعات الحجرية ذوات تقاليد تقنية متنوعة بعضها متزامن وبعضها الآخر متعاقب زمنياً. وكلها تمثل مؤشراً على التطور الثقافي في هذه الفترة على الرغم من صعوبة تحديد تفاصيله الدقيقة^(٢٧).

ج- العصر الحجري القديم الأعلى:

شهدت هذه الفترة في الشرق الأدنى وأوروبا، ضمن مناطق أخرى من العالم

ينسب اليوم إلى هذا الدور الثقافي نفسه ما يعرف بصناعة خور موسى التي عرقها أول مرة أنطوني ماركس عندما درس المادة الأثرية من سبعة مواقع بالقرب من وادي حلفا. وقد وصفها في البداية بأنها صناعة متميزة تأتي بعد العصر الحجري القديم الأوسط، وذلك اعتماداً على تفسير خاطئ لأمكنة بعض المواقع في التسلسل الطبقي لترسبات النيل، ولأخطاء علمية في تحديد تواريخ كربون ١٤ التي أمكن الحصول عليها في ذلك الوقت. إن صناعة خور موسى تعتمد على تشكيل الأدوات على الشظايا أساساً، وتميزها ثلاثة أنواع فإن صناعة خور موسى تشبه، إلى حد كبير، صناعات العصر الحجري القديم الأوسط. ولقد وجدت مواقعها على أطراف السهل الفيضي، مما مكن أصحابها من التمتع بما توفره البيئة النيلية والصحراوية في آن واحد^(٢٥).

لقد تمت مراجعة تاريخ صناعة خور موسى، وأصبحت الآن تؤرخ إلى أكثر من ٤٠٠٠٠ ق.م. كما أعيدت دراسة الأدوات الحجرية على أسس جديدة فأتضح أنها تمثل وجهاً آخر من وجوه صناعات العصر الحجري القديم الأوسط. وهي عموماً صناعة محصورة في منطقة وادي حلفا وأقصى

Wendorf, F. and Schild, 1976. *Prehistory of the Nile Valley*. P. 236 - 239.

ElAmin, Yousif, M. 1981. *Op. Cit.* pp. (٢٧) 195 - 202.

Marks, A. C. 1968. *The Khormusan Industry*. (٢٥) In Wendorf, F. *The Prehistory ...* vol. 1. pp. 315 - 391.

القديم، تحولات ثقافية مهمة مست كل أوجه حياة الإنسان الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، مما جعل الباحثين يعتبرونها، والجزء المتأخر منها بصفة خاصة، فترة تهيئة حقيقية للنقلة الحضارية الكبرى التي حدثت في حياة الإنسان عندما تمكن من إنشاء القرى الزراعية الدائمة، ثم تأسيس المدن القديمة نوات النظم السياسية والاجتماعية المعقدة بعد ذلك. فالمكتشفات الأثرية في مواقع العصر الحجري القديم الأعلى تدل على ثراء في المخلفات المادية كالأدوات الحجرية والعظمية والفنون المختلفة كالرسوم الجدارية الملونة والنقش والنحت وتشكيل أدوات الزينة، كذلك تمكن الإنسان من ارتياد مناطق جديدة واستغلال ما فيها من موارد بطريقة سمحت له بتوفير كميات من الغذاء الطبيعي يكفي الأعداد المتزايدة نسبياً من البشر، التي تشير إليها أعداد المواقع الأثرية وأحجامها. وهناك ما يدل أيضاً على انطلاقة كبرى في الجوانب الفكرية والروحية لدى الإنسان. وقد كانت منطقة الشرق الأدنى أحد المراكز المبكرة التي ظهرت فيها هذه الخصائص الثقافية؛ بل إنها أول ما ظهرت كانت بمنطقة فلسطين في نحو ٤٢٠٠٠ ق.م. إن أول سمات التغير نجدها في الطريقة التي تشكل بها الأدوات الحجرية، إذ تمكن الإنسان من التخلي تدريجياً عن النواة اللفالوازية التي شكل منها الشظايا وحولها إلى نواة شبه هرمية ذات

قاعدة طريق واحدة يكسر منها النصال الطويلة والرفيعة ذات الأبعاد المتسقة بدلاً من الشظايا السابقة. إضافة إلى ذلك استفاد الإنسان من مادتي العظم والعاج وصنع منهما الأدوات الرفيعة للصيد أو القطع الفنية. وتعددت أنواع الأدوات والأسلحة وأشكالها بدرجة لم يسبق لها مثيل، وقد تزامن ذلك مع انتشار النوع البشري المعروف بالإنسان العاقل الحديث (Homo sapien sapien). ومن المناطق المبكرة التي حدث فيها هذا التحول شرق أوروبا، فشمال إفريقيا، ثم غرب أوروبا في حدود ٣٥٠٠٠ ق.م.

لم يكن وادي النيل بطبيعة الحال بعيداً عن مجريات هذه التطورات، فقد ساهم بقدر كبير في إثراء التجربة الإنسانية في ذلك الوقت، ومن المعروف اليوم أن تقنية العصر الحجري القديم الأعلى ظهرت في أوساط مصر نحو ٣٠٠٠٠ ق.م. مما يجعلها في مصاف مناطق أوروبا الغربية والشمال الإفريقي؛ ليس هذا فحسب فالأدوات من مواقع منطقة سوهاج نوات أشكال رفيعة ومتطورة ولم يجد الباحثون حتى الآن دليلاً واضحاً على أنها تطورت محلياً بل يبدو أن ظهور تقنية صناعة النصال كان مفاجئاً مما يشير إلى احتمال وصول بعض المؤثرات الخارجية من شرق المتوسط، بل إن هناك من المواقع ما وجد فيها مزيج من التقنية اللفالوازية القديمة وتقنية النوى الهرمية

في هذه الصناعات هو الثنائية المتمثلة في استخدام تقنيتين مختلفتين لإنتاج الأدوات، فالأولى لعمل النصال والشفرات الرفيعة وأدوات العصر الحجري القديم الأعلى المعروفة مثل الأزاميل والمكاشط الطرفية والمثاقب ... إلخ. وهذه الصناعات تتركز في المنطقة الممتدة من أواسط مصر حتى وادي حلفا. والثنائية تلك الصناعات التي احتفظت بالتقنية اللفالوازية أو عدلت من شكلها بمرور الوقت وإنما التركيز يبقى على إنتاج الأدوات وتشكيلها على الشظايا دون النصال.

وفي النوبة السودانية بمنطقة الشلال الثاني عرفت صناعة الحلفا كنموذج وحيد للصناعات النصلية، ولكنها في الوقت نفسه احتفظت بالتقنية اللفالوازية ولو بطريقة معتدلة، مما يشير بوضوح إلى تقنية صناعة النصال وصلت إلى النوبة السودانية متأخرة نسبياً وذلك نحو ١٥٠٠٠ ق.م. كما أنها وفدت من جهة الشمال حيث لم يوجد لها مثيل جنوب وادي حلفا^(٢٩).

أما الصناعات الأخرى في منطقة النوبة فقد اتجهت إلى تشكيل الأدوات القزمية نوات الأشكال الهندسية، مثل المثلثات والأهلة، إضافة إلى أدوات أخرى كالمكاشط والشظايا المشحودة. ويلاحظ أنه بنهاية هذه الفترة

لإنتاج النصال والشفرات الدقيقة. ومن السمات الواضحة لهذه الفترة، هي أن الاستيطان أصبح محصوراً تقريباً في السهل الفيضي في مصر وخصوصاً في السهل الكبيرة مثل كوم أمبو ودشنا، أو عند مداخل الأودية إلى النهر. أما في شمال السودان فتتركز المواقع على السهل الفيضي من شمال السودان ما زالت تنتظر المسح الأثري المكيف، إلا أن قلة عدد المواقع من هذه الفترة أمر لافت للنظر، ولم تكتشف حتى الآن في أواسط السودان صناعة صنلية سوى ما كان في خشم القرية على نهر عطبرة وهذه مؤرخة بنحو ١٠٠٠٠ ق.م أي نهاية العصر الحجري القديم الأعلى^(٢٨).

ينسب لهذه الفترة عدد كبير من الصناعات الحجرية نوات التقاليد التقنية المتنوعة، فقد وصف العاملون في هذه المنطقة، الممتدة من سوهاج وحتى الشلال الثاني أكثر من عشرين تقليداً في صناعة الأدوات، أعطوها أسماء محلية ليشيروا بها إلى خصوصية كل مجموعة من المعثورات التي تم جمعها من عدد من المواقع المجاورة والمتحدة في الخصائص الجيومورفولوجية والثقافية. وتستمر هذه الصناعات حتى نهاية العصر الحجري القديم الأعلى في حوالي الألف السابع قبل الميلاد. إن أول ما يلاحظ

Wendorf, F. and Schild, 1976. Prehistory ... (٢٩) p. 236.

ElAmin, Yousif. M. 1987. the Later (٢٨) Palaeolithic in Sudan. In: Nubian Culture: Past and Present. Pp. 40 - 41.

الحبوب البرية المحروقة. وقد أمكن تجديد نحو عشرين نوعاً من النباتات التي استفيد منها في الغذاء. وأكثرها من الأنواع الدرنية المتوافرة في المنطقة كان قد تم استغلالها بطريقة مكثفة مما شجع نموها السريع، إضافة إلى صيد الحيوانات البرية والأسماك. وقد تمكن السكان من إدارة هذه الموارد لتكفيهم جزءاً كبيراً من السنة. وعلى الرغم من قدرتهم على مثل هذا التحكم في الموارد الطبيعية إلا أنهم لم يتمكنوا من الانتقال إلى مرحلة ممارسة الزراعة مباشرة.

وبنهاية العصر الحجري القديم تركز الاستيطان البشري بصورة واضحة على ضفاف النهر بسبب الجفاف الذي عم الصحراء المجاورة آنذاك^(٣٠).

العصر الحجري الحديث:

تسمى هذه الفترة من التاريخ البشري "مرحلة إنتاج القوت" إشارة إلى تمكن الإنسان من الانتقال من اقتصاد معيشي يعتمد على الصيد والجمع والالتقاط وحياة التنقل المستمر إلى اقتصاد معيشي عماده الزراعة وتربية الحيوان. ويعتقد بأن توفير الغذاء وضمانه على مدار السنة ساعد الإنسان بمرور الوقت على الاستقرار النهائي فشيّد القرى والمستوطنات، التي سرعان ما تحولت إلى بلدات كبيرة نتيجة النمو السكاني

انحسر عدد المواقع الأثرية في النوبة السودانية خصوصاً في الفترة بعد ١٠٠٠٠ ق.م وحتى ظهور المواقع التي تحتوي على عنصر الفخار ضمن مواد أخرى. لقد أوضح الدليل الجيولوجي في هذه الفترة فيضانات النهر المتكررة والقوية التي ربما أثرت سلباً في البيئة النيلية المعتادة مما جعل المنطقة أقل قابلية للاستيطان المستمر، ونتيجة ذلك هاجرت مجموعات من السكان إلى مناطق أخرى. وعندما ظهرت في المنطقة ثقافات العصر الحجري الحديث حدث تحول سريع، يتمثل في إنتاج الغذاء وصناعة الفخار، وتغيير كمي ونوعي في الأدوات الحجرية، من حيث التركيز على تشكيل الأدوات القزمية ولقت الاهتمام بالتشذيب تدريجياً. وليس واضحاً تماماً ما إذا كان هذا التحول انتقالاً محلياً أم أنه نتيجة لمؤثرات خارجية ربما توجد بعض المؤشرات الدالة عليها.

وفي مصر العليا نجد أن مجتمعات العصر الحجري القديم الأعلى ومنذ حوالي ١٨٠٠٠ ق.م. تمكنت من التكيف على استخدام الموارد المحلية بصورة جيدة فاستغلت الحبوب البرية وحبوب النباتات، كما تشير إليه أدوات الطحن الحجرية ونتائج الفحص المجهرى الذي أجري على الشفرات والنصال، ففي بعض مواقع وادي الكبانية والمؤرخة للفترة نفسها تم العثور على بقايا

Wendorf, F. and Schild, R. 1989. Wadi (٣٠) Kubbania ... p. 95.

السريع الذي ساعد فيه إنتاج الغذاء. وقد توفرت للإنسان أيضاً في هذه الفترة أسباب حياة جديدة فيها أنماط متقدمة من أشكال الفنون ونظم الحياة الاجتماعية والفكرية، حيث بدأت تظهر الفروق الاجتماعية بين الأفراد، كما تأثرت المجتمعات بعضها ببعض نتيجة لتبادل المواد والسلع بطريقة لم تعرف من قبل، بالإضافة إلى نمط الاقتصاد المعيشي الجديد هناك مظاهر حضارية جديدة منها صقل الأدوات الحجرية وتشكيل الأنواع المطلوبة لصيد الأسماك وجني النباتات البرية أو المدجنة. كذلك تمكن الإنسان من صناعة الفخار فشكل الأواني المتنوعة ولا تخفى أهمية الأواني في حياة الإنسان من حيث تجهيز الطعام وحفظه، كما أنها تستخدم في حفظ الألبان والأسماك. لم تظهر هذه السمات الحضارية كلها في وقت واحد، أو في مكان آخر، إلا أن هناك مناطق في العالم القديم لها قصب السبق. فقد حققت بعض مراكز الشرق الأدنى بعض هذه الإنجازات الحضارية أو كلها بنحو الألف الثامن قبل الميلاد وفي الوقت نفسه تقريباً تمت صناعة الفخار قبل تحقيق الزراعة أو تربية الحيوان في كل من أواسط السودان والصحراء الإفريقية. أما في وادي النيل في مصر وشمال السودان فلم تظهر ثقافات العصر الحجري الحديث إلا في الفترة ما بين الألف السابع والألف الخامس ق.م.

نسبة لظهور الفخار مبكراً في أواسط السودان وبالذات في موقع الخرطوم القديمة سنبدأ به وصف ثقافات تلك الفترة. يعد هذا الموقع أحد أهم المواقع التي نقب فيها أنطوني آركل في الأربعينيات، وأصبحت النتائج التي تحصل عليها مرجعاً لدراسات العصر الحجري الحديث في المنطقة لوقت طويل. وصف آركل الموقع بأنه عبارة عن مستوطنة شبه دائمة، كبيرة الحجم، أقيمت على ضفاف النهر القديم حيث اعتمد السكان على صيد الحيوانات البرية وصيد الأسماك وغيرها من برمائيات إضافة إلى جمع الحبوب البرية. وقد شكلوا أدواتهم القرمزية المتنوعة التي تغلب فيها الأهلة والمكاشط وغيرها من الأدوات ذات الأشكال الهندسية. ومن أدواتهم أيضاً أحجار الجرش وطحن الحبوب والصنانير (الخطاطيف) العظمية ذات الأسنان من جانب واحد وثقب في أحد طرفيها. ويتصل بأدوات صيد الأسماك الأحجار المستخدمة في رمي شباك الصيد في المياه العميقة مما يوحي بتقنية متطورة في ممارسة هذا النشاط. لقد تمكن سكان الخرطوم القديمة من صنع نوع من الفخار الصلب غير المصقول، تزيينه خطوط متصلة مموجة وأخرى منقطعة مموجة أو متعرجة (شكل ٢). ودفن سكان الخرطوم موتاهم داخل المستوطنة واضعين الميت في شكل قرفصائي داخل الحفرة. ولم يتمكن الناس في ذلك الوقت من استئناس الحيوان أو ممارسة

الزراعة^(٣١). وإن لم يكن ممكناً الحصول على تاريخ علمي مؤكد لحضارة الخرطوم القديمة عندما حفر الموقع، إلا أن مواقع أخرى شبيهة بها حفرت فيما بعد أمكن تأريخها للآلف الثامن قبل الميلاد. ومن اللافت للنظر أن فخار الخرطوم بزخارفه المعروفة وُجد في أمكنة بعيدة في الصحراء الإفريقية حتى النيجر، وفي الصحراء الليبية وفي شرق إفريقيا. ويتفق معظم الباحثين في آثار هذه الفترة على أن الفخار اكتشف لأول مرة في منطقة الخرطوم القديمة ثم انتشر بعد ذلك بوسائل مختلفة في تلك المناطق الواسعة^(٣٢).

يكتمل تطور ثقافة الخرطوم القديمة حسب رأي آركل في الموقع المهم الثاني الذي نَقَب فيه وهو موقع الشهينات الذي يوجد نحو ٥٠ كم للشمال من الخرطوم وهو الموقع النموذجي لثقافات العصر الحجري الحديث لمنطقة الخرطوم. يعتبر الموقع مستوطنة كبيرة نسبياً على ضفة نهر النيل الغربية. اعتمد السكان في غذائهم على صيد الحيوانات البرية والأسماك، وقد تمكنوا من الاستفادة من الأغنام والماعز والأبقار المستأنسة، لكنه لم يوجد دليل مباشر على ممارسة الزراعة لديهم سوى الأدوات الحجرية مثل المجارش. وقد صنعوا أدواتهم

من حجر الكوارتز والرايولايت وكانت معظمها من النوع القزمي كالأهلة واشتهرت بالمظفار (الفأس) الحجري. أما الفخار فقد أصبح مصقولاً وجيداً ويتكون من عدة أشكال نوات زخارف من نوع الخطوط المحززة المتوازية، أو المتعرجة المتصلة أو المتقطعة أو الشبكية. ومن مصنوعاتهم الصنانير العظمية المسننة من جانبين (شكل ٢). انتشرت هذه الخصائص الثقافية في كثير من أنحاء السودان وقد نسب تاريخها إلى بداية الألف الرابع قبل الميلاد. ويعتقد آركل بأن الشهيناب كانت تطورا طبيعياً من ثقافة الخرطوم القديمة واستشهد بما وجده في موقع القوز جنوب الخرطوم من تعاقب طبقي لمخلفات كلتا الثقافتين^(٣٣). أصبح هذا الرأي سائداً لوقت طويل على الرغم من بعض الشكوك التي أثارت حول كيفية الانتقال إلى ثقافة الشهيناب بخصائصها المكتملة وحول ما حدث لها بعد الألف الأخير قبل التاريخ^(٣٤).

ومهما يكن من أمر هذا التطور الثقافي فإن ربع القرن الأخير شهد تطوراً ملموساً في دراسات العصر الحجري الحديث في وادي النيل الأوسط، حيث تم التنقيب في العديد من المواقع المهمة، إما من نوع الخرطوم القديمة وإما الشهيناب، أو تلك التي

Arkell, A.J. 1975. *The Prehistory* p. 23. (٣٣)
Mohamed - Ali, Abbas, 1987. *The Neolithic of Central Sudan: Prehistory of Arid North Afric.* pp. 123 - 136. (٣٤)

Arkell, A. J. 1949. *Early Khartoum.* (٣١)
Haland, R. 1992, Fish, Post and Grain. In: *The African Arch. Review*, 10. pp. 43 - 64. (٣٢)

تعكس تسلسلاً حضارياً طويلاً، مما وفر لنا معلومات مهمة حول تطور الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية للإنسان. فمن المواقع المهمة في ثقافة الخرطوم القديمة في منطقة الخرطوم نفسها، تذكر السقاي والسروراب وأم مرحي وثلاثة أخرى وجدت على ضفة النيل بالقرب من عطبرة. وقد أوضحت الأبحاث المكثفة في هذه المواقع أنها كانت قرى كبيرة الحجم نسبياً عاش فيها الناس بصفة دائمة أو شبه دائمة على الرغم من أنهم لم يشيّدوا بيوتاً ذات خصائص معمارية، وإنما شيّدوا الأكواخ المصنوعة من أعواد الخشب والجلود، واعتمدوا في غذائهم على الصيد المكثف للأسماك والحيوانات الأخرى. ويبدو أنهم برعوا في صيد الأسماك كما تدل عليه عظام الأنواع التي تعيش في المياه العميقة والأدوات الحجرية المفيدة في مثل هذا النشاط وأضافوا لذلك لحوم الحيوانات البرية الكبيرة وحبوب النباتات والثمار الطبيعي. كما عرفت هذه المجتمعات صناعة الفخار الذي يعتبر مكملاً لأدوات الإنتاج في مثل هذا الاقتصاد المعيشي. فباكتشاف الصنارة العظمية أصبح تكثيف صيد الأسماك أمراً ممكناً. وبتوفر الحبوب البرية وتقنية معالجتها أصبح للإنسان مصدر مأمون للغذاء مما أدى بدوره إلى زيادة ملحوظة في أعداد الناس في منطقة الخرطوم، الشيء الذي تدل عليه كمية المواقع الكبيرة كما ساعد في زيادة السكان

درجة الاستقرار النسبي. ويعتقد بعضهم أن هذه الممارسات كانت شرطاً أو مدخلاً لظهور الزراعة الشيء الذي حدث فعلاً في حضارة الشهيناب^(٣٥).

ولقد وجدت مواقع ثقافة الشهيناب بأعداد كبرى في وادي النيل الأوسط، فبالقرب من الخرطوم وجدت مواقع الجيلي والزكياب والكدر، وغيرها. وتم الكشف فيها عن الخصائص المعروفة نفسها في الموقع النموذجي، وقد اعتمد سكانها على الصيد البري والمائي وحققوا نمط الاقتصاد المعيشي المعروف في الشرق الأدنى في هذه الفترة، الذي يتمثل في تربية الحيوان وزراعة أنواع محلية من الحبوب (كالذرة) وتشمل أدواتهم الصنانير العظمية والأدوات الحجرية المصقولة، إضافة إلى الأنواع المعهودة، ومن الحيوانات الأغنام والأبقار والماعز، وقد تحقق ذلك في الفترة ما بين ٤٠٠٠ و ٣٠٠٠ قبل الميلاد، ويعتقد بعض الباحثين أن فكرة استئناس الحيوان لم تكن إنجازاً محلياً، بل يرى أنها وفدت إلى وادي النيل من الصحراء عندما ازدادت موجات الجفاف في حوالي أربعة آلاف قبل الميلاد ويُعتقد أيضاً أن دخول الحيوان في دورة الاقتصاد المعيشي في وادي النيل أدى بمرور الوقت إلى تغيير في أنماط الاستيطان، إذ أصبحت تقام المعسكرات الصغيرة لتتماشى مع حياة التنقل مع قطعان

المواشي، هذا مع استمرار بعض المواقع الكبيرة شبه الدائمة. لقد تم الكشف عن كميات كبيرة من عظام الأبقار والأغنام والماعز في طبقات المواقع الصغيرة دون أن يوجد دليل على استغلال موارد المياه مثل الأسماك، وبمرور الوقت تحولت قطاعات من سكان المنطقة إلى الرعي المتخصص والاعتماد على منتجات الحيوانات أكثر فأكثر مثل الألبان والدم. وكان الرعي قد عُرف كطريقة للحياة في الصحراء منذ نحو ٤٠٠٠ ق.م. حيث اكتسب أهمية اقتصادية كبيرة وربما انتقلت هذه الممارسة إلى وادي النيل، حيث يلاحظ ارتفاع ملحوظ في أعداد مواقع الرعي المؤقتة على حساب مواقع الاستيطان الدائم أو شبه الدائم^(٣٦).

لم تكن مواقع الخرطوم القديمة أو الشهياب محصورة في منطقة وادي النيل الأوسط، وإنما اكتشفت أيضاً في النيل الأبيض وفي سهل البطانة وشرق السودان، ولعل أجدر المواقع بالذكر في هذا المقام موقع كهف شق الدود، الذي يقع على بعد حوالي ٥٠ كم للشرق من الخرطوم، فقد كشفت الأبحاث مؤخراً عن أطول تسلسل ثقافي لفترة العصر الحجري الحديث في كل وادي النيل وجد في مكان واحد. يبلغ عمق طبقات الرديم أما الكهف فحوالي ٣,٥ متر،

تحتوي أقدم طبقة فيها على مواد أثرية من نوع منتصف الألف السادس ومنتصف الألف الخامس ق.م. وكان اقتصاد الناس حينئذ يقوم على الصيد والجمع. أما الطبقة العليا فتحتوي على مواد شبيهة بمواد الشهياب مع وجود فخار محلي غير معروف على ضفاف النيل. وتشير الأدلة الأثرية إلى أن الناس لم يتمكنوا من استئناس الحيوان كما فعل معاصروهم في منطقة الخرطوم. أما طبقات الرديم داخل الكهف فقد كشف فيها تسلسل لأنواع الفخار مثل الأسود الرقيق المصقول والمزخرف بخطوط متصلة. إلى جانب أنواع أخرى غير مصقولة، ولم تظهر صلة واضحة بين محتويات هذه الطبقات مع تلك الواقعة خارج الكهف. وفي الطبقات العليا من الكهف تم العثور على أنواع من الفخار الذي يحمل زخارف تظهر في المنطقة لأول مرة، كما وجدت عظام بعض الحيوانات المستأنسة مثل الأبقار والكلاب، لكنه لم يعثر على ما يدل على معرفة بتربية الأغنام أو الماعز^(٣٧).

أما في شمال السودان فقد تم العثور على العديد من مواقع العصر الحجري الحديث، في أمكنة متفرقة، أكثرها غير مؤرخ، ولم توجد مواد عضوية يمكن أن تدل على نوع الحياة فيها. إن أهم مجموعة من هذه المواقع

(٣٧) محمد علي، عباس سيد أحمد، والأمين، يوسف مختار، ١٩٩٢م، مشروع البطانة الأثري، ص ٧٦ - ٨٠.

Haland, R. 1992, Ibid. p. 55.

(٣٦)

وجدت في منطقة الشلال الثاني. حيث عرفت مواقع كثيرة تعود لفترات مختلفة من العصر الحجري الحديث، نوات خصائص متنوعة. وقد تم تصنيف المادة الأثرية فيها في عدة مجموعات، تسمى الواحدة منها صناعة وأقدمها الشمركي الذي وجدت مواقع بالقرب من وادي حلفا ويؤرخ إلى ٤٥٠٠ - ٤٠٠٠ ق.م. تقريباً. وتحوي المواقع المذكورة قليلاً من الفخار. وبالرغم من نسبته للعصر الحجري الحديث إلا أنه لم تكتشف فيه دليلاً يشير إلى أن أصحاب الشمركي مارسوا الزراعة أو تربية الحيوان. ومن المجموعات التي مارست إنتاج القوت المجموعة التي تمثلها صناعة عبكة في المنطقة نفسها، وقد صنع أصحابها الفخار واستطاعوا تلوين بعضه إما باللون الأحمر وإما البني، كما وجدت بعض كسر الفخار شبيهة بفخار الشهيناب. وقد تم الكشف أيضاً في المنطقة نفسها على صناعة أخرى أطلق عليها اسم "الشهيناب المحلية" وذلك لوجود فخار الشهيناب النموذجي فيها. وتُشير الأدلة الأثرية عموماً إلى أن هذه المواقع لا تشكل في الواقع تجمعات سكنية كبيرة كما لا يعرف تحديداً كيف أفضت إلى ما يعرف بحضارة المجموعة (أ) في النوبة السفلى وهي حضارة تقابل ما يعرف في مصر بما قبل الأسرات^(٣٨).

عند الحديث عن تطور ثقافات العصر الحجري الحديث في مصر، يجدر بالمرء إبداء بعض الملاحظات العامة، لأن المعلومات عنها لم تتجمع كاملة حتى الآن ولأن معظم الأعمال الميدانية تم إجراؤها مؤخراً، كما أن مواقع هذه الفترة المكتشفة في منطقة الدلتا وأجزاء من أواسط مصر قليلة جداً، وما يتوفر من معلومات عنها حتى الآن يفيد بأن مجتمعات العصر الحجري القديم الأعلى المتأخر في مصر العليا وأطراف الصحراء ازدهرت نتيجة للأحوال البيئية الجيدة وأن بعضها تمكن من استغلال الحبوب البرية بطريقة مكثفة كما ذكر أعلاه، ولكن هذه المجتمعات لم تتمكن رغم هذه المحاولات المبكرة من تحقيق إنتاج القوت متمثلاً في الزراعة إلا في تاريخ متأخر نسبياً مقارنة بشرق المتوسط، وذلك نحو ٦٠٠٠ ق.م. ولم تعرف المعادن إلا في حدود ٤٠٠٠ ق.م. ومن الملاحظ في هذه الفترة تحقيق الاتصال بين مصر ومناطق شرق البحر المتوسط، إذ يبدو أن مصر تلقت الكثير من المؤثرات الحضارية في بداية العصر الحجري الحديث، مثل دخول بعض الحيوانات المستأنسة أو الحبوب المدجّنة كالقمح والشعير، ومن ثم فإن بعض سمات هذه الفترة الثقافية وفدت إلى مصر من الخارج كما الحال في حضارة الفيوم^(٣٩).

Trigger, B. C. 1982. The Rise of Civilization (٣٩) in Egypt. In. The Cambridge History of Africa, vol. 1. pp. 494 - 499.

Trigger, B. G. 1982. The Rise of Civilization (٣٨) in Egypt. In. The Cambridge History of Africa, vol. 1. pp. 490 - 496.

وسط مصر وجنوبها ، لكنهم يجدون صعوبة في تحديد تسلسلها الزمني، وذلك لقلة تواريخ كربون ١٤ ولعدم توفر المواقع الكبيرة ذات الطبقات السكنية العميقة. وهكذا نجدهم يعتمدون على المقارنة بين مخلفات هذه الثقافات وبخاصة الفخار.

يأتي في مقدمة هذه الثقافات ما يسمى بحضارة الفيوم في وسط مصر، وتؤرخ أقدم مراحلها، وهي الفيوم (أ)، إلى الفترة ما بين ٥٢٠٠ و ٤٠٠٠ ق.م. وجدت مواقع هذه الثقافة على شواطئ بحيرة قديمة في منخفض الفيوم حيث شيد السكان بيوتاً عبارة عن أكواخ من القصب، كما بنوا المخازن تحت الأرض في المناطق المرتفعة، التي وجدت فيها بقايا القمح والشعير والحنطة التي تمت زراعتها في المنطقة. وقد مارس السكان أيضاً تربية الحيوان مثل الأغنام والماعز، وأكملوا احتياجاتهم بصيد الحيوانات البرية، مثل الأفيال والتماسيح وفرس البحر، إضافة إلى صيد الأسماك. وقد صنعوا أسلحة متطورة كالرؤوس والسهام العظمية والخطاطيف. أما الأدوات الحجرية فتشمل المناجل والأدوات ورقية الشكل والفؤوس والرؤوس المدببة وغيرها من الأدوات المصقولة. كذلك صنعوا السلال ليغطوا بها حفر التخزين. أما فخار الفيوم (أ) فيختلف عن فخار الخرطوم القديمة الذي يسبقه زمناً.

ويلاحظ أنه وبعد أن تحققت مرحلة إنتاج القوت فقد ظل الاقتصاد المعيشي يعتمد جزئياً على استغلال الموارد البرية من نبات وحيوان. وبالرغم من هذه الملاحظة فقد توفرت أدلة أثرية جديدة اليوم تشير إلى أن عملية إنتاج القوت حدثت في وقت مبكر، وفي أقصى الجنوب المصري خاصة. فعلى بعد حوالي مائة كم للغرب من أبي سمبل تم الحصول على تواريخ كربون ١٤ من عدد من مواقع العصر الحجري الحديث المبكر تراوح ما بين ٦٨٥٠ و ٦٥٥٠ ق.م. وقد اكتشفت فيها حبوب متفحمة تمثل أكثر من أربعين نوعاً من النبات، منها الذرة والدخن والبقوليات والجوز وغيرها من الأنواع الدرنية. ويعتقد أن هذا دليل كاف على أن الغذاء النباتي طور محلياً في هذه المنطقة بمعزل عن تجارب تدجين القمح والشعير في بلاد الشام. وفي أحد هذه المواقع كشف عن أرشئات أكواخ وحفر لتخزين الحبوب ومواقد النار. وفي موقع آخر وجدت بقايا بيوت بيضاوية الشكل أو دائرية وبداخلها الحفر وبقايا مواقد النار، وتشير قرائن الأدلة إلى وجود مجتمعات شبه مستقرة تمكنت من إنتاج غذائي متنوع بما فيه الحبوب التي تم تدجينها محلياً^(٤٠).

أما في بقية مصر فقد وصف الباحثون عدداً من الثقافات، بعضها معروف في منطقة الدلتا وبعضها الآخر معروف في

Wendorf. F. et. al, 1992. Saharan exploitations (٤٠) of plants 8000 BP. Nature, Vol. 359. pp. 721 - 724.

تشبهان إلى حد ما ما وجد في الفيوم (أ) ولكن نماذج الفخار تحمل زخارف أكثر إتقاناً وجودة في الصناعة. بدأ الاستيطان في الطبقات الحضارية الدنيا في القرية بتشييد الأكواخ المتفرقة، ثم ازدادت الكثافة السكانية في الطبقات العليا، حيث أصبحت الأكواخ مبنية الجدران لارتفاع مناسب فوق سطح الأرض. وتبدو هذه الوحدات المعمارية صغيرة الحجم ربما تكفي الواحدة منها شخصاً واحداً، وتُرى موضوعة في شكل مجموعات، يتصل بهذه المساكن مخازن الحبوب، وهي إما جراراً وإما سلالاً مدفونة تحت الأرض. وقد دفن سكان مرمدة موتاهم داخل المستوطنة التي قدر عدد سكانها بالآلاف (٤٢).

ومن المستوطنات المهمة في هذه الفترة أيضاً، مستوطنات العمري وهي عبارة عن مجموعات مواقع ومقابر وجدت بين القاهرة وحلوان، وقد عمرت المستوطنة لفترة طويلة تدل عليها المباني والمعثورات الكثيرة قدر تاريخها لحوالي ٤٢٠٠ - ٤٠٠٠ ق.م.

أما إلى الجنوب من الدلتا وأواسط مصر فقد وصف الباحثون عدداً من حضارات هذه الفترة تمثلها أعداد من المواقع التي تم التنقيب فيها في أوقات مختلفة، ويطلق عليها مصطلح حضارات ما قبل الأسرات. ومن هذه الحضارات البداري، ونقادة الأولى ونقادة الثانية. لقد تمكن أصحاب هذه

فهو مصنوع من الصلصال الخشن، ويشتمل على أنواع من الأواني المصقولة مختلفة الأشكال ذات القواعد المسطحة أو الدائرية، ويعكس هذا الفخار تقنية متطورة يعتقد أنها جاءت لمصر من الخارج، ربما من فلسطين ويدعم هذا الرأي كما يقول آركل وجود معثورات أخرى مثل الرؤوس الحجرية المجوفة والفؤوس المصقولة (شكل ٣). ويرى آخرون أن الفروق النوعية والتقنية بين المخلفات التي تعود إلى نهاية العصر الحجري القديم الأعلى في منطقة الفيوم وبين مخلفات الفيوم (أ) كبيرة جداً، مما يجعل احتمال التطور المحلي أمراً غير ممكن، هذا بالإضافة إلى أن إنتاج القوت، متمثلاً في الزراعة واستئناس الأغنام والماعز، لم يكن هو الآخر اكتشافاً محلياً (٤١).

إن عدم وجود مبانٍ معمارية في الفيوم (أ) يعطي انطباعاً بعدم اكتمال خاصية الاستيطان الدائم، هذا بالرغم من وجود المطامير لحفظ الحبوب مع غيرها من شواهد أخرى. أما أول دليل على حياة الاستيطان القروية الكاملة في وادي النيل فإنه يأتي من موقع مرمدة بني سلامة في غرب الدلتا. وهو موقع كبير يغطي مساحة قدرها حوالي ١٨,٠٠٠ متر مربع. وفيه رديم طبقات سكنية يبلغ سمكها نحو المترين. يؤرخ الموقع للفترة ما بين ٥٢٠٠ و ٣٥٠٠ ق.م. وأن فخار مرمدة وأدواتها الحجرية

Trigger, B. G. 1982, Ibid. p. 501.

(٤٢)

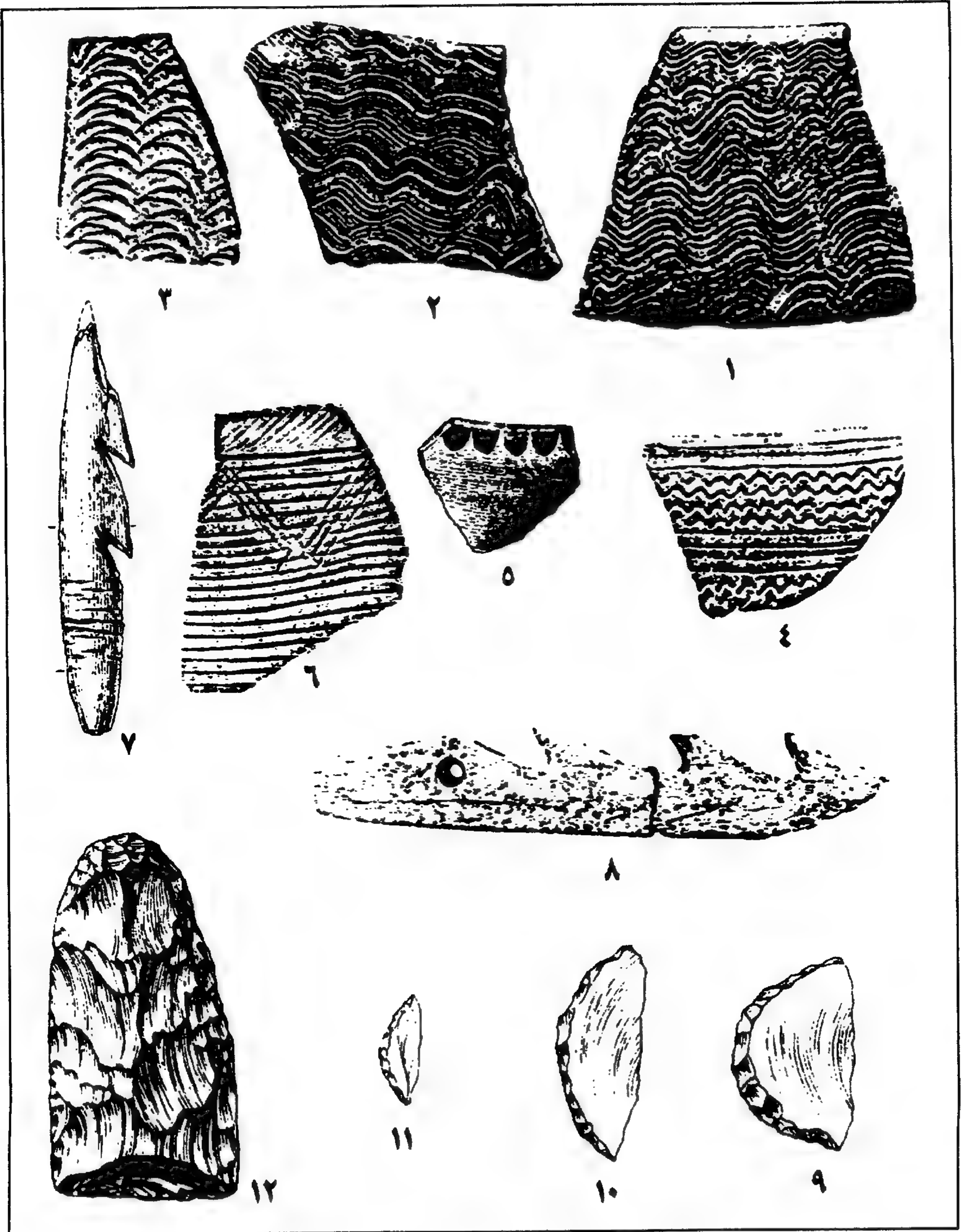
Trigger, B. G. 1982. The Rise of Civilization (٤١) p. 494.

ومن الظواهر اللافتة للنظر قدرتهم الفنية الكبيرة التي تعكسها تلك التماثيل الآدمية الصغيرة، والقطع الفنية الجميلة، مثل الأمشاط والملاعق المزخرفة بأشكال الحيوانات المنحوتة، إضافة إلى الخز والأساور النحاسية وقطع العاج المختلفة.

إن ثراء العناصر المادية في ثقافة البداري وغيرها من ثقافات ما قبل الأسرات بحلول الألف الرابع قبل الميلاد بلغ درجة عالية غير مسبوقة مما أدى إلى تحولات عميقة في علاقات الأفراد والمجاميع السكانية على طول وادي النيل، وفي نظم الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية والفكرية، وقد توسعت بعض هذه المجتمعات في أحجامها وفي ثرواتها الاقتصادية ومختلف مؤسساتها مما أفضى في النهاية إلى ظهور أنظمة إدارية جديدة تتحكم في شؤون الأفراد والمجتمع، كما مهد الطريق بصورة طبيعية لنشوء الدولة المركزية. أما في السودان فالأدلة الأثرية تشير حتى الآن إلى أن فترة العصر الحجري الحديث في منطقة النيل الأوسط انتهت نحو ٣٠٠٠ ق.م. ولم يكتشف من المواقع الأثرية ما يملأ الفراغ الزمني بين نهاية حضارة كرمة في شمال السودان، التي تعود بدايتها لنحو الألف الثالث قبل الميلاد قد تصلح لسد مثل هذا الفراغ إلا أن أصل الدولة المركزية في السودان سيظل موضوعاً شيقاً وجديراً بالدراسة المتأنية.

الحضارات من معرفة المعادن واستخدامها لأول مرة، ومن ثم أصبحت تصنف حضاراتهم في الدور الثقافي المسمى بالعصر الحجري الحديث المعدني، كما تطورت مجتمعاتها إلى مستويات اقتصادية واجتماعية وفنية لم تكن معروفة من قبل. وبما أنها تعد مقدمة منطقية لظهور الدولة المصرية القديمة فسنكتفي هنا بذكر نبذة عن أقدمها، وهي ثقافة البداري. استقر أصحاب البداري في قرى زراعية صغيرة شيدت من الأكواخ البسيطة المبنية من الأخشاب والحصير بالقرب من نهر النيل في صعيد مصر، وقد اعتمدوا على زراعة القمح والشعير كما جمعوا الموارد الطبيعية الأخرى. ومن الحيوانات التي استفادوا من تربيتها الأبقار والأغنام والماعز.

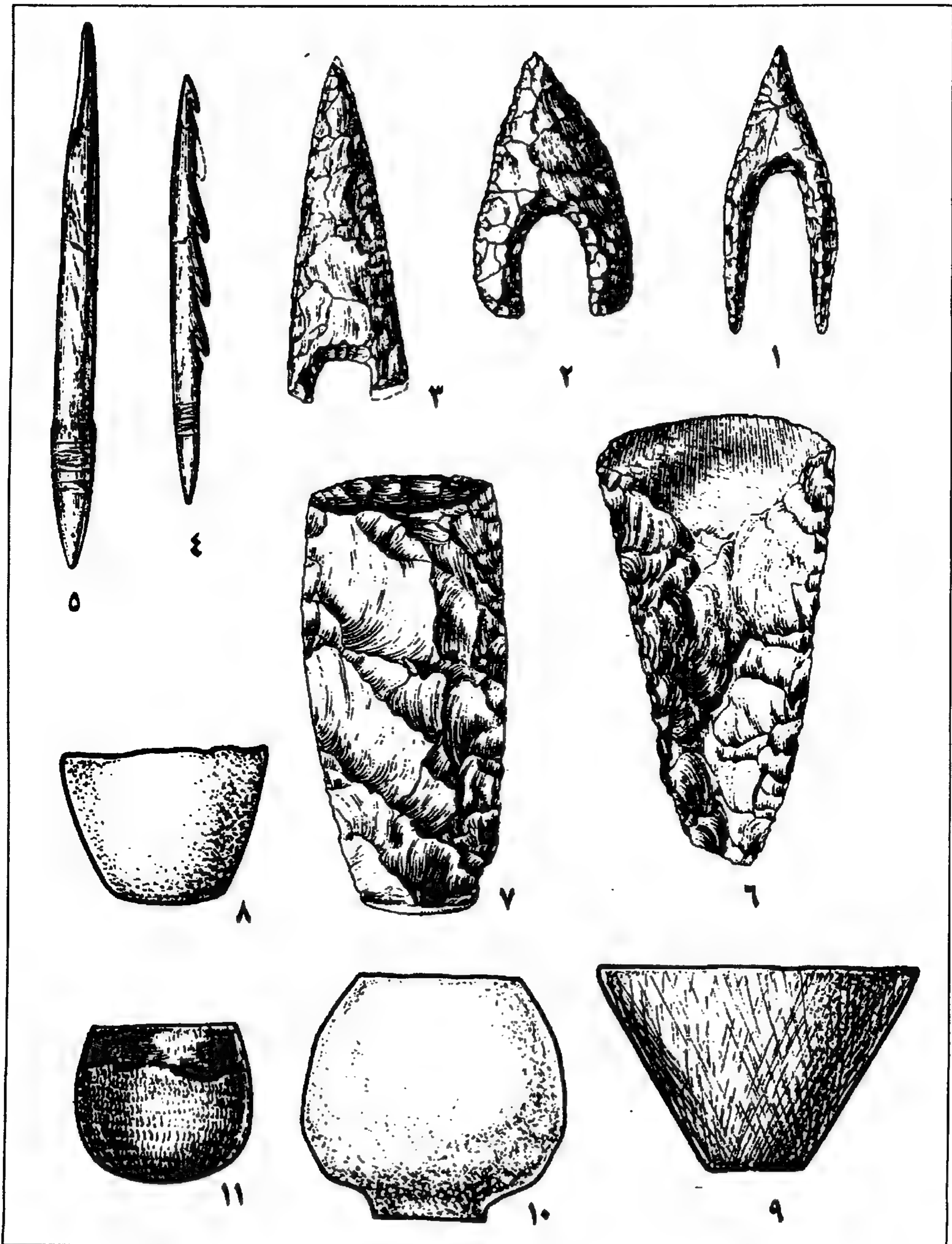
صنع أهل البداري فخاراً من أجمل ما عرف في مصر، هو النوع المصقول والرفيع المزخرف بأشكال نباتية رائعة، شكلوا منه الأواني المختلفة مثل الصحن والأكواب الرفيعة وغيرها. دفن أهل البداري موتاهم في قبور في مساحات مخصصة خارج المستوطنات، ووضعوا مع الميت بعض ممتلكاته كقرايين، وهناك بعض القبور التي خصصت لدفن الحيوانات، التي عاملوها مثل الإنسان. ومن مصنوعاتهم الحرفية الأواني، والأدوات الحجرية، والسلال والحصائر، والملابس الجلدية والأغطية بعد أن أصبحت حرفة النسيج أمراً معروفاً لديهم.



شكل (٢) فخار وأدوات من السودان

١، ٢ فخار الخرطوم المموج ٣، ٤، ٥ فخار الشهيناب ٦ فخار شق الدود
 ٧ خطاف (الخرطوم) ٨ خطاف (شهيناب) ٩، ١٠، ١١ أهلة من الخرطوم
 ١٢ مظفار (شهيناب)

(عن Arkell. A. J. 1975, The Prehistory ...)



شكل (٣) فخار وأدوات من مصر

- | | | |
|---------------------|------------------------|--------------------------|
| ٥ رأس حربة (الفيوم) | ٤ خطاف (الفيوم) | ١، ٢، ٣ رؤوس (الفيوم) |
| ١١ فخار (البداري) | ٨، ٩، ١٠ فخار (الفيوم) | ٦، ٧ فأس ومظفار (الفيوم) |

(عن Arkell. A. J. 1975, The Prehistory ...)

شعيب المصانع : قرية تعدينية في منطقة المدينة المنورة (دراسة أثرية)

د. علي بن إبراهيم غبان

ملخص البحث:

شعيب المصانع موقع أثري يقع بالقرب من الربذة في منطقة المدينة المنورة، والموقع عبارة عن قرية صغيرة للتعدين (مستوطنة تعدينية) يعود تاريخها إلى الفترة الإسلامية المبكرة (القرن ١ - ٢هـ). وتتبع أهمية هذا الموقع من طبيعة الملتقطات الأثرية المنتشرة على سطحه، وآثار النشاطات التعدينية القريبة منه، وبقايا الأساسات الحجرية التي تشكل في مجموعها مخططاً متكاملًا للقرية، فضلاً عن وجود أساسات لمسجد واضحة المعالم. وفي هذا البحث يقدم الباحث إجابة على عدد من التساؤلات المرتبطة بالموقع من خلال الدراسة المسحية للآثار الظاهرة على سطحه، والمجسات الاختبارية التي نفذت في بعض وحداته المعمارية. ونتائج دراسة المواد الأثرية التي جمعت منه والمعلومات المتوفرة عنه في المصادر، كما يتناول البحث بالدراسة مخطط القرية والنشاطات التعدينية التي كانت تمارس فيها ويقدم مثلاً لأحد أنماط البناء والسكن حول مواقع المناجم في الجزيرة العربية خلال الفترة الإسلامية المبكرة.

تقديم :

علم الباحث خلال الموسم الرابع عشر للتنقيب الأثري بموقع الربذة (١٤١٢هـ/ ١٩٩١م)، بوجود موقع أثري قريب من الربذة تنتشر على سطحه بقايا جدران مبنية بالحجر، يطلق عليها السكان المحليون اسم المصانع، ويعنون بذلك الأحواض. ولم يستبعد الباحث وجود علاقة ما بين هذا الموقع وموقع الربذة، أو درب زبيدة - طريق الحج العراقي القديم من الكوفة إلى مكة المكرمة - ولذلك قام برفقة عدد من الطلاب بزيارة ميدانية للمكان. وبعد الوقوف على الموقع، وعمل مسح أثري لسطحه، وفحص المواد الأثرية المنتشرة عليه، ومشاهدة ما حوله من ظواهر طبوغرافية اتضح أن هذا الموقع عبارة عن قرية صغيرة للتعدين (مستوطنة تعدينية) يعود تاريخها إلى الفترة الإسلامية المبكرة (القرن ١ - ٢هـ). وقد بدت أهمية الموقع واضحة من طبيعة الملتقطات المنتشرة على سطحه، وآثار النشاطات

التعدينية القريبة منه، وبقايا الأساسات الحجرية التي تشكل في مجموعها مخططاً متكاملًا للقرية، فضلاً عن وجود أساسات لمسجد واضحة المعالم. ولذا رأى الباحث مناسبة العودة مرة أخرى إلى الموقع لعمل مزيد من التحريات الميدانية. وبعد أسبوع عاد برفقته الدكتور سعد بن عبدالعزيز الراشد والدكتور عربي محمد حسنين، والأستاذ صدقة براشي مندوب الآثار المرافق لبعثة الربذة، والأستاذ يوسف الحميد، وعدد من العمال. وقد تم خلال هذه الزيارة عمل رفع معماري لمباني القرية ومخططها العام، وعمل مجسات اختبارية في بعض هذه المباني.

وفي هذا البحث سيحاول الباحث الإجابة عن عدد من التساؤلات من خلال نتائج الدراسة المسحية والمجسات الاختبارية، ونتائج دراسة المواد الأثرية التي تم جمعها، والمعلومات المتوفرة في المصادر عن التعدين والمنطقة التي تقع فيها القرية، وهذه التساؤلات هي:

- ما النشاط الذي كان يمارس في هذه

القرية؟ وكيف كان يتم؟

- من هم سكان القرية؟
- في أي عصر سُكِنَتْ؟
- هل سكنت هذه القرية لفترة طويلة، أم قصيرة ثم هُجرت؟
- هل كان يقيم بها أفراد من أسرهم، أم أنها مجرد منطقة سكن عمال؟

الموقع العام (اللوحتان ١ ، ٢):

تقع هذه القرية على بعد أربعين كيلاً إلى الشمال الشرقي من موقع الربذة^(١)، وعلى بعد عشرة أكيال إلى الشمال من مركز الحسو^(٢)، وعلى بعد كيلين إلى الجنوب من قرية هديان^(٣). وهذا الموقع يجعلها مجاورة شرقاً لمسار درب زبيدة، حيث إن أقرب محطات الطريق إليها وهي الربذة تبعد عنها مرحلة واحدة. ويطلق على موقع القرية في الوقت الحاضر اسم شعيب المصانع، وهي واقعة في أراضي قبيلة مطير على حافة جبال الحجاز الغربية وداخل نطاق منطقة الدرع العربي الغربي بين خطي الطول ٤١-٤٢ درجة شرقاً، ودائرتي العرض ٢٤-٢٥

= الإسلامية المبكرة في المملكة العربية السعودية، جامعة الملك سعود، الرياض: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ص ص ٢٤، ٢٦.

(٢) تقع قرية الحسو على بعد ٣٠ كيلاً إلى الشرق من موقع الربذة، وهي المركز الإداري الرئيس لمنطقة الربذة وما حولها في الوقت الحاضر وتتبع إمارة المدينة المنورة، الراشد، سعد، الربذة، ص ٢٩.

(٣) هديان: قرية صغيرة بها مركز ومدرسة، وهي من قرى قبيلة مطير سكان المنطقة في الوقت الحاضر.

(١) تقع الربذة إلى الجنوب الشرقي من المدينة المنورة على بعد ٢٠٠ كيلومتر، وهي إحدى المدن الإسلامية المبكرة الواقعة على طريق الحج العراقي القديم الذي يربط الكوفة بمكة المكرمة والشهير بدرب زبيدة، ويأتي موقعها على خط العرض ٢٤ - ٤٠ وخط الطول ٤١ - ١٨. ويوجد بالربذة موقع أثري مهم يقوم قسم الآثار والمتاحف بجامعة الملك سعود بالتنقيب فيه منذ عام ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، الراشد، سعد بن عبدالعزيز، الربذة صور للحضارة =

لا تبدو على سطحه تلال أثرية عالية. ويوجد بالقرب من الضلع الغربي للموقع مجرى سيل (شعيب) يتفرع من واد كبير يقع إلى الشمال من القرية، به ثمائل قديمة وآبار قليلة العمق يبدو أنها كانت مصدر الماء الرئيس لسكان القرية خلال فترة سكناها^(٦). ويعرف هذا الوادي باسم وادي أم الشطون نسبة إلى بئر كبيرة كانت تقع فيه، قطرها خمسة أمتار - حسب تقدير سكان المنطقة - وقد أعطت هذه البئر التي كان الماء يرفع منها بشطون - أي حبال - اسمها إلى الوادي، وتقع على بعد كيلين إلى الشمال من موقع القرية. والجدير بالذكر أن الشطون اسم لأحد مياه قبيلة محارب، قال الهجري: "ولهم هناك ماء: الشطون وحفيرة خالد بين الأقعس

درجة شمالاً (لوحة ١)^(٤). وشعيب المصانع مسمى حديث كما هو واضح، وأقرب المواضع القديمة المذكورة في المصادر إلى هذا المكان موضع الحسو الذي يرى سعد الراشد وآخرون أنه ذو حساء^(٥). ولم يجد الباحث في المصادر التي اطلع عليها ذكراً لمعدن قريب من ذي حساء. وذو حساء وما حوله كان يقع في ديار قبيلة محارب، ويتبع والي المدينة المنورة الذي امتدت صلاحياته إلى حمى ضرية^(٦).

ويوجد بموقع القرية في الجهتين الجنوبية والشرقية نتوء صخري يأخذ شكل نصف دائرة، ويحتضن جزءاً كبيراً من مبانيها. ويلاحظ عدم وجود فرق كبير في ارتفاع موقع القرية عن الأرض المحيطة به بحيث

(٦) الحازمي، الأماكن، ج ١، ص ٣٤٧، ومحارب من القبائل العدنانية وهم بنو محارب بن خصفة بن قيس عيلان، الكلبي، هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٤هـ) جمهرة النسب، تحقيق الدكتور ناجي حسن، ط ١، عالم الكتب ومكتبة النهضة، بيروت: ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م، ص ٣١١. وعن حدود عمل والي المدينة المنورة التي تشمل المنطقة التي تقع فيها القرية وتمتد إلى ضرية، انظر: السمهودي، نور الدين علي بن أحمد، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٤، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ج ٣، ص ١٠٩٢.

(٧) تسمى الآبار الصغار التي تحفر في بطون الأودية، بالشبّاك، وقد وصف الأصفهاني ماء ذي حساء (الحسو) وهو واد قريب من الموقع بأنه شبّاك كله وعرف الشبّاك بالبنار الصغار في بطون الأودية، الأصفهاني، الحسن بن عبدالله (ت نهاية القرن الثالث) بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي، دار اليمامة، الرياض، بدون تاريخ، ص ١٨٧.

(٤) الدرع العربي الغربي، منطقة واسعة من الصخور التي تعود معظمها إلى عصر ما قبل الكمبري، وهي صخور نارية متحولة تغطيها اللابات البركانية الحديثة في مناطق عديدة، وتتقسم الجزيرة العربية من وجهة النظر الجيولوجية إلى وحدتين كبيرتين: كتلة متبلورة قديمة تسمى الدرع العربي، وطبقات رسوبية تسمى بالرف العربي. وينقسم الدرع العربي إلى ثلاثة أقسام الأول منها: الدرع العربي الغربي الذي يكون وسط نجد والحجاز وعسير، والقسم الثاني: هضبة اليمن وعدن، والقسم الثالث: الدرع العربي الجنوبي ويغمره خليج عدن ويمتد على سواحل حضرموت والمهرة وظفار، الوليعي، عبدالله بن ناصر، جيولوجية وجيومورفولوجية المملكة العربية السعودية، ط ١، الرياض ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م، ص ٣٠، ٣٥، ٣٧، ٣٨.

(٥) الراشد، سعد، الريزة، ص ٢٩، الحازمي، محمد بن موسى، (٥٤٨/٥٨٤هـ) الأماكن أو (ما اتفق لفظه واقترب مسماه من الأمكنة) أعده للنشر حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض ١٤١٥هـ، الجزء الأول ص ٣٤٧.

والقطيبات"،^(٨) وقال في موضع آخر: "عمود المحدث في أرض محارب للخضر منهم وبين المحدث وبين الربذة اثنا عشر ميلاً. ثم الجبال التي تلي المحدث عن يسار المصعد عمود الأقس من أرض محارب أيضاً، وبه مياه تدعى الأقسية في أصل الأقس وهي لمحارب. وبين الأقس والربذة بريدان"^(٩) ويذكر الهجري بيتاً للحكم الخصري وهو من خضر محارب يشير فيه إلى الشطون ويقول:

سقى الله الشطون شطون شِعْر

وما بين الكواكب والغدير

وشِعْر جبل ضخّم مشرف على معدن الماوان قبل الربذة بأميال للصاعد إلى مكة، والماوان في ديار محارب^(١٠).

معدن القرية - المنجم (لوحة ٣):

تجاور هذه القرية من جهتي الجنوب والشرق، المنطقة التي كانت تستخرج منها

ال خامات المعدنية، وتبعد عنها بضعة عشرات من الأمتار. وهي منطقة مفتوحة تمتد على مساحة واسعة بها حفر متناثرة وغير عميقة. وهذا المكان هو معدن القرية كما كان يسمى في ذلك الزمان، وهو من نوع المناجم المفتوحة ذات الحفر، ويختلف عن المعادن الأخرى مثل معدن النقرة غير البعيد عنه، والذي توجد به أنفاق لها مداخل بارزة على السطح^(١١).

والمناجم القديمة في جزيرة العرب، بالنظر إلى طريقة الحفر فيها على نوعين هما: الغيران أي الأنفاق وأعماق الأرض^(١٢). وينتشر استخدام المناجم ذات الغيران أي الأنفاق في معادن الجبال، أما الأرض المنبسطة فتستخدم فيها حفر الأعماق. ومعدن هذه القرية قد يكون من مناجم الذهب، وهي الصفة الغالبة على المناجم القديمة الأخرى القريبة منه، ومن أشهرها: معدن بني سليم (مهد الذهب)، ومعدن النقرة، ومعدن

= العرب - ٣" العرب، السنة الثانية الجزء الحادي عشر، جمادى الأولى ١٣٨٨هـ، ص ٩٨٢.

(١١) الحلوة، صلاح، ماكزري، نيل، "التقرير المبني عن المرحلة الرابعة لمسح درب زبيدة - ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، أطلال - حولية الآثار العربية السعودية، العدد الرابع، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، ص ٣٦، كسناوي، أحمد وآخرون "تقرير مبني عن مسح مناطق التعدين القديمة شمال غرب الحجاز ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م" أطلال، العدد السابع، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ٦١.

(١٢) الهمداني، الحسن بن أحمد (٢٨٠ - ٣٤٥هـ) كتاب الجوهريتين العتيقتين المانعتين الصفراء والبيضاء، أعده للنشر حمد الجاسر، ط ١، دار اليمامة، الرياض ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، ص ١٤٨.

(٨) الجاسر حمد، أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع، دار اليمامة، الرياض: بدون تاريخ، ص ٢٦٥.

(٩) المصدر السابق، ص ص ٢٤٤، ٢٤٥.

(١٠) المصدر السابق نفسه ص ٢٦٦، الحربي، الإمام أبو إسحاق (ت بعد ٢٨٥هـ)، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر، ط ٢، دار اليمامة، الرياض ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ٣٢٥، الأصفهاني، بلاد العرب، ص ص ١٧٣، ١٧٦، وهناك جبل آخر يسمى شعر في بلاد الضباب وهو المعروف الآن بهذا الاسم ويقع إلى الجنوب الشرقي من ضربة بعيداً عنها وانظر للمزيد، الجاسر، حمد، "المعادن القديمة في بلاد =

وهي تراب الذهب الناعم. فإذا ذهب جوش المفئل - أي غبرته تصفحه المَعْدَن وقلبه بيده، فما لاح له من حبة ذرو تتالها الأنملة تعلقها بريقه ووضعها في قصبة يراع صغيرة، عليها صمام يحفظها في شعره أو في محزم وسطه، ثم يواصل نسف المفئل واللقط حتى ينفرز التراب بما فيه من السحالة فيعزله في مكث صغير (زنبيل).

يضع ما تحصل عليه من تراب مختلط بالسحالة في جفنة بها ماء، ويستخلص بهذه الطريقة قدر ما يستطيع من تبر السحالة.

٤- ما تبقى من سحالة مينة كسحق الكحل يضعها في جفنة، ويصب عليها من الزئبق أضعافها مع غمر الجميع بالماء، ثم يعرك الجميع بشقف من فخار مجانس لبطن الجفنة، حتى يتأكد أن الزئبق التقط كل ما في السحالة من تبر، ثم يضع الزئبق المتحد مع السحالة في خرقة قوية ويعصرها في راحته حتى يخرج منها معظم الزئبق ويبقى الذهب على شكل جوزة، ثم يكرر العملية حتى يجمع عدداً من الجوزات.

ضرية^(١٣). أما الفضة فلها مناجم خاصة بها وهي قليلة في المنطقة ومن أشهرها معدن أبرق خثرب القريب من ضرية، وهو معدن فضة رغيب "واسع النيل" على حسب تعبير أبي علي الهجري^(١٤). وكانت الفضة تستخلص بكميات قليلة من مناجم الذهب أيضاً فيما عرف بفضة الذهب (الزرسيم)، وهي أقل جلاءً من الفضة المعدنية المستخرجة من منجم الفضة^(١٥).

ويشرح الهمداني (٢٨٠-٣٤٥هـ) في كتابه الجوهرتين طريقة العمل في مناجم الذهب المنبسطة ويبين طريقة استخلاص الذهب من المواد الخام التي تخرج منها^(١٦)، ويمكن إيجاز ذلك في خمس خطوات على النحو التالي:

١- تحفر آبار ضيقة كالكطائم في معادن الذهب، توسع كلما تعمق الحفر، وربما تقاربت بئران فانفتح ما بين أسافلها فأفضت واحدة إلى الثانية.

٢- ما خرج من تلك البئر تميز منه الحجارة، ثم يُنسف بمفئل (منسف) فيخرج من أحد جوانب المفئل التراب، ويتحصل من مؤخرته الذرو، وهو حبيبات خام الذهب الصغيرة، والسحالة

= صخيبرات، وهو منجم حديث يجري استغلاله في الوقت الحاضر.

(١٤) الجاسر، حمد، أبو علي الهجري، ص ٢٥٦.

(١٥) الهمداني، الجوهرتين، ص ١٤٤.

(١٦) المصدر السابق، ص ص ٩٣، ٩٤.

(١٣) الجاسر، حمد، "المعادن القديمة في بلاد العرب"، العرب، السنة الثانية الجزء التاسع، ربيع الأول ١٣٨٨هـ، ص ٨٣٥، الجزء العاشر، ربيع الثاني ١٣٨٨هـ، ص ص ٩١٧، الجزء الحادي عشر جمادى الأولى ١٣٨٨هـ، ص ص ٩٨٥، ٩٨٦، وغير بعيد عن شعيب المصانع يوجد منجم =

٥- وبعد ذلك يقوم بشي ما جمعه من جوزات لكي يتخلص الذهب من بقايا الزئبق بشكل كامل - وستُشرح طريقة الشّي عند دراسة الكسر الفخارية التي التقطت من سطح الموقع. وهناك طريقة أخرى يستخلص فيها الذهب من السحالة الميّنة ويستخدم فيها مطحن الذهب والزئبق وتعطي نتائج أفضل من طريقة الجفنة لتوفر عامل الضغط الشديد فيها. وسيُفصل الحديث عنها لاحقاً عند دراسة كسر المطاحن التي تم العثور عليها بالموقع.

وقد يحدث أن يحصل صاحب البئر على عرق ذهب، فيحفر عليه حينئذ حتى يخرج، فإذا كان العرق في موضع تربته أكثر من حجارته كان ذهبه نفيساً أملس، وإذا كانت الحجارة عليه أغلب كان ذهبه مضرساً وخشناً، وربما وجد في جوف عرق الذهب بطحاء أو حصي^(١٧).

وتوجد في منطقة معدن القرية (موضوع هذا البحث) حفائر اختبارية نفذتها وزارة البترول والثروة المعدنية تظهر في مقاطعها طبقات جيولوجية ذات ألوان معدنية متعددة من مشتقات اللون البني على وجه الخصوص، بالإضافة إلى طبقات جيرية وطنية كلكية متعددة الألوان (لوحة ٣). وقد

سمي الموقع باسم: "منجم الحسو" في تقرير وزارة البترول نظراً إلى قربه من مركز الحسو، واعتبر من مناجم الذهب القديمة في المملكة^(١٨).

وتحيط بآثار القرية ومعدنها مجموعة من الجبال أبرزها جبل الرُّيوط في جهة الشمال، وجبل الحُميمة، وهو جبل بركاني في جهة الجنوب، وجبل أم رُقَيْبَة في جهة الجنوب الغربي وجبل الأشيهب في الجهة الشرقية، وهو أقرب الجبال إلى الموقع وأقلها ارتفاعاً، ويقع في طرف المعدن، ويشرف على كامل المنطقة التي يوجد بها المنجم والقرية، وقد عثر الباحث في قمة جبل الأشيهب على وسوم منقوشة وبقايا جدران متهدمة قد تكون برج مراقبة. ويستطيع الواقف على قمة هذا الجبل رؤية مجموعة جبال البُهرة في الأفق البعيد إلى الجنوب الشرقي من موقع القرية.

المنطقة السكنية (لوحة ٤):

تتكون هذه القرية من أربع وثلاثين وحدة سكنية ومسجد يتوسطها تقريباً، وتنتشر هذه الوحدات في منطقة محصورة بين النتوء الصخري شرقاً، والشعيب غرباً على مساحة أبعادها ٣٥٢ متراً طولاً من الشمال إلى الجنوب، و ٢٦٠ متراً عرضاً من الشرق إلى

(١٧) المصدر السابق، ص ٩٤.

(١٨) الجاسر، حمد، "المناجم القديمة في بلاد العرب-١" العرب، السنة الثانية، الجزء التاسع، ربيع الأول ١٣٨٨هـ، ص ص ٨١٢، ٨١٦.

متراً من المسجد، وعلى محور كتلته البنائية، وبذلك حافظت القرية على توسط المسجد بين جميع وحداتها السكنية على الرغم من تكامل بناء هذه الوحدات في ثلاث مراحل بنائية. ويلاحظ أن جدران وحدات المجموعتين الوسطى والجنوبية تميل عن خط الشمال الجغرافي في حين أن جدران وحدات المجموعة الشمالية تتوافق معه. وأما مقبرة القرية فلم يجد الباحث لها أثراً واضحاً في الموقع وما حوله، وهذا لا يعني عدم وجودها.

والتخطيط العام لهذه القرية يمكن أن يطلق عليه مسمى الحجرات المتباعدة، وهو يخرج عن أنماط التخطيط الشائعة في المدن والبلدات الإسلامية الأولى، والتي من أبرزها التخطيط المتضام والتخطيط الشبكي، ففي النمط الأول تبنى الوحدات السكنية متلاصقة تماماً وتفتح واجهاتها الرئيسية على ساحات أو طرقات داخلية، وتشكل جدرانها الخلفية مجتمعة كتلة البلدة، وتحولها إلى شبه حصن له بوابة واحدة في غالب الأحيان، ومن الأمثلة الباقية لهذا النمط في المملكة بلدة العلا. أما التخطيط الشبكي فيعتمد على وجود شارع رئيس واحد أو أكثر تتفرع منه طرقات وأزقة فرعية تفتح عليها الوحدات السكنية في حين يحيط بالبلدة سور خارجي مدعم بأبراج. وقد يجمع بين النمطين في مكان واحد ومن

الغرب. ويمكن تقسيم الوحدات السكنية بهذه القرية إلى ثلاث مجموعات:

- المجموعة الوسطى: ويتوسطها المسجد وتتكون من ست عشرة وحدة سكنية: الوحدات أرقام ١، ٢، ٣، ٥، ١٧ بالإضافة إلى المسجد الذي يأخذ الرقم ٤.

- المجموعة الشمالية: وتقع إلى الشمال من المجموعة الوسطى وتتكون من عشر وحدات سكنية: الوحدات أرقام ١٨-٢٧.

- المجموعة الجنوبية: وتقع إلى الجنوب من المسجد وتتكون من ثماني وحدات سكنية: الوحدات أرقام ٢٨-٣٥، وبجوار هذه الوحدات توجد مجموعة من المساحن الثابتة التي كانت تستخدم في عمليات استخلاص الذهب من التراب الخام.

ويبدو أن نواة السكنى في هذه القرية كانت في المنطقة المتوسطة حيث يوجد المسجد، وحيث يوفر النتوء الصخري ساتراً طبيعياً للوحدات السكنية، والمعروف أن المسجد كان أول ما يختط من تكوينات معمارية في المدن والمستوطنات الحضرية الإسلامية، ونتيجة للتوسع في نشاطات التعدين بمعدن القرية بنيت مجموعة ثانية من الوحدات السكنية إلى الجنوب من المسجد على بعد خمسين متراً منه وعلى محور محرابه، ثم أضيفت مجموعة ثالثة في الجهة الشمالية على بعد مائة وخمسين

أمثلة ذلك بلدة سدوس بوسط نجد^(١٩).

وكلا النمطين عرفا في المنطقة التي تقع فيها القرية خلال الفترة الإسلامية المبكرة، وذلك في مدينة الربذة، حيث يوجد النمط الأول في الحي الذي يقع إلى الشمال الغربي من المسجد الجامع ويعود تاريخ السكن فيه إلى القرنين الأول والثاني للهجرة، بينما يوجد النمط الثاني في الحي المحصن الذي أطلق عليه مسمى ٤٠١ ويقع في شرق الموقع^(٢٠).

وتخطيط هذه القرية أشبه ما يكون تخطيط المعسكر أو بمنازل البادية مع فارق مهم هو أن المساكن ليست خياماً أو بيوتاً من الشعر وإنما حجرات مبنية من اللبن. ويلاحظ وجود فراغات كبيرة تفصل بين الوحدات السكنية كانت تستخدم على ما يبدو من قبل سكان كل وحدة للنوم ليلاً في معظم فصول السنة كما يفعل في الوقت الحاضر بادية المنطقة، وربما احتوت مرافق خدمات مبنية من فروع الأشجار أو جريد النخل، كما يلاحظ عدم وجود سور يحيط بالقرية أو

أي نظام من نظم التحصينات الدفاعية، وربما أن القرية لم تكن في حاجة إلى ذلك، لأنها سكنت إبان شيوع الأمن بالمنطقة.

وقد عثر في المملكة العربية السعودية على قرى بجانب المناجم في مسح مناطق التعدين القديمة بشمال غرب المملكة وجنوبها الغربي يعود تاريخها إلى الفترة الإسلامية المبكرة. ومن أمثلة ذلك مناجم: أم عامل، وأم حويطات شرق مدينة الوجه، والعبلة في منطقة تبالة، وعشم في منطقة القنفذة، غير أن قرى هذه المناجم لم تدرس مخططاتها بشكل مفصل. ويلاحظ أن قرى مناجم أم عامل وأم حويطات والعبلة بنيت على نمط الوحدات المتباعدة، وهو الأسلوب نفسه المتبع في قرية شعيب المصانع، غير أن بعض الوحدات السكنية في هذه القرى كبيرة جداً وتتكون من مجموعة حجرات، كما يلاحظ أن موقع عشم به بقايا قصر كبير ومسجد واضح المعالم، وكانت عشم بلدة رئيسية في منطقتها وهي في الوقت نفسه منجم ولذلك يختلف تخطيطها عن قرية شعيب المصانع^(٢١).

(١٩) البيني، ماركو، العمارة التقليدية في المملكة العربية السعودية - المنطقة الوسطى، ترجمة الدكتور أسامة محمد نور الجوهري، الإدارة العامة للآثار بوزارة المعارف، الرياض ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ص ٥٩، ٦٠ اللوحات، الفصل ٤، مسقط سدوس وشارعها الرئيسي، نصيف، عبدالله، العلاء دراسة في التراث الحضاري والاجتماعي، ط ١، الرياض ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص ٤٦، عثمان، محمد عبدالستار، المدينة الإسلامية، ط ١، دار الأفاق العربية، القاهرة: ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص ٦٧، ٦٨، ١٤٠.

(٢٠) الراشد، سعد، الربذة، ص ص ٥٨، ٥٩.

(٢١) كسناوي، أحمد وآخرون، "تقرير مبدئي عن مسح مناطق التعدين القديمة شمال غرب الحجاز ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م"، أطلال ٧، ص ص ٥٩، ٦٠، ٦١، لوحة ٥٧، ٦٨، هستر جيمس وآخرون، "تقرير مبدئي عن مسح مناطق التعدين القديمة بجنوب غرب المملكة"، أطلال، العدد ٨، ١٤٠٤هـ، ص ١٠٧، لوحة ١٠٤، ١٠٧.

الوحدات السكنية:

يمكن تمييز ثلاثة نماذج في تخطيط الوحدات السكنية بهذه القرية وذلك على النحو التالي:

- الوحدة ذات الحُجرة الواحدة.
- الوحدة ذات الحُجرة والفناء.
- الوحدة ذات الحُجرتين والفناء.

النموذج الأول: الوحدة ذات الحُجرة الواحدة: وهو الأكثر استخداماً، حيث بلغ عدد أمثله خمساً وعشرين من بين الأربع والثلاثين وحدة التي تتكون منها القرية: الوحدات أرقام ١-٣، ٥، ٧-١٣، ١٨، ٢١-٢٦، ٢٩-٣٥.

والنمط الأول له أربعة تصاميم:

- ١- حُجرة مربعة لها باب يفتح مباشرة في إحدى زواياها (لوحة أ) وتبلغ أطوال هذه الحجر ٤×٤م أو ٥×٥م.
- ٢- حُجرة مربعة لها باب تتحرف فتحته قليلاً عن وسط الضلع ومحصور بين جدارين يتقدمان كتلة الحجرة (لوحة ب).
- ٣- حُجرة مستطيلة لها باب في زاويتها ومحصور بين جدارين يتقدمان كتلة الحجرة (لوحة ج).

- ٤- حُجرة مستطيلة لها بروز مستدير في إحدى زواياها تجاوره فتحة المدخل، وقد يكون هذا البروز مكاناً لموقد النار (لوحة د).

النموذج الثاني: الوحدات ذات الحُجرة

والفناء: وتوجد له سبعة أمثلة بنيت على تصميمين:

- ١- فناء مربع أو مستطيل تلتصق به حجرة مماثلة لحجمه، لها باب يفتح من داخل الفناء الذي له بدوره مدخل في منتصف أحد أضلاعه، الوحدات أرقام: ١٤، ١٥، ١٦، ١٩، ٢٠، ٢٨ (لوحة أ).

- ٢- فناء مربع تلتصق به حجرة مستطيلة أكبر مساحة منه ولها باب يفتح من داخل الفناء، الوحدة رقم ١٧ (لوحة ب).

ويمكن اعتبار هذا النموذج مكوناً من حجرتين متلاصقتين إذا افترض أن الفناء مسقوف بالكامل، حيث إن أبعاد الكتلة المربعة وكذا المستطيلة (٤×٤م، ٢×٦م) في كلا التصميمين ليست كبيرة وقابلة للتسقيف بالخامات المتوفرة حول القرية.

النموذج الثالث: الوحدة ذات الحجرتين

والفناء: ويوجد منها في القرية مثالان، شيد أحدهما (وحدة ٦) على شكل فناء مربع كبير في أحد زواياه من الداخل حجرة مستطيلة، وفي الزاوية الأخرى المجاورة حجرة مربعة تبرز عن كتلة الفناء. ويقع مدخل الفناء والوحدة بين الحجرتين اللتين زودتا بباب لكل منهما يفتح على الفناء (لوحة ٧).

أما المثال الثاني (وحدة رقم ٢٧) فعبارة عن حجرتين مربعتين ومتلاصقتين يلتصق بإحدهما فناء مستطيل.

المسجد (لوحة ٨):

يتكون المسجد من بيت صلاة مستطيل الشكل طوله من الشرق إلى الغرب ١١,٢٠ م وعرضه من الشمال إلى الجنوب ٨,٥٠ م. وللمسجد محراب على شكل حنية مقوسة يتوسط جدار القبلة. ويبلغ عرض المحراب من الداخل ١,٢٠ م وعمقه ١,٥٠ م. وهو يشبه محراب المسجد الجامع الذي تم الكشف عنه بموقع الربرة^(٢٢). أما مدخل المسجد فيقع في الضلع الشمالي لبيت الصلاة مقابلاً للمحراب تماماً، وهو بعرض ١,٢٠ م أيضاً. وبالنظر إلى عرض بيت الصلاة البالغ ٨,٢٠ م يمكن استنتاج أن سقف المسجد كان محمولاً على صف من الأعمدة الخشبية المتخذة من جنوع الأشجار، يراوح عددها بين ثلاثة أعمدة أو أربعة، تقسم بيت الصلاة إلى رواقين يتسع كل منهما إلى صفين من المصلين. ويستوعب هذا المسجد ما مجموعه خمسة وستون مصلياً على افتراض أربعة صفوف من المصلين بطول ثمانية أمتار يقف في كل منها ستة عشر مصلياً:

$$١٦ \times ٤ = ٦٤ + ١ \text{ (الإمام) } = ٦٥. \text{ وعليه}$$

فإن هذا المسجد يمكن أن تؤدي فيه صلاة الجمعة لصحة شرط إقامتها في ضوء حجم القرية وسعة مسجدها.

وحيث إن سكان هذه القرية من المستقرين في موقعهم فلا بد أنهم كانوا يؤدون صلاة الجمعة في مسجدهم هذا. فهل يمكن أن تعتبر هذه القرية "قرية بها منبر" وهو مصطلح أطلقه الجغرافيون المسلمون على القرى التي بها جامع تقام فيه الجمعة، ويتوفر فيها ممثل للسلطة الرسمية؟^(٢٣)، والواقع أن هذا الافتراض ممكن ويسانده ثلاثة أمور: الأول منها: طبيعة النشاط الممارس في القرية وهو التعدين واستخراج الذهب والفضة، ومعادن أخرى، للدولة نصيب فيها يتولى جبايته عامل قد يقيم في المعدن^(٢٤).

والأمر الثاني: وجود وحدة سكنية مميزة قريبة من المسجد: مكونة من فناء وحجرتين (لوحة ٧) وهي أكبر الوحدات السكنية مساحة بالقرية، ولربما كانت سكناً لعريف القرية. والأمر الثالث: وجود ثلاث حجرات ملاصقة لجدار المسجد الغربي: اثنتان منهما يدخل إليهما عبر مدخل واحد يفتح في بطن

(٢٢) الراشد، سعد، الربرة، ص ٤٦، ومحراب الربرة مقتبس بدوره من محراب المسجد النبوي، وأول من اتخذ المحراب المجوف بالمسجد النبوي عمر بن عبدالعزيز في عمارة الوليد بن عبد الملك بن مروان ولم يكن للمسجد النبوي محراب مجوف في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولا في عهد الخلفاء الراشدين، ماهر، سعد، العمارة الإسلامية على مر العصور، دار البيان العربي، جدة: ١٤٠٤ هـ، ج ١، ص ١٨٩.

(٢٣) العلي، صالح، "إدارة الحجاز في العهود الإسلامية"، مجلة الأبحاث، ج ٢، ٤، ٣، ديسمبر ١٩٦٨ م، ص ١١.

(٢٤) تشير المصادر إلى أن بعض المعادن التي في المنطقة كان لها عامل مفرد يخرج من المدينة، الجاسر، حمد، أبو علي الهجري، ص ٢٧٣، السهمودي، وفاء الوفاء، ج ٣، ص ١١٠٥.

مواد البناء وطريقته:

قياساً على أسلوب البناء المتبع في منطقة القرية خلال الفترة الإسلامية المبكرة، والذي تتوفر عنه معلومات من خلال حفرة الربذة التي تبعد أربعين كيلاً عن الموقع موضوع البحث، يمكن القول أن جميع جدران الوحدات السكنية، وكذا المسجد شيدت من اللبن، واستخدمت الأحجار البازلتية غير المشذبة في أساساتها، وهذا هو الاحتمال الأرجح، إذ لو كانت هذه الجدران مبنية بالحجر من أسفلها إلى أعلاها لكان الركam الأثري لسطح الموقع مختلفاً عما هو عليه الآن، ولبقيت أحجار الجدران في مواقعها وشكلت تلالاً أثرية عالية في موقع كل وحدة، حيث يلاحظ اختفاء ركam الجدران الطينية من على سطح الموقع بفعل تتابع جرف الأمطار والسيول والعوامل الطبيعية الأخرى. وما تبقى بالموقع من جدران حجرية يمثل أساسات المباني فقط. وقد استخدمت المونة الطينية كمادة رابطة بين أحجار الأساسات، ويلاحظ على هذه

المسجد. وهاتان الحجرتان قد تكون لهما وظيفة إدارية أو أنهما أو إحداهما كانت المكان الذي يُحفظ فيه نصيب الدولة أو ودائع سكان القرية من المعادن المستخرجة، وتبلغ أبعاد كل حجرة ٤×٥ م. والجدير بالذكر أن بيت المال وضع بداخل المسجد في بعض مساجد المدن الإسلامية الأولى^(٢٥).

أما الحجرة الثالثة فتبرز عن ضلع المسجد الشمالي ولها مدخل خاص بها يفتح على الفضاء المقابل للمسجد، كما تتصل بها من الداخل كتلة درج مقطعة من مساحة الحجرة الوسطى. وهذا الدرج يؤدي إلى سطح الحجرات وسطح المسجد، والذي كان يستخدم على ما يبدو للنداء للصلاة^(٢٦). كما أن هذه الحجرة الثالثة ربما كانت تستخدم مَصَافَة لزائري القرية أو لابن السبيل. ووجود كتلة الدرج بداخلها لا يمنع من استخدامها لهذا الغرض، وتصميم هذه الكتلة مماثل لما عثر عليه في حفرة الربذة في بعض المباني.

= ابن ثابت قال: كان بيتي أطول بيت حول المسجد فكان بلال يؤذن فوقه من أول ما أذن إلى أن بنى رسول الله صلى عليه وسلم مسجده، فكان يؤذن بعد ذلك على ظهر المسجد، وقد رفع له شيء على ظهره، وأول من بنى المآذن في الإسلام مسلمة بن مخلد الأنصاري أمير مصر من قبل معاوية بأمر معاوية، ولما تولى عمر بن عبدالعزيز المدينة المنورة في خلافة الوليد بن عبد الملك جعل لمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم أربع مآذن في كل زاوية منمنة، ماهر، سعاد، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج ١، ص ١٨٢.

(٢٥) مثل الخزنة: بيت المال الذي بصحن الجامع الأموي بدمشق، وبيت المال الذي يعلو الفوارة بجامع عمرو ابن العاص بالفسطاط وقد بني في خلافة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٧، ويرى بعضهم أن المباني التي توجد في صحن مساجد مصر والشام وعُرفت ببيت المال إنما أعدت لإيداع أموال اليتامى، ماهر، سعاد، العمارة الإسلامية على مر العصور، ج ١، ص ٢٧٢.

(٢٦) لم تتخذ المآذن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهد خلفائه الراشدين وإنما كان يؤذن على ظهر المسجد، روى ابن سعد بسند إلى أم زيد =

فيحتمل أن تكون قد صنعت من خشب الأكاسيا: السمر والطلح والسرّح، وهو متوفر بكثرة لافتة للنظر في الوقت الحاضر على بعد خطوات من موقع القرية.

المجسات الأثرية:

تم تنفيذ مجسين أثريين أحدهما في محراب المسجد والآخر في الوحدة رقم ١.

المجس الأول: مجس المحراب (لوحة ٩):

وكان الهدف من تنفيذ هذا المجس تتبع الجدران الحجرية للمحراب وجزء من جدار القبلة، ومعرفة عمق نزولها، ونوعية اللياسة التي تغطيها، والأرضية التي تقف عليها، ونوعية الطبقات الأثرية التي يتكون منها الركام الذي يملأ موقع المسجد، وكذا البحث عن أية ظواهر معمارية قد تكون متصلة بالمحراب. وبلغ طول المجس ثلاثة أمتار بعرض ٦٠ سم (٢٠ سم أمام فتحة المحراب و ٨٠ سم على جانبه الأيمن و ١٠٠ سم على جانبه الأيسر) بالإضافة إلى تجويف المحراب الذي تم حفره بالكامل.

ويتكون الترافف الطبقي لهذا المجس من أعلى إلى أسفل مما يلي: (لوحة ١٠ أ، ب)

الطبقة الأولى: طبقة سطحية من الرمل الناعم من النوع الموجود على سطح الموقع تتشكل في المجس بعمق يراوح من ٥ إلى ٧ سم، وهي خالية من أية مواد أثرية.

المونة قلة نسبة الطين فيها وزيادة نسبة الرمل. وربما صنع اللبن الذي بنيت به بيوت القرية من هذه الخامة الضعيفة نفسها، مما يفسر عدم بقاء أثر له، وعدم تكون تلال أثرية بالموقع أعلى من مستوى الأساسات الحجرية. وربما كانت هذه الجدران أيضاً ملبّسة من الداخل والخارج بالمادة الطينية نفسها، وكذا أرضيات الحجرات، حيث لم تظهر في المجسات التي أجراها الباحث في المسجد وفي إحدى الحجرات أية بقايا جبسية في الجدران، أو الأرضيات، أو في محتوى الطبقات الأثرية.

ويبلغ عرض جدران الأساسات ٤٠ سم في المتوسط، ويكاد يكون عرض الجدران موحداً في جميع الوحدات المبنية، ويستنتج من ذلك أن قياس اللبن الذي استخدم في بناء الجدران ربما كان ٢٠×٣٥ سم وهو أحد المقاسات المستخدمة في بناء التقسيمات الداخلية للقصور والدور في موقع الربة^(٢٧).

وفتحات الأبواب في الوحدات السكنية لا تلتزم بقاعدة واحدة فهي تارة تفتح شمالاً وتارة جنوباً وتارة شرقاً وتارة غرباً. ويبدو أن كل وحدة سكنية يراعى في وضع اتجاه بابها حالة الوحدة السكنية الموجودة بالقرب منها، فتفتح بابها على جهة أخرى لضمان عدم الكشف، ومراعاة لخصوصية الجار.

أما الأسقف والأعتاب والأبواب والنوافذ

- الطبقة الثانية:** تلي الأولى في التراصف الطبقي، وهي طبقة ركام بناء مكونة من تربة طينية هشة بها نسبة عالية من الرمل وتختلط بها أحجار بازلتية من نوع الأحجار المستخدمة في أساسات المسجد. ويبلغ سمك هذه الطبقة ٤٠ سم وتستقر على أرضية طينية مبلطة. ولم يعثر في هذه الطبقة على لقي أثرية.
- الطبقة الثالثة:** أرضية طينية مبلطة سمكها ٥ سم في المتوسط تشكل أرضية المسجد، حيث ظهرت في كامل مساحة المجس.
- الطبقة الرابعة:** تربة طينية طبيعية التكوين ظهرت تحت مستوى أرضية المحراب المبلطة بعد كسر جزء منها. وتمثل هذه الطبقة التربة العذراء للموقع، وعليها وضعت أساسات محراب المسجد والجزء المكشوف من جدرانه.
- نتائج المجس:**
- الكشف عن سمك التراصف الطبقي في المجس وقد بلغ ٥٠ سم في المتوسط: من سطح المجس إلى أسفل الأرضية المبلطة.
 - الكشف عن نوعية الطبقات الأثرية في هذا المجس، على النحو الذي عُرِض أعلاه، ولم يعثر في هذه الطبقات على أية كسر فخارية أو مواد أثرية أخرى، وهو أمر غير مستغرب بالنسبة إلى مجس في محراب مسجد.
 - ظهر في المجس ما تبقى من الأساس الحجري لجدران المسجد، وهو مكون من أربعة مداميك من الحجر البازلتية غير المنظم، تربط بينها مونة طينية من نوع طينة التربة العذراء التي ظهرت في المجس نفسه.
 - العثور على أرضية طينية مبلطة في كامل مساحة المجس، مما يدل على أن المسجد كانت له أرضية مبلطة بالطين.
 - أساسات المحراب وما تم الكشف عنه من جدار القبلة وضعت على التربة العذراء مباشرة، وقد يكون هذا الوضع سائداً في بقية جدران المسجد، وجميع الوحدات السكنية بالقرية، حيث إن هذه الظاهرة وجدت أيضاً في المجس الثاني الذي نفذ في زاوية إحدى الوحدات السكنية كما سيوضح أدناه.
 - التأكد من عدم وجود أساس أو بقايا لمنبر مبني على يمين المحراب وربما بسبب ضيق مساحة المسجد. وقد وجد هذا المنبر في مسجد الربرة الجامع^(٢٨).
 - التأكد من عدم وجود أي نوع من اللياسة على الجدران التي تم الكشف عنها في المجس.
 - الكشف عن كامل حنية المحراب، حيث كما ذكر سابقاً بلغ عرضها ١٢٠ سم وعمقها ٥٠ سم من داخل المسجد.

المجس الثاني: مجس الوحدة رقم ١ (لوحة ١١):

نفذ هذا المجس في الزاوية الشمالية الغربية للوحدة السكنية رقم (١) على يمين المدخل. وكان الهدف من تنفيذه الكشف عن إحدى زوايا هذه الوحدة التي تتكون من حجرة واحدة، ومعرفة نوعية الطبقات الأثرية التي تملؤها، وسمك هذه الطبقات والكشف عن أية ظواهر معمارية قد توجد في هذه الزاوية، وتوفير مجال للمقارنة بين نتائج المجسين. وقد تم اختيار هذه الوحدة بالذات لتنفيذ المجس لقربها من المسجد، ولتوقع أنها من بين أقدم الوحدات السكنية بناءً في القرية. بلغت أبعاد المجس ٨٠×٨٠ سم. وباكتمال أعمال الحفر فيه اتضح أنه يماثل المجس الذي في المسجد من عدة وجوه:

التراسف الطبقي للمجس (لوحة ١٠ ج، د)

الطبقة الأولى:

طبقة سطحية بسمك ٥ سم في المتوسط، مكونة من تربة رملية ناعمة من النوع الذي يغطي كافة أرجاء الموقع.

الطبقة الثانية:

طبقة هدم بناء، عبارة عن تربة طينية من نوع المونة المستخدمة في بناء الجدران، مختلطة مع أحجار بازلتية متساقطة من جدران الحجرة، ويبلغ سمك هذه الطبقة ٤٥ سم.

الطبقة الثالثة:

طبقة من الحصباء الصغيرة سمكها ٥ سم في المتوسط تقترش كامل مساحة المجس، وقد عثر في هذه الطبقة التي تستقر على أرضية الحجرة على كسرة من نوع الفخار غير المزجج تمثل اللقية الأثرية الوحيدة بهذا المجس.

الطبقة الرابعة:

أرضية الحجرة، وهي أرضية طينية مبلطة سمكها ٥ سم في المتوسط، وتماثل الأرضية الطينية التي ظهرت في المجس الأول من حيث التكوين والسمكة.

الطبقة الخامسة:

التربة العذراء للموقع، وقد ظهرت بعد كسر جزء من الأرضية الطينية المبلطة وتتكون من تربة طينية طبيعية التكوين مماثلة للتربة العذراء التي ظهرت في المجس الأول.

نتائج المجس:

- كشف المجس عن خمس طبقات أثرية بسمك إجمالي بلغ ٦٠ سم، وبزيادة ١٠ سم عن سمك الطبقات في المجس الأول، ومصدر هذه الزيادة فرق ارتفاع الأساس الحجري، وطبقة الحصباء التي فصلت بين طبقة هدم البناء والأرضية المبلطة للحجرة، وهذه الطبقة قد تكون من بقايا الرديم الذي كان يعلو سقف

وتتبع أهمية هذه الكسرة من كونها مستخرجة من طبقة أثرية، ومن كون هذه الطبقة طبقة سكنية تعلو أرضية الوحدة مباشرة، ولذا فإن احتمال كونها من فترة استخدام الوحدة، أو من فترة قريبة لتوقف استخدامها قوى جداً.

وهذه الكسرة (لوحة ١٥ أ، ب) عبارة عن جزء صغير من بدن إناء فخاري كبير الحجم قد يكون زيراً أو قدراً كبيراً، وسمك هذه الكسرة (٢٣ مم)، وهي من فخار لونه يميل إلى الاحمرار وفي مكسرها لب أسود اللون أقرب إلى السطح الداخلي للإناء، نتج عن عدم تجانس الحرق. ويلاحظ على عجينة هذه الكسرة احتواؤها نسبة عالية من حبيبات الرمل والمكونات الجيرية، وهي خصائص تميز نوعاً من الفخار السميك عُثر على كسر كثيرة منه وأجزاء أوانٍ في الجزء الغربي من موقع الربذة، حيث توجد آثار القرنين الأول والثاني للهجرة.

ثانياً: الملتقطات السطحية:

توجد على سطح هذا الموقع مواد أثرية قليلة، ولذا فإن الملتقطات السطحية التي تمكن الباحث من جمعها قليلة أيضاً، وقد تم التقاطها من سائر أنحاء الموقع، وتنقسم بحسب خاماتها إلى أربعة أنواع: كسر من أحجار الرحي المنزلية، ومطاحن الذهب، وكسر فخارية غير مزججة، وكسر فخارية مزججة، وكسرة زجاجية واحدة.

الحجرة، وقد تكون أرضية أخرى فرشّت فوق الأرضية المبلطة أثناء استخدام الحجرة.

- يمكن اعتبار طبقة الحصباء التي تفصل بين الأرضية المبلطة وركام هدم البناء ممثلة لطبقة السكن التي تعلو عادة الأرضيات مباشرة في المواقع الأثرية، وتحوي معظم اللقى الأثرية، وقد تم العثور بالفعل في هذه الطبقة على اللقية الأثرية الوحيدة في المجس وهي كسرة من نوع الفخار غير المزجج.

- وجود خمس مداميك مبنية بالحجر في أساس الجدار الشمالي الذي ظهرت في المجس وثلاثة مداميك فقط في أساس الجدار الغربي. وهذا التفاوت ناتج من اختلاف حجم الأحجار المستخدمة في كلا الجدارين، حيث إن ارتفاع ما تبقى من كل منهما فوق الأرضية المبلطة متساوٍ تقريباً.

دراسة المواد الأثرية:

تنقسم المواد الأثرية التي جُمعت من هذا الموقع من حيث طريقة الحصول عليها إلى فئتين: مواد وجدت في واحد من المجسين الأثريين، ومواد جُمعت بالالتقاط من على سطح الموقع.

أولاً: مواد المجس الأثري:

وهي كما ذكر سابقاً تنحصر في كسرة فخارية واحدة من نوع الفخار غير المزجج،

أ- كسر أحجار الرحي المنزلية ومطاحن الذهب:

تم التقاط ثلاث كسر من أحجار الرحي المنزلية، وثلاث كسر من مطاحن الذهب. وفيما يلي تفصيل عن كل واحدة من هذه الكسر:

الكسرة الأولى:

كسرة رحي منزلية (لوحة ١٢) مصنوعة من الحجر الحري الأسود المخرم. وهي نصف الحجرة العليا لرحى قطرها ٣٠ سم وسمكها ٥ سم، في وسطها بقايا ثقب نافذ قطره ٥ سم يدخل فيه قطب الرحي الذي يكون مثبتاً في مركز الجزء السفلي من الرحي، وتوضع عبره المواد المراد طحنها. ولا يظهر في هذا النصف الثقب الذي تثبت فيه اليد التي تدار بها الرحي، ومن المؤكد أنها في النصف الآخر، بينما تظهر عليه من أسفل آثار الاستخدام بوضوح. والرحى المنزلية المصنوعة من الحجر الحري الأسود كانت الأكثر استخداماً في أراضي المملكة العربية السعودية خلال العصور الإسلامية المختلفة، نظراً إلى انتشار الحرات في عدد من مناطق المملكة وبخاصة في شمالها وشمالها الغربي وجنوبها الغربي ومواقع أخرى قريبة من وسطها. ويتميز الحجر الحري بتضرسه ولذا فهو الأنسب

للحصول على الطحين المجروش غير الناعم جداً. وقد تم العثور على أمثلة كاملة في مواقع استخدامها من هذا النوع من الرحي في عدد من المواقع الإسلامية بالمملكة منها الربذة والخوراء^(٢٩).

الكسرة الثانية:

جزء من الحجرة العليا لرحى منزلية مصنوعة من الجرانيت الزهري ناعمة وملساء من جهتها السفلى وغير مشذبة من أعلى. ويوجد بها آثار لثقب المركز، وآثار للثقب الجانبي ويبلغ سمكها ٧ سم في أسمك نقطة (لوحة ١١٣).

الكسرة الثالثة:

جزء من الحجرة العليا لرحى منزلية مصنوعة من الجرانيت الزهري ناعمة من أسفل وعليها آثار الاستخدام، وبها بقايا الثقب الأوسط. ويبلغ نصف قطر هذه الحجرة ٢٠ سم، وسمكها ٥ سم في المتوسط (لوحة ١٣ ب، ج). وأحجار الرحي المنزلية المصنوعة من الجرانيت أو من الحجر الرملي ملساء وناعمة وليس بها تضريس ولذلك فإن المواد التي تطحن بها تخرج ناعمة، ومطحونها أنعم من مطحون رحي الحجر الحري.

الكسرة الرابعة:

جزء من حوض مطحن ذهب، وهو الجزء السفلي من المطحن، مصنوع من

(٢٩) المرجع السابق، ص ٨٥، غبان، علي، شمال غرب المملكة العربية السعودية، الكتاب الثاني، الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة - مدخل عام، =

= ط ١، مطبعة سفير، الرياض: ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م، ص ص ٢٦، ٢٨ شكل ١٣، ج.

الذي يوفره المطحن. وقد أورد الهمداني وصفاً مفصلاً لمطحن الذهب الذي استخدم في الجزيرة العربية خلال الفترة الإسلامية المبكرة، ولطريقة استخدامه،^(٣٠) كما عثر على كسر مطاحن ذهب في مواقع تعدين أخرى بالمملكة مثل موقع عشم بمنطقة القنفذة، والقاع بمنطقة تبالة - جنوب غرب المملكة.^(٣١)

صفة مطحن الذهب كما ورد عند الهمداني:

مطحن الذهب حوض من الحجر مدور ومستوي السطح من الداخل، في مركزه ثقب على سعة الدرهم يثبت فيه قطب من الحديد أطول قليلاً من الأصبع، ويصب حول رأس القطب من أسفل الرصاص المذاب ليمسكه. ولهذا الحوض ثقب آخر نافذ في أحد جوانبه يعمل كمُثْعَب موزون على مستوى سطحه الداخلي، يسد بصمام أثناء عملية الطحن. وهذا الحوض هو الجزء السفلي للمطحن، أما الجزء العلوي فيتكون من حجر يزيد طوله قليلاً على نصف قطر المطحن، ولا يتجاوز عرضه شبراً واحداً وارتفاعه شبر، ويسوى سطحه السفلي حتى يتطابق تماماً مع سطح الحوض ويخلو من أي تضريس، ثم يُنْقَر في أحد جوانبه ثقب نافذ يدخل فيه قطب الحوض إذا انطبق الحجران، وتُنْقَب في الجانب الآخر من أعلى الحجر ثقب نافذ من جانب

حجر جرانيتي زهري متوفر في الجبال المحيطة بالمنطقة (لوحة ١٤ أ).

الكسرة الخامسة:

جزء من حوض مطحن ذهب مصنوع من حجر جرانيتي يغلب عليه اللون الأبيض، وهو من الخامات المتوفرة في جبال المنطقة. (لوحة ١٤ ب).

الكسرة السادسة:

جزء من الحجرة العليا لمطحن ذهب، ناعمة وملساء من جهتها السفلى التي تُطَابِق على حوض المطحن، وغير مشذبة من أعلى. وهي مصنوعة من حجر جرانيتي يغلب عليه اللون الأبيض. ويبلغ طول ما تبقى من هذه الحجرة ٢٣ سم وعرضها المتبقي ١٢ سم أما سمكها فيبلغ ٨ سم (لوحة ١٤ ج).

والحجرة العليا في مطحن الذهب ليست مدورة كما في الرحي المنزلية وإنما مربعة أو مستطيلة: يزيد طولها قليلاً على نصف قطر حوض المطحن ولا يتجاوز عرضها الشبر أي ٢٠ إلى ٢٥ سم. ويستعمل مطحن الذهب إذا خفي خبث الذهب في تراب التبر، ولم يبق فيه شيء يلحقه التحصيل أو يدركه البصر، ويستخدم فيه الزئبق الذي يدخل إلى أجزاء التراب اليابسة بفعل الضغط العظيم

= ص ١٠٩، لوحة ١١٣ ب، ويلاحظ أن التعليق الذي كتب على صور المطحن الواردة في هذه اللوحة، يشير إلى أنه رحي للحبوب، وهذا غير صحيح.

(٣٠) الهمداني، الجوهريتين، ص ص ١٤٠، ١٤٢.
(٣١) هيستر، جيمس وآخرون، تقرير مبدئي عن مسح مناطق التعدين القديمة بجنوب غرب المملكة، أطلال، العدد الثامن، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، =

إلى آخره ليدخل فيها الحبل الذي يَشُدُّ على الحجر خشبة طولها ذراعان تسمى خشبة السائق، وبواسطتها يتم تحريك الحجر العلوي للمطحن والذي يدور داخل الحوض. ولهذا المطحن قاعدة تُبْنَى من الآجر على شكل أسطوانة جوفاء لها باب، ارتفاعها يزيد قليلاً عن الذراع، وقطرها يماثل قطر حوض المطحن من الخارج. ويوضع المطحن على القاعدة ويحكم ما بينهما بالجص، ويوزن مئثعب الحوض على وسط باب القاعدة، ثم توضع جفنة عبر الباب داخل الأسطوانة ليسيل إليها ما في حوض المطحن إذا فتح باب المئثعب.^(٣٢)

طريقة عمل المطحن:

إذا أُريد طحن تراب الذهب سُدَّ المئثعب وأُلقي في المطحن من تراب الذهب على قدر سعته وصُب عليه من الماء مقدار الكف، ومن الزئبق قدر معين يتناسب مع قدر كمية التراب، ثم تُدار خشبة المطحن فيتسرب التراب والزئبق والماء تحت حجرتي المطحن وينعرك، ويستمر دوران المطحن حتى يُصْبِح التراب أدق من كحل العين، ويُرى الزئبق قد غلظَ بما لَقَطَ من الذهب. ثم يُفْتَح مئثعب المطحن وينزل إلى الجفنة كل ما في حوض المطحن، وإذا بقي من الزئبق شيء سيق إلى المئثعب براحة اليد وبالماء حتى لا يبقى في الحوض شيء، ثم

يُجْمَع الزئبق من الجفنة ويُصَب في خرقة سميكة وقوية، ويُحذَر أن ينقلب من اليد فيتبدد، ثم تُصَر الخرقة صراً جيداً ويُضَغَط عليها في راحة اليد ليخرج منها الزئبق ويبقى الذهب على شكل جوزة بقدر ما كان في التراب من ذهب، ثم تُكْرَّر عملية الطحن ليحصل على عدد من جوزات الذهب، ثم يتم شي الجوزات حتى يحترق ما بقي فيها من زئبق^(٣٣).

ب- الكسر الفخارية غير المزججة:

١- كسرة صغيرة الحجم من نوع فخار الطبخ الأسود المضلع (Cooking Pottery) مقاسها ٢٥ مم طولاً × ١٤ مم عرضاً × ٤ مم سماكة، وهي جزء من بدن قدر طبخ من مكان قريب من الرقبة (لوحة ١٥ ج، د). وقدور الطبخ هذه لها شكل البرمة بفوهة ضيقة وبدن واسع من أسفل. وتصنع بالعجلة من عجينة نقية جداً، وتحرق بطريقة جيدة، على درجة حرارة عالية، فتصبح بعد حرقها شديدة الصلابة، وهي في الوقت ذاته غير سميكة مما يجعلها تتحمل اللهب وتكتسب الحرارة بسرعة. وتتميز هذه القدور بوجود التضييع على أبدانها، أما لونها ففي الأصل بني فاتح غير أنها تكتسب اللون الأسود أو الأشهب من الخارج نتيجة دوام الاستخدام على النار، ولذلك

(٣٢) الهمداني، الجوهريتين، ص ص ١٤٠، ١٤١.

(٣٣) المصدر السابق، ص ص ١٤١، ١٤٢.

ويطلق عليها بعض الدارسين مسمى فخار الطبخ الأسود المضلع. وهذا النوع من القدور عُرف في العصرين الروماني والبيزنطي، وأنتج بكثرة في العصر الأموي^(٣٤)، كما استمر استخدامها في القرن الثاني الهجري (بداية العصر العباسي) وقد عثر على أوانٍ كاملة منها في الربذة في طبقات من القرن الثاني الهجري، معروضة في متحف الآثار بجامعة الملك سعود. ويمكن نسبة الكسرة الملتقطة من مستوطنة شعيب المصانع إلى فترة القرنين الأول والثاني للهجرة.

٢- ثلاث كسر من فخار متوسط السماكة ذو لون يميل إلى الاصفرار، مصنوع بالعجلة من عجينة متوسطة النقاوة تشاهد فيها حبيبات الرمل وشوائب أخرى. وصلابة هذه الكسر متوسطة نتيجة الحرق على درجة حرارة غير عالية، ولذا فهي أشبه ما تكون بفخار القل. واثنان من هذه الكسر شفاه قلل أو أكواز أو دوارق، وهما من نوع الشفة المستقيمة: إحداهما بسمك ٩ مم، والأخرى سمكها ٨ مم (لوحة ١٦ أ)، أما الكسرة الثالثة فجاءت من قاعدة مستوية، وقد تكون قاعدة لدورق أو قلة أو كوز (لوحة ١٦ ب).

وجود كسر القل أو الأكواز أو الدوارق في موقع قرية تعدينية أمر له ما يبرره، فبالإضافة إلى استخدام هذه الأواني في حفظ المياه وتبريدها كان المعدّنون يستخدمونها في شي كرات الذهب (الجوز) لتخليصها من الزئبق المتبقي بها، فإذا أرادوا شي الجوز جعلوه في كوز فخاري مما يشرب فيه وملئ مع الجوز فحم، وصيّر في حلق الكوز خرقة تحبس الجوز والفحم إذا قلب الكوز على فمه، ثم يؤتى بكوز آخر مثل الأول أو أكبر منه ويوضع فيه ماء إلى منتصفه، ويحفر له ويدفن إلى حلقه، ثم يوضع عليه الكوز الأول مقلوباً حتى تتقابل الفوهتان، ثم تُلَيَس نقطة التقاء الكوزين بالطين، ثم يوضع على الكوز الأعلى المقلوب الفحم والخطب ويشعل فيه النار من جميع جوانبه إلى أن يحتمى الكوز وما في جوفه، ثم يُترك حتى يبرد، ثم يُنحَى ما حوله من رماد ويُفصل عن الكوز الأسفل ويُخرج ما في جوفه من جوزات الذهب والتي تكون ضامرة بعض الشيء لخروج الزئبق منها، ثم يُخرج الكوز المدفون ويصب ما فيه من ماء فيتحصل على الزئبق الذي كان في الجوزات وقد اجتذبت رطوبة الماء^(٣٥). وبالإضافة إلى الكوز تستخدم القلة في شي الجوز حيث يوضع في بطنها،

= حسين، محمود إبراهيم، الخزف الإسلامي في الأردن، دار الثقافة العربية، القاهرة ١٩٨٨م، ص ٦٦.

(٣٥) الهمداني، الجوهريتين، ص ١٤٢.

Sauer James, Heshbon Pottery 1971, (٣٤) Andrews University press. Michigan 1973 p.40. Smith R.H., Pella of the Decapolis, vol.I, the College of Wooster, 1973, p230-231. =

وَيُطَيَّنَ عَلَى رَأْسِهَا، وَيُوقَدُ عَلَيْهَا حَتَّى تَحْتَمِيَ
وَيَحْتَرِقَ الزَّبَقُ فَيَخْرُجَ عَلَى هَيْئَةِ دَخَانٍ مِنْ
الطِينِ الَّذِي عَلَى رَأْسِهَا^(٣٦).

٣- إحدى وستون كسرة من فخار سميك
يميل لونه إلى الاخضرار من نوع فخار
الأزير (الخُب) أو الجرار الكبيرة،
ومعظم هذه الكسر من الجزء العلوي
للبدن ومن بينها كسرتان من الشفة
وكسرة من البدن القريب من القاعدة،
وعلى بعضها آثار حريق (لوحة ١٦ ج)،
وعلى بعضها الآخر آثار نشر أو قص.
وهذا الفخار مصنوع من عجينة
متوسطة النقاوة، وهو شديد الصلابة
نتيجة حرقه على درجة حرارة عالية،
وتلاحظ على كسره آثار تشكيله باليد،
وآثار تشطيفية على العجلة، وكما هو
معروف فإن بعض الأواني الكبيرة
الحجم تشكل باليد وتسوى وتُشَطَّبُ
بالعجلة.

والأزير كانت بالإضافة إلى استخدامها
في حفظ المياه وتبريدها تستخدم من قبل
المُعَدِّنِينَ فِي اسْتِخْلَاصِ الْفُضَّةِ الْمُخْتَلِطَةِ
بِالذَّهَبِ فِي التُّرَابِ الْمُطْحُونِ، حَيْثُ يُعْمَدُ إِلَى
الخُبِّ وَيُسْقَى بِالْمِنْشَارِ وَيُسَمَّى الشُّطْرُ مِنْهُ
الشَّقَّةُ، فَيُطْرَحُ فِي الشَّقَّةِ مِنَ التُّرَابِ عَلَى قَدَرٍ
كَبِيرٍ وَيُلْقَى فِيهَا مِنْ أَرْطَالِ الزَّبَقِ قَدَرُ
الْكَفَايَةِ ثُمَّ يَلْبَسُ الْمُعَدِّنُ فِي رَاحَتِهِ قِطْعَةً أَدِيمٍ

وَيَفْرِكُ التُّرَابَ بِالزَّبَقِ يَابِساً، ثُمَّ يَصُبُّ
الْجَمِيعَ فِي جَفْنَةٍ كَبِيرَةٍ بِهَا مَاءٌ فَيَتَجَمَّعُ
الزَّبَقُ فِي الْمَاءِ مَعَ مَا لَقَطَ مِنْ ذَهَبٍ،
وَيَحْتَفَظُ بِحَصَالَةِ التُّرَابِ فِي الْجَفْنَةِ الثَّانِيَةِ
لِيَقُومَ بِعَصْرِهَا فِي خَرْقَةٍ قَوِيَةٍ لِيَحْصُلَ مِنْهَا
عَلَى كِرَاتٍ صَغِيرَةٍ مِنَ الْفُضَّةِ عَلَى هَيْئَةِ الْبَنْدُقِ
يَقُومُ بِشِئِهَا كَمَا فَعَلَ مَعَ كِرَاتِ الذَّهَبِ^(٣٧).

ج- كسر الفخار المزجج:

تم التقاط أربع كسر من الفخار المزجج
جميعها من نوع الفخار المزجج ذي الطلاء
القلوي (Monochrome Alkaline-glazed Pottery)
ثلاث منها من إناء واحد
(لوحة ١٧ أ)، وهي كسر من البدن مطلية من
الخارج بطلاء قلوي أزرق تركوازي يميل
إلى الاخضرار، ومن الداخل بطلاء قلوي
داكن. وسماك هذه الكسر ١١ مم في المتوسط
مما قد يدل على أنها من إناء متوسط الحجم،
من نوع الجرار. أما الكسرة الرابعة فصغيرة
الحجم وأقل سماكة إذ لا يتعدى سمكها ٥ مم،
ومطلية من الجهتين بطلاء قلوي تركوازي
أكثر ميلاً للاخضرار من الكسر السابقة
(لوحة ١٧ ب)، ويحتمل أنها كسرة من بدن
جرة صغيرة.

وتستخدم الجرار المطلية بالطلاء القلوي
في حفظ السوائل والزيوت، كما استخدمت
في حفظ الأشياء الثمينة ولا يستبعد أن يحفظ
بها المُعَدِّنُونَ سُكَّانَ الْقَرْيَةِ الزَّبَقِ الَّذِي

(٣٦) المصدر السابق، ص ١٤٣.

(٣٧) المصدر السابق، ص ص ١٤٣، ١٤٤.

الطلاء عند البارثين واليونان والرومان والبيزنطيين في بلاد فارس والعراق والشام ومصر. كما استخدمت الأواني المطلية بالطلاء القلوي في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وعُثر على أوانٍ كاملة وكسر كثيرة ترجع إلى تلك الفترة في مواقع بالمملكة أبرزها الفاو^(٤١).

وفي عهد الرسول صلى الله عليه وسلم عرفت الأواني المطلية بالطلاء القلوي باسم الحناتم (جمع حنتم)، فقد ورد في الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن الانتباز في أواني الحنتم، وقيل لأبي هريرة ما الحنتم؟ فقال الجرار الخضر^(٤٢) والانتباز نقع التمر في الماء وتحويله إلى نبيذ أي عصير غير متخمّر، والنهي سببه أن طبقة الطلاء القلوي التي تغطي هذه الجرار من الداخل والخارج تجعلها غير مسامية مما يُعَجِّل بتفاعل محتواها وتخمّره، فيزداد احتمال أن يصبح هذا النبيذ خمراً مسكراً. وقد شمل النهي أيضاً للسبب نفسه أواني الفخار المُقَيَّر أي المطلي من الداخل بالبقار^(٤٣). واستمر إنتاج الأواني الفخارية المطلية بالطلاء القلوي في العصر الأموي وخصوصاً في بلاد فارس والعراق، وكثير

يستخدمونه في عملية التعدين أو ما يحصلون عليه من ذهب، فقد عثر على كنوز من العملات الإسلامية محفوظة داخل جرار من هذا النوع. وبالإضافة إلى الجرار صنع المسلمون من هذا النوع من الفخار المزجج المزهريات، والصحون والطاسات التي استخدمت على المائدة، ومسارج الإنارة، وبعض هذه الأواني وجدت منها قطع كاملة في حفرة الربذة^(٣٨).

والطلاء القلوي تستخدم في تركيبته مادة قلوية مثل الخل والتيزاب تضاف إلى تركيبة الطلاء الزجاجي المكونة من السلكا والمواد الصاهرة، كما يضاف إليه أيضاً أكسيد النحاس ليكسبه لوناً تركوازيّاً بدرجات متعددة^(٣٩). وقد عرف استخدام الطلاء القلوي منذ العصور القديمة، وهو أقدم أنواع الطلاءات المعدنية على الفخار التي اهتدى إليها الإنسان، وترجع أقدم أمثله المعروفة إلى مصر الفرعونية، حيث عُثر على أوانٍ عرفت بالفايانس المصري مغطاة بطبقة من الطلاء القلوي، كما عثر على نماذج من الآجر المغطى بالطلاء القلوي في بلاد فارس وإيران يرجع تاريخها إلى ١٠٠٠ سنة قبل الميلاد^(٤٠)، واستمر استخدام هذا النوع من

(٤١) الأنصاري، عبدالرحمن، "قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية" جامعة الرياض، ١٤٠٢هـ، ص ٣٠، ١٤٤، ١٥٤.

(٤٢) النووي، محيي الدين أبو زكريا (ت ٦٧٦هـ)، شرح صحيح مسلم، دار القلم، بيروت، بدون تاريخ، ج ١٣، كتاب الأشربة، ص ١٦٩ حديث رقم ١٩٩٣. (٤٣) المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.

(٣٨) الراشد، سعد، الربذة، ص ص ١٠٤، ١٠٥، صورة رقم ١٧١، ١٧٢.

(٣٩) ماهر، سعاد، الفنون الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦م، ص ١٦.

(٤٠) هودجز، هنري، الخزفيات، ترجمة محمد يوسف بكر، معهد الإنماء العربي، بيروت: ١٩٨١، ص ص ١٠، ٩.

- إنتاجه في العصر العباسي وانتشرت صناعته في سائر مراكز صناعة الفخار^(٤٤). وأهم مميزات الفخار المزجج ذي الطلاء القلوي الذي يرجع إلى الفترة الإسلامية المبكرة ما يلي^(٤٥):
- تمثل الجرار الكبيرة الحجم والمتوسطة التي استخدمت في حفظ أنواع معينة من المواد السائلة والصلبة أبرز أنواع الأواني التي صنعت في تلك الفترة.
- شيوع استخدام اللون الأزرق الذي يميل إلى الاخضرار في الأواني التي يرجع تاريخها إلى فترة القرن الأول الهجري وبداية الثاني، وميل اللون إلى الاخضرار ينتج عن قلة نسبة أكسيد النحاس في تركيبة الطلاء.
- شيوع استخدام اللون الأزرق الغامق في الأواني التي يرجع تاريخها إلى القرن الهجري الثالث وما بعده.
- معظم الأواني المطلية بالطلاء القلوي تشكل بالعجلة وتصنع من عجينة نقية غالباً، وأحياناً متوسطة النقاوة يميل لونها إلى الاصفرار.
- طبقة الطلاء القلوي سميكة بحيث تتشقق في بعض الأحيان.
- يلاحظ في الجرار أن طبقة الطلاء القلوي الداخلية أقل سماكة من الخارجية، ويقل فيها تركيز أكسيد النحاس، وأحياناً يضاف إلى الطلاء مسحوق حجر الكحل فيصبح لون الطلاء الداخلي ذا زرقة ميالة للسواد.
- استخدام زخارف تحت طبقة الطلاء منفذة بالحز أو بالطبع أو بالإضافة أو بطريقة الباروتين، حيث يستخدم قمع في تشكيل حبال طينية أو نقط تنفذ بها عناصر زخرفية متنوعة ومتكررة، وتظهر الزخارف بكثرة في إنتاج العصر العباسي.
- ويلاحظ أن كسر الفخار ذات الطلاء القلوي الملتقطة من سطح موقع شعيب المصانع يميل لونها إلى الاخضرار، وتخلو من الزخارف، مما يقوي احتمال أن يعود تاريخها إلى فترة القرنين الأول والثاني للهجرة.
- د- الكسرة الزجاجية:
- تم التقاط كسرة واحدة من الزجاج، وهي كسرة من قاعدة قارورة خضراء اللون قطر قاعدتها ٨ سم (لوحة ١٧ ج). وقد عثر على

(٤٥) Ghabban Ali, "Introduction à l' étude archéologique des deux routes syrienne et égyptienne de Pelerinage au Nord-Ouest de l Arabie Saudite" pp.423-424.

رسالة دكتوراه غير منشورة نوقشت بجامعة بروفانس
أبريل ١٩٨٨ م.

(٤٤) Lane Arthur. **Early Islamic Pottery, Mesopotamia Egypt and Persia**, P.8, 1947. Faber and Faber. London.
Soustil Jean, **La Céramique islamique, Le guide du connaisseur**. Office du Liver, Suisse 1985, PP.30, 33, 42.

أمثلة كاملة من نوعها في حفرة الربذة، وبأحجام مختلفة^(٤٦). ولهذه القوارير بدن كروي وقاعدة مقعرة وعنق مخروطي ينتهي بشفة مثنية إلى الخارج، وتصنع هذه القوارير بطريقة النفخ الحر، وربما كانت تصنع في الربذة، حيث عثر على مصهر للزجاج وقطع تالفة أثناء الصنع، وتعتبر طريقة النفخ الحر أقدم طرائق صناعة الزجاج التي امتد إلى الإنسان. وقد تطورت صناعة الزجاج على يد المسلمين وأدخلت عليها أساليب جديدة في التشكيل والزخرفة، وصنع المسلمون قوارير متعددة الوظائف وكؤوساً وصحوناً وطاسات وأواني لحفظ العلاج وتناوله. بالإضافة إلى صنع الموازين والمكايل وأنواع الحلي، وانتشر استخدام الأواني والأدوات الزجاجية في حياة المسلمين اليومية^(٤٧).

التاريخ المحتمل لسكن القرية:

يدل تخطيط القرية وموقع المسجد منها على أن بناء المسجد متزامن مع نشأتها وليس مضافاً عليها. ووجود المسجد بملامحه الواضحة يؤكد أن هذه القرية كانت مأهولة بعد الإسلام وليس قبله، كما أن الخصائص المميزة لمخطط المسجد وعناصره المعمارية وخصوصاً محرابه الذي يشبه محراب مسجد الربذة الجامع يسمح بتحديد فترة سكنى هذه

القرية بالفترة الإسلامية المبكرة: صدر الإسلام والعصرين الأموي والعباسي الأول. وإذا أخذ بعين الاعتبار عدم وجود أدلة أثرية أو كسر من فخار وخزف القرن الثالث الهجري بالموقع، وفي الوقت نفسه توفر مواد فخارية مميزة يمكن نسبتها إلى القرنين الأول والثاني للهجرة، وخصوصاً كسر فخار الطبخ الأموي، وكسر الفخار المزجج ذي الطلاء القلوي الذي يميل لونه إلى الأخضرار، فإن الباحث يميل إلى حصر تاريخ سكنى هذه القرية، ومن ثم نشاط التعدين في المنجم المتصل بها في فترة القرنين الأول والثاني للهجرة. وهذه النتيجة مبنية على تواريخ المواد الأثرية التي ظهرت في العمل الميداني المحدود الذي نفذه الباحث، وهي ليست نتيجة نهائية وقد تبقى هذه الفترة على ما هي عليه أو تمتد لما بعد القرن الثاني الهجري في ضوء نتائج جديدة لعمل ميداني موسع يكشف كامل القرية أو جزءاً كبيراً منها.

لقد شهدت المنطقة الواقعة بين ضريبة والربذة نشاطاً استيطانياً واستثمارياً مكثفاً خلال القرنين الأول والثاني للهجرة، حيث استتبعت فيها مواقع كثيرة للمياه، وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه قد احتفر عيناً خارج حمى ضريبة، وابتنى عماله عند العين قصرأ يسكنونه، فلما قتل عثمان بن

= عبد الخالق، هناء، الزجاج الإسلامي، وزارة الإعلام، بغداد: ١٩٧٦م، ص ص ٤٠-٤٢، ٤٥، ٤٦.

(٤٦) الراشد، سعد، الربذة، ص ٩٢.

(٤٧) المرجع السابق، ص ص ٨٩، ٩٠، صورة ١١٥؛ =

عفان انكشف العمال وتركوها^(٤٨). وكان مروان بن الحكم احتقر حفيرة يقال لها الصفوة على عشرين ميلاً من ضريبة ثم استرجعها بنو الأضبط في أيام بني العباس^(٤٩)، ولبنى الأدرم "بطن من قریش" ماء يبعد ثمانية عشر ميلاً عن ضريبة على طريق المدينة، وكان بنو الأدرم وبنو بجير القرشيون قد نموا بهذا الحفر ونواحيه فكثرت رجالهم به ثم وقعت بينهم شرور فتفرقوا في البلاد^(٥٠)، وبناحية حمى الربذة حفائر أخرى كحفيرة بني نصر موالى عبدالله بن عامر^(٥١)، هذا بالإضافة إلى مياه القبائل الساكنة في هذه النواحي. وأما المعادن فتذكر المصادر معادن عدة استجدت بهذه النواحي خلال الفترة الإسلامية المبكرة مثل معدن النقرة المعروف بمعدن القرشي وهو للمسيب بن سليمان المخزومي، وقد استحدثه في أيام الوثائق. والمعدن حصن حوله خندق وله بابان^(٥٢)، ومعدن الماوان: لرجل من الأعراب يقال له مربع وهو في أرض محارب^(٥٣). قال الأصفهاني: "ومن جبالهم (يقصد محارب) ماوان وهو جبل أسود ضخّم قال الحاربي^(٥٤):"

إِنْ يَنْدُ مَاوَانُ فَقَدْ طَالَ شَوْقُنَا

إِلَى الرُّكْنِ مِنْ مَاوَانٍ لَوْ كَانَ بَادِيَاً

وَلَوْ كَلَفْتَنِي قَوْدَ مَاوَانٍ قُدُّهُ

قِيَادَ الْبَعِيرِ أَوْ قَطَعْتُ فُؤَادِيَاً.

وفي ديار بني الأضبط هناك معدني المؤخرة والقشراء وهما معدني ذهب وكلا المعدنين كانا سوقاً^(٥٥).

سكان القرية:

إن وجود القرية بجوار أرض المنجم يؤكد أن سكانها كانوا يعملون بالتعدين. والعاملون في معادن الجزيرة العربية خلال الفترة الإسلامية المبكرة على أربعة أصناف:

أبناء القبائل العربية، والموالي، والفرس، واليهود، وكان العرب يطلقون على فخوذ القبائل العربية التي تعمل بالتعدين مسمى بني القين. والقين من معانيه الصانع والحداد فكل صانع يعالج صنعته بنفسه يسمى قيناً إلا الكاتب، والتقيين يعني التزيين، وفي الحديث أَنَا قَيْنَتُ عَائِشَةَ أَي زِينْتَهَا. وقد حمل هذا الاسم أناس صريحو النسب من القبائل العربية عملوا في التعدين لوجود المعادن في أرضهم مثل بني القين من بلي وهم بني فران، وبنو القين من سليم وهو بنو الأخثم بن عوف بن عصىة، وبنو القين بن فهم بن عمرو بن قيس عيلان، والقيون من بني أسد وهم بنو الهالك بن عمرو بن أسد بن خزيمة،

(٥٢) الحربي، المناسك، ص ص ٢٢٤، ٢٢٣.

(٥٣) المصدر السابق، ص ٣٢٥.

(٥٤) الأصفهاني، بلاد العرب، ص ١٧٦.

(٥٥) المصدر السابق، ص ص ١٩٨، ١٩٩.

(٤٨) الجاسر، حمد، أبو علي الهجري، ص ص ٢٤٨، ٢٤٩.

(٤٩) المصدر السابق، ص ٢٥٠.

(٥٠) المصدر السابق، ص ٢٥٤.

(٥١) المصدر السابق، ص ٢٤٤.

وبني القين بن جسر بن شيع الله من قضاة^(٥٦). وقرية شعيب المصانع تقع في أراضي قبيلة محارب كما أوضح الباحث في بداية البحث، وهم بنو محارب بن خصفة بن قيس عيلان، ومن هذه القبيلة كان هناك فخذ يعمل بالتعدين ويحمل أيضاً اسم بني القين، وهم بنو القين بن جسر بن محارب^(٥٧). وديارهم بالقرب من ذي حساء حيث موقع القرية^(٥٨)، ولذا فإن الباحث لا يستبعد أن يكون سكان هذه القرية التعدينية من بني القين بن محارب، وأنهم من المقيمين إقامة دائمة في ديارهم.

ويتوقف دوام الإقامة في أي معدن على استمرار الإنتاج في أرضه، فبعض المعادن يطغى عليها الماء فيحول دون مواصلة العمل فيها، وبعضها يستمر العمل فيها دهرًا مثل معدن النجادي وهو معدن ذهب قريب من ضرية (كان لنجاد بن موسى بن سعد بن أبي وقاص)، وقد عمل فيه بنوه دهرًا، قوم بعد قوم، وضرب به المثل في كثرة النيل (أي استخراج الذهب)، وكانت بقره قرية عظيمة إلا أن الماء غلب عليه في نهاية المطاف^(٥٩).

وقرية شعيب المصانع بنيت بجوار المعدن وفق نظام الحجرات المتباعدة فأنت

أشبه ما تكون بمعسكر العمال، إلا أن هذا لا يمنع أن تكون سكناً لأفراد بأسرهم، والعمل في المناجم يتواصل ويستمر جيلاً بعد جيل، وقرية شعيب المصانع شهدت ثلاث مراحل بنائية - كما ذكر أعلاه - مما يدل على استمرار السكن بالقرية فترة طويلة نسبياً.

إن العمل الميداني الذي تم بالموقع، وهو مسح سطحي وحفر اختبارية محدودة، لم يوفر أدلة تساعد على حسم هذه المسألة، إذ لم يعثر على مواد تدل على وجود عنصر نسائي أو أطفال بالموقع كما هي الحال في حفرة الربذة، حيث عثر على حلي وأدوات زينة نسائية، ودمى خاصة بالأطفال^(٦٠)، ولكن ذلك لا ينفي احتمال إقامة العاملين بالمعدن مع أسرهم، خصوصاً أن توزيع مداخل الوحدات السكنية روعي فيه خصوصية الجار وعدم الكشف.

النتائج العامة للبحث:

يمكن إيجاز أهم النتائج التي خلص إليها هذا البحث في النقاط التالية:

- ١- إن وجود هذه القرية بجانب المنجم يؤكد أنها قرية للمعدنين، ويضاف إلى ذلك أن المواد الأثرية التي عثر عليها بالموقع لها ارتباط بالنشاط التعديني، وبخاصة كسر مطاحن الذهب

(٥٨) الحازمي، الأماكن، ج ١، ص ٣٤٧.

(٥٩) الجاسر، حمد، أبو علي الهجري، ص ص ٢٧٣، ٢٧٤.

(٦٠) الراشد، سعد، الربذة، ص ٩١.

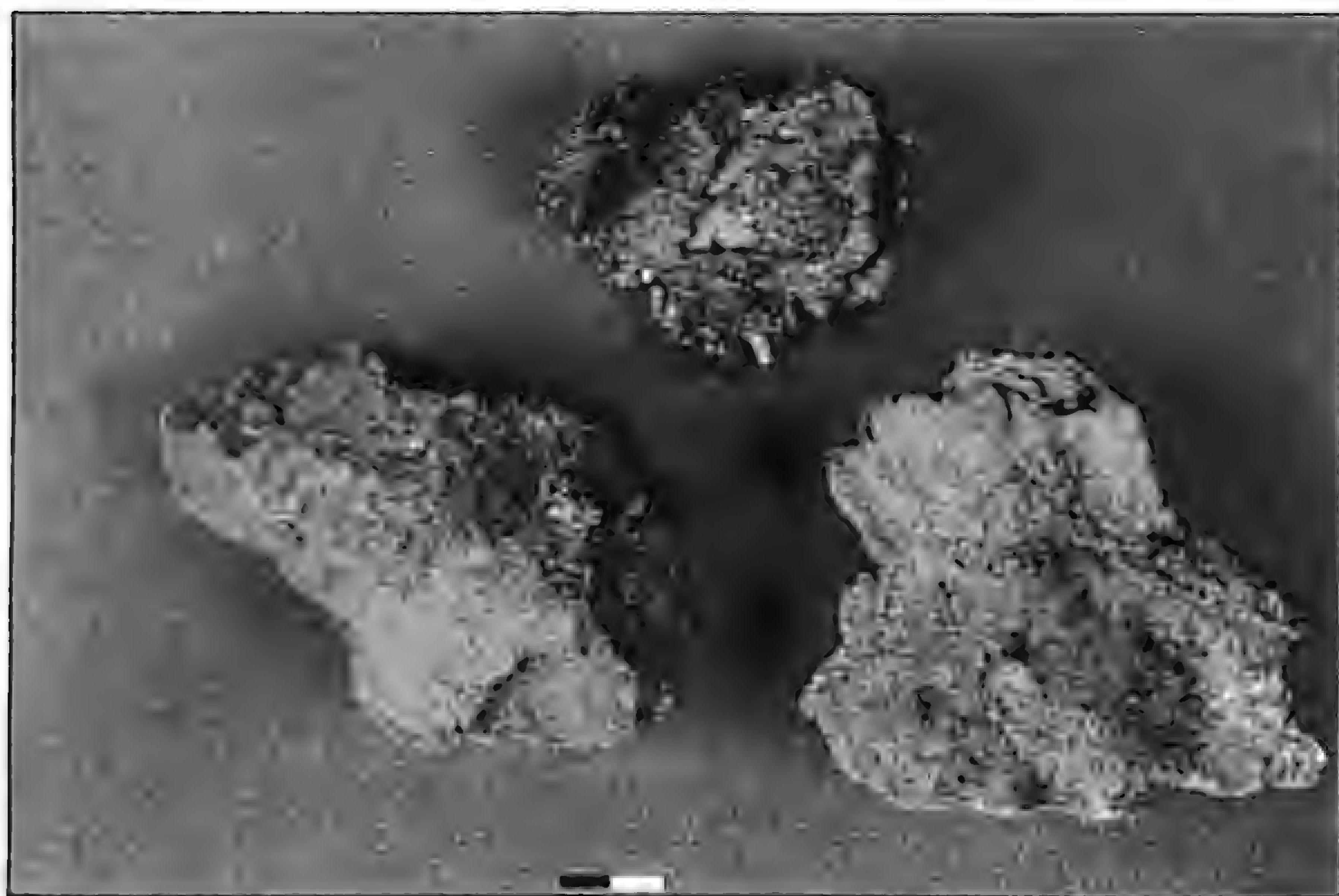
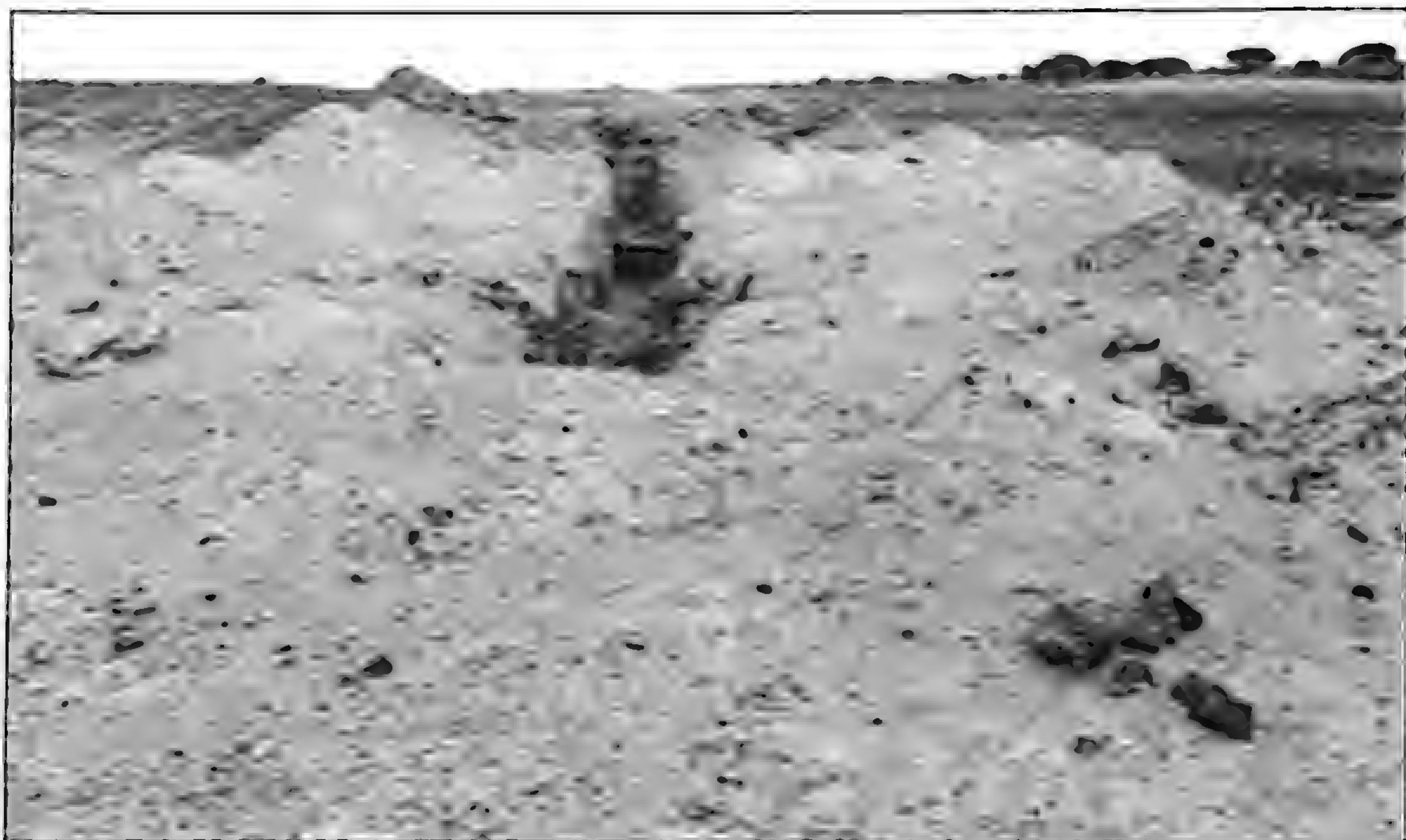
(٥٦) الجاسر، حمد، "المعادن القديمة في بلاد العرب-١" العرب، السنة الثانية، ج ٩، ربيع الأول ١٣٨٨هـ، ص ص ٨٠٧، ٨١٠.

(٥٧) الأصفهاني، بلاد العرب، ص ١٨٧.

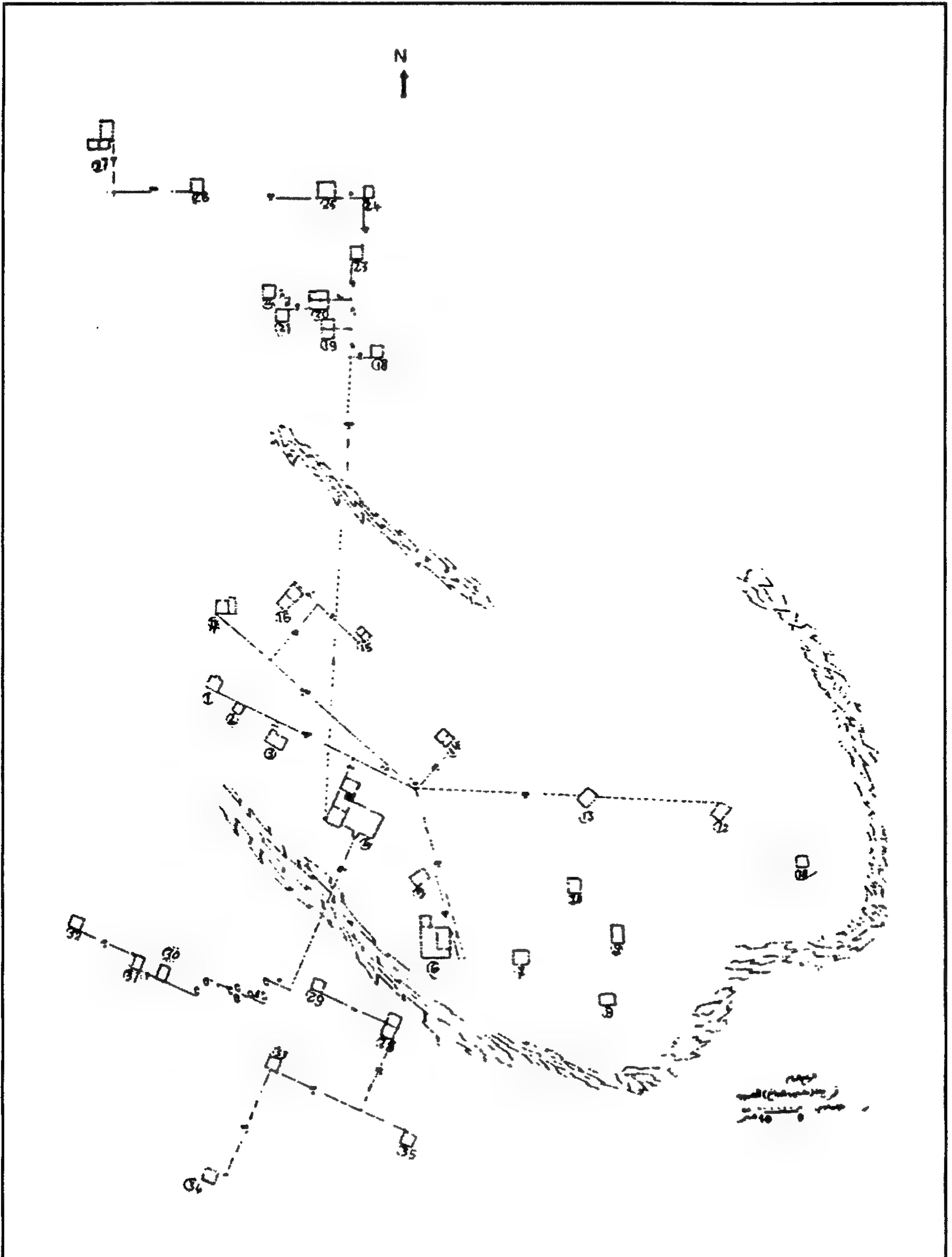
- والمساحن الثابتة القريبة من المجموعة الجنوبية للوحدات السكنية.
- ٢- أظهرت المجسات الأثرية أن التراكم الطبقي في المسجد والوحدة السكنية رقم (١) لا يتجاوز نصف المتر، وهو يقتصر على الطبقات الأثرية الموجودة بين الأساسات المبنية بالحجر، ويبدو أن سمك الطبقات لا يختلف في بقية أجزاء الموقع، حيث يلاحظ عدم وجود تلال أثرية عالية أو اختلاف في الارتفاعات على سطح الموقع. وصغر سمك الطبقات الأثرية لا يعني قصر فترة السكن بالموقع وإنما هو ناتج عن جرف السيول والأمطار للركام الذي نتج عن تهدم الوحدات السكنية المبنية باللبن وبقاء الطبقات المتكونة بين الأساسات الحجرية.
- ٣- أظهرت دراسة المخطط العام للقرية أن بناء القرية مر بثلاثة مراحل بنائية، وأن المجموعة الوسطى للحجرات التي يتوسطها المسجد هي الأقدم تليها المجموعات الأخرى الجنوبية ثم الشمالية، وأن السكن بالموقع استمر لفترة زمنية طويلة نسبياً.
- ٤- في ضوء دراسة المواد الأثرية التي عثر عليها بالموقع، ودراسة مخطط المسجد أمكن تحديد الفترة التي سكنت فيها القرية بالفترة الإسلامية المبكرة (القرنين الأول والثاني للهجرة) وأن هذه القرية: قرية تعدينية إسلامية.
- ٥- في ضوء دراسة النصوص الواردة في المصادر عن التعدين والمعادن وأسماء القبائل والمواضع ذات العلاقة بالمنطقة التي تقع فيها قرية شعيب المصانع، رجح الباحث أن تكون هذه القرية والمعدن المتصل بها من معادن قبيلة محارب العدنانية، وأن يكون العاملون والساكنون في هذه القرية من أفراد هذه القبيلة التي تشير المصادر إلى اشتغال بعض فخوذها بالتعدين.
- ٦- وجود تأثير واضح لعمارة الربذة على الموقع وخصوصاً مسجد القرية وطريقة بناء الحجرات، وتعتبر الربذة أقرب المدن الرئيسة إلى هذه القرية ويرجح أن سكان القرية كانوا يستفيدون من سوق الربذة العامرة طوال العام في قضاء حوائجهم.
- ٧- إن مخطط القرية يأخذ شكل الحجرات المتباعدة وهو أشبه بمعسكر العمال إلا أن الباحث رجح أن القرية كانت مسكونة بأفراد مع أسرهم.
- وختاماً، يشير الباحث إلى أن دراسة هذه القرية التعدينية قدمت مثلاً متكاملًا لأحد أنماط البناء والسكن حول مواقع المناجم في الجزيرة العربية خلال الفترة الإسلامية المبكرة، وسيتيح هذا المثال مجالاً للمقارنة عند دراسة مخططات القرى التعدينية الأخرى، وهي كثيرة وخصوصاً في المملكة العربية السعودية.



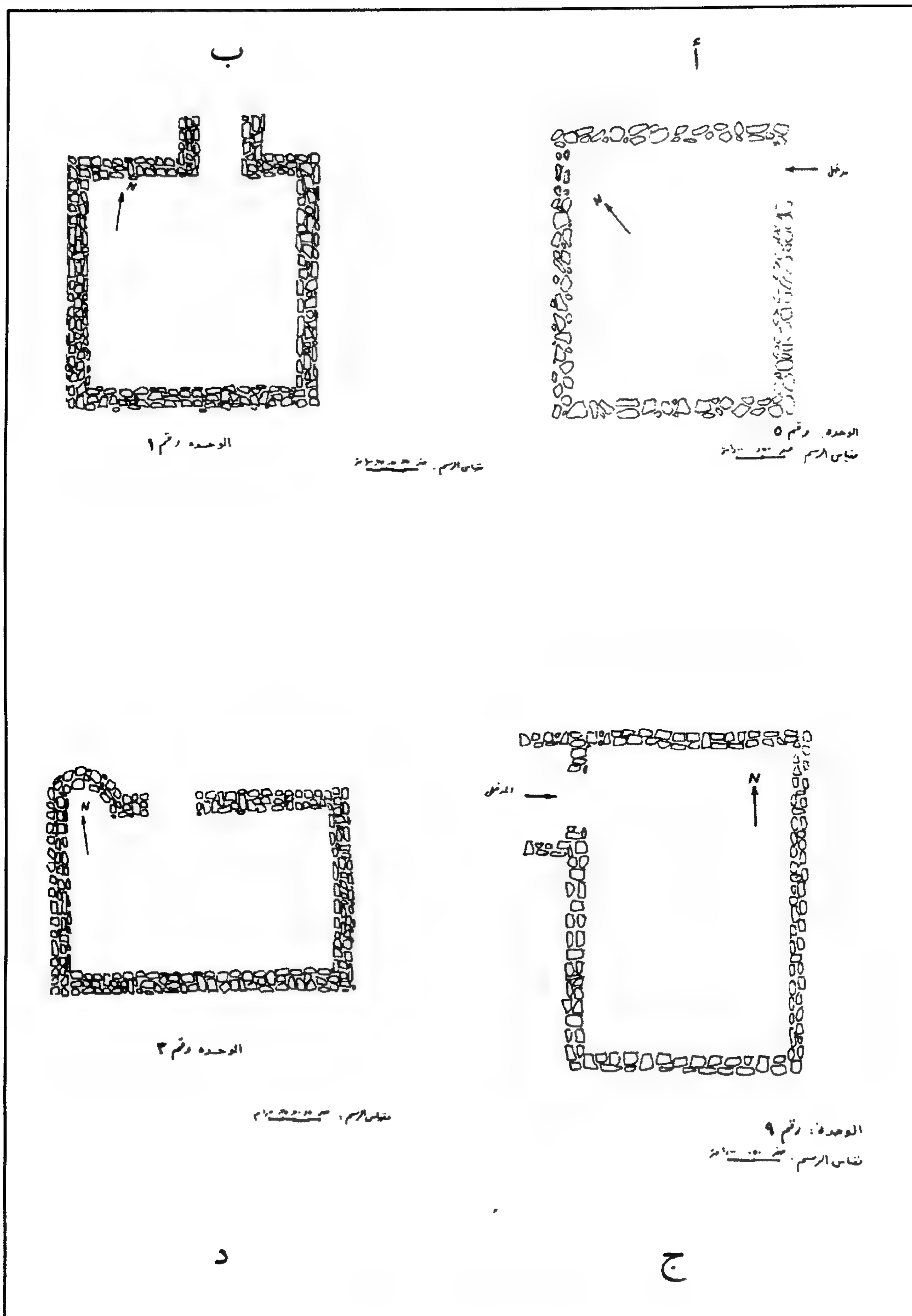
لوحة ٢ : صورتان عامتان لموقع القرية



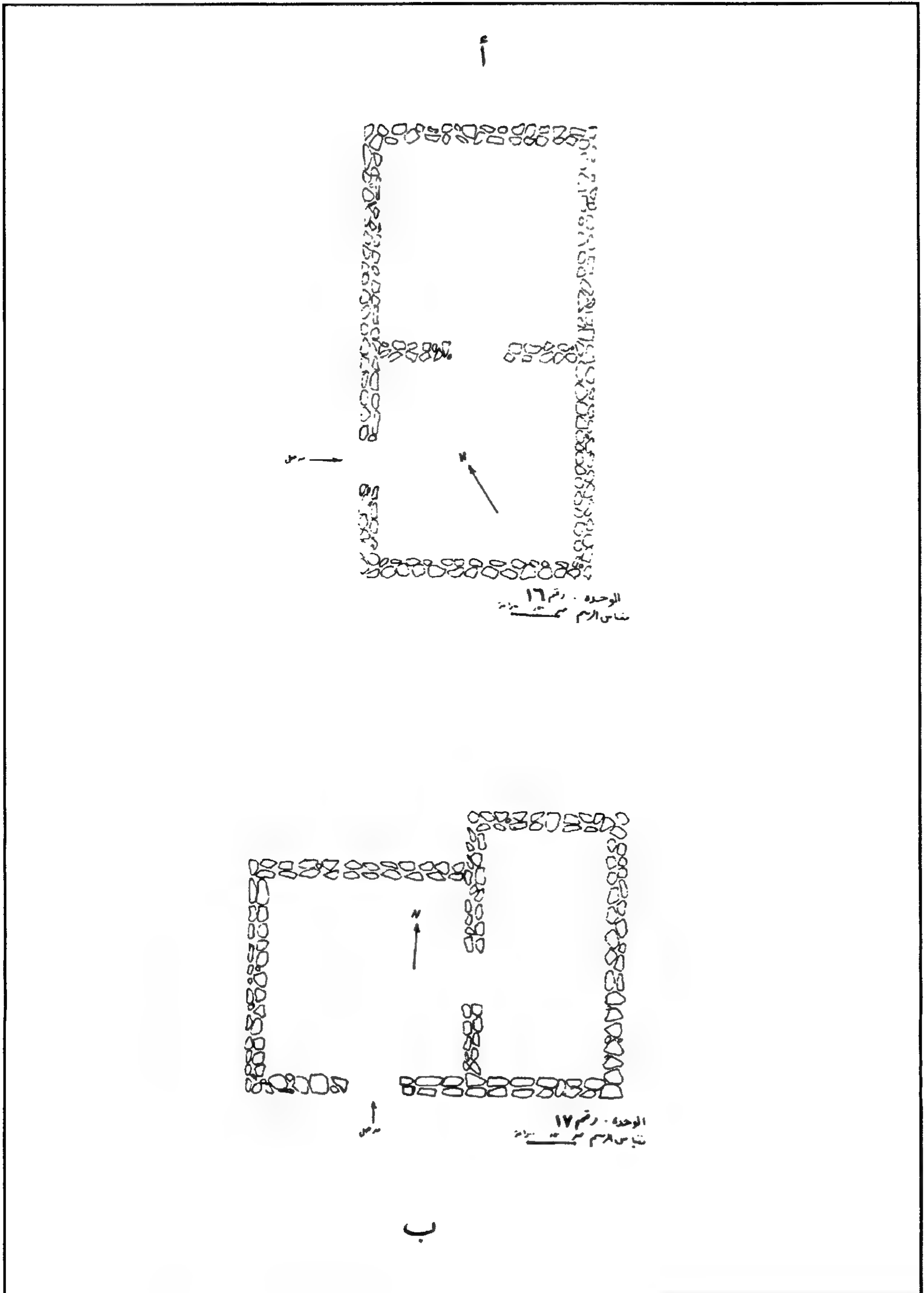
لوحة ٣ : جالب من منطقة التعدين، ونماذج من خامات الموقع المعدنية



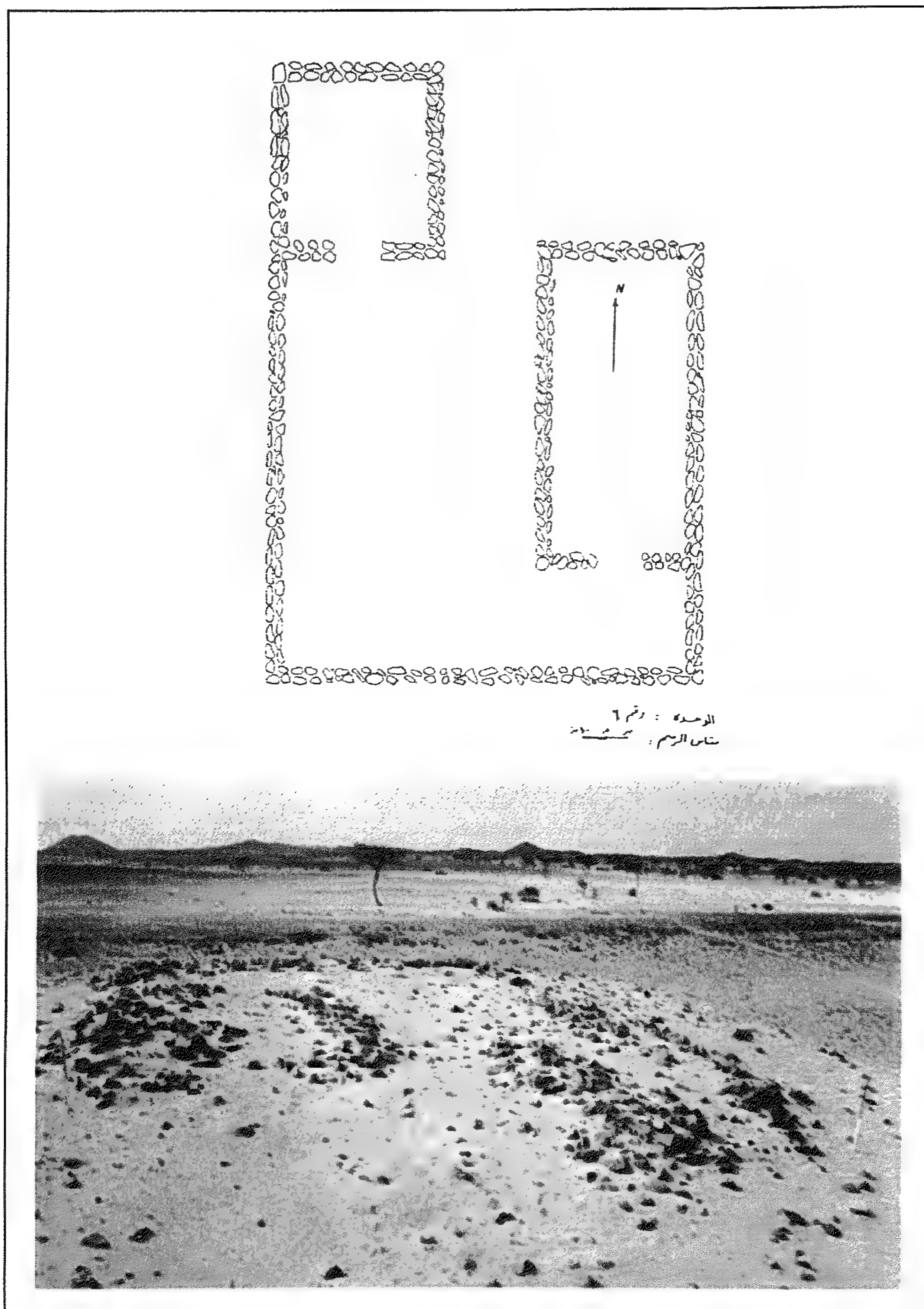
لوحة ٤ : المخطط العام لقرية شعيب المصانع .



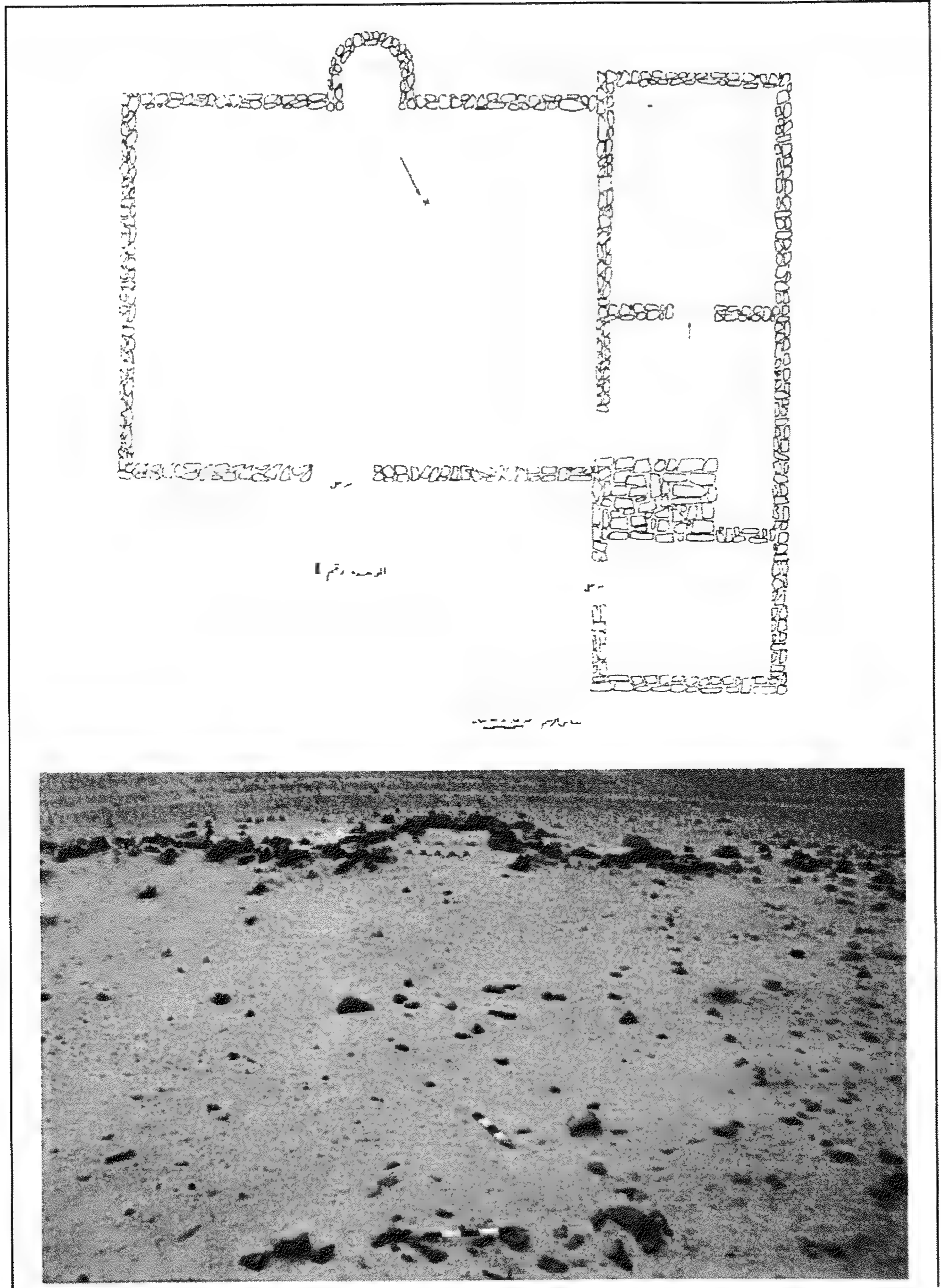
لوحة ٥ : وحدات سكنية ذات حجرة واحدة .



لوحة ٦: وحدتان ذاتا حجرة وفناء، أو حجرتين متلاصقتين .



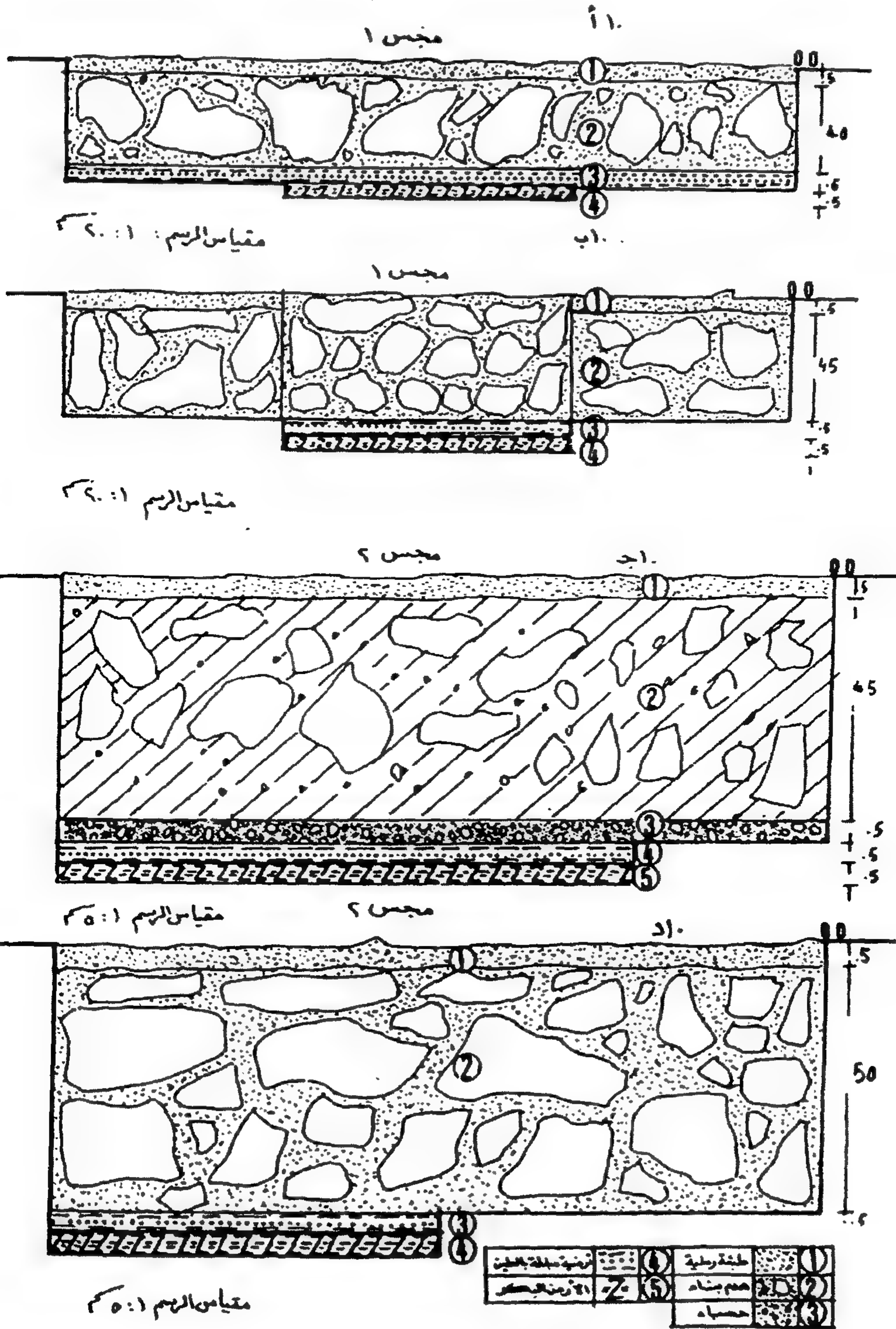
لوحة ٧ : وحدة سكنية مكونة من حجرتين وفناء ، وصورة عامة لموقعها



لوحة ٨ : مسجد القرية ، وصورة عامة لموقعه



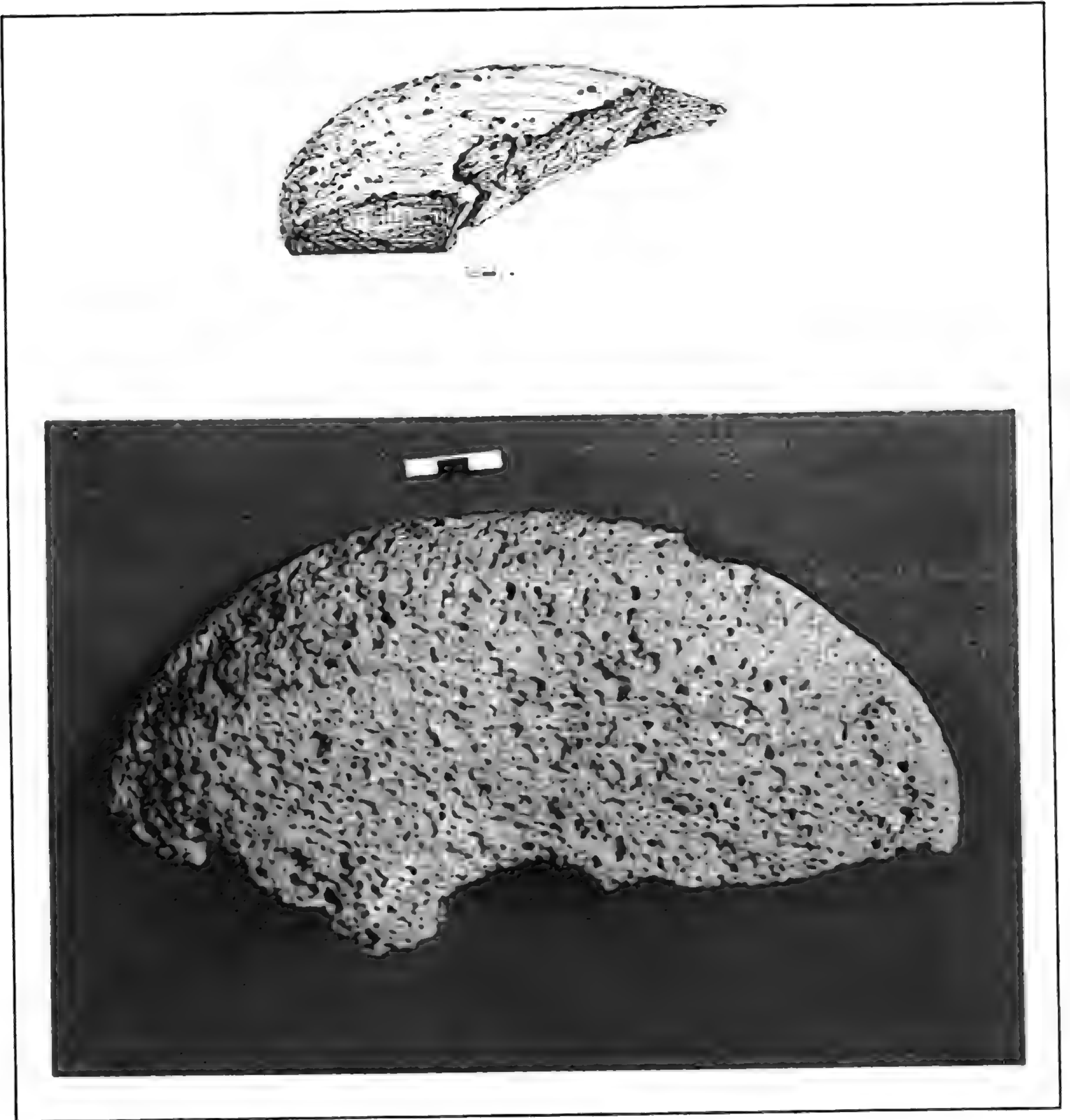
لوحة ٩: حفرة اختبارية في محراب المسجد (المجلس الأول).



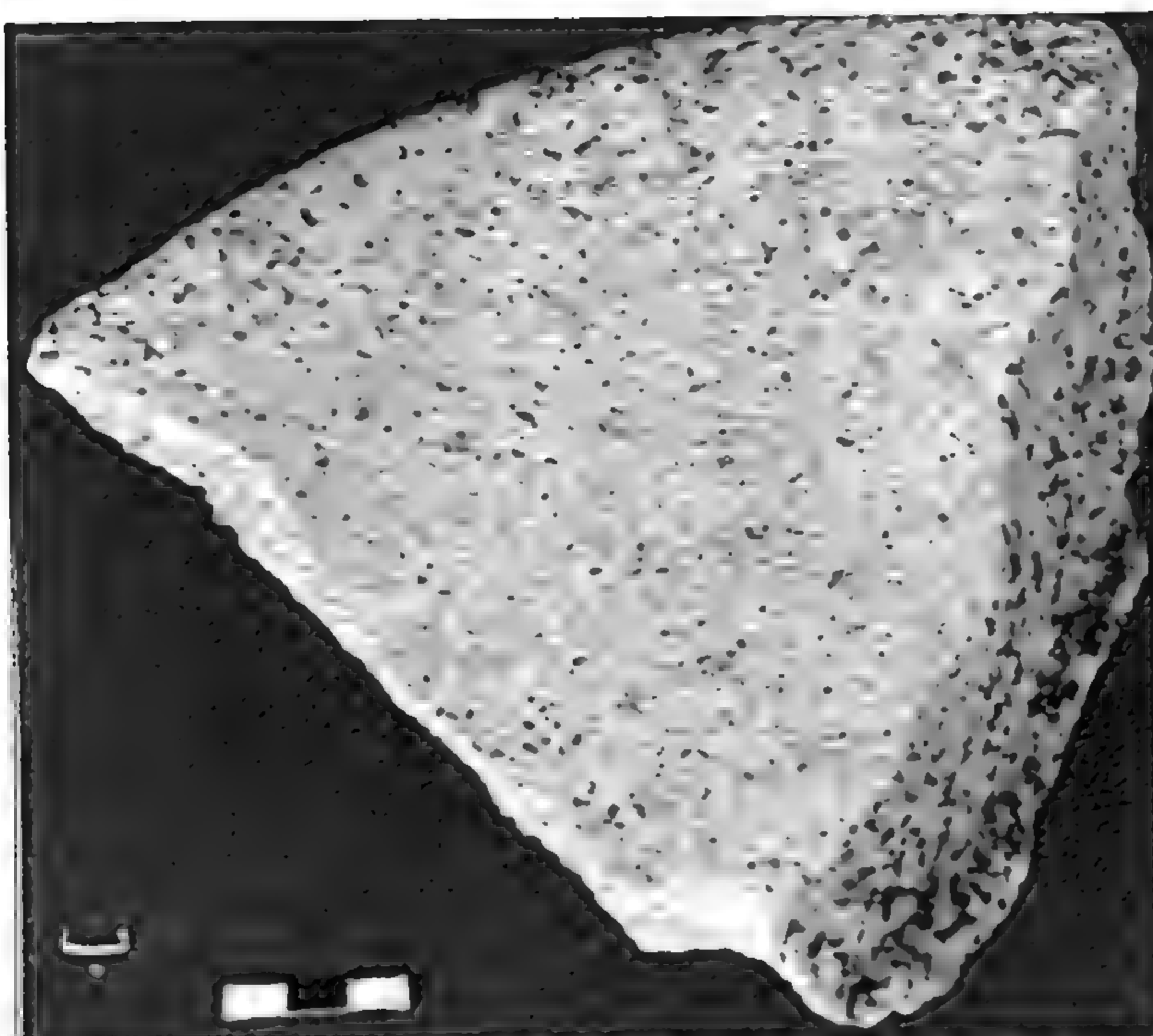
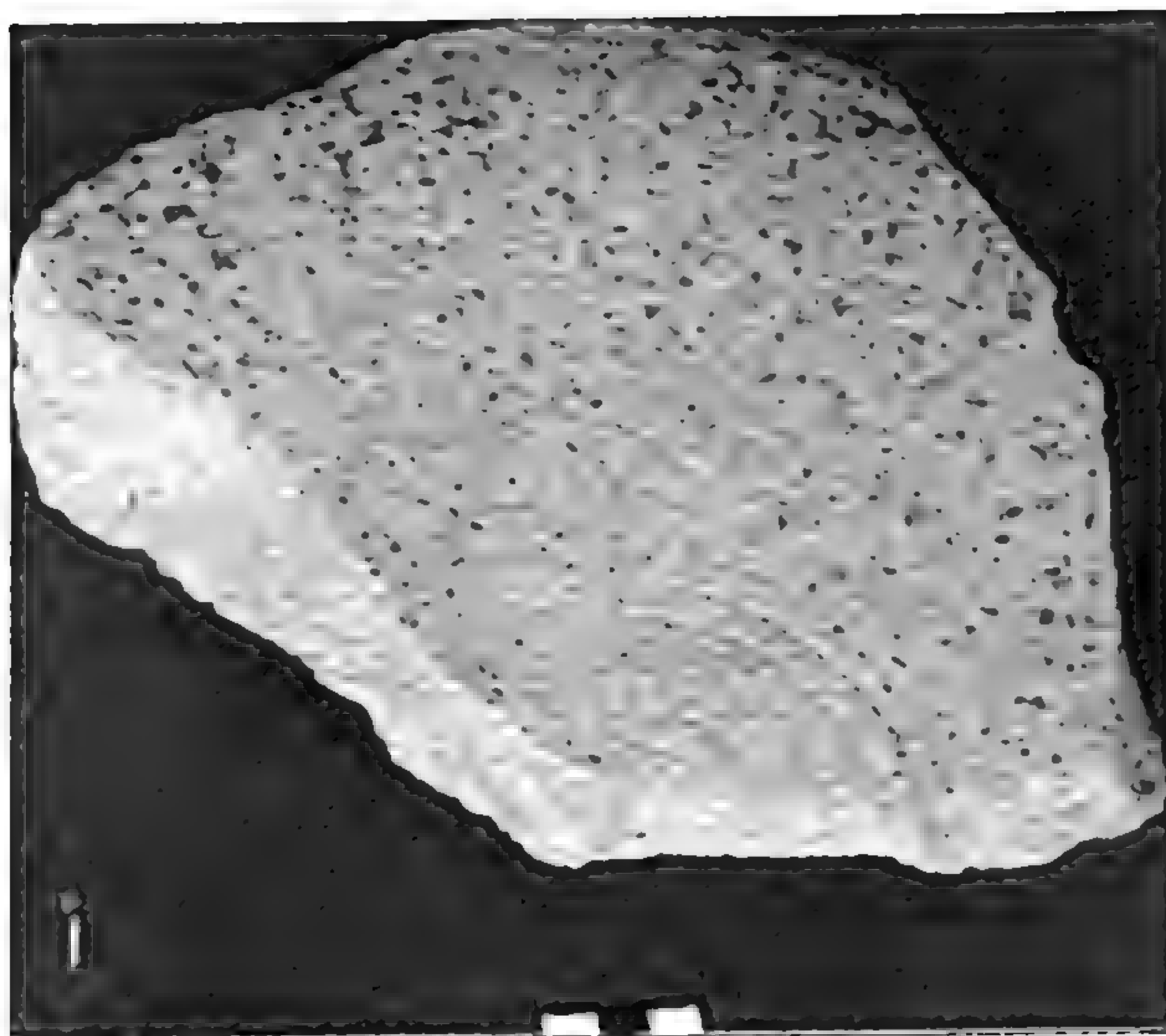
لوحة ١٠: رسم يوضح تراكيب الطبقات في المجسّين .



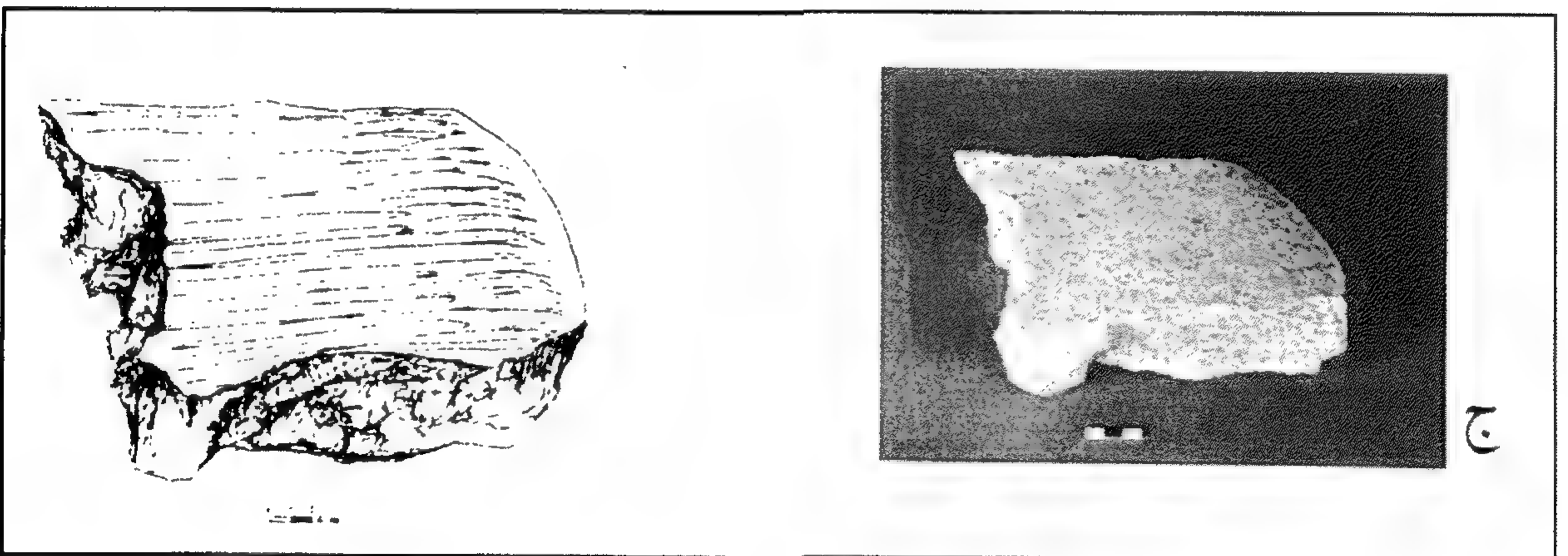
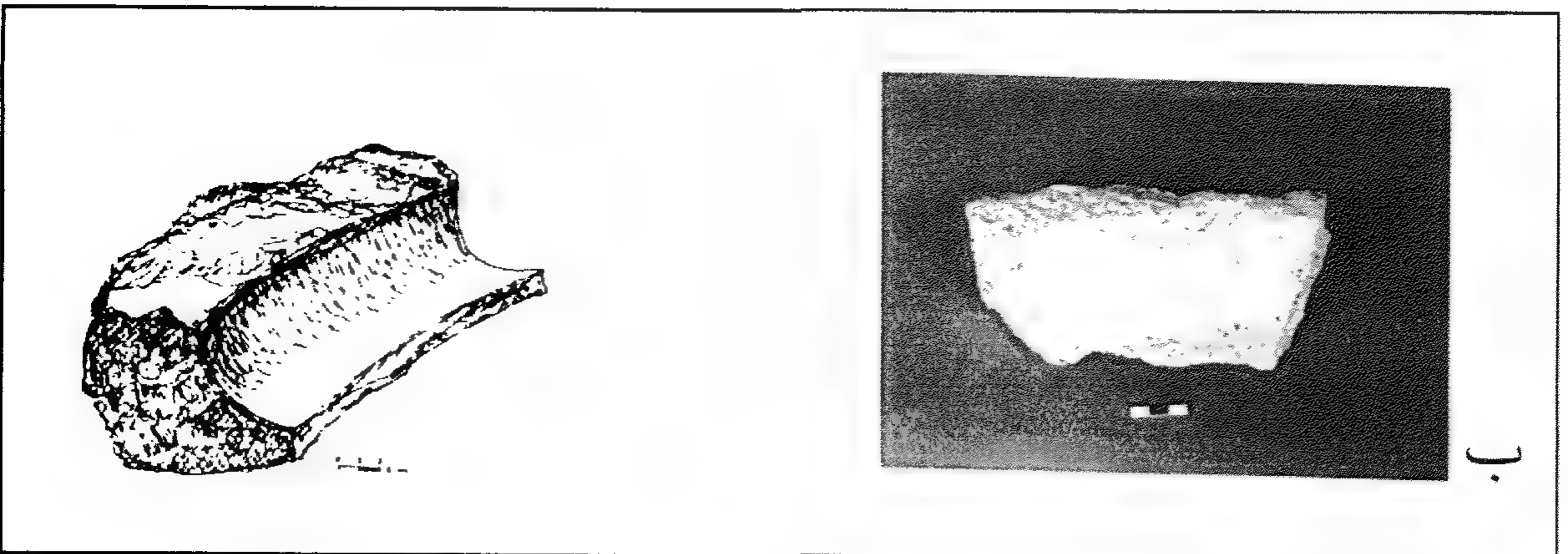
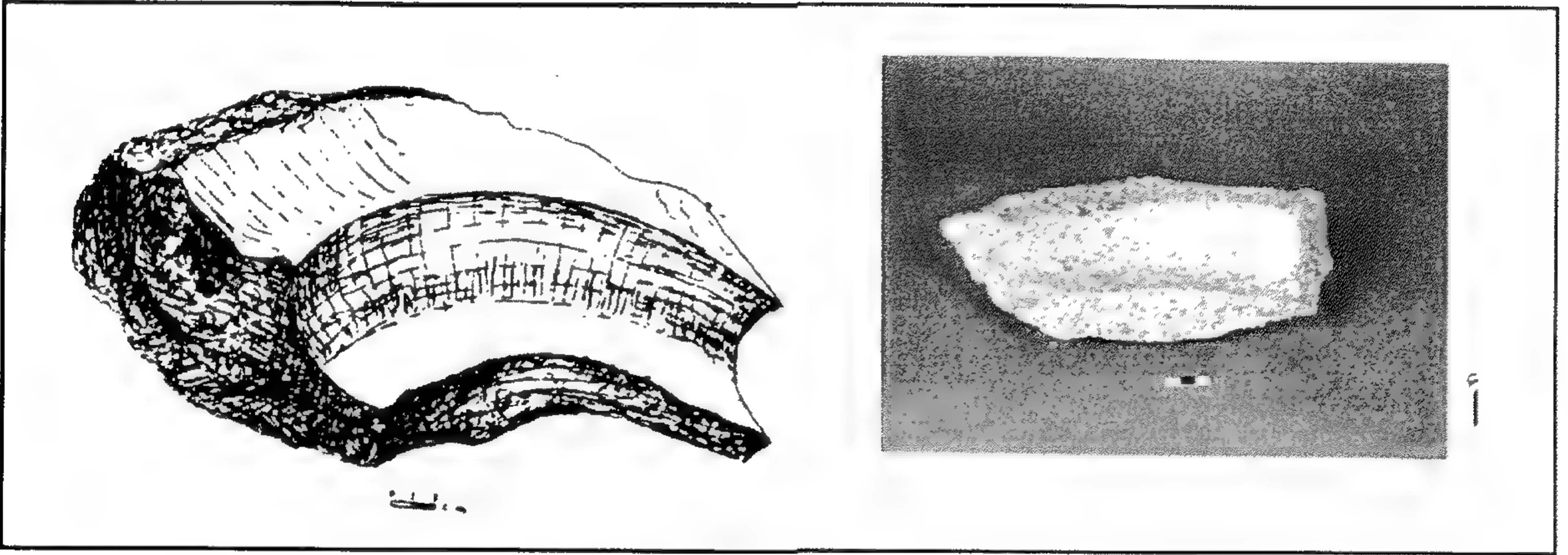
لوحة ١١ : حفرة اختبارية في الوحدة رقم ١ (المجس الثاني)



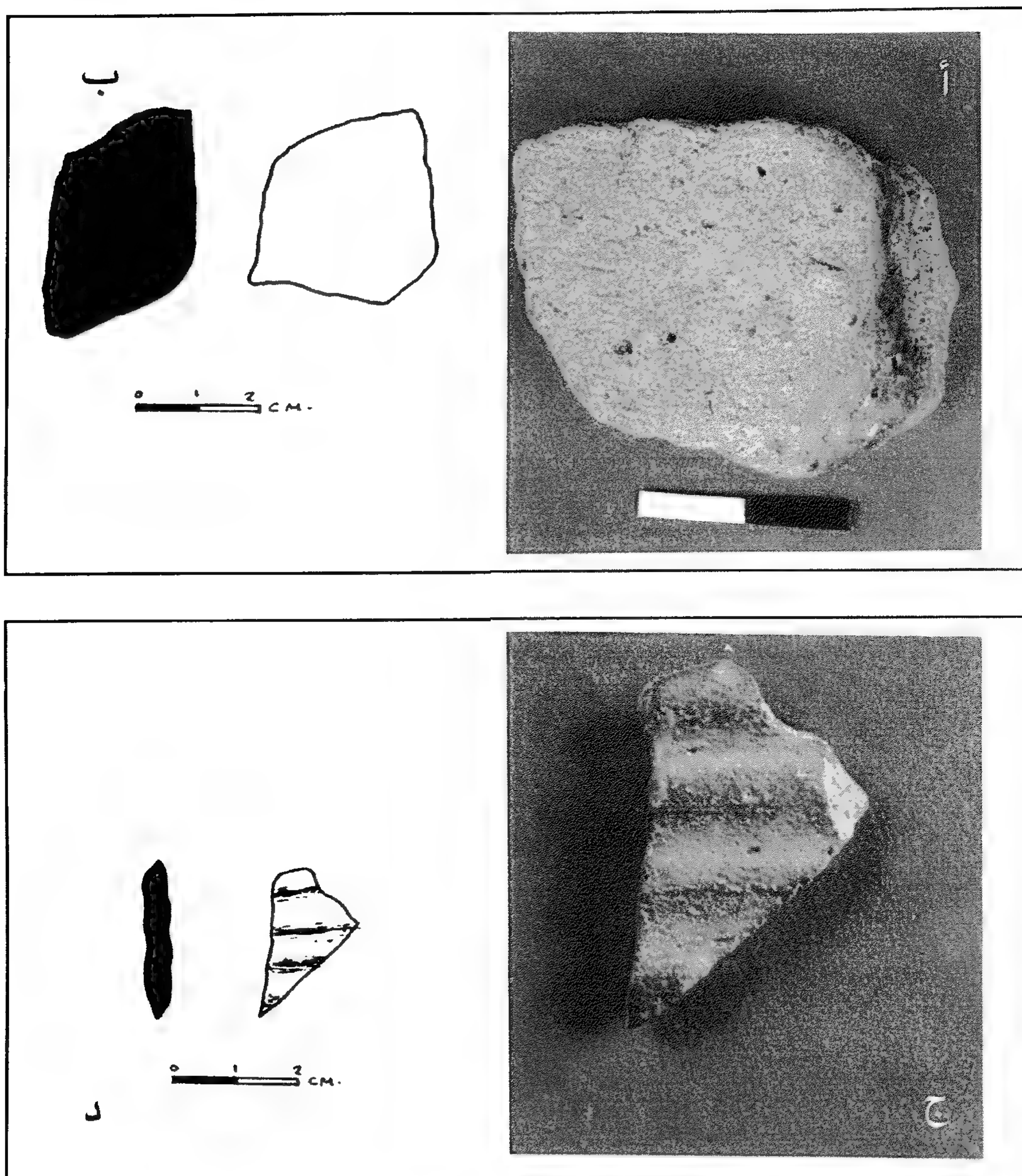
لوحة ١٢ : رحي منزلية من الحجر الحري



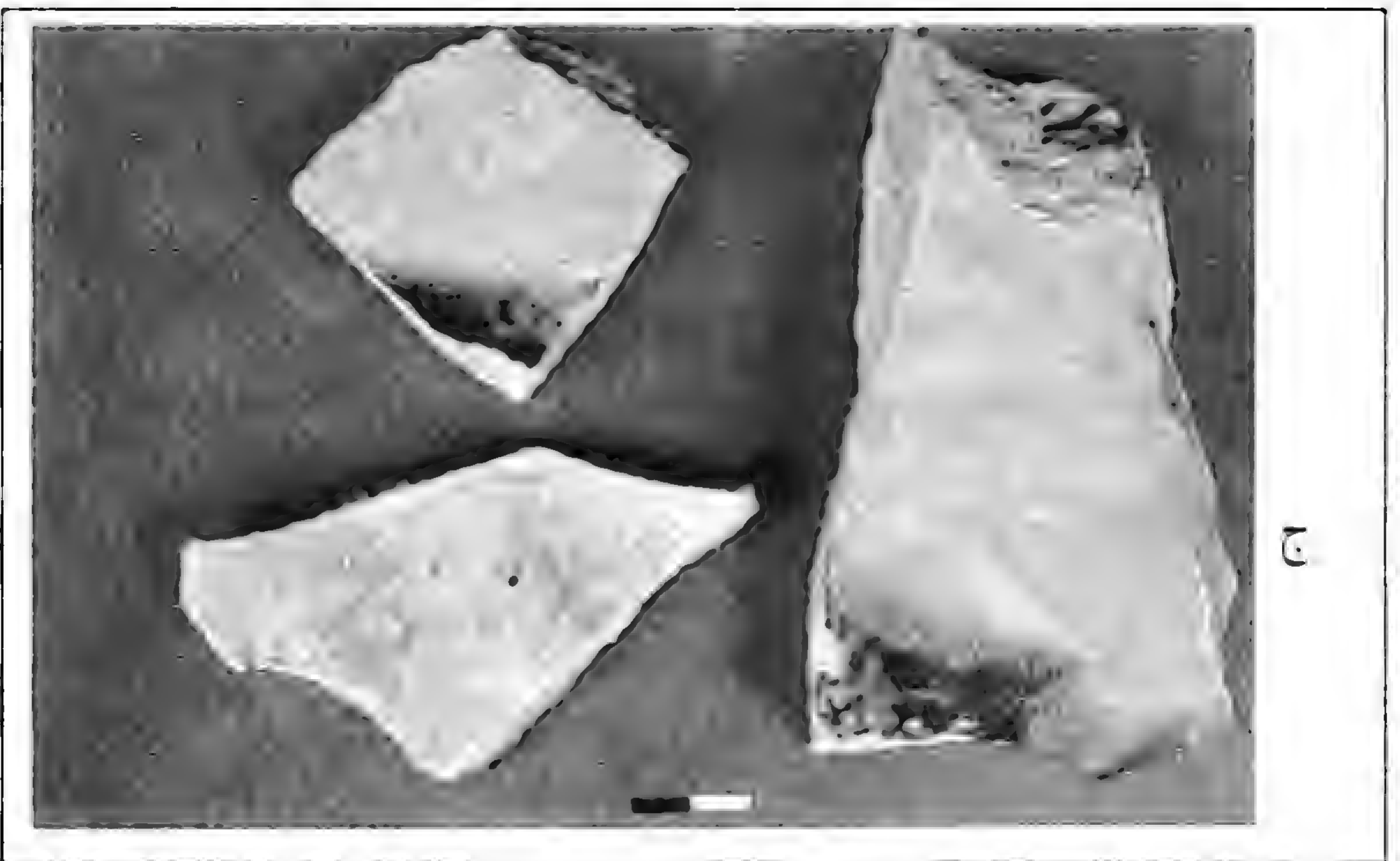
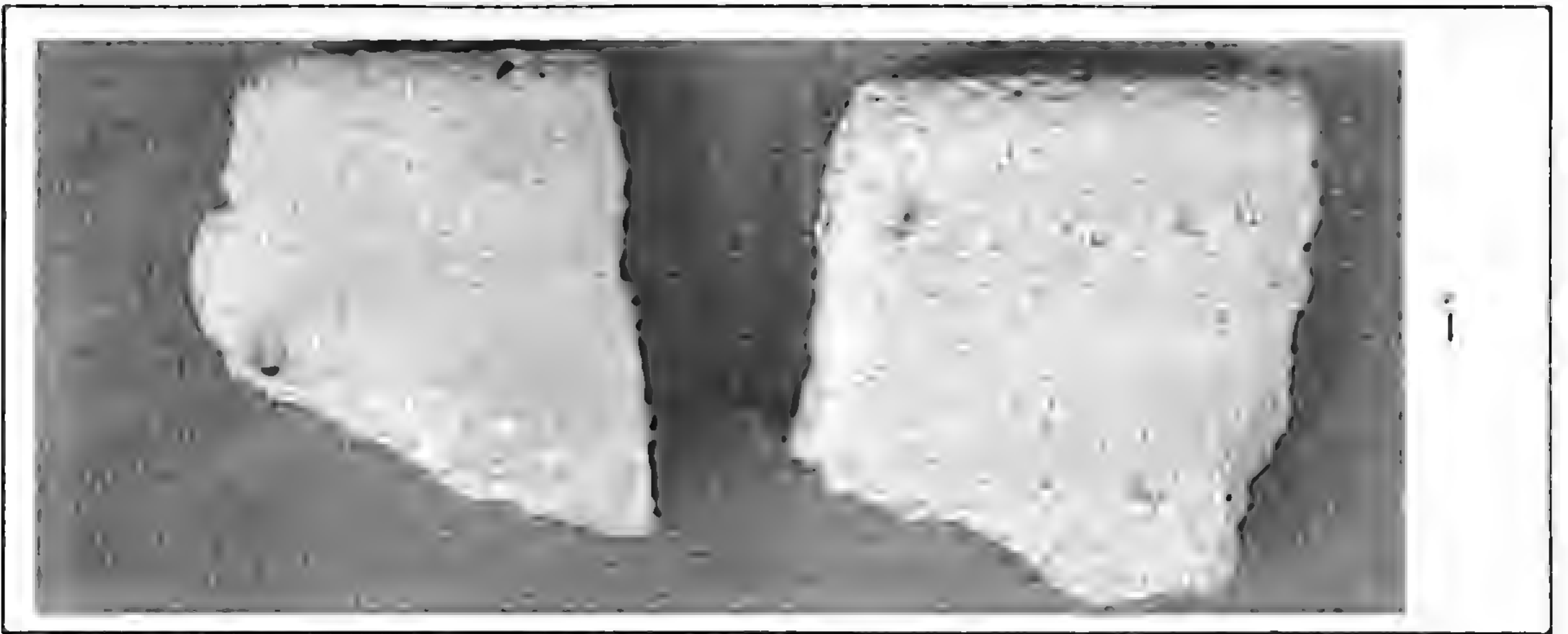
لوحة ١٣: كسر لأرجاء منزلية مصنوعة من الجرانيت



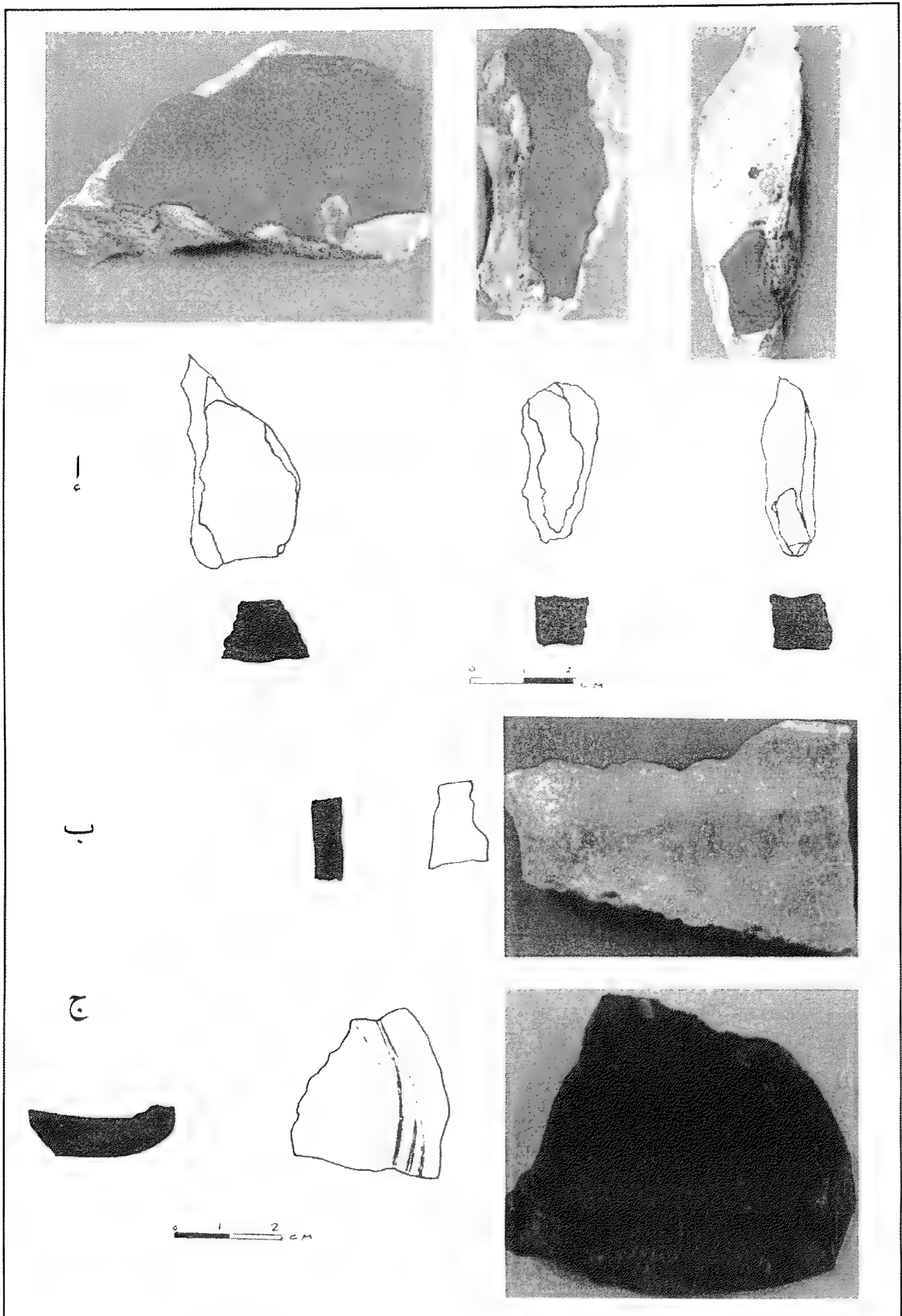
لوحة ١٤ : كسر مطاحن ذهب مصنوعة من الجرانيت



لوحة ١٥ : كسرتان فخاريتان من الموقع



لوحة ١٦ : كسر فخارية من الموقع



لوحة ١٧ : كسر فخارية مزججة ، وكسرة زجاج من الموقع

التأديب والتثقيف الموجه نحو الخلفاء العباسيين وأبنائهم في مرحلة ما قبل العهد البويهي (٢٧٩-٣٣٤هـ)

د. عبد الرحمن السنيدي

ملخص البحث:

تتناول هذه الدراسة الموضوعات الآتية: التأديب والمؤدبون في دار الخلافة، مشكلات التأديب بعد عودة الضعف للخلافة، تثقيف الخلفاء. ومن خلال هذا الموضوع سوف نركز على أهم المؤثرات على ثقافة خلفاء هذه المرحلة وطبيعة المواد الثقافية التي سافقتها هذه المؤثرات، مع إبراز الثقافة السائدة عند خلفاء مرحلة الضعف ومدى قوة ثقافتهم الدينية أو ضعفها.

مقدمة:

على الله (٢٥٦ - ٢٧٩هـ)، وأحمد بن الموفق (المعتضد بالله) (٢٧٩ - ٢٨٩هـ).

وكما كان للقائدين العباسيين جهود عسكرية وسياسية، فقد عنيا بالجوانب الثقافية والتعليمية في محيط دار الخلافة العباسية، ومن الطبيعي أن يُعنيا بذلك، فالموفق لم يكن مجرد قائد عسكري عباسي مُنبت عن العلم والثقافة، بل كان عالماً بالأدب والنسب والفقهاء وسياسة الملك^(١)، ورجل يحمل هذه السمات مع ما يتمتع به من قوة الشخصية والإرادة لن يغيب عن ذهنه ما للتعليم والثقافة من أثر في إعداد

يتعلق البحث بإحدى حلقات التاريخ العباسي التي شهدت بدايتها صحوة مثيرة للتفاؤل والأمل بتلافي سلبات ما مضى، تلاها مرحلة قلق مهتد لما هو أسوأ في تاريخ الدولة العباسية، حيث ضاعت منجزات المرحلة السابقة وتم خلال تلك المرحلة القلقة التي استهلّت بخلافة المقتدر بالله (٢٩٥ - ٣٢٠هـ) التفريط بالمنجزات التي تحققت في عهد الصحوة والانتعاش، تلك المنجزات التي يعود تحقيقها إلى رجلين محنّكين هما:

أبو أحمد الموفق طلحة بن المتوكل الذي سيطر على زمام الأمور في عهد أخيه المعتمد

= دار الشروق، ١٩٩٨م، ج٢، ص ٣١ - ٣٢، عبدالعزيز الميلم، نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١١هـ، ج١، ص ١٦٤، ١٠٧.

(١) ابن الأثير، علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ). الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، الطبعة الأولى، ج٧، ص ٤٤٣. لمعرفة المزيد من المعلومات عن الموفق العباسي وفترة الانتعاش المؤقت، يراجع فاروق عمر: الخلافة العباسية السقوط والانهيال، بيروت، =

واصل مسيرة أبيه في دعم الجهود الثقافية والتعليمية في محيط الخلافة على النحو الذي سوف نتعرف عليه في ثنايا هذه الدراسة.

لقد جاء في مجال الدراسة ليشمل مرحلتين في تاريخ الخلافة العباسية بعد عصر الفوضى السياسية في سامراء (٢٤٧ - ٢٥٦ هـ) وخلافة المعتمد على الله، حيث شمل البحث المعتضد بالله والمكتفي بالله وهما من خلفاء عصر الصحوة والانتعاش، كما شملت الدراسة المقتدر والظاهر والراضي والمتقي والمستكفي، خلفاء مرحلة عودة الضعف إلى الخلافة، وذلك لمعرفة وضع التأديب والتثقيف الموجهة للخلفاء وأولادهم في ظل انتقال الخلافة من طور إلى طور، ولمعرفة المعوقات التي واجهت عملية التأديب بعد زوال نفوذ الخليفة على أجهزة الدولة.

التأديب والمؤدبون في دار الخلافة:

يراد بالتأديب الدروس الأولية التي يتلقاها الصبية والتي يركز فيها على القرآن الكريم

رجل الدولة ولهذا ولغيره حرص الموفق على تأديب أولاده وتزويدهم بالعلوم النافعة، فعلى سبيل المثال نجده يطلب من الإمام المحدث (أبو داود السجستاني) أن يعلم أولاده "السنن" وأن يفرد لهم مجلساً للرواية عنه^(٢)، كما يذكر بعض المؤرخين عنه ما يدل على اهتمامه بما يجري لحفيده علي (المكتفي بالله)^(٣)، وفوق ذلك تقصد الموفق أهدافاً تربوية وسلوكية عندما أمر سنة (٢٧٥ هـ) بحبس ولده أحمد المعتضد بالله في حجرة في دار الوزير إسماعيل بن بلبل^(٤). وكان ثابت ابن قره الطبيب^(٥) يدخل إليه في كل يوم ثلاث مرات يحادثه ويسليه ويعرفه أحوال الفلاسفة وأمر الهندسة والنجوم^(٦)، ولما ثار القواد بعد جيش أبي العباس (المعتضد) قال لهم الموفق: أترون أنكم أشفق على ولدي مني وقد احتجت إلى تقويمه^(٧)، ولقد تربى المعتضد بالله وأعد بإشراف والده الموفق حتى أصبح مؤهلاً لنيل الخلافة التي أنيطت به عام ٢٧٩ هـ، ومن ثم

(٥) ثابت بن قره الصابي: الفيلسوف الحراني صاحب التصانيف. توفى سنة (٢٨٨ هـ)، انظر ابن كثير: عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت ٧٤٧ هـ)، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله التركي، القاهرة، دار هجر، ط ١٤١٩ هـ.

(٦) ابن أبي أصيبعة، أبو العباس موفى الدين أحمد بن القاسم (٦٦٨ هـ)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت، دار مكتبة الفكر، ١٣٥٧، ج ٢، ص ١٩٤، انظر خبر الحبس عند ابن الأثير، ج ٧، ص ٤٣٣.

(٧) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٤٣٣.

(٢) انظر: الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ): سير أعلام النبلاء، تحقيق: علي أبو زيد، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ١٠، ١٤١٤ هـ، ج ١٣، ص ٢١٦، ولم يقبل أبو داود أن يفرد لهم مجلس خاص.. انظر: المصدر نفسه.

(٣) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (٤٦٣ هـ)، تاريخ بغداد، القاهرة، دار السعادة، ط ٢، ١٣٤٩ هـ، ج ١٠، ص ٨٩.

(٤) أبو الصقر إسماعيل بن بلبل استوزره الموفق لأخيه المعتمد على الله، انظر: ابن طباطب محمد بن علي (ت ٧٠٩ هـ)، الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية، بيروت، دار صادر (د، ت) ص ٢٥٢.

والنحو والشعر ونوادر العرب ومأثوراتهم، إضافة إلى التوجيه الخلقي والسلوكي الذي يقوم بتوجيهه المؤدب، يفهم ذلك مما يرد من روايات وأخبار عن المؤدبين ومن يقومون بتأديبهم^(٨)، كما يستشف ذلك من الوصايا الموجهة للمؤدبين والتي تعد نبراساً لممارسي تلك الصناعة، كوصية الشافعي لمؤدب أولاد هارون الرشيد^(٩)، ووصية الرشيد للأحمر النحوي وقد أناط به تأديب ولده محمد الأمين^(١٠).

ولاشك أن التأديب الموجه إلى أبناء الخلفاء العباسيين تأديباً متميزاً قياساً إلى ظروف ذلك العصر، مثلهم في ذلك مثل أولاد الخاصة من وزراء وكتاب، حيث يناط بتأديب أولاد الخلفاء نخبة من حذاق النحو واللغويين^(١١)، كما أن المعلمين والمؤدبين كانوا يخضعون لإشراف وملاحظة من جانب الخليفة أو الحاجب.

ومن الطبيعي أن يعنى الحكم العباسي في مرحلة صحوة الخلافة بالتأديب لاعتبارات عديدة منها أهمية دور التأديب في تأهيل رجل الدولة والمرشح لنيل الخلافة. كما أن الاهتمام بالتأديب، مما عنى به الخلفاء والأوائل. وبكل تأكيد فإن الموفق والمعتضد كانا ينظران بعين الاعتبار إلى خطوات الخلفاء الأوائل على أنها نموذج ينبغي الاحتذاء به ومما يجعل الموفق والمعتضد يبذلان مزيداً من الجهد في سبيل تثقيف الأبناء والأحفاد وجود شخصيات مثقفة من أبناء السابقين كعبدالله بن المعتز الأديب الشاعر، وأبو عبدالله بن المهدي بالله^(١٢) ومحمد بن موسى حفيد المأمون^(١٣)، مما يجعل أرباب القرار في الدولة العباسية آنذاك يحاولون رفع كفاءة الأبناء لئلا ينفرد أبناء العم بالذكر والصيت.

= معلم أولاد العائلات الثرية، انظر نشأة الكليات معاهد العلم عند المسلمين وفي الغرب ترجمة محمود سيد أحمد، جدة، نشر جامعة الملك عبدالعزيز، ١٤١٤هـ، ص ٢٤٢، راجع كذلك، صالح العايد "المؤدبون وتجربتهم في تعليم اللغة العربية" مجلة الدراسات اللغوية، الرياض، العدد الأول ١٤٢٠هـ، ص ٨٨-٨٩.

(١٢) فقيه مشهور على مذهب الشافعي توفي سنة ٣٢٣هـ، انظر: الصولي: أخبار الراضي بالله والمتقي لله، ص ٦٧، ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق عبدالله التركي، ج ١٥، ص ٩٣.

(١٣) ولي إمارة مكة، وقدم مصر وحدث بها، له "فقه عبدالله بن عباس" موزعاً على أبواب الفقه، توفي سنة ٣٤١هـ، ابن حزم: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (٤٥٦هـ)، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، مصر، دار المعارف، ط ٥ (د، ت)، ص ٢٤، ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٥، ص ٢١٨.

(٨) انظر مثلاً ما كان ينهجه ابن أبي الدنيا أثناء تأديبه للمكتفي بالله والصولي أثناء تأديبه للراضي بالله كما سيمر بنا، انظر: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٠، ص ٨٩-٩٠، الصولي: محمد بن يحيى (٣٣٥هـ): أخبار الراضي بالله والمتقي لله، بيروت، دار المسيرة، ١٣٩٩هـ، ص ٢٥٢٨ وانظر المسعودي: علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ): مروج الذهب ومعادن الجوهر تحقيق محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٦٥م ج ٤، ص ٣٢٨-٣٢٩، حيث يرد حديث العروضي المؤدب عن بعض الأخلاق أمام الراضي في حباه.

(٩) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ٣، ص ١٨٧.

(١٠) انظر: المسعودي، المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٦٢.

(١١) يفهم مما يذكره ابن الأثير: أن المؤدب هو من يعلم الناس اللغة والأدب، اللباب في تهذيب الأنساب، بيروت، دار صادر، ١٤٠٠هـ، ج ٣، ص ٢٥١، ٢٦٧، ويرى جورج المقدسي أن المؤدب، هو =

وبما أنه كان للمؤدبين أثر أساسي في تحديدها معالم منهج التأديب ومواد الدراسة فإن التعريف بهم والوقوف على خلفيتهم العلمية والثقافية مما يكشف عن طبيعة مواد الدراسة التي تلقاها الناشئة والأبناء العباسيون. وفي الفقرة الآتية سوف نتعرف على مجموعة من هؤلاء المؤدبين.

المؤدبون في دار الخلافة:

ومن مطالعتنا للمصادر الأدبية والتاريخية نلاحظ أن هناك عدداً من المؤدبين الذين عملوا في دار الخلافة ابتداءً من عهد المعتضد بالله وحتى نهاية عهد الراضي، ويغلب على أولئك كونهم من علماء النحو واللغة، وفيهم من برز في علوم أخرى وعلى أي حال فإن من هؤلاء المؤدبين الأعلام التالية:

١- أبو بكر بن أبي الدنيا: عبدالله بن محمد ابن سفيان الحافظ المصنف المشهور، تزيد تصانيفه على (١٠٠) مصنف من بينها مجموعة من الكتب التاريخية كأخبار قریش و"تاريخ الخلفاء" و"المغازي" أدب المعتضد وابنه علي الملقب بالمكتفي وكان رزقه في كل شهر خمسة عشر ديناراً^(١٤)، يتميز بأسلوبه

المشوق وأخباره الطريفة (فإنه إذا جالس أحداً إن شاء أضحكه وإن شاء أبكاه. لتوسعه في الأخبار)^(١٥) وعنه يقول المكتفي الخليفة: أول من فتق لساني بذكر الله وهو مع ذلك إن شاء أضحك وإن شاء أبكاك^(١٦).

ويروى أنه لما أفضت الخلافة إلى المكتفي كتب إليه رقعة فيها بيتان هما:

إن حق التأديب حق الأبوة

عند أهل الحجى وأهل المروءة

فأحق الرجال أن يحفظوا ذلك

ويرعوه أهل بيت النبوة

فأمر له المكتفي بعشرة آلاف درهم.^(١٧)

٢- محمد بن العباس اليزيدي شيخ العربية (ت ٣١٠هـ) كان رأساً في نقل النوارد وكلام العرب، إماماً في النحو، له كتاب "الخيال" وكتاب "مناقب بني العباس" و "أخبار اليزيديين"^(١٨).

أدب أولاد المقتدر بالله ويذكر الصولي أنه كان في جملة من أدب الراضي وأخيه هارون^(١٩).

وقد عرف عن اليزيدي الإسهام بتأديب الخلفاء العباسيين مثل يحيى المبارك اليزيدي

(١٧) العريفيين إبراهيم بن محمد (٦٤١هـ)، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ، ص ٣٠٣، المنتخب من السياق لتاريخ نيسابور، بيروت، ط ١، ١٤٠٩هـ، ص ٦٢، السيوطي: جلال الدين (ت ٩٠٢هـ): تاريخ الخلفاء، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ، ص ٣٠٣.

(١٨) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٣٦١/١.

(١٩) الصولي: أخبار الراضي بالله والمتقي لله، ص ٩٢٨.

(١٤) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٣، ص ٤٠٠، ابن كثير البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٦٥٧.

(١٥) انظر: الذهبي: المصدر السابق، ج ١٣، ص ٤٠٠.

(١٦) انظر: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج ١٠، ص ٩٠.

الصباح التميمي، معلم المقتدر وأولاده تذكر بعض المصادر أنه علم المقتدر وأولاده. ويبدو أنه علمهم الخط والكتابة بحكم خلفيته الجيدة في هذا الفن، فقد كان مُبرزاً في مجال الخط والكتابة، وله فيهما العديد من المؤلفات^(٢٧).

٥- أبو الحسن العروضي: أحمد بن محمد ابن الحسن (ت ٣٤٢هـ) أدب الراضي وأولاده وكذلك المتقي^(٢٨)، اشتهر بمعرفته الجيدة بعلم العروض ويفهم مما أوردته بعض المصادر أن العروضي^(٢٩) كان يقدم لمن أدبه بعض الروايات ذات المغزى الأخلاقي والسلوكي. يروي المسعودي، أن العروضي حَدَّث الراضي وهو في صباه وعنفوان حدائته خبراً لقتيبة بن مسلم الباهلي^(٣٠) في الكبر وغيره من الخصال التي توجد في أهل الرياسات مما يحمد فيهم وما يكره منهم من الأخلاق فكتب ذلك. ومما جاء في ذلك الخبر، قول قتيبة بن مسلم الباهلي (من عظم كبره اشتد عجبه ومن

مؤدب المأمون^(٢٠))، ويذكر الصولي أن إسحاق وعلي أبناء إبراهيم اليزيدي كانا يعلمان الخط في دار الخلافة العباسية أيام المقتدر^(٢١).

٣- إبراهيم بن السري الزجاج النحوي (٣١١هـ)^(٢٢)، تولى رئاسة التأديب في دار الخلافة^(٢٣) لقد ابتدأت صلته بالبلاط العباسي منذ أيام المعتضد بالله حيث علم أولاده وفسره له كتاب "جامع النطق"^(٢٤).

ويظهر أن الزجاج قد تدرج في ممارسة التأديب من تعليم أولاد العامة ثم أولاد الوزراء، إلى أن صار معدوداً في المعلمين الملتحقين بدار الخلافة، فقد كان يعلم أولاد قوم بالصِّرَّة ثم رشحه شيخه المبرد لتأديب القاسم ابن عبيد الله بن سليمان الوزير^(٢٥)، وقد خلفه في رئاسة التأديب بدار الخلافة ابن غالب المؤدب^(٢٦).

٤- إسحاق بن إبراهيم بن عبدالله بن

(٢٧) انظر: النديم، الفهرست، ص ١١-١٢، ياقوت: معجم الأدباء، ج ٦، ص ٥٩-٦٠.

(٢٨) انظر: المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٣٢٨، الصولي، المصدر السابق، ص ٨.

(٢٩) ياقوت، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٣٣.

(٣٠) قتيبة بن مسلم بن عمرو الباهلي من القادة البارزين في عهد الوليد بن عبد الملك.. خلع سليمان بن عبد الملك بعد أن تولى سدة الخلافة الأموية مما أدى إلى المعارضة له من قبل عامة جنده وجيشه. وقد تطور هذا الموقف إلى السعي إلى قتل قتيبة قال ابن كثير: هدى الله على يديه خلقاً لا يحصيهم إلا الله فأسلموا ودانوا لله عز وجل.. ولكن زل زلة كان فيها حقه وفعل فعلة رغم فيها أنفه وخلع الطاعة فبادرت إليه المنية، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٦١٥-٦١٦.

(٢٠) انظر: ياقوت، المصدر السابق، ج ١، ص ١٣٠.

(٢١) ياقوت، المصدر السابق، ص ٨.

(٢٢) انظر: ياقوت، المصدر السابق، ج ١، ص ١٣٠.

(٢٣) أخبار الراضي بالله والمتقي لله، ص ٨.

(٢٤) النديم، محمد بن أبي يعقوب (ت ٣٨٥هـ) الفهرست طهران، ١٣٩١هـ (د، ن)، ص ٦٦ وانظر: ياقوت: معجم الأدباء، ج ١، ص ١٤٩.

(٢٥) ياقوت: المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣١-١٣٢.

(٢٦) الصولي، أخبار الراضي بالله والمتقي لله، ص ٨، ولم أقف على ترجمة وافية "لابن غالب" وقد ذكر الصولي.. أنه توفي قبل خلافة الراضي..، المصدر نفسه، ص ٩٩.

أعجب برأيه لم يشاور كفيًا، ولم يؤامر نصيحاً ومن تبجح بالإعجاب وفخر بالاستبداد كان من الصنع بعيداً ومن الخذلان قريباً والخطأ مع الجماعة، خير من الصواب مع الفرقة^(٣١). وإيراد العروضي لهذا القول المأثور عن قتيبة بن مسلم مما يوضح لنا أن دروس التأديب قد شملت وصايا أخلاقية وأقوالاً مأثورة تستهدف التهذيب السلوكي والأخلاقي لأبناء الخلفاء، وبحكم فساد الجو السياسي آنذاك وانحدار أوضاع الخلافة. فقد يكون ذلك محاولة اجتهدية من بعض المؤدبين تستهدف إصلاح أخلاق أبناء الخلفاء وتأهيلهم للحكم.

٦- أبو بكر الأنباري محمد بن القاسم (ت ٣٢٨هـ) يوصف بأنه من بحور العلم في اللغة العربية أدب عبد الواحد بن المقتدر^(٣٢). وكان يتردد إلى أولاد الراضي بهدف التعليم والتأديب^(٣٣).

٧- محمد بن يحيى الصولي (ت ٣٣٥هـ) نادم الراضي وكان أولاً يعلمه، وقد ذكر في كتابه (أخبار الراضي بالله والمتقي) أنه علم الراضي في صباه- وأخاه هارون بن المقتدر حيث كان يأتيهما نوبتين في كل أسبوع^(٣٤) ويبين لنا الصولي أن من أبرز الأنشطة

التعليمية التي قام بها الراضي وأخوه، بإشرافه، قراءة كتب اللغة وسماع الحديث النبوي من بعض المحدثين^(٣٥)، وقد تضمن كتابه المذكور جوانب من تجربته في تأديب ابني المقتدر (الراضي وهارون) وصلاته ببعض أركان دار الخلافة والمعوقات التي واجهته في أثناء ممارسته فن التأديب في دار الخلافة ومع ذلك فقد كان حريصاً على أن يقوم بما وكل إليه خير قيام متوخياً أن يلي من أمور المسلمين شيئاً فينفعهم الله بهم^(٣٦).

كان التركيز في دروس التأديب على تعليم النحو واللغة العربية والشعر العربي، وربما أصبح ذلك ضرورياً لشيوع اللكنات الأعجمية واللغات الأجنبية في محيط القصر الخلافي، فالرومية والفارسية مما شاع وذاع في أركان ذلك المحيط^(٣٧)، كما تضمنت دروس المؤدبين القصص والمواعظ ذات المغزى الأخلاقي والوعظي كما أثر ذلك عن ابن أبي الدنيا^(٣٨) والعروضي^(٣٩). ويلحظ أن بعض المؤدبين عمل على الإتيان ببعض العلماء المشهورين ليستفيد منهم من يؤدبهم. وهذا ما نهجه الصولي. فقد أحضر أبا القاسم البغوي الحافظ الإمام "ابن بنت منيع" أبرز

(٣٧) كانت الرومية من أدوات التخاطب بين الخليفة ومماليكه، انظر على سبيل المثال.. هلال الصابي: هلال بن المحسن (ت ٤٤٨هـ): رسوم دار الخلافة، نشر ميخائيل عواد، بغداد، ١٣٨٣هـ، ص ٨٩.

(٣٨) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٤٠٠.

(٣٩) المسعودي: مروج الذهب، ج ٤، ص ٣٢٨.

(٣١) المسعودي: مروج الذهب، ج ٤، ص ٣٢٧-٣٢٩.

(٣٢) الصولي: أخبار الراضي بالله، ص ٩.

(٣٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج ٣، ص ١٨٤.

(٣٤) المصدر نفسه، ص ٢٥.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٢٥-٢٦.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٢٦.

علماء الحديث في زمانه وأعلامهم إسناداً^(٤٠) إنه أعلى من بقي من الزمان إسناداً، وورد في بعض المصادر أنه لا يعرف في الإسلام مُحَدِّث وازى عبدالله بن محمد البغوي في قدم السماع^(٤١).

ووقف القاضي الحسين بن محمد المحاملي (ت ٣٣٠) على مستوى الراضي العلمي بحضور الصولي وآخرين. فأثنى عليه ورد ذلك إلى جهود مؤدبه (الصولي)^(٤٢).

إن تأثير المؤدبين السلوكي والأخلاقي على من أدبواهم من أبناء الخلفاء وإن كان من مقاصد التأديب فإننا لا نبالغ إذا قلنا إنه قد قل وضعف، لوجود مؤثرات أخرى أسهمت وبشكل كبير في صياغة شخصيات الأبناء، بل إن بعض المؤدبين وإن امتلك ثقافة شرعية ولغوية مميزة. فقد تأثر بالجو الإداري والقيادي العباسي وما يسوده من فساد إداري ومجون، فالزجاج على سبيل المثال جعله الوزير القاسم بن عبيدالله على الرقاع، فكان يأخذ على الرقاع المتضمنة حوائج الناس وشكاواهم مبلغاً معلوماً من المال يفرضه على مقدم الرقعة حتى جمع في مدة قليلة عشرين ألف دينار^(٤٣)، يعقب ابن الجوزي على ذلك

فيقول: "رأيت كثيراً من أصحاب الحديث والعلم يقرؤون هذه الحكاية ويتعجبون مستحسنين لهذا الفعل، غافلين عما تحته من القبيح، وذلك أنه يجب على الولاة إيصال قصص المظلومين وأهل الحوائج، وإقامة من يأخذ الأفعال على هذا قبيح حرام وهذا ما يهن به الزجاج وهنا عظيماً، ولا يرتفع لأنه إن كان لم يعلم ما في باطن ما قد حكاه عن نفسه فهذا جهل بمعرفة الشرع وإن كان يعرف فحكايته في غاية القبح نعوذ بالله من قلة الفقه^(٤٤).

ومن مظاهر تجاوب المؤدبين مع الجو السائد في محيط الطبقة السياسية الحاكمة أن الصولي كان يعمل الشعر الغزالي بطلب من الراضي الذي نحا منحاه في ذلك، كما يذكر الصولي، أن الراضي مكث سنتين بعد خلافته "لا يشرب النبيذ ونشربه نحن بين يديه... حتى أغواه أصحابنا، وكتب رقعة بلفظ يمينه وعرضها على الفقهاء، فوجد رخصة فوجه بألف دينار إلي لأتصدق بها عنه وشرب..."^(٤٥)

والحقيقة أن الصولي المؤدب العالم، رغم علمه وموسوعيته إلا أن صلته بالبلاط العباسي وانسياقه وراء بريق الخلافة حدا به

= بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١٤١٣ هـ، ج ١٣، ص ٢٨٧.

(٤٢) أخبار الراضي بالله ص ٢٦.

(٤٣) انظر: ياقوت، معجم الأدياء، ج ١، ص ١٣٣.

(٤٤) ابن الجوزي: عبدالرحمن بن علي (ت ٥٩٧ هـ).

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ١٣، ص ٢٢٦.

(٤٥) انظر: أخبار الراضي بالله والمتقي لله، ص ٤٧.

(٤٠) أخبار الراضي بالله، ص ٢٥، والإسناد العالي: هو الذي قل عدد رجال إسناده (انظر: محمد ضياء الرحمن الأعظمي، معجم مصطلحات الحديث ولطائف الأسانيد، الرياض، مكتبة أضواء السلف ط ١، ص ٢٦٢).

(٤١) انظر: عبدالرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ). المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، =

ويجلب أفضل الكفاءات في مجال التعليم والتأديب إلى دار الخلافة كما فعل الرشيد^(٤٨) والمتوكل، ويؤمن للمؤدب ما يعينه على القيام بمهمته إدراكاً منه لأهمية هذه المهمة.

وننتج عن تحكم جماعات الضغط ومراكز القوى في دولة المقتدر النظر بريبة وتوجس إلى عمليات التأديب الموجهة نحو الأبناء. ذلك أن الوزراء وحرَم القصر المتحكمين في الدولة لا يسرهم أن يتلقى الأبناء المهيؤون للخلافة علماً ومعرفة تفتح أمامهم سبل الممارسة الصحيحة للحكم، يرى بعض الباحثين أن أصحاب النفوذ في الدولة العباسية كانوا يرون الحجر على من يرشح للخلافة لينشأ غراً جاهلاً فينصرف إلى لهوه ولذاته ويترك لهم أمور الخلافة^(٤٩).

لقد حرص جزء من الوزراء والكتاب على بيعه المقتدر بالخلافة وهو صبي غير رافضين بيعه عبدالله بن المعتز الأديب المثقف بسبب كفاءته وجدارته بحمل أعباء ذلك المنصب، ومن الطبيعي ألا تبذل تلك الفئة من

إلى نظم المدائح الزائفة في الراضي والمتقي وغيره^(٤٦) وقبل ذلك ألف كتاباً في جواز ولاية المقتدر رغم صغر سنه واستدل بأن الله بعث يحيى بن زكريا عليه السلام ولم يكن بالغاً وذكر من استعمله النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يكن بالغاً. وكان القاضي أحمد بن يعقوب المثني قد امتنع عن البيعة له لأنه صبي لا يصلح للإمامة^(٤٧).

مشكلات التأديب بعد عودة الضعف إلى الخلافة:

إذا وضعنا بعين الاعتبار أن من أهداف التأديب الموجه نحو أبناء الخلفاء هو تزويدهم بقدر من العلوم والمعارف، وتنمية الميول العلمية والثقافية لديهم، فثمة معوقات ومشكلات برزت أثناء قيام المؤدبين بواجباتهم المنوطة بهم، وتزايدت تلك المشكلات التي واجهت المؤدبين بعد عهد المكتفي بالله، نتيجة ضعف جهاز الخلافة، ذلك أن وجود خليفة قوي من عوامل دعم مسيرة التأديب، حيث يتولى الإشراف على تأديب ابنه وفلذة كبده،

(٤٦) يقول الصولي في مدح المتقي:

وقاك الذي سماك متقياً له فانت عماد الدين ليس يزول
أنيل بك الإسلام فازداد عزة فانت من الدهر الغشوم تدل
المصدر نفسه، ص ١٨٩، ويقول في مدح الراضي:

فلم تزل فوق الملوك الأولى من عرب سادوا ومن فرس
من لا يرى حبك فرضاً فما أدى فروض الله في الخمس
كل الوري أنت وكل يرى عبدك من عال ومن نكس

(٤٧) انظر: عبد الرحمن سنبط الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك، بغداد، مكتبة المثني، ص ٢٣٩، وبسبب ذلك قتل هذا القاضي صبراً، راجع: عريب القرطي، صلة تاريخ =

= الطبري، ص ٣٢، التنوخي: الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ١٢٣.

(٤٨) انظر على سبيل المثال ما لقيه علي بن الحسن الأحمر المؤدب في عهد هارون الرشيد من تكريم وصلات، ياقوت: معجم الأدباء، ج ١٣، ص ٨-٩.

(٤٩) انظر، أمينة البيطار: تاريخ العصر العباسي، دمشق، ١٤١١هـ، ص ٢٣٥، وعن أصحاب النفوذ في دولة المقتدر بالله راجع: حامد غنيم أبو سعيد: الدولة العباسية ومراكز القوى في عهد المقتدر بالله (٢٩٥-٢٣٠هـ)، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الثالث ١٣٩٩هـ، ص ١٠٢-١٣٣.

الكتاب أي جهد في سبيل انتشار هذا الخليفة من جو المجون والترف الذي ينشأ في ظله.

ومن المشكلات التي واجهت التأديب أن الأجواء المحيطة بالأبناء وأولاد الخلفاء لم تكن في مجملها مما يخدم التأديب كعملية تربوية وتثقيفية مبكرة، حيث عاش الأبناء منذ أيام المعتضد في جو مترف وعيش رغيد يمتلئ بالملذات والمغريات إلى حد الإفراط مما أدى إلى ضعف كفاءتهم قياساً إلى نظرائهم أيام قوة الخلافة الذين عركتهم التجارب والأحداث.

ويعد (المقتدر) نموذجاً للخلفاء الذين أنتجتهم مثل هذه الأجواء^(٥٠)، وفي رأي فاروق عمر فالمقتدر ابن بيئته. ولا يمكننا أن نضع كل اللوم عليه، بل إن القراءة الدقيقة لمجريات الأحداث تبين أن هناك خطة مدبرة من رجال السيف والقلم اشتركت فيها نساء من الحرم وذلك لتثنية أمراء بني العباس تثنية لا تؤهلهم لقيادة دولة وزعامة أمة^(٥١). ومن الطبيعي أن يولد التشاغل بالشهوات ونيل الملذات إلى إضعاف همة المتأدب و صرفه عن متابعة تحصيله العلمي، كما أن ذلك التشاغل مما يؤدي إلى تعطيل الذهن وبلادة الفكر.

ويوضح لنا أبو بكر الصولي بعض المشكلات الناشئة عن هذا الوضع السياسي والإداري الذي أصبح فيه الخليفة ذا وجود صوري، فانعكس ذلك الوضع على عملية التأديب في دار الخلافة. فلقد كان الصولي يُعلم في البلاط العباسي اللغة والأدب كما مر بنا ومع ذلك واجه متاعب مُدبرة من أجل إيقاف حماسه المتقد الهادف إلى بلوغ ابني المقتدر مكانة علمية تليق بهما، ومن ذلك إشعاره بأن أهدافه الرامية إلى بناء شخصيتيهما العلمية، مرفوضة، ذلك أن بعض أركان البلاط العباسي كانوا يقولون ما نريد أن يكون أولادنا أدباء ولا علماء وهذا أبوهما (المقتدر) قد رأينا فيه كل ما نحب وليس بعالم^(٥٢)، ونقول القهرمان زایدان ذات الصلة القوية بأم الخليفة المقتدر الشخصية الرئيسية في الدولة (إن المحاسن من هذا الرجل (الصولي) عند السيدة ومن يخدمها مساوئ)^(٥٣).

وعندما أحضر الصولي أحد علماء الحديث البارزين في ذلك العصر وهو أبو القاسم البغوي قيل له (والله ما عندنا دنائير لهذا المحدث ولا بنا حاجة لمجيئه)^(٥٤).

ويوضح الصولي أن خدم السيدة (أم المقتدر)

(٥١) انظر: الخلافة العباسية السقوط والانحيار، بيروت، دار الشروق، ١٩٩٨م، ج٢، ص ٥٨.

(٥٢) أخبار الرازي بالله والمتقي لله، ص ٢٦.

(٥٣) المصدر نفسه، ص ٢٦.

(٥٤) المصدر نفسه، ص ٢٥.

(٥٠) انظر عن حياة المقتدر أثناء طفولته، التنوخي أبو علي المحسن بن علي (ت ٣٨٤هـ): نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، بيروت، ١٣٩١هـ ج١، ص ٢٨٧، الخطيب البغدادي، ج٧، ص ٢١٦، حمدان الكبيسي: عصر الخليفة المقتدر بالله، بغداد، مطبعة النعمان، ١٣٩٤هـ، ص ٢٤-٢٥، ٤٨.

أخذوا كتباً كان ابن المقتدر يقرؤها عليه، وأنه يقال لهم إن الأمير ينظر في كثير لا ينبغي أن ينظر في مثلها^(٥٥).

ويظهر أن السيدة كانت تُحرضُ من قبل بعض الوزراء المتنفذين، كأبي الحسن بن الفرات^(٥٦) الذي كانت تقول له عن المقتدر (يا أبا الحسن هذا ولدك وأنت قلدته الخلافة أولاً وثانياً)^(٥٧).

وعلى أية حال فإن ما يذكره الصولي في النصوص السالفة يبين لنا بوضوح أن أهداف التأديب الرامية إلى إخراج جيل مثقف من الأبناء يتميز بقوة الجانب العلمي فيه هذه الأهداف أصبحت مرفوضة، لا تحظى بحماس أركان البلاط العباسي آنذاك.

كذلك نلاحظ ضعف الإمكانيات الموضوعية بين يدي المؤدبين وما يلزم التأديب من كتب ونحوها، وقد أورد الصولي أنه لما تولى تأديب الراضي وأخيه (هارون) اشترى لهما من كتب الفقه والشعر واللغة والأخبار قطعة حسنة، وعمل كل واحد منهما خزانة لكتبه^(٥٨)، مما يدفعنا إلى القول بأن الجهة المشرفة على تأديب الأميرين لم توفر كتباً يستفيدان منهما

أثناء دروس التأديب فتولى تأمين ذلك المؤدب نفسه، لقد كان التأديب في عهود الخلفاء الأقوياء يحظى بكل أنواع الدعم ومثال ذلك ما وفره المأمون لمؤدب ولده، الفراء (يحيى بن زياد الأسلمي) من وراقين وأمناء ومنفقين^(٥٩). أما في مراحل انحطاط الخلافة كما في عهد المقتدر بالله فالأمر إلى ذلك الوضع الذي أصبح فيه المؤدب يؤمن الكتب لأبناء الخليفة !.

وإذا كانت الدسائس والتهم والوشايات من الظواهر التي لم تغب عن المجتمع السياسي العباسي فالملاحظ أن فئة المؤدبين قد طالها شيء من ذلك. فمع إخلاص الصولي وحماسه المتقد في سبيل أداء مهمته كمؤدب في دار الخلافة إلا أن هناك من حاول الإساءة إلى سمعته عند المقتدر ووالدته إذ ذكر بعض الخدم لهما أن الصولي يعلم أسماء الفرج والذكر وكان الراضي وأخوه يقرآن عليه كتاب، خلق الإنسان للأصمعي (ت ٢١٦هـ)، ويذكر الصولي أنه حمل الكتاب إلى نصر الحاجب^(٦٠) وبين له أن هذا من العلوم التي لا بد للفقهاء والقضاة منها وأنهم يلجأون إلى أهل اللغة، فأخذ الكتاب وأدخله على المقتدر^(٦١).

(٥٥) المصدر نفسه، ص ٦.

(٥٦) أبو الحسن بن الفرات تولى الوزارة للمقتدر ثلاث مرات عزل في المرتين الأولى والثانية وقتل بعد المرة الثالثة سنة ٣١٢هـ، انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٥، ص ١٥.

(٥٧) الصابي: الوزراء والكتاب، ص ٦٩.

(٥٨) أخبار الراضي بالله والمتقي لله، ص ٢٥.

(٥٩) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٠، ص ١٥٠، ياقوت: معجم الأدباء، ج ٢٠، ص ١٢.

(٦٠) نصر الحاجب، حاجب المقتدر، يعد من خيار الأمراء، أنفق من ماله في حرب القرامطة مئة ألف دينار وخرج بنفسه محتسباً، توفي سنة ٣١٦هـ، انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٥، ص ٣٤.

(٦١) أخبار الراضي والمتقي، ص ٢٥-٢٦.

التثقيف الموجه نحو الخلفاء:

يهيئ التأديب ذو المنهج التربوي أو التعليمي (المتعلم) للإلمام بالعلوم والثقافات وتأتي المؤثرات الأخرى لتسهم في بناء وتكوين البنية الفكرية للخلفاء وأبنائهم.

وعندما نتناول تثقيف الخلفاء في هذه الصفحات فمقصودنا بهذا المصطلح في هذه الدراسة عملية اكتساب الثقافة من جانب الخلفاء التي تتم في الغالب بشكل غير مقصود، ومن خلال وسائل مختلفة من أبرزها مجالسة الخلفاء ولقاؤهم وغير ذلك من الوسائل، والثقافة هنا حسب المفهوم الذي تتبناه الدراسة تشمل العلوم والآداب والتقاليد والعادات ومختلف جوانب الفكر الإنساني.

إن التثقيف عملية مستمرة ومتنامية، وفيما يتعلق بخلفاء المرحلة التي نتناولها فقد كان من أبرز المؤثرات على ثقافتهم ما يلي:

١- البيئة المحيطة بدار الخلافة:

ومن العوامل ذات التأثير على ثقافة وفكر الخليفة البيئة المحيطة به.. من حاشية، ونسوة متنفذات ومماليك^(٦٢) وقد تجلّى تأثير تلك الفئة

في عهد المقتدر بالله حيث بدأ الخليفة مسيراً بقرارات تصدرها هذه الفئة (فقد غلب على الأمر النساء والخدم)^(٦٣).

ولقد كان لهذه الفئة المكونة من نساء ومماليك دار الخلافة، وفي مقدمة أولئك السيدة شغب أم الخليفة المقتدر^(٦٤)، تأثيرها على ثقافة الخليفة وعوائده، وبشكل عام فإن وجود هذه الفئة اللصيقة بدار الخلافة قد ترك أثرهم على كثير من الخلفاء وأبنائهم، خصوصاً أن تلك الفئة المشار إليها تنتمي إلى أصول أجنبية لها عوائدها وخلفيتها الحضارية، وبمعاشرتها والاحتكاك بها اكتسب الأبناء ألواناً من السلوك وأنماطاً من العادات الأجنبية، كنتيجة طبيعية لعيشهم ضمن هذا الوسط وبالمقابل ضعف شأن القيم الدينية ومعطيات الثقافة العربية عندهم. إن تحسين البيئة التي يدب فيها الناشئ مسألة كان من الأولى أن تهتم الخلافة بها في عهدي المعتضد والمكثفي، وقد ذكرت بعض المصادر أن المعتضد توقع أن لا يطول عمر ابنه "علي" المكثفي، وأن جعفر الذي كان عمره لا يتجاوز السابعة. عند وفاة المعتضد، سوف يبايع بعده بالخلافة، وأن النساء سوف

= المؤكد أن هؤلاء كانوا من الكثرة بحيث لفت أنظار أولئك المؤرخين.

(٦٣) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٣٢٨، مسكويه: أحمد بن محمد (٤١٦هـ): تجارب الأمم، مصر، ١٣٣٣هـ، ٣/١.

(٦٤) انظر: حمدان الكبيسي: عصر المقتدر بالله، ص ٨٣، ١٠٢، ١٠٥ والسيدة "شغب" من أصول رومية، انظر: ابن العمراني: الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ١٥٣.

(٦٢) كان في دار المقتدر نحو من أحد عشر ألف غلام خصيان غير الصقالبة والروم و (٤٠٠٠) امرأة بين حرة ومملوكة. وعند مرور رسول ملك الروم بدار الخليفة صف له (٧٠٠٠) غلام منهم (٤٠٠٠) غلام أبيض وثلاثة آلاف أسود، انظر الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج ١، ص ١٠١، الصباي: رسوم دار الخلافة، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٣٠٨ وربما بالغت بعض المصادر في إيراد هذا الكم الكبير من المماليك والغلمان لكن من =

يحتوين عليه لقرب عهده بهن فيقسم الأموال،
ويبذر ارتفاع الدنيا ويخربها، وتضيع الثغور.
وتحدث الأسباب التي يكون فيها زوال
الملك عن بني العباس أصلاً، وقد جاء في
الخبر أن المعتضد قال: "والله لولا النار
والعار لقتلت هذا الصبي اليوم فإن في قتله
صلاحاً للأمة".^(٦٥)

والخبر فيه ما يدل على أن المعتضد بالله لم
يبذل جهده في تحسين البيئة التي نشأ فيها ابنه،
كما لم يهتم بتربيته لتوقي المكاره التي توقع
حصولها في عهده عندما يبايع له. إلا أنه من
الصعب قبول كل تفاصيل ذلك الخبر الذي
يروى عن صافي الحرّمي أحد مماليك دار
الخلافة والذي أورده عدد من المؤرخين
كالتنوخى^(٦٦) وابن الجوزي^(٦٧) والخطيب
البغدادى^(٦٨)، فقد يكون موضوعاً لخدمة
المماليك العسكريين أثناء صراعهم مع نساء
القصر، ثم كيف تحدث المعتضد نفسه بقتل
ثمرة فؤاده؟ كما يثير ظلالاً من الشك على
هذا الخبر، إنه قد ورد ما يناقضه عن صافي
الحرّمي نفسه، حيث أورد عريب في صلة
تاريخ الطبري^(٦٩) خبراً يفهم منه اعتزاز

المعتضد بابنه (جعفر) وهو في حجره، متوقعاً
خضوع ملوك فارس له (أي بقايا الأمراء
الصفاريين) وجاء في الخبر أن صافي
الحرّمي كان يوم بيعة المقتدر يحدث بهذا
ويدعو الله أن يحقق هذا القول^(٧٠).

وإذا انتقلنا من جو دار الخلافة إلى فئة
أخرى لصيقة بالخلافة هم الوزراء وكتاب
الدواوين نجد أن فريقاً من هؤلاء قد أخذ على
نفسه تعميق الثقافة غير الجادة عند الخلفاء
وأشغالهم بما لا يؤدي إلى تحسين قدراتهم
الذاتية ورفع كفاءتهم في الجانب السياسي
والتاريخي، يروي ابن طباطبا أن الخليفة
المكتفي بالله (٢٨٩-٢٩٥هـ) طلب كتباً يلهو
بها ويقطع زمانه بمطالعتها، فتقدم الوزير إلى
النواب بتحصيل ذلك وعرضه عليه قبل حمله
إلى الخليفة فحصلوا شيئاً من كتب التاريخ
وفيهما شيء مما جرى في الأيام السالفة من
وقائع الملوك وأخبار الوزراء ومعرفة التحايل
في استخراج الأموال. فلما رآه الوزير قال
لنوابه: "والله إنكم أشد الناس عداوة لي، أنا
قلت لكم حصلوا له كتباً يلهو بها ويشغل بها
عني وعن غيري، فقد حصلتم له ما يعرفه

(٦٩) ص ٣٧.

(٧٠) الخبر يرويه الصولي عن صافي الحرّمي، ومعلوم
أن الصولي عمل كتاباً في جواز ولاية جعفر
المقتدر كما مر بنا بتحريض من بعض الوزراء.
فهل يكون الخبر جزءاً من الحملة المراد منها
تسويغ بيعة المقتدر رغم صباه وصغر سنه؟ هذا
ما نميل إليه.

(٦٥) التنوخى: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، ج ١،
ص ٢٨٧.

(٦٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٨٧-٢٩١.

(٦٧) المنتظم، ج ٦، ص ٧١.

(٦٨) تاريخ بغداد، ج ٧، ص ٢١٧، أورد حمدان الكبيسي
هذا الخبر دون أن يعقب عليه، وذكر أن المعتضد
كان متشائماً من مجيء ابنه جعفر إلى دست
الخلافة وقد صدق حدسه، عصر الخليفة المقتدر
بالله ص ٣٠-٣١.

حمدون من ندماء الراضي^(٧٦) وكان والده نديماً للمعتمد على الله ثم المعتضد بالله^(٧٧).

وقد مارس بعض المؤدبين مهنة منادمة الخلفاء مثل أبي إسحاق الزجاج تذكر بعض المصادر أنه أحد ندماء المكتفي بالله. وكان له رزق في الندماء^(٧٨) في أيام المعتضد بالله، إضافة إلى راتبه الذي يأخذه من خزينة الدولة باعتباره فقيهاً وعالماً تحتاج إليه الخلافة.

وقد يقدم بعض الندماء للخليفة قدراً من الأخبار التاريخية لتسلية وإمتاعه، يذكر المسعودي عن العروضي أنه دخل على الراضي وقد اعتراه هم جراء تسلط القائد التركي عليه، يقول: فقال الراضي: "أما ترى صنع هذا الإنسان وما تسمو إليه همته وما تحدثه به نفسه فلم أجبه بشيء وأخذت به في أخبار من مضى من الخلفاء وسيرهم في أتباعهم، ثم نقلته إلى أخبار ملوك الفرس وما كانت تلقاه من أتباعها وجدهم عليهم وحسن سياستهم لذلك حتى تصلح أمورهم، فسلا عما عرض لنفسه"^(٧٩).

وقدم الإخباري محمد بن علي العبدى الخراساني للقاهر بالله استعراضاً لبعض مزايا وخصائص خلفاء بني العباس^(٨٠).

مصارع الوزراء ويوجدده الطريق إلى استخراج المال ويعرفه خراب البلاد من عمارتها، ردوها وحصلوا له كتباً فيها حكايات تلهيه وأشعار تطربه"^(٧١).

٢- جماعات الندماء:

وهؤلاء يجالسون الخلفاء ويروون لهم الأشعار والأخبار بحسن إيرادهم للطرائف والحكايات التي يميل إليها الخلفاء.

يورد المسعودي عن أبي محمد عبدالله بن حمدون أنه قد جرت مذاكرة في مجلس المكتفي عن أصناف الأشربة فأنشده أبياتاً في بعض تلك الأشربة ثم روى للخليفة خبراً مضحكاً عن أبان القارئ مع هارون الرشيد^(٧٢).

وقد كان مما يجري في مجلس الراضي بالله مذكرات حول الشعر^(٧٣) تعكس ما ذكرناه من غلبة الثقافة الأدبية على أولئك الندماء.

ومن أبرز ندماء الخلفاء في هذه المرحلة الشاعر أبو بكر العلاف (ت ٣١٩هـ) أحد ندماء المعتضد^(٧٤) ويحيى بن علي بن المنجم الذي نادى المعتضد والمكتفي^(٧٥) وابنه أحمد ابن يحيى نديم الراضي ومحمد بن عبدالله بن

(٧٦) انظر: الصولي، أخبار الراضي والمكتفي، ص ٨، ١٠٢.

(٧٧) انظر: المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٢٣٢، ياقوت، معجم الأدباء، ج ١٢، ص ٢١٢.

(٧٨) ياقوت، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٥٠.

(٧٩) مروج الذهب، ج ٤، ص ٣٣٧.

(٨٠) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣١٥.

(٧١) ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٧.

(٧٢) المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٢٨٩-٢٩٠.

(٧٣) انظر: أخبار الراضي بالله والمكتفي لله، ص ٥٩، على سبيل المثال.

(٧٤) السمعاني، الأنساب، ٩/٩٦.

(٧٥) انظر: ياقوت، معجم الأدباء، ج ٢٠، ص ٢٨، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٣، ص ٤٠٥.

إن المتأمل في المواد الثقافية التي يقدمها الندماء للخلفاء يلحظ أنها تدور حول الأدب والشعر ومأثورات الأقدمين وأخبارهم، أما التثقيف السياسي للخليفة فهو قليل ونادر، ومثل ذلك يقال عن تبني هؤلاء لقضايا الرعية وهمومها تلك، الرعية التي عانت غلاء الأسعار والجوع ومختلف الأزمات الاقتصادية^(٨١).

وإذا كان بعض أولئك الندماء من المبرزين في علوم الكلام مثل يحيى بن علي بن المنجم الذي كان رأساً في الاعتزال^(٨٢) ومثله ابنه أحمد بن يحيى^(٨٣)، فإنما لديهم من علم وثقافة لم يجر توظيفه بشكل يساعد الخلافة على تكوين خطة سياسية واقتصادية تعالج أوضاعها، وتبني مستقبلها خصوصاً في عهدي المعتضد والمكتفي بالله عندما كان زمام المبادرة بيد الخليفة وما ذاك إلا لكون المنتمين إلى تلك الفئة - في الغالب - من أصحاب الأغراض النفعية الذين لا يعينهم إصلاح وضع الخلافة وإنما هم باحثون عن المنافع المادية والنفوذ.

وعلى أي حال فلقد تضاعف دور الندماء بعد الراضي بالله، فالخليفة المتقي صرف أولئك الندماء وكان يقول: "المصحف نديمي ولا

أريد جليساً غيره"، مما أثار حفيظة الصولي الذي عقب على ذلك بقوله: "ما سمع بخليفة قط قال أنا لا أريد جليساً أنا أجالس المصحف، افتراه ظن أن مجالسة المصحف خص بها دون آبائه وأعمامه الخلفاء وأن هذا الرأي غمض عليهم وفطن له..."^(٨٤).

ويرد ابن الجوزي على الصولي، فيقول: "أعجبوا لهذا المتنكر للصواب كان هو والجلساء لا يكادون يشرعون فيما ينفع وأقله المدح فيما ليته إذ قال هذا لم يثبت في تصنيفه"^(٨٥). وعلى كل فإنه حتى ولو لم يصرفهم المتقي بالله، فإنهم لن يجدوا عنده بغيتهم ذلك أن وهج الخليفة انتهى مع اضطراب الأوضاع وتسلط المتغلبين^(٨٦).

٣- اللقاء بعلماء الدين:

كان لبعض الخلفاء صلات وثيقة ببعض علماء الدين، وعبر هذا اللقاءات والاتصالات أتيح للخلفاء معرفة قدر من الأحكام الشرعية المتعلقة ببعض القضايا، ومن أولئك العلماء في عهد المعتضد بالله القاضي إسماعيل بن إسحاق الأزدي (ت ٢٨٢هـ) وموسى بن إسحاق الخطمي (٢٩٧هـ) جاء في تاريخ بغداد أن المعتضد بالله قال عنهما لوزيره

(٨٤) أخبار الراضي بالله، ص ١٩٣.

(٨٥) ابن الجوزي، المنتظم، ٣١٧/٦.

(٨٦) ضم بحكم أمير الأمراء إليه ندماء الراضي وجلساؤه ويقول ابن الأثير، إنه لم يفهم منهم ما ينتفع به، انظر: ابن الأثير، الكامل ٣٦٧/٧.

(٨١) انظر الصولي، أخبار الراضي بالله، ص ٦١.

(٨٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٣، ص ٤٠٥.

(٨٣) النديم، الفهرست، ص ٢٠٥، ياقوت: معجم الأدباء، ج ٥، ص ١٤٦-١٤٧.

عبيد الله بن سليمان: إنهما ممن إذا أراد الله بأهل الأرض خيراً دفع عنهم بدعائهما^(٨٧).

لقد أثرت بعض الآراء والنصائح التي قدمها القاضي إسماعيل بن إسحاق الأزدي على المعتضد بالله في عدة مواقف منها: أن المعتضد بالله كان لديه كتاب الرخص ويضم فتاوى مختلفة بشأن عدد من المسائل، فدفعه إلى القاضي الأزدي فنظر فيه ووقف على ما احتواه من الرخص، ثم قال: "يا أمير المؤمنين مصنف هذا الكتاب زنديق". فقال المعتضد بالله: "لم تصح هذه الأحاديث". فقال القاضي: الأحاديث على ما رويت ولكن من أباح المسكر لم يبيح المتعة، ومن أباح المتعة لم يبيح الغناء، وما من عالم إلا وله زلة ومن جمع زلل العلماء وأخذ بها ذهب دينه فأمر المعتضد بالله فأحرق ذلك الكتاب^(٨٨).

ومن العلماء الذين نجحوا في ثني المعتضد بالله عن اتخاذ بعض الإجراءات القاضي يوسف بن يعقوب فإنه لما عزم المعتضد بالله على لعن معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - حيث أخرج كتاباً كان المأمون قد أمر بإنشائه في هذا المعنى وهو كتاب حُشي بأحاديث غير صحيحة وروايات باطلة بغية تسويغ الإجراءات المذكور.

عند ذلك جاءه القاضي يوسف بن يعقوب وناقشه فيما يترتب على نشر الكتاب من إيراد للطالبين الذين يميل إليهم كثير من الناس، مما حفز المعتضد على عدم إعلان الكتاب^(٨٩).

ومن العلماء الزهاد الذين حاوروا المعتضد ونصحوا له الزاهد (أبو الحسين النوري) (ت ٢٩٥هـ) حتى إن المعتضد بالله أطلق يده في تغيير المنكرات فقال: "الآن نقص عزمي عن التغيير" فقال: ولم؟ فقال: "كنت أغير عن الله، وأنا الآن أغير عن شرطي".^(٩٠)

لقد كان المعتضد بالله والمكتفي يلتقيان علماء دينيين معظمهم من فئة القضاة الذين كانوا يمثلون علماء الدين الرسميين. أما بعد التحول في مسيرة الخلافة واستبداد الوزراء والقادة الأتراك وحرَم القصر بأمور الخلافة فمن الطبيعي أن تقل هذه اللقاءات، ولا سيما أن تلك العناصر المستبدة لا تريد - كما مر بنا - للخليفة أن يكون عالماً، ولا تريد أن يأتي المحدثون لتدريس أبناء الخلفاء^(٩١).

لقد التقى المقتدر بعض العلماء وسمع أقوالهم التي تضمنت نصائحاً في بعض القضايا الجزئية. فالقاضي أبو جعفر أحمد بن إسحاق ابن البهلول رفض دعوى الوزير حامد بن العباس على الوزير المعزول أبو الحسن بن

(٨٩) انظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ١٠، ص ٦٣.

(٩٠) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٤، ص ٧٠٤.

(٩١) راجع: الصولي، أخبار الرضا رضي الله، ص ٢٥-٢٦.

(٨٧) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ٦، ص ٢٨٨.

(٨٨) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٣، ص ٤٦٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٤، ص ٧٠١.

وجاء في بعض المصادر أن المقتدر بالله أرسل طبيباً من النصارى إلى أبي بكر الشبلي فقال الطبيب: "لو علمت أن قطع بعض جسدي يشفيك لقطعته". فقال الشبلي: "يشفيني قطع ما هو أيسر عليك من ذلك"، فقال: "وما هو" قال: "قطع زنارك"!! فقطعه وأسلم فقال الخليفة: "بعثنا طبيباً إلى عليل فإذا هو عليل إلى طبيب" (٩٤).

وعلى أي حال فإن ما حازه المقتدر بالله من ثقافة دينية لم يؤد إلى تفعيل دوره وتحريك همته، ولو على المستوى الدعائي والإعلامي خصوصاً أن الخلافة آنذاك أصبحت تواجه أخطاراً عقديّة وفكرية تهدد سلطانها ونفوذها فقد شكل القرامطة وهم ذوو تطلعات عقديّة فاسدة خطراً حقيقياً يهدد مركز الخلافة، وانقطع طريق الحج إلى مكة من جهة العراق عدة سنوات، مما حال بين مسلمي المشرق وبين أداء الركن الخامس من أركان الإسلام، ولقد حاول الوزير الناصح علي بن عيسى استنهاض همة المقتدر عندما بادر إلى حثه على دعم الجهاد ضد القرامطة بعد أن زحف زعيمهم أبو طاهر القرمطي نحو العراق واستولى على الكوفة وأسرق قائد الجيش العباسي سنة ٣١٥هـ وطلب منه إخراج المال لقمع أعداء الدين - القرامطة - وذكر "أنه لم يلحق المسلمين منذ قبض رسول الله صلى الله

الفرات والمتضمنة الزعم أن ابن الفرث أرسل يوسف بن أبي الساج أحد ولاة العباسيين واتفقا على أن يبايعا بالخلافة لأحد الطالبين حيث قدم حامد بن العباس رجلاً ادعى أنه قدم من أردبيل رسولا من ابن الفرث إلى ابن أبي الساج، ولا يعنينا البحث في تفاصيل تلك الحادثة ذات الأبعاد المختلفة لكن المهم هنا ما حملته ذلك الموقف من نصائح وإرشادات وجهت من القاضي الملم بدسائس الوزراء على بعضهم حيث يقول للمقتدر بالله: وقد سأل عن رأيه: الجواب يا أمير المؤمنين ما قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾ (٩٢) ومثل هذا لا يقبل فيه خبر واحد والتمييز يمنع من قبول ذلك من ابن الفرث، أترأه يظن به أنه رضي أن يكون تابعاً لابن أبي الساج ولعله ما كان يرضى وهو وزير أن يستحجبه ثم أقبل على الرجل وطلب منه وصف أردبيل ودار إمارتها فتجلجج، فقال القاضي: "يا أمير المؤمنين هذا جاهل متكسب مدسوس". وقد اعترف الرجل بعد ذلك بحضرة المقتدر والقاضي والوزير حامد بن العباس أنه غدر وكذب (٩٣). لا شك أن موقف القاضي يحمل في طياته ما هو جدير بأن يستفيد منه الخليفة ويستتير به.

(٩٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٥، ص ١٨٥، والزنار، حزام يشده النصراني على وسطه، إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط، القاهرة، مطابع دار المعارف، ط ٢، ١٣٩٣هـ، ٤٠٣/١.

(٩٢) سورة الحجرات، الآية ٦.

(٩٣) ياقوت، معجم الأنباء، ج ٢، ص ١٥٢-١٥٣.

٤- الاطلاع على الكتب والرسائل:

يعد الاطلاع على الكتب المؤلفة والمترجمة والرسائل المفردة فناً من فنون العلم أو مسألة من مسائله من وسائل بناء الثقافة. لقد عرف عن الخلفاء الاهتمام بهذا الجانب، وبخاصة المعتضد بالله. يروي سنان بن ثابت (ت ٣٢١هـ) أنه اشترك مع المعتضد بالله في البحث في الخزائن القديمة عما يصلح للأميرين أبي جعفر وأبي الفضل من كتب الفقه وكتب اللغة وكتب السير القديمة والقريبة العهد وأخبار الملوك وأيام الناس وأخبار الدولة العباسية وأشباه ذلك^(٩٨).

ويفهم مما يذكره الصولي أن الراضي بالله قد اطلع على عدد من الكتب والمؤلفات من أبرزها تاريخ الطبري^(٩٩).

وتجاوباً مع رغبة بعض الخلفاء ألف عدد من العلماء كتباً في شتى الأغراض لأولئك الخلفاء الراغبين في مزيد من المعرفة عبر الكتاب. فقد ألف أبو العباس الفضل بن حاتم كتاب "أحداث الجو" للمعتضد بالله^(١٠٠) وألف الطبيب يحيى الحلاجي كتاب "تدبير الأبدان

عليه وسلم أعظم من هذا الأمر لأن هذا الرجل كافر ولم يبق في مال الخاصة شيء فاتق الله يا أمير المؤمنين".^(٩٥)

إن الوعي بتلك الأخطار التي واجهت المسلمين آنذاك ومن ثم الانتقال إلى محاولة العمل على مدافعتها من صميم الواجبات الدينية المنوطة بالخليفة. ومعلوم أن المقتدر أثناء اشتداد هجمات القرامطة كان قد تجاوز الثلاثين من العمر. أي أنه في مقدورنا القول بأنه أصبح مهياً لفهم ما حوله بشكل أكبر من ذي قبل، ورغم أن الراضي بالله كان على صلة ببعض الفقهاء كالقاضي عمر بن محمد الأزدي^(٩٦) الفقيه المالكي (ت ٣٢٨هـ) إلا أن الراضي بالله لم يكن مستوعباً أطروحات المذاهب الدينية السنية وبخاصة الحنابلة، حيث خرج من دار الخلافة كتاب يحمل توقيع الراضي يوبخ فيه الحنابلة، ويتهمهم بالجهل والتشبيه^(٩٧) في إجراء ينقصه التروي والحكمة، ويدل على سوء فهم الخليفة لمذهب الحنابلة في الاعتقاد والاستجابة لحملات التشويه والافتراء الموجهة تجاه قطاع مهم من فقهاء حاضرة الخلافة.

= أراد مسابقة الجمهور بإشاعة تلك التهم، انظر، نقض كلام المفترين على الحنابلة السلفيين، الكويت، مكتبة ابن تيمية (د، ت)، ص ١١-١٢.

(٩٨) انظر: فرانز روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين. ترجمة، صالح العلي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤٠٣هـ، ص ٦٩-٧٠، وقد نقل ذلك عن ابن العديم الحلبي.

(٩٩) أخبار الراضي بالله والمتقي لله، ص ٣٩.

(١٠٠) النديم، الفهرست، ص ٣٣٨.

(٩٥) مسكوية أحمد بن علي (ت ٤٢١هـ) تجارب الأمم، عناية هـ، ف. أمدرود، مصر، شركة التمدن الصناعية، ١٣٣٣هـ، ج ١، ص ١٨٠-١٨١. ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج ١٣، ص ٢٦٤-٢٦٥.

(٩٦) يقول عنه الراضي (كنت أضيق بالشيء فيوسعه علي) انظر الصولي، أخبار الراضي بالله والمتقي لله، ص ١٤١.

(٩٧) انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ٣٠٨، ويذكر الشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي أنه يحتمل أن يكون الراضي جاهلاً بحقيقتهم أو أنه =

النخيفة" (١٠١) للمعتضد بالله أيضاً، وألف علي بن هارون المنجم كتاب "شهر رمضان للراضي بالله" (١٠٢).

هذا ومن المعلوم أن الخليفة باعتباره رأس الهرم الإداري والسياسي فإنه يتلقى رسائل وتقارير من الوزراء والعمال والكتاب، فتسهم في إثراء معلوماته ومفاهيمه، لكن عدم الاستقرار السياسي في الدولة وتسلب المتغلبين على الخلفاء وتلاشي دور الخليفة في السياسة والإدارة منذ عهد المقتدر، أدى إلى أن لا يصل إلى الخلفاء رسائل وتقارير من هذا القبيل إلا في حالات قليلة.

ومن خلال هذه المؤثرات الثقافية تعرف الخلفاء ومن في محيطهم على جوانب من الثقافة وعلى اتجاهات فكرية حملتها عناصر من البيئة المحيطة بالخلافة وجماعات الندماء والعلماء والقضاة. والواقع أن البيئة المحيطة بالخلفاء وجماعات الندماء كان لهم أثر في تعزيز مكانة الثقافة الأدبية عند الخلفاء بجميع جوانبها وأشكالها، ومنها ما كان عديم الفائدة وربما كان الأخذ به وتعاطيه دالاً على هبوط الذوق الفكري عند ذلك المحيط.

لقد شاع في محيط الخلافة في عهد المقتدر كتب الأساطير ومن ذلك أساطير الدانيالي

المحتال الذي وضع كتاباً حمل بعض التوقعات ونسبه إلى دانيال عليه السلام، وقد اطلع عليه المقتدر بالله وكان ذلك من أسباب توزيع الحسين بن القاسم عام ٣١٩ هـ (١٠٣).

وينقل الصولي عن الراضي قبل خلافته أنه قال لخدم جدته عندما أخذوا من بين يديه كتب اللغة والأدب والحديث: "قولوا لمن أمركم بهذا قد رأيتكم هذه الكتب وإنما هي حديث وفقه وشعر وأخبار وكتب العلماء ومن كلمه الله بالنظر في مثلها ينفعه بها، وليست من كتبكم التي تبالغون فيها مثل عجائب البحر وحديث سندباد والسنور والفأرة" (١٠٤). ويفهم من ذلك أن هذه النوعية من الكتب كان يجري نشرها في البلاط العباسي من قبل بعض الشخصيات النافذة في البلاط وهي من كتب الأسمار والخرافات كما يذكر ذلك النديم في الفهرست (١٠٥).

وثمة اتجاهات فكرية مناهضة للثقافة الإسلامية والعربية تعلق بها بعض من المحيطين بالخلفاء من طبقة الوزراء والكتاب، إذ إن بينهم شعوبيين معادين للتراث العربي، وآخرين متعلقين بعادات أجنبية كاحتفال بالنيروز إذ احتفلت به والد المقتدر موقدة المجامر على رؤوس حيطان قصر الخلافة (١٠٦).

(١٠١) النديم، المصدر نفسه، ص ٣٥٦، وانظر: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج ٢، ص ١٧٠.

(١٠٢) النديم، الفهرست، ص ١٦١.

(١٠٣) انظر: ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٦.

(١٠٤) انظر: أخبار الراضي والمتقي، ص ٦.

(١٠٥) ص ٤٦٣-٤٦٥.

(١٠٦) التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، ج ١، ص ٢٩٣.

ويصل الأمر في مجلس بعض الوزراء، إلى ازدياد تراث المسلمين والزعم بتفوق مآثورات الساسانيين على ذلك التراث.

ويذكر الذهبي أن عهد أردشير كان يقرأ في مجلس القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد والمكتفي وأن من جلسائه من يقدمه على القرآن الكريم^(١٠٧)، والعجيب أن بعض الوزراء والكتاب لا يرى إمامة العباسيين، وهذا ما يفهم من قول أبي الحسن بن الفرات وزير المقتدر لاحقاً للوزير العباس بن الحسن وهما يتشاوران في البيعة للمقتدر متى اعتقدت أنت أو نحن إمامة البالغين من هؤلاء^(١٠٨)، مما يدل على أن بعض رجال الإدارة في الدولة العباسية آنذاك كانوا يستبطنون نزعات معاوية للخلافة وباعتبارهم عنصراً مؤثراً في بنية الخلافة الإدارية والسياسية فإن وجودهم عزز التأثيرات السلبية الهدامة على التربية والتنقيف الموجهين نحو الأبناء والخلفاء.

ومن بين عناصر التأثير التي حملت لواء الثقافة العربية الإسلامية الفقهاء والقضاة، ويظهر أن تأثيرهم كان محدوداً وأن حضورهم كان ضئيلاً في البلاط العباسي وقد يكون ثقيلاً على بعض المتنفيذين. وعلى أي

حال فإن هذه المؤثرات ساقطت إلى عقول الخلفاء مواد ثقافية مختلفة وكان لبعضها تأثير إيجابي على شخصيات بعض الخلفاء كالراضي بالنظر إلى ثقافته الأدبية القوية، كما كان لبعضها الآخر تأثير سلبي على شخصيات بعض الخلفاء وتحصيلهم العلمي وثقافتهم الدينية واللغوية.

إذ يعد الراضي بالله من ذوي الثقافة الأدبية العالية والعلم بفنون الشعر والنثر وقد عرف بالفصاحة والبلاغة وقول الشعر، وعنه يقول الصولي: "إنه أطبع ملوك بني العباس في الشعر وأكثرهم شعراً وعشرة لجلسائه"^(١٠٩) ولقد أورد بعض المؤرخين كابن الأثير نماذج من شعره الذي جادت به قريحته^(١١٠)، وفي رأي بعض الباحثين فإن الراضي بالله كان ناضجاً مدركاً للأمور غير أن موقفه كان موقف الضعيف المستسلم^(١١١). والحقيقة أن ثقافة الراضي العالية لم تقده إلى تبني مشروع إصلاحي يستهدف إصلاح ما يمكن إصلاحه من أوضاع الدولة العباسية كما فعل المهدي بالله سابقاً والقادر بالله لاحقاً.

وهناك خلفاء أدت المؤثرات السلبية الهدامة والظروف التي عاشها إلى التأثير سلباً على ثقافته ومعالم شخصيته، كالمقتدر الذي نُصِّبَ

(١١٠) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص ٣٦٦-٣٦٨. وقد أورد الصولي أشعاراً له انظر: أخبار الراضي بالله، ص ١٥٤.

(١١١) فاروق عمر، الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية، ص ٩٨.

(١٠٧) انظر: سير أعلام النبلاء، ج١٤، ص ١٩.

(١٠٨) انظر: الصابي، الوزراء، ص ٧٠، وانظر عن ميول بني الفرات، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٨، ص ١٨٤.

(١٠٩) انظر: أخبار الراضي بالله والمتقي لله، ص ١٩.

خليفة من قبل وسط إداري وعسكري لا يهمله أمر الثقافة والعلم (وقد مر بنا في موضع سابق الإشارة إلى طبيعة الوسط الذي نشأ فيه) ولقد وصفه التنوخي: "بأنه جيد العقل صحيح الرأي ولكنه كان مؤثراً للشهوات" وعنه يقول الوزير الصالح علي بن عيسى "ما هو أن يترك النبيذ خمسة أيام متتابعة حتى يصح ذهنه ولو قلت إنه إذا ترك النبيذ هذه المدة في أصالة الرأي وصحة العقل كالمعتضد والمنصور ومن أشبههما من الخلفاء وما خشيت أن أقع بعيداً، وما يفسده غير متابعة الشراب ولا يخبله سواها" (١١٢).

ويمكن القول أن تأثير الثقافة الدينية كان معدوماً عند القاهر بالله بن المعتضد، ولذلك نلاحظ استحكام النزعة العدوانية عنده، ظهر ذلك واضحاً في المعاملة السيئة التي تلقتها امرأة أبيه منه والددة المقتدر، حيث ضربها أشد ما يكون الضرب، وعلقها برجلها (١١٣). وهذه المعاملة الشنيعة وذلك التصرف يعكس انعدام التربية الصالحة ويوضح بجلاء ما يؤدي إليه انعدام الثقافة الدينية، تلك الثقافة التي كرهها

بعض أصحاب النفوذ في دار الخلافة في عهد المقتدر بالله - كما مر بنا - كما يبدو ضعف تأثير الثقافة الدينية وما تولده من قوة عزيمة وثبات عند المقتدر بالله في عدة مواقف تكشف عن تخاذله وانهزاميته أمام بعض مراكز القوة في عهده كالقائد مؤنس الخادم. ففي سنة (٣١٧هـ) أبدى الخليفة ما يدل على سريان هذه الروح المتخاذلة أمام من سلب منه صلاحياته باعتباره خليفة المسلمين، حيث أخذ يتوسل إليه أن لا يشك في صفاء نيته له، فيقول مخاطباً مؤنس الخادم: "أنت يا أبا الحسن لا خلونا منك، شيخي وكبيري ومن لا أزول ولا أحول عن الميل إليه... أرجو ألا تشك في ذلك..." (١١٤).

إن الثقافة الدينية الشرعية لها أهميتها في بناء شخصية الخليفة المأمول منه تحسين أوضاع الخلافة، وغالباً ما تكون الدافع والمحرك لأي مشروع إصلاحي، وإضافة إلى ذلك فقوتها عند الخليفة مما يعبر عن تحرره من المؤثرات الهدامة وجوها الفاسد وإذا كان القاهر بالله ممن ضعفت ثقافته وقل تحصيلهم

(١١٢) انظر: التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، ج ١، ص ٢٨٢، ولقد كان علي بن عيسى من أبرز وزراء المقتدر وقد وزر له مرتين قال عنه الصولي، لا أعلم أنه وزر لبني العباس مثله في عفته وزهده وحفظه للقرآن، انظر: ياقوت، معجم الأدباء، ج ١٤، ص ٦٩، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ٢٩٩، وقد وزر مرتين للمقتدر فيما بين عامي (٣٠١-٣٠٤هـ) وفيما بين عامي (٣١٤-٣١٦هـ) ورغم جهوده الإصلاحية إلا أنه كان يصطدم بضغط =

= أفراد الحاشية ويواجه سوء معاملتهم.

راجع: حمدان الكبيسي، عصر المقتدر بالله، ص ١٨٤-١٨٥، ٢٢٠-٢٢١، وضيف الله الزهراني: الوزير العباسي علي بن عيسى إصلاحاته الاقتصادية والإدارية، ص ٢٧-٢٨.

(١١٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٢٤٥/٨.

(١١٤) الهمذاني، محمد عبد الملك (ت ٥٢١هـ)، تكملة تاريخ الطبري، ملحق بالجزء (١١) من تاريخ الطبري، بيروت، دار سويدان (د، ت)، ص ٢٥٩.

وقد أبرز البحث بعض المعوقات التي أسهمت في تدني التأديب وضعف فاعليته بعد عهد المكتفي بالله ومن ذلك ضعف دور الخليفة وتسلط مراكز القوى على شؤون الخلافة، وكون أصحاب هذه المراكز لم يكونوا راغبين في وصول خلفاء رفيعي الثقافة إلى سدة الحكم، ومن تلك المعوقات أن الأجواء التي أحاطت بالأبناء لم تكن في مجملها مما يخدم التأديب كعملية تربوية وتنقيفية مبكرة وبينت الدراسة أن هناك فئات على تعميق الثقافة غير الجادة عند الخلفاء في هذه المرحلة. كما اتضح من خلال الدراسة أن ضعف تأثير الثقافة الدينية أدى إلى بروز سمة الانهزامية والتخاذل واستحكام النزعة العدوانية عند بعض الخلفاء.

فإن المستكفي بالله، وهو الخليفة الأخير في سلسلة الخلفاء ما قبل العهد البويهى - وقد عاصر دخول آل بويه بغداد، لم يكن بعيداً عن القاهر بالله.. يقول عنه أحد معاصريه كنا إذا كلمنا المستكفي بالله وجدنا كلامه كلام العيارين^(١١٥). ولعل في ذلك ما يشير إلى ضعف الحصيلة اللغوية وتدني القدرة على مخاطبة الآخرين من أهل لفكر والرأي، وذلك مما لا ينسجم مع المركز الذي يشغله والمكانة التي تسنمها.

الخاتمة

تناول البحث التأديب في دار الخلافة العباسية وتنقيف الخلفاء من خلال دراسة بعض العوامل المؤثرة على ثقافة الخلفاء.

= والذهاب وقد كان العيارون من الطبقات الفقيرة المعتمدة من عامة المجتمع.. انظر الفيروز آبادي: المصدر نفسه، ص ٥٧٤.
- الهمداني: تكملة تاريخ الطبري، ص ٣٥٤.

(١١٥) - العيار من الرجال الذي يخلي نفسه وهو لا يردعها ولا يزجرها، انظر، حاشية تكملة تاريخ الطبري، للهمداني، ص ٣٥٤ وفي القاموس المحيط العيار الكثير المجيء، =

نقش تأسيس عثماني من حي القلعة بالقطيف مؤرخ في عام ١٠٣٩هـ

د. مشلح بن كميخ المريخي

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث دراسة نقش تأسيس عثماني من حي القلعة بالقطيف، مؤرخ عام ١٠٣٩هـ - مههور باسم أحد أشهر الولاة العثمانيين بمنطقة الخليج العربي. وتعنى هذه الدراسة بقراءة النص وتحليل مضمونه، مبينة أهمية مدلولاته التاريخية والأثرية، فضلاً عما يحمله من معطيات فنية وقيم جمالية، وتبرز الدراسة ما اشتمل عليه النقش من ألقاب، ونعوت، وأسماء أعلام.

توطئة:

وقد مهد البرتغاليون لتدخلهم في منطقة الخليج باستيلائهم على بعض موانئ جنوب الجزيرة العربية وموانئ الساحل العماني، وتوجوه بالاستيلاء على جزيرة هرمز عام ٩١٢هـ/١٥٠٧م.^(٢) وكان هدف البرتغاليين من ذلك هو تأمين تجارتهم من جوا على الساحل الهندي، مروراً بطريق رأس الرجاء الصالح، وصولاً إلى أوروبا عن طريق المحيط الأطلسي. وبالرغم من أن هذه الطريق كانت آمنة بالنسبة إلى تجارتهم، إلا أنهم كانوا يبحثون عن طرق أقصر وأوفر، لذلك كان تطلعهم للسيطرة على طريقي الخليج العربي والبحر الأحمر.^(٣)

تمتعت منطقة شرق الجزيرة العربية على مر العصور بأهمية اقتصادية واستراتيجية كبيرة، اكتسبتها نتيجة لكونها إحدى أهم معابر الطرق التجارية القديمة بين الشرق والغرب، وبين الشمال والجنوب. ونتيجة لذلك نشأت على شواطئ الخليج العربي موانئ ومدن مهمة، مثل: جزيرة هرمز، وصحار، وجلفار، والقطيف، والبحرين، والبصرة. وبسبب هذه الأهمية كانت المنطقة محطاً لأطماع القوى الخارجية وبخاصة الاستعمارية منها، بداية بالبرتغاليين، ومروراً بالإنجليز، ثم الهولنديين، ونهاية بالفرنسيين، ثم الإنجليز.^(١)

(٢) المسلم، محمد سعيد، ساحل الذهب الأسود: دراسة تاريخية إنسانية لمنطقة الخليج العربي، دار مكتبة الحياة، بيروت، الطبعة الثانية (د.ت)، ص ١٧٠.

(٣) الخطيب، التنافس الدولي في الخليج العربي، ص ١٥.

(١) الخطيب، مصطفى عجيل، التنافس الدولي في الخليج العربي، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت (١٩٨١م)، ص ص ٧-١٢؛ الخصوصي، بدر الدين عباس، دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ج ١، منشورات ذات السلاسل، الكويت، الطبعة الثانية (١٩٨٤م)، ص ص ١٣-٤٨.

عام ٩٢٧هـ/١٥٢١م، ثم القطيف بين عامي ٩٣٢-٩٣٧هـ/١٥٢٦-١٥٣٠م. وبذلك بدأ ميناء القطيف يظهر بشكل أكثر أهمية على مسرح الأحداث، وأصبح سبباً للصراع بين أربع قوى هي: البرتغالية، والصفوية، والعثمانية، والمحلية.

وبعد سقوط القطيف أصبحت المدينة خاضعة لحكام هرمز الخاضعين بدورهم للسيطرة البرتغالية، فأيقن العثمانيون أن البرتغاليين أصبحوا يهددون ممتلكاتهم الجنوبية، لذلك استولوا على شمال العراق، ثم أتموا سيطرتهم عليه باستيلائهم على بغداد عام ٩٤١هـ/١٥٣٤م.

كان هناك ما يشبه الاتفاقية الاقتصادية بين البرتغاليين وبين آل مغامس،^(٦) حكام البصرة والقطيف والحساء، والتي تقضي بتأمين الطريق التجاري بين هرمز-البوابة الجنوبية للخليج- وبين البصرة بوابته الشمالية. ولكن بعد استيلاء البرتغاليين على القطيف ساءت العلاقة بين الطرفين، وأحس آل مغامس أن الوجود البرتغالي في الخليج أصبح يهدد سلطتهم على هذه المناطق.

لم يجد راشد بن مغامس بداً من اللجوء إلى العثمانيين لمساعدته ضد البرتغاليين،

لذا أحس المماليك بأن البرتغاليين بسيطرته على الطرق التجارية والاقتصاد العالمي، وكذلك بتهديدهم الأمكنة المقدسة، أصبحوا يهددون كيانه؛ لذلك دخلوا معهم في صراع، توجه البرتغاليون بالانتصار على القوات المملوكية في ديو عام ٩١٥هـ/١٥٠٩م.

وكان العثمانيون يراقبون الوضع بحذر، وعندما أحسوا بأن البرتغاليين أصبحوا يهددون الأمكنة المقدسة، وطرقهم التجارية، أيقنوا أن السبب الحقيقي يكمن في ضعف دولة المماليك، لذلك قرر العثمانيون الزحف ضد المماليك، فاستولوا على الشام عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م، ثم أنهوا حكم الأخيرين بالاستيلاء على مصر عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م.^(٤)

وفي هذه الأثناء دارت مفاوضات بين البرتغاليين والصفويين انتهت بتوقيع معاهدة صلح بين الطرفين عام ٩٢١هـ/١٥١٥م، وكان من أهم بنودها قيام تحالف عسكري بين الطرفين ضد الدولة العثمانية، وعلى أن تساعد البحرية البرتغالية القوات الإيرانية في الاستيلاء على البحرين والقطيف.^(٥) وقد نتج عن هذا التحالف أن ضم البرتغاليون البحرين

(٦) يطلق بعض المؤرخين على هذه الأسرة لقب آل شبيب، لمزيد من التفاصيل عن تاريخ هذه الأسرة وحكمها للبصرة والأحساء والقطيف، انظر الحميدان، عبداللطيف الناصر، إمارة آل شبيب في شرق جزيرة العرب، مطابع الحميضي، الرياض (١٩٩٧م).

(٤) ايفانوف، نيقولا، الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦-١٥٧٤م، نقله إلى العربية يوسف عطا الله، راجعه وقدم له سعود ضاهر، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى (١٩٨٨م) ص ٥٣ وما بعدها.
(٥) الخطيب، التنافس الدولي في الخليج العربي، ص ٢٤.

للحكم العثماني المباشر (٩٥٤-١٠٨٢هـ/ ١٥٤٧-١٦٧١م).

شعر العثمانيون أن سلطة آل مغامس في البصرة أصبحت ضعيفة وغير قادرة على الدفاع عن أراضيها، لذلك ضمت البصرة للحكم العثماني المباشر عام ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م، وفي السنة التالية ضمت الحسا وأعلنتها إيالة عثمانية. وبمساعدة السكان المحليين تمكن العثمانيون من استعادة القطيف من البرتغاليين عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م وأعلنوها لواءً عثمانياً تابعاً لإيالة البصرة، ثم تم ضمها لإيالة الحسا في وقت لاحق.

تعاقد على حكم إيالة الحسا خلال هذه الفترة ما يزيد على ٤٩ أميراً، تراوحت مدد حكمهم ما بين شهرين وخمس سنوات وأربعة أشهر. إلا أننا نجد أن اثنين من الأمراء قد زادت مدة حكم كل منهما على ربع قرن، وهما علي باشا الذي حكم لمدة ٢٦ سنة (١٠١٨-١٠٤٤هـ/ ١٦٠٩-١٦٣٤م) وابنه محمد باشا الذي حكم لمدة ٣٠ سنة (١٠٤٤-١٠٧٤هـ/ ١٦٣٥-١٦٦٣م).^(٨) وعلي باشا هذا هو الذي في عهده أعيد بناء القلعة التي يوجد فيها النقش التأسيسي الذي هو محور هذه الدراسة.

مر الحكم العثماني في بلدان الخليج بمراحل قوة وضعف تبعاً لقوة الدولة،

حيث كانت تربطه بهم صلة دينية ومصالح اقتصادية، لذلك رحب الشيخ راشد بن مغامس زعيم البصرة بالوجود العثماني في بغداد، وبعث ابنه مانع على رأس وفد إلى بغداد، حيث قدم للسلطان العثماني مفاتيح البصرة، وخطاب الولاء للسلطان العثماني.

تتابعت في السنوات التالية وفود حكام البصرة إلى إستنبول حتى تم إعلان البصرة إيالة عثمانية عام ٩٤٥/١٥٣٨م، وتم تعيين الشيخ راشد بن مغامس حاكماً عليها برتبة أمير أمراء، وهي أعلى رتبة في الإيالات العثمانية آنذاك، وبذلك أصبحت المواجهة مباشرة بين العثمانيين والبرتغاليين. وبمساعدة العثمانيين تمكن مانع بن راشد من استعادة القطيف من البرتغاليين عام ٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م. وفي السنوات التالية دارت مناوشات بحرية بين العثمانيين والبرتغاليين في الخليج العربي والبحر الأحمر وبحر العرب. وكان من ضمن نتائجها سيطرة البرتغاليين على القطيف للمرة الثانية عام ٩٥٢هـ/ ١٥٤٥م، وإنهاؤهم لحكم آل مغامس في الحسا والقطيف.

ثم شن البرتغاليون حملة كبرى بهدف استعادة ميناء وقلعة القطيف، وبالرغم من فشلهم في تحقيق هدفهم إلا أنهم تمكنوا من تدمير ميناء المدينة وقلاعها وتحصيناتها الدفاعية،^(٧) وبذلك خضعت القطيف والحسا

= الآداب - جامعة الملك سعود، الرياض (١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م)، ص ١٤٨.

(٨) الوهبي، الحكم العثماني في الحسا، ص ٢٦٨.

(٧) الوهبي، عبدالكريم بن عبدالله، الحكم العثماني في الحسا (٩٥٤-١٠٨٢هـ/ ١٥٧٤-١٦٧١م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، قسم التاريخ - كلية =

العثمانية، أو السلطان العثماني، وينعت علي باشا أمير الحسا بألقاب سلطانية ودينية لا يمكن إطلاقها إلا على من يحكم باستقلالية.

وبالرغم من أن هذا ليس مدار دراستنا، فإن التساؤل الذي يظل مطروحاً هو: هل تمتعت الحسا بالحكم الذاتي بقيادة علي باشا وابنه محمد باشا؟، مع التذكير بأهمية نقشنا موضوع الدراسة على تأكيد ذلك.

أولاً: حي القلعة بالقطيف:

تقع القلعة في مدينة القطيف بالمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، إلى الشمال الغربي من مدينة الدمام، وكان حي القلعة هو مركز مدينة القطيف قديماً، إذ كانت مدينة محصنة ذات شكل بيضاوي، تنقسم إلى أربعة أحياء، ليس بينها فواصل، ولكل قسم (حي) اسم عرف به، فالجهة الجنوبية من الناحية الغربية كانت تسمى فريق الخان، وفي الناحية الشرقية كان يوجد فريق السدرة، وفي الجانب الشمالي من الناحية الغربية وجد فريق الزريب، وفي الناحية الشرقية كان يوجد فريق الوارش.^(٩) وكان يحف بالقلعة من الجهتين الغربية والجنوبية بعض الأحياء الصغيرة.

وضعها، أو لانشغالها بالدفاع عن حدودها الشاسعة، وخصوصاً على الجبهة الأوروبية، وقد شجع هذا الوضع بعض الأمراء على محاولة التخلص من التبعية العثمانية، ونجح بعضهم في الاستقلال بحكم إيلاتهم بما يشبه الحكم الذاتي، ومن أشهر الأمراء الذين استقلوا بالحكم أسرة الأفراسياب في البصرة.^(٩)

إن المتأمل لفترة حكم علي باشا وابنه محمد باشا من بعده يتساءل هل استقلا بحكم إيالة الحسا؟ وهو سؤال لدينا من المبررات ما يحملنا على الاعتقاد بتمتعهما بنوع من الاستقلال، يساند هذا الرأي عدة أمور، منها ما يلي:

١- طول فترة حكم كل من علي باشا وابنه محمد باشا من بعده، والتي زادت على نصف قرن.

٢- الصراع الذي دار بين الأفراسياب في البصرة وبين محمد باشا في الحسا، حيث كان هذا الصراع بعيداً عن أعين الدولة، مما يعني أنه صراع بين حاكمين مستقلين للسيطرة على أكبر مساحة من الأرض.

٣- إن النقش التأسيسي - موضوع هذه الدراسة - يخلو من أي ذكر للدولة

(٩) لمزيد من التفاصيل عن هذه الأسرة، انظر: الخطيب، التنافس الدولي في الخليج العربي، ص ٩٩ وما بعدها؛ الوهبي، الحكم العثماني في الحسا، ص ٤٣٩ وما بعدها؛ الحمداني، طارق نافع، العلاقات بين أفراسياب والدولة العثمانية إبان حكم -

- أفراسياب باشا وعلي باشا ١٥٥٦-١٦٥٠م، مجلة الخليج العربي، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، ع ١٤، مجلد ١٦، البصرة (١٩٨٤م).

(١٠) المسلم، ساحل الذهب الأسود، ص ٤٨.

لقد انتزعت ملكية القلعة في وقتنا الحاضر، وأزيل منها ثلاثة أحياء (فرق)، وهي فريق الخان، وفريق السدرة، وفريق الوارش، وأبقي على الحي الرابع، وهو فريق الزريب، حيث تسلمته وكالة الآثار والمتاحف السعودية للمحافظة عليه.^(١١)

وقد كانت القلعة تستخدم مستودعاً للعطور والتوابل ومختلف البضائع، ثم تحولت في فترة لاحقة إلى مقر سكني للأهالي، وذلك لمناعتها، وأصبحت تمثل حاضرة القطيف.^(١٢) وكان يحيط بالقلعة سور منيع يبلغ سمكه ٧ أقدام، وارتفاعه ٣٠ قدماً، وتبرز بين جوانبه وزواياه أبراج عالية مستديرة الشكل، وكانت توصل هذه الأبراج التي يبلغ عددها ١١ برجاً جسوراً ممتدة في أعلى السور لتمكين الحاميات من الاتصال ببعضها بعضاً أثناء المراقبة،^(١٣) وكان للقلعة أربعة أبواب، أحدها في الشرق، ويسمى دروابة البحر، والثاني في الغرب، ويسمى دروابة باب الشمال، والثالث في الجنوب عند مدخل السوق، ويسمى دروابة السوق، والرابع يقع في الشمال، ويصلها بالكوت.^(١٤)

إن أقدم إشارة لهذا السور في المصادر التاريخية تعود إلى القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، عندما ذكره أبو الفداء،^(١٥) ووصفه وصفاً لا يختلف عن وضعه المعروف عند أهالي المنطقة قبل ما يربو على الستين عاماً مضت.^(١٦) وقد جدد بناء السور في عهد السلطان سليمان القانوني في غرة المحرم من عام ٩٦٨هـ / ١٥٦٠م، كما يتضح من لوحة تأسيسية تشير إلى ذلك،^(١٧) ثم أعيد بناؤه في عام ١٠٣٩هـ أيضاً في عهد أحد الولاة العثمانيين؛ وهو الوالي علي باشا كما هو واضح من الحجر التأسيسي الذي كان مثبتاً بدروابة باب الشمال؛^(١٨) وهذا الحجر التأسيسي هو موضوع هذه الدراسة.

تجدر الإشارة إلى أن هناك عدة أمور دفعتني لدراسة هذا النقش التأسيسي، منها:

- ١- أنه لم يسبق نشره من قبل.

- ٢- إشارة المسلم له في كتابه "القطيف - سلسلة هذه بلادنا"، ص ص ٢٨-٢٩، وتضمن صورة النقش دون تقديم قراءة له، فضلاً عن الخطأ الذي وقع فيه عند إشارته إلى أن النص أرّخ بحساب

(١١) المسلم، محمد بن سعيد، القطيف: سلسلة هذه بلادنا، الرئاسة العامة لرعاية الشباب، الرياض، الطبعة الأولى (١٤١٠هـ/١٩٨٩م)، ص ٢٨، حاشية رقم ١.

(١٢) المسلم، القطيف، ص ٢٨.

(١٣) المسلم، ساحل الذهب الأسود، ص ٤٦.

(١٤) المسلم، القطيف، ص ص ٢٨-٢٩.

(١٥) المسلم، ساحل الذهب الأسود، ص ٤٤.

(١٦) المسلم، ساحل الذهب الأسود، ص ٤٤.

(١٧) المسلم، القطيف، ص ٢٨.

(١٨) المسلم، القطيف، ص ٢٩.

ثانياً: دراسة وصفية تحليلية لنقش حي
القلعة التأسيسية بالقطيف:

١- وصف النقش:

نفذ هذا النقش بخط الثلث المركب،
بطريقة الحفر البارز المفرغ^(٢١) على لوح
حجري جيرى بحري. أبعاده ٩٣×٤٨سم،
ويتكون النص من أربعة أسطر يحيط بها
إطار مستطيل طولي، وضع كل سطر منها
في إطار مستقل (خرطوش).

قراءة النص (لوحة ١، شكل ١):-

١. الحمد لله الذي أقام تشييد هذه القلعة
٢. الميمونة حرسها الله تعالى من
العدوان بهمة
٣. الملك الهمام في سنة تسع وثلاثين
وألف ١٠٣٩

٢- التحليل العام لمضمون النقش:

يتكون النص من أربعة أسطر، نقشت
للإعلان عن الانتهاء من تشييد القلعة، وهي:

السطر الأول:

افتتح النص بالحمد لله الذي يسر إقامة
وتشييد القلعة.

الجميل، وأنه تضمن كلمة "محفوظة"
وهي ما يعادل ١٠٣٩هـ، والتاريخ
صحيح ولكنه لم يدون بحساب الجمل،
بل كتب بجملة عربية صريحة متنوعة
بالتاريخ رقماً.

٣- ورود هذا النص في أطروحة ماجستير
بقسم التاريخ بجامعة الملك سعود، مقدمة
من الأستاذ عبد الكريم بن عبد الله
الوهبي، الذي أشار خطأ إلى أن النص
مؤرخ في سنة ١٠٣٧هـ.^(١٩)

٤- تضمينه إلى مجلد "المختار من إبداعات
الخط العربي" الصادر عن الهيئة العليا
لتطوير مدينة الرياض بمناسبة إقامة
معرض الخط العربي، حيث وردت
صورة النقش في المجلد ضمن نقوش
أخرى قدمت قراءاتها ما عدا هذا النقش،
وضاعف من الخطأ أن التاريخ الذي
وضع هو سنة ٩٦٨هـ، فضلاً عن أن
ما ورد من معلومات مصاحبة للصورة،
لا تمت لها بصلة سواء فيما يتعلق
بوصف مضمون النص أو تاريخه^(٢٠).

هذه الأسباب وغيرها دفعتني للقيام بتقديم
قراءة لهذا النقش وتحليل مضمونه وتقديمه
بدراسة منفردة.

(١٩) الوهبي، الحكم العثماني في الحسا، ص ٢٥٩.

(٢٠) مجلد المختار من إبداعات الخط العربي، صدر
بمناسبة إقامة معرض الخط العربي الذي أقامته
الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض، الرياض
(١٤٢٠هـ)، ص ٢١٧.

(٢١) إن تنفيذ الكتابات بأسلوب الحفر البارز تعد طريقة
أصعب وأشق مقارنة بالحفر الغائر، فهي تستحوذ
على جهد أكبر، وتحتاج إلى دقة وإتقان وأناة
وصبر.

السطر الثاني:

مشاهدته للقلعة، ووصفه لها. (٢٣)

تضمن نعت هذه القلعة بالميمونة، مع الدعاء والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى بأن يحميها ويحرسها من العدوان، مع الإشارة إلى أنها قامت بفضل وهمة الوالي العثماني.

السطر الثالث:

اشتمل على ألقاب من قام بتشييد هذه القلعة وهي "الملك الهمام" و "القائم بأمور الإسلام"، مع إيراد اسمه، وهو علي باشا.

السطر الرابع:

تضمن لقب الوالي العثماني، مع الدعاء له بدوام الإقبال. ثم ختم النص بتاريخ الانتهاء من تشييد القلعة، وهو سنة تسع وثلاثين وألف بعد الهجرة. علماً أن التاريخ كتب بجملة عربية صريحة متبوعة بكتابة التاريخ رقماً.

يفهم من مضمون نص النقش أن القلعة قد أنشئت في فترة ولاية الوالي العثماني علي باشا وذلك في عام ١٠٣٩هـ، والنص صريح في أنها عملية تشييد وبناء وليست ترميمات لمبنى قائم. ولكن الثابت تاريخياً وأثرياً أن القلعة كانت قائمة قبل هذا التاريخ، ودليلنا على ذلك النقش التأسيسي المؤرخ في سنة ٩٦٨هـ والذي يشير صراحة لبناء القلعة^(٢٢)، فضلاً عما ذكره أبو الفدا عن

إن هذا يقودنا إلى الاعتقاد بأن القلعة قد دمرت أثناء الاحتلال البرتغالي الأخير للمنطقة، إذ تذكر المصادر أنه نتيجة لثورة أهل القطيف، واحتجاجهم ضد الوجود البرتغالي، وطردهم لهم عادوا مرة أخرى، وانتقموا من أهل القطيف شر انتقام، ودمروا الحصون والقلاع وسووها بالأرض، بيد أن العثمانيين ما لبثوا أن استعادوا القطيف والأحساء، وأنهوا الوجود البرتغالي ليس في المنطقة الشرقية فحسب، بل في منطقة الخليج على وجه العموم.

وهذا يدفعنا إلى ترجيح أن النقش التأسيسي المؤرخ في سنة ٩٦٨هـ يعود إلى عمارة العثمانيين للقلعة عقب تمكنهم من طرد البرتغاليين، وأنه بعد قرابة ٧١ سنة أعيد إعمار القلعة، كما اتضح لنا من تاريخ النقش التأسيسي، موضوع هذه الدراسة. ولعل تدميرها هذه المرة كان نتيجة لقتال وفتن داخلية، وربما بفعل عوامل الزمن.

٣- الألقاب والنعوت الواردة في النقش:

يجدر بنا ملاحظة نعت الوالي العثماني بنعوت وألقاب اختص بها الخلفاء والسلاطين، فعادة ألقاب "الملك الهمام" و "القائم بأمور الإسلام" هي ألقاب ينعت بها رأس الدولة. كما أن النص ختم بالدعاء له

(٢٢) المسلم، ساحل الذهب الأسود، ص ٤٤.

(٢٣) المسلم، القطيف، ص ٢٨.

بالتبعية الاسمية - فتلقبوا بهذا اللقب، كما أن بعض رجال الدولة العباسية استبدوا بالسلطة السياسية في مركز الخلافة - وتلقبوا بهذا اللقب الذي يحمل في طياته معنى السيادة العليا. (٢٥)

* **القائم بأمور الإسلام:** كان لفظ "القائم" يضاف إلى كلمات أخرى لتكوين ألقاب مركبة مثل "القائم بأمر الله" و"القائم بأوامر الدين" و"القائم بدعوة الله" و"القائم بالسنة والفرائض" و"القائم بفرض الله". (٢٦) بيد أن هذا اللقب الذي ورد في النقش، موضوع دراستنا، يعتبر - حسب علمي - الأول من نوعه، حيث تخلو النقوش والكتابات الإسلامية منه، سواء النقوش التأسيسية، أو الشاهدية، أو الكتابات التذكارية، أو المسكوكات وغيرها.

* **باشا:** لقب تعظيم بمعنى: رئيس، يطلق على كبار العسكريين في الدولة العثمانية، مثل كبار القادة، وحكام الولايات، ثم أطلق على كبار الموظفين المدنيين. (٢٧) وفي نهاية العصر العثماني تدهور مستواه فأصبح

بدوام الإقبال، وهو ما يدعى به عادة لصاحب السلطان ورمز الدولة؛ مما يقودنا إلى الاعتقاد بأنها هنا ما هي إلا ألقاب ونعوت فخرية ولا تمثل سلطة حقيقية، خاصة وأنها أصبحت على أحد الولاء العثمانيين دون تضمين النص لاسم السلطان العثماني الذي شيدت القلعة في عهده.

* **الملك الهمام:** أي الملك العظيم الهمة، والسيد الشجاع السخي. (٢٤) والملك لقب يطلق على الرئيس الأعلى للسلطة، وهو من الألقاب المعروفة في اللغات السامية الجنوبية والشمالية القديمة، فأول إشارة لهذا اللقب وردت في نقش صرواح الذي تركه "كرب ال وتر" ملك سبأ، كما ورد اللقب نفسه في النقوش الشمالية، ويعد نقش النمارة المؤرخ في سنة ٣٢٨م، والذي يؤرخ لوفاة الملك امرئ القيس بن عمرو ملك الحيرة أول نقش عربي ترد فيه هذه الصيغة.

ولم يعرف هذا اللقب بصفة رسمية في صدر الإسلام والعصر الأموي، بيد أن بعض ولاية بني العباس أخذوا في الاستقلال عن مركز الخلافة - حتى وإن احتفظ بعضهم

(٢٤) الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت (١٤١٥هـ/١٩٩٤م)، ص ١٥١٢.

(٢٥) الباشا، حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، دار النهضة العربية، القاهرة (١٩٧٨م)، ص ص ٤٩٦-٤٩٧.

(٢٦) الباشا، حسن، الألقاب، ص ص ٤٢٨-٤٣٠.

(٢٧) النهر والي، قطب الدين محمد بن أحمد المكي، السبرق اليماني في الفتح العثماني، تحقيق حمد الجاسر، الطبعة الأولى، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ص ٧٥؛ الصمصافي، أحمد المرسى، معجم صمصافي تركي - عربي، كلية الآداب بجامعة عين شمس، القاهرة (١٩٧٩م)، ص ٣٩٠.

هذا وقد شرع علي باشا في مواجهة القلاقل والفتن التي اعترضت الإيالة خصوصاً من قبل القوى الموالية للصفويين، حيث كانت على مقربة من المنطقة، وشكلت مع القوى المحلية تهديداً مباشراً للإيالة، فقام علي باشا بتنظيم الأمور الإدارية، وعزز قواتها العسكرية واستحكم دفاعاتها وتحصيناتها بدعم وتأييد من المجلس السلطاني في استنبول.^(٣٢)

ويعد علي باشا من نتاج أفراد الطبقة العسكرية العثمانية التي استقرت في المنطقة العربية وازدادت صلتها بها نتيجة للتزاوج وترباط المصالح، وقد لقب بالبغدادي نسبة إلى نشأته ببغداد، وارتباطه بها. عرف هو وأفراد عائلته بالتدين والغنى، ونالوا قسطاً وافراً من المعرفة والثقافة خصوصاً في العلوم الشرعية واللغة العربية وآدابها، واشتهر لذلك فضلاً عن طول المدة التي قضاها أميراً لأمراء الإيالة، وأحد أبنائه من بعده.^(٣٤)

وقد استمر علي باشا في منصبه أميراً لأمراء الإيالة حتى سنة ١٠٤٤هـ/١٦٣٤م، حيث تذكر الروايات المحلية أن أحد أبنائه قد زور رسالة باسم أبيه أثناء إحدى زيارته

يعطى لكل من تريد الدولة استمالته وكسب تأييده.^(٢٨)

٤ - الأعلام الواردة في النص:

اللافت للنظر عدم تضمين النص اسم السلطان العثماني الذي أنشئت القلعة في فترة حكمه، واقتصر النص على إيراد اسم الوالي العثماني علي باشا.

علي باشا: (١٠١٨-١٠٤٤هـ/١٦٠٩-١٦٣٤م).

تولى علي باشا أمير أمراء إيالة الأحساء قرابة ٢٦ عاماً، وذلك بعد وفاة أمير أمراء الإيالة بهرام باشا.^(٢٩) وفيما يبدو أنه كان يشغل قبل ذلك منصب أمير لواء في الإيالة، وتوليته أمير أمراء كانت بمبادرة محلية من أمراء ألوية الإيالة وقادتها العسكريين، إضافة إلى بعض أعيان الإيالة،^(٣٠) وذلك لمواجهة الفراغ الحاصل في منصب أمير الإيالة،^(٣١) وفيما بعد أقر المجلس السلطاني بتاريخ ١٠ جمادى الآخرة ١٠١٨هـ/ ٩ سبتمبر ١٦٠٩م ذلك الإجراء، وتم تعيين علي باشا بصفة رسمية أمير أمراء علي إيالة الحسا.^(٣٢)

(٣٠) الغرابي، أحمد بن عبدالله البغدادي، تاريخ الغرابي، مخطوط بالمتحف العراقي في بغداد تحت رقم ٩٣١١، ص ص ١٣٤-١٣٥؛ الوهبي، الحكم العثماني في الحسا، ص ٢٥٧.

(٣١) الوهبي، الحكم العثماني في الحسا، ص ٢٥٧.

(٣٢) الوهبي، الحكم العثماني في الحسا، ص ٢٥٧.

(٣٣) الوهبي، الحكم العثماني في الحسا، ص ٢٥٧.

(٣٤) الوهبي، الحكم العثماني في الحسا، ص ٢٥٧.

(٢٨) غبان، علي بن إبراهيم حامد، شمال غرب المملكة العربية السعودية "الكتاب الأول": بحوث في التاريخ والآثار، (د.م)، الطبعة الأولى (١٤١٤هـ/١٩٩٣م)، ص ١٢٨.

(٢٩) الوهبي، الحكم العثماني في الحسا، ص ٢٥٧.

على الأسطر، وطول الأسطر وتناسقها، ووضعها بجداول منسقة (خراطيش)، وبالرغم من ذلك فإنه من فرط حرصه على تحقيق هذا التوازن، قام بقطع بعض الأطراف الداخلية للإطار العام، ولاسيما من الجهة اليسرى، كما هو الحال في الكلمات: (القلعة) في السطر الأول، و (علي) في السطر الثالث، و (ألف) في السطر الرابع، (لوحة رقم ١، شكل رقم ١).

ويمكننا ملاحظة جملة من صور الإبداع الفني في أسلوب هذا الخطاط، (انظر جدول أشكال الحروف)، منها:

- قدرته على سحب قوائم الألفات في رشاقة متناهية.
- دقة تنفيذ عراقات الحروف النازلة عن الأسطر، ومنها: الراء، والزاي، والواو.
- تكرار حالات قطع حرف بحرف آخر أو أكثر، وإخراجها بشكل واضح ومتقن.
- إبداعه ومهارته في تدوير رأس الفاء، والقاف، والواو.
- تلويح رأس العين.
- إسباله للميم النهائية.
- تقديم حروف بعض الكلمات عن موضعها دون إخلال بالكتابة أو الشكل العام للنقش.

السنوية لاستنبول تضمنت طلب علي باشا إعفاءه من منصبه نظراً لكبره وعجزه، وأنه يوصي بتعيين ابنه حامل الرسالة بدلاً منه، فاستجابت استنبول لطلبه فعزلته، وعينت ابنه بدلاً منه. (٣٥)

غادر بعد عزله المنطقة متوجهاً إلى المدينة المنورة، حيث جاور الحرم النبوي، وعاش بقية حياته هناك، وعرف هو وابناه اللذان قدما معه من إيالة الحسا بالجود والعلم والصلاح. (٣٦) وتوفي بالمدينة سنة ١٠٥١ هـ/١٦٤٠-١٦٤١ م. (٣٧)

ثالثاً: الدراسة التحليلية لخصائص الخط الفنية:

نفذ النقش بأسلوب ونمط كتابي يمثل تلك الكتابات المنفذة على غالبية النقوش التأسيسية العثمانية، وتحديدًا تلك المنفذة بخط الثلث المركب. ومما لا شك فيه أن هذا النقش قد نفذ بطريقة فنية رائعة أبدعها خطاط ماهر محترف، وبأسلوب واضح بسيط يمكن قراءته بيسر وسهولة، ولعل هذا هو المطلوب في النقوش التأسيسية التي عادة ما توضع لتاريخ عمل ما، وإصباح الشهرة والتخليد على اسم من قام بهذا العمل.

وقد التزم الكاتب بقواعد خط الثلث، وأتقن الشكل العام للنقش من حيث توزيع الكلمات

(٣٧) المحبي، محمد، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج ١، دار صادر، بيروت (د.ت)، ص ص ٩٠-٩٢؛ الوهبي، الحكم العثماني في الحسا، ص ٢٦٠.

(٣٥) الوهبي، الحكم العثماني في الحسا، ص ٢٥٧.

(٣٦) الوهبي، الحكم العثماني في الحسا، ص ٢٦٠.

- تقاطع الياء العائدة مع ما سبقها من حروف دون التباس هيئتها مع الحروف الأخرى.
- تنفيذ الكلمات وحروفها بطريقة مركبة على دورين، وثلاثة أدوار.
- ورد لفظ الجلالة مرتين، رسم الثاني منهما بألف طويلة مسحوبة، ولامين قصيرتين، وهاء نهائية مخطوفة.
- ملء الفراغات بنقط الإعجام، ونفذت على هيئة مربعات.
- توظيف رؤوس حروف الألف واللام والكاف في السطر الثالث لتؤدي دوراً زخرفياً على هيئة شريط دال، أو ما يعرف بالزقزاق، فضلاً عن دورها
- جزءاً من هيئة الحرف، ولم يقف الأمر عند ذلك الحد فحسب بل نجد أن الخطاط ختم النقش بالهيئة الزخرفية نفسها، وذلك في نهاية الجدول (الخرطوش) الرابع بعد التاريخ المدون كتابة ورقماً.
- وبعد فإنه يتضح من خلال ما سبق عرضه، مدى أهمية هذا النقش التأسيسي، وقيمته العلمية، سواء من حيث مدلولاته التاريخية، أو الأثرية، أو مواكبته للأحداث التاريخية العائدة إلى تلك الفترة، أو من حيث ما اشتمل عليه من صيغ وتراكيب وألقاب ونعوت ذات مدلول رسمي، فضلاً عن قيمته الآثارية الخطية، وما يبرزه من معطيات فنية، وقيم جمالية.

سكان القدس في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي

د. محسن يوسف

ملخص البحث:

يعالج البحث موضوع الخارطة الدينية لسكان القدس عشية الاحتلال الصليبي للمدينة عام ١٠٩٩م. والبحث محاولة جزئية لتفنيد مزاعم عدد من المستشرقين، وعلى وجه الخصوص المستشرقون الصهاينة، الذين يدعون بأن المسلمين لم يهتموا بمدينة القدس إلا عندما كانت محتلة من قبل غيرهم. وقد ادعوا بأن عدم الاهتمام هذا تمثل في جوانب عديدة أهمها الجوانب السياسية والعسكرية والاقتصادية وحتى الجانب الديموغرافي. وفيما يتعلق بالجانب الديموغرافي، وهو موضوع الدراسة، ادعى المستشرقون أن المسلمين كانوا أقلية عشية الاحتلال الصليبي للمدينة، أي بعد خضوعها لحكم المسلمين لفترة تقارب خمسة قرون.

إن المصادر القديمة العربية والصليبية على حد سواء لم تزودنا بإحصاءات عن أعداد ونسب سكان القدس أو غيرها من المدن والبلاد، لذلك على الباحث أن يستخدم المعلومات المتعلقة بالضرائب وحجم المدينة وأحيائها وأمكنتها المقدسة وغيرها من معلومات، لتقدير أعداد السكان ونسبهم لبعضهم بعضاً. وعندما أخذت جميع المصادر بالحسبان، وعلى وجه الخصوص المصادر العربية والصليبية، تبين أن الغالبية الساحقة من سكان المدينة عند احتلال الصليبيين لها كانوا من المسلمين. أما بالنسبة إلى النصارى فقد أشارت المعلومات إلى أنهم سكنوا في حي واحد فقط وهو الحي نفسه الذي مازال يطلق عليه اسم حي النصارى. وكان حجم هذا الحي يبلغ سدس حجم المدينة. إلى جانب ذلك لم يقتصر السكن في ذلك الحي على النصارى وحدهم بل شاركهم في ذلك المسلمون. وعليه فإن نسبة النصارى إلى مجموع السكان كانت أقل من السدس. أما بالنسبة إلى اليهود فقد تبين بأن الضريبة السنوية التي كانت مفروضة عليهم كانت زهيدة بشكل لافت للانتباه حيث بلغت ١٠٠ دينار فقط. وعلى الرغم من زهادة المبلغ فقد أظهرت المصادر أنه كان ثقيلاً عليهم، مما يشير إلى أن عددهم كان قليلاً جداً. ومما يؤكد قلة عددهم أن الصليبيين جمعوهم جميعاً في كنيسهم رغم أن حجم ذلك الكنيس كان متواضعاً، وأحرقوهم به. على هذا الأساس تم تقدير نسبة السكان المسلمين لمجموع سكان المدينة، الذين راوح عددهم بين ٢٠٠٠٠ و ٣٠٠٠٠ نسمة، حوالي ٨٥٪، والنصارى أقل من ١٥٪ واليهود ما بين ١٪ و ٢٪.

مقدمة:

هناك اهتمام مبالغ فيه من قبل المستشرقين خصوصاً الصهاينة منهم في إثبات عدم أهمية أو عدم اهتمام المسلمين بالقدس. ويمكن تلخيص الأسلوب الذي يتبعونه في إثبات عدم الاهتمام هذا في أربع نقاط رئيسية وهي:

(١) أن العرب والمسلمين لم يفتحوا مدينة القدس في بداية عهد الفتوحات في جند فلسطين، بل على العكس من ذلك فإنها كادت تكون آخر مدينة تفتح في هذا الجند، وقد تم فتحها بعد بداية عهد الفتوحات في هذا الجند بأربع سنوات.

(٢) أن العرب والمسلمين لم يتخذوها عاصمة للإمبراطورية الإسلامية ولم يتخذوها عاصمة لولاية بلاد الشام بل حتى إنهم لم يتخذوها عاصمة لجند فلسطين، في حين اتخذها اليهود (قديماً وحديثاً) واليونان والرومان والصليبيون والبريطانيون عاصمة لهم.

(٣) أن اهتمام المسلمين بالمدينة من الناحية العمرانية ومن جميع النواحي كان عرضياً وفي أغلب الأحيان كان كرد فعل لحدث معين. إنهم، على سبيل المثال، يدعون بأن بناء قبة الصخرة والمسجد الأقصى كان نتيجة ثورة

عبدالله بن الزبير في الحجاز وعدم مقدرة الأمويين على الحج لبیت الله الحرام. وإن إنشاء المباني الكثيرة وتأليف عدد كبير من الكتب التي تتحدث عن تاريخ وقديسية وفضائل المدينة في الفترتين الأيوبية والمملوكية كان رد فعل للاحتلال الصليبي. وحسب رأيهم فإن اهتمام المسلمين الحالي في المدينة "والتباكي" عليها نابع من كون المدينة تخضع للسيطرة الإسرائيلية لا أكثر ولا أقل.

(٤) لم يسكن المسلمون في المدينة بأعداد كبيرة وبقوا أقلية بين سكانها حتى مجيء الصليبيين. ويربطون ذلك بالفترة الحديثة حيث يقولون إن المسلمين أصبحوا أقلية بالمدينة من جديد بعد الهجرة اليهودية والاهتمام المسيحي الأوروبي بها خلال القرن التاسع عشر^(١).

من غير الصعب تفنيد هذه الادعاءات وتوضيح عدم دقتها وصحتها. ورغم أنني اخترت أن أكرس البحث الحالي لفحص موضوع التركيبة الدينية لسكان القدس في نهاية الفترة الإسلامية الأولى، أي عشية الاحتلال الصليبي، إلا أنني أريد أن أوضح بعض الحقائق عن النقاط الثلاث الأولى التي ذكرت أعلاه. فتأخر فتح المدينة من قبل المسلمين لا يعني بالضرورة عدم اهتمام المسلمين بالمدينة أو عدم تقديسهم لها لأن

Encyclopedia of Islam = الطبعة الثانية. ومقالة حواء لاسروس يافه بعنوان "قديسية القدس في الإسلام" في كتاب القدس: دراسات في تاريخ المدينة، من تحرير أمنون كوهين، (القدس، ياد يتسحاق بن تسفي، ١٩٩٠). ص ٣٥-٤٥. انظر كذلك Encyclopaedia Judaica, vol. 9, pp.1407-10.

(١) من الأمثلة على ذلك المقالة التي كتبها شلومو دوف غويتاين وعنوانها "القدس في الفترة العربية ٦٣٨-١٠٩٩" في كتاب القدس: دراسات في تاريخ المدينة، من تحرير أمنون كوهين، (القدس، ياد يتسحاق بن تسفي، ١٩٩٠). ص ١١-٣٤. والمقالة التي نشرها نفس المؤلف تحت عنوان Quds في =

توقيت الفتح كان يتم لاعتبارات عسكرية محضة وليس لاعتبارات دينية. فالمتتبع للفتوحات الإسلامية في فلسطين وفي بلاد الشام وفي المناطق الأخرى يجد أنها كانت تبدأ في المناطق المنخفضة مثل المناطق الصحراوية والسهول تنتقل إلى المناطق الجبلية كمنطقة القدس. علاوة على ذلك فإنه لم يكن للمسلمين مناص من بدء الفتوحات في المناطق المنخفضة لأن القوات البيزنطية التي كانت تسيطر على البلاد آنذاك كانت تتركز في هذه المناطق الساحلية السهلية ولم تتركز في المناطق الجبلية.^(٢)

ليس من العيب أن يهتم المسلمون بشؤون المدينة ومستقبلها وأن يكتبوا عن أهميتها وقديستها وفضائلها عندما تخضع للهيمنة الأجنبية، بل على العكس من ذلك فإنه من العار عليهم أن لا يهتموا بها وأن لا يكتبوا عن تاريخها وقديستها وفضائلها في الأزمنة العصيبة أكثر منه في فترات السلام. وإننا حقيقة نخالف الحقائق التاريخية إذا ادعينا بأن المسلمين تجاهلوا المدينة ولم يهتموا بها وبفضائلها في الأوقات السلمية. فالمباني الفخمة التي أقيمت في القدس خلال الفترة الأموية والمتمثلة في قبة الصخرة والمسجد الأقصى والقصور الواقعة إلى الجنوب الغربي

من المسجد الأقصى (أي دار الإمارة) تثبت أن المسلمين اهتموا بالمدينة خلال فترات السلام هذه اهتماماً عظيماً يفوق اهتمامهم في أي مدينة أخرى في بلاد الشام وخارجها. وقد أنفق على إنشاء هذه المباني أموال طائلة تفوق بكثير ما أنفق على منشآت في مدن أخرى مثل دمشق التي كانت عاصمة الأمويين أنفسهم، ومكة المكرمة التي كانت ومازالت تعتبر أقدس المقدسات الإسلامية على الإطلاق. إن هذا الاهتمام العظيم لم يقتصر على الجوانب المادية فقط بل عداه للجوانب السياسية والدينية، فهناك عدد من الخلفاء ممن توج نفسه في المدينة وهناك عدد من الخلفاء العباسيين والفاطميين وغيرهم ممن زار المدينة ورمم مبانيها، وهناك حكام وملوك مثل الأخشيديين الذين طلبوا أن يدفنوا في المدينة. باختصار، إن ما حظيت به مدينة القدس من اهتمام المسلمين يفوق ما حظيت به أي من المدن المقدسة الإسلامية الأخرى. إلى جانب ذلك فقد زار المدينة وعلم في مساجدها ومدارسها وجاور بها عدد كبير من العلماء والصوفيين المسلمين، مثلها في ذلك مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة. وكان يحج إليها أكثر من ٢٠٠٠٠ مسلم سنوياً في موسم الحج وحده.^(٣)

(٢) (بيروت، دار صدر ودار بيروت، ١٩٦٦). ج ١٠، ص ٢٨٤، أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي التابكي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٣) ج ٥، ص ٩٦، ١٦٠، ١٦٤. غويتاين، ص ١٦-٢٢، Encyclopedia of Islam, edition, vol.5, ٢٩-٣٠.

(٢) أبو عبدالله بن عمر الواقدي: فتوح الشام، (بيروت، دار الجيل للنشر والتوزيع). ج ٢، ص ١٦-٣٥.

(٣) ناصري خسرو، سفرنامه، رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس هجري، ترجمة يحيى الخشاب (بيروت دار الكتاب الجديد، ١٩٧٠). ص ٥٥. علي بن أبي الكرم بن الأثير، الكامل في التاريخ =

وفيما يتعلق بالكتابة والتأليف في مجال تاريخها وفضائلها وقديسيتها فلم ينتظر المسلمون حتى سقوطها بيد الصليبيين، كما ادعى بعض المؤرخين، بل إن مكى بن عبد السلام الرميلي المقدسي كان يعد كتاباً عن تاريخها عندما لقي حتفه في المجزرة الفظيعة التي نفذها الصليبيون في حق سكانها عام ١٠٩٩م. وقد ذكرت المصادر أن اسحق بن بشر القرشي المتوفى عام ٨٢١ قد ألف كتاباً بعنوان "فتوح بيت المقدس". وألف أحمد بن خلفي السبحي (من رجال القرن التاسع) كتاباً بعنوان "أخبار بيت المقدس". وهناك عدد كبير جداً من الكتب التي خصت مدينة القدس بفصول طويلة جداً.^(٤) ونكاد نجزم أن جميع القصص والخرافات والمعجزات التي ملأت كتب الفضائل التي كتبت بعد الاحتلال الصليبي ما هي إلا نسخ مباشر أو إعادة صياغة لما ألفه المسلمون الذين عاشوا قبل الاحتلال الصليبي. ويكفي أن نشير في هذا المقام إلى ما كتبه الرحالة الفارسي ناصري خسرو الذي زار المدينة عام ١٠٤٧م، وما كتبه الواقدي المتوفى عام ٨٢٣ م في كتابه المسمى "فتوح الشام". فمن جملة ما ادعاه هذا المؤرخ بشأن فتحها على يد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب أن بطريك المدينة كان على علم بمن سيفتح المدينة وبأوصافه لأنها حسب

ما يذكره الواقدي، قد وجدت في الإنجيل والكتب المقدسة الأخرى التي كانت بحوزة البطريك. وحسب هذا المصدر فإن اسم الشخص الذي سيفتح المدينة هو عمر الفاروق صاحب النبي!. وقد رفض البطريك تسليم المدينة إلا للخليفة عمر ليتأكد من صحة ما جاءت به الكتب المقدسة. وعندما حاول المسلمون خداعه وتقديم خالد بن الوليد على أنه هو عمر بن الخطاب وذلك للتشابه الجسماني الكبير بين الشخصين أقسم البطريك بأن الشخص الذي أمامه يشبه الشخص الذي يجد أوصافه في الكتب المقدسة إلى حد كبير جداً إلا أنه ليس هو. وفي النهاية لم يجد المسلمون بداً من الطلب من الخليفة المجيء للمدينة المقدسة وتسلمها بشكل شخصي من البطريك. وعندما حضر الخليفة وعينه البطريك تعرف عليه فأمر بفتح أبواب المدينة أمامه وأمام الجيش العربي الإسلامي.^(٥) إن القيمة التاريخية للمعلومات التي احتوت عليها القصص والخرافات قليلة جداً ولكنها في الوقت نفسه تعكس اهتمام مؤلفيها ومروجيها في المدينة المقدسة. إن ما ألف من قصص وخرافات ومعجزات عن مدينة القدس ليس فقط يعادل ما كتب عن المدن الإسلامية المقدسة الأخرى بل إنه يفوقه من ناحية الكمية والفحوى. علاوة على ذلك

(٤) غوتلين، ص ١٢. ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي: معجم البلدان، (بيروت، دار صادر ودار بيروت، ١٩٨٤) ج ١، ص ٥٢١. ابن تغري بردي، ج ٥، ص ١٦٤.

(٥) الواقدي ج ١، ص ٢٢٩-٢٤٥. ناصري خسرو ص ٥٥-٧١.

الاحتلال الصليبي مباشرة. واتخذت عاصمة خلال العهد المملوكي. وأصبحت مركزاً وعاصمة لمتصرفية القدس خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر.^(٦) باختصار كانت القدس عاصمة فلسطين عشية احتلالها من قبل الصليبيين في بداية القرن الثاني عشر وعشية احتلالها من قبل البريطانيين في بداية القرن الحالي.

مدينة القدس

كان حجم مدينة القدس في الفترة الأولى من التاريخ الإسلامي أعظم من حجمها في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، وقد اختصر هذا الحجم في منتصف القرن الحادي عشر ليصبح مطابقاً تماماً لحجم المدينة الحالي (أي حجم المدينة القديمة المحاطة بالسور).^(٧) وبما أنه لم يكن للمدينة أي أحياء حقيقية خارج السور فإن مساحتها في نهاية هذا القرن كانت حوالي كيلومتر مربع واحد. وقد قدر الرحالة الفارسي ناصر بن خسرو الذي زار المدينة عام ١٠٤٧م عدد رجالها بحوالي ٢٠٠٠٠ حيث قال: "وهي مدينة كبيرة كان بها، في ذلك الوقت، عشرون ألف رجل"^(٨). رغم أن هذا الرحالة قد وصف المدينة بأنها كبيرة إلا أننا نتوقع بأنه فعلاً قصد أرباب عائلات فيصبح عدد سكان المدينة يقارب ١٠٠٠٠٠ شخص، وهو أمر يتنافى كلياً مع وصف

فإن مدينة القدس هي المدينة الوحيدة التي ذكرت في المصادر العربية الإسلامية على أنه تم فتحها بشكل مباشر من قبل أحد الخلفاء الراشدين ولم تفتح من قبل أحد قادتهم.

إن عدم اتخاذ مدينة القدس عاصمة للإمبراطورية الإسلامية أو عاصمة لولاية الشام أو جند فلسطين لا يقلل من أهميتها وقديستها بعين المسلمين. فالقداسة والأهمية بالنسبة إلى المسلمين لم تكن قط مرتبطة بالجوانب السياسية. فمكة المكرمة، وهي أقدس المدن الإسلامية على الإطلاق، لم تكن أبداً عاصمة للإمبراطورية الإسلامية. والمدينة المنورة التي تعتبر ثاني أقدس المقدسات قد خسرت مكان الصدارة السياسية في العالم الإسلامي لمدن غير مقدسة منذ فترة حكم رابع الخلفاء الراشدين. وهناك أمثلة كثيرة عن مدن مقدسة لفرق إسلامية مثل كربلاء والكوفة والمشهد بالنسبة إلى الشيعة الاثني عشرية والتي لم تتخذ عواصم لدول شيعية أو غير شيعية. علاوة على ذلك فإن السلطات الإسلامية قد اتخذت القدس عاصمة لها بين الفينة والأخرى، فهناك معلومات أثرية وغير أثرية تشير إلى أنها كانت عاصمة للإمبراطورية الأموية لفترة معينة. وهناك مصادر كثيرة تؤكد أن القدس قد حلت محل مدينة الرملة كعاصمة وكأعظم مدينة في فلسطين خلال العهد السلجوقي الذي سبق

Encyclopedia of Islam, second edition, vol. 5, (٧)
p. 342. Encyclopaedia Judaica, vol. 9, p. 1414.

(٨) ناصر بن خسرو، ص ٥٦.

Encyclopedia of Islam, second edition, vol. 1, (٦)
pp. 662-7, 750-1. vol. 3, pp. 1118-9. vol. 5.

جهودهم باءت بالفشل. وقبل مرور عام واحد على الاحتلال الفاطمي سقطت المدينة بيد الصليبيين الذين قاموا بمذبحة مروعة في سكانها المسلمين^(١٠).

إن كثرة الحروب وتنقل المدينة بين أيدي المحتلين لم تؤد إلى إحداث دمار كبير وانخفاض في عدد السكان. والسبب في ذلك أن غالبية هذه الحروب كانت تنشب بين الجيوش المتصارعة على السلطة ولم يتأثر بها السكان المدنيون. ومما يؤكد هذا الأمر ما قاله ابن العربي، الذي زار المدينة عام ١٠٩٣ وسكن بها ما يزيد على ثلاث سنوات، عن أحد التمردات التي نشبت في المدينة أثناء وجوده بها حيث قال: "ورأيت فيه (أي في محراب داود) ... أن ثائراً أثار به على واليه وامتنع فيه بالقوت محاصرة حاول قتاله بالنشاب مدة، والبلد على صغره مستمر في حاله، ما أغفلت لهذه الفتنة سوق، ولا سار إليها من العامة بشر، ولا برز للحال من المسجد الأقصى معتكف ولا انقطعت مناظرة ولا بطل التدريس، وإنما كانت العسكرية قد تفرقت فرقتين يقتتلون، وليس عند سائر الناس لذلك حركة. ولو كان بعض هذا في بلادنا (الأندلس) لاضطربت نار الحرب في البعيد

المدينة الذي تكلمت عنه المصادر الأخرى. كذلك الحال فإن حجم المدينة الذي كان يقل عن كيلومتر مربع واحد لا يمكن أنه استوعب هذا العدد الضخم من السكان، لذلك نعتقد بأن ناصري خسرو قد قصد أشخاصاً ولم يقصد رجالاً. والعدد ٢٠٠٠٠ تلائم مع عدد سكان مدن مشابهة لمدينة القدس من ناحية الحجم كطرابلس الشام، ومع عدد سكانها في الفترة المعاصرة حيث بلغ عددهم ٢٩٤٠٠ شخص عام ١٩٩٣، ويتلاءم مع تقديرات برافر لعدد سكانها في نهاية القرن الحادي عشر حيث قدرهم بثلاثين ألف نسمة^(٩).

هناك عدد من المؤرخين الذين ادعوا بان عدد سكان المدينة قد تقلص خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر لكثرة الحروب التي نشبت في المنطقة وتقلها بين أيدي المحتلين. فيشيرون إلى أن السلاجقة بز عامة القائد اتسز قد هاجموا عام ١٠٧١. وثار سكان المدينة ضد حكامهم الجدد مما دفع باتسز لإعادة احتلالها عام ١٠٧٦. وفي عام ١٠٨٦ احتلها قائد سلجوقي آخر باسم ارتوق لتسقط عام ١٠٩٨ بيد القائد المصري الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي. وفي السنة نفسها حاول السلاجقة بقيادة تنش استعادتها إلا أن

(١٠) أبو يعلى حمزة بن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق (بيروت، مطبعة الأباء اليسوعيين، ١٩٠٨). ص ١٠٩-١١١. ابن الأثير ج ١٠، ص ١٠٣-١٠٤، ٢٨٢-٣. ابن تغري بردي، ج ٥، ص ٨٧، ١١٥، ١٥٩. غويتاين، ص ٢٤.

(٩) Joshua Prawer; Crusader Institutions, (Oxford. Clarendon Press. 1980). P. 88. Statistical Yearbook, Jerusalem 1993, (Jerusalem. Municipality of Jerusalem, 1993).p.45. جميل العسلي بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين، عمان، ١٩٩٢. ص ٥٤.

والقريب ولا انقطعت المعاش وغلقت الدكاكين وبطل التعامل" (١١).

وفي اعتقادي أن عدد سكان القدس ليس فقط لم يتقلص خلال الفترة المذكورة بل على العكس من ذلك فقد زاد على حساب مدينة الرملة ومنطقة الساحل وذلك لسببين رئيسيين: فالكوارث الطبيعية والزلازل التي ضربت فلسطين عام ١٠٣٣ و ١٠٦٧ قد أحدثت خسائر فادحة في مدينة الرملة وقراها والمنطقة الساحلية ولم تؤثر إلا قليلاً في مدينة القدس ومنطقتها. فعن زلزال عام ١٠٦٧ وما أحدثه من خراب قال ابن القلانسي: "جاءت زلزلة عظيمة بفلسطين هدمت أكثر دور الرملة وسورها وتضعض جامعها مات أكثر أهلها تحت الردم. وحكي أن معلماً كان في مكتبه به تقدير مائتي صبي وقع المكتب عليهم فما سأل أحد عنهم لهلاك أهلهم وأن الماء طلع من أفواه الآبار لعظم الزلزلة. وهلك في بانياس تحت الردم نحو من مائة نفس وكذلك في بيت المقدس". وقد قدرت المصادر عدد الذين لاقوا حتفهم في الرملة بسبب هذا الزلزال بين ١٥٠٠٠ و ٢٥٠٠٠ شخص (١٢).

كذلك الحال فإن انتشار القبائل العربية

(١١) العسلي ص ٥٤.

(١٢) ابن القلانسي ص ٩٤. ابن تغري بردي ج ٥، ص ٨٠. ابن الأثير ج ١٠ ص ٥٧. ناصري خسرو ٥٤.

(١٣) Muhsin D. Yusuf; *Economic Survey of Syria During the Tenth and Eleventh Centuries*, (Berlin, Klaus Schwaez Verlag, 1985). Pp. 188-194.

البدوية كبني طيء وفيما بعد القبائل التركمانية التي صاحبت الغزو السلجوقي قد أفقد الرملة والمنطقة الساحلية الأمان ودمر اقتصادها، في حين نجت القدس والمنطقة الجبلية من هذا الدمار إلى حد كبير. إن مسحاً مستعجلاً للمصادر التي عالجت تاريخ المنطقة يشير إلى أن مدينة الرملة قد هوجمت أكثر من عشرين مرة بين السنين ٩٧٠-١٠٨٩ في حين هوجمت القدس خلال الفترة الزمنية نفسها ثلاث مرات فقط. (١٣) لقد ذكر سابقاً أن السكان المدنيين لم يتأثروا في غالب الأحيان من جراء الحروب ولكنهم في أحيان أخرى عانوا الأمرين. فابن القلانسي يدعي بأن الخراب والمجاعة قد عما المدينة بسبب أعمال بني طيء عام ٩٨٠ حيث قال عن ذلك: "وعاد ابن جراح (الطائي) إلى فلسطين فأخربها وأهلك من فيها. وكان الرجل يدخل إلى الرملة يطلب فيها شيئاً يأكله فلا يجده، ومات الناس بالجوع وخربت الأعمال". (١٤)

ومما يؤيد تدهور أوضاع الرملة ومنطقة الساحل أن سكان هذه المنطقة وهذه المدينة لم يقاوموا القوات الصليبية المتجهة نحو القدس بتاتاً بل إن الصليبيين وجدوا مدينة الرملة خالية من السكان. (١٥)

(١٤) ابن القلانسي ص ٢٤. صادق أحمد داود جودة: مدينة الرملة منذ نشأتها حتى عام ١٥٤٩/١٠٩٩م، (بيروت مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦) ص ١٢٥، ١٤٩، ١٥٣، ١٥٧-١٦٧. Encycloediap of Islam, second edition, vol.5, pp. 327-8.

(١٥) جودة ص ١٦٨. ابن القلانسي ص ١٣٦. حمد أحمد عبدالله يوسف: بيت المقدس من العهد الراشدي وحتى نهاية الدولة الأيوبية، (القدس، دائرة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٨٢). ص ١٥٦.

كان المستفيد الأكبر من الناحية الديموغرافية والسياسية والاقتصادية من تدهور أوضاع لمدينة الرملة خلال القرن الحادي عشر مدينة القدس وإلى حد ما مدينة عسقلان. فأصبحت القدس أكبر مدينة بعد أن كانت ثاني أكبر مدينة في فلسطين بعد الرملة. وأصبحت تؤدي الدور الأهم بين مدن فلسطين من النواحي السياسية والاقتصادية والعسكرية. إن دورها القيادي والريادي في جميع المجالات المذكورة قد فتح أعين الملوك والحكام والفاثحين إلى أهميتها فتت مهاجمتها وفتحها أربع مرات خلال العقود الثلاث التي سبقت الاحتلال الصليبي لها.^(١٦)

المسلمون

النص المفضل لدى المؤرخين الذين يدعون بأن المسلمين كانوا أقلية في مدينة القدس هو ما كتبه الجغرافي العربي "المقدسي" المشهور في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" الذي كتبه في النصف الثاني من القرن العاشر ميلادي. فالمقدسي يقول عن مدينته إنها: "كثيرة النصارى"، وفي مكان آخر يقول: "قد غلب عليها النصارى واليهود".^(١٧) ف فيما يتعلق بالعبارة الأولى فإنها لا تشير بالضرورة إلى أن النصارى كانوا لا يشكلون إلا نسبة بسيطة من مجموع السكان. وبالنسبة إلى العبارة الثانية "غلب" فهي غير دقيقة لأن

الغلبة في اللغة ربما تكون غلبة عددية، كما أراد أن يفهمها بعض المؤرخين والمستشرقين، وربما تكون غلبة اقتصادية أو إدارية أو غلبة من نوع آخر. في الحقيقة هناك معلومات تشير إلى أن هذه الغلبة كانت غلبة اقتصادية وإدارية. فابن العربي الذي عرف المدينة عن كثب حيث سكن بها أكثر من ثلاث سنوات عشية الاحتلال الصليبي قال عن سكانها النصارى: "وخاصمنا (أي أنه ناظر) النصارى بها، وكانت البلاد لهم ياكرون (أي يؤجرون) ضياعاً ويلتزمون أديارها ويعمرون كنائسها".^(١٨)

هناك عدد من الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين الذين زاروا مدينة القدس أو عرفوها عن كثب أمثال ابن حوقل مؤلف كتاب "صور الأرض" والذي كان معاصراً للمقدسي، والرحالة الفارسي ناصري خسرو، إلا أن أحداً منهم لم يشر إلى أن المسلمين كانوا أقلية بين سكان المدينة أو أن النصارى واليهود كانوا أكثرية.

في غياب المعلومات الإحصائية الدقيقة عن عدد سكان المدينة وتوزيعهم حسب الطوائف الدينية نجد أنفسنا مضطرين إلى البحث عن معلومات بديلة قد تساعدنا في تقدير هذه الأعداد. وقد تكون أمكنة العبادة وحجمها إحدى الأساليب المستعملة لهذا الغرض.

= (١٩٠٦). ص ١٦٧.

(١٨) العسلي ص ١٧٠.

(١٦) yusuf, pp. 193-5.

(١٧) محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق م.ج. دي خويه، (ليدن، برل، =

فبالنسبة إلى المسلمين قد ضمت أمكنة عبادتهم المسجد الأقصى وقبة الصخرة وجامع عمر القريب من كنيسة القيامة وزوايا وخانات وغيرها من أمكنة عبادة. فالمسجد الأقصى بحرمة الواسع الذي ضم عدداً كبيراً من أمكنة العبادة كان من أكبر مساجد العالم الإسلامي آنذاك. فبالنسبة إلى مساحة الحرم (الصحن المكشوف والأمكنة المبنية) فإنها لم تتغير منذ ذلك الوقت وحتى الآن، أما بالنسبة إلى مبنى المسجد الأقصى فقد طرأت عليه تغييرات كثيرة مع مرور الزمن. ومن أهم هذه التغييرات أن حجمه قد أنقص لأقل من النصف في منتصف القرن الحادي عشر. ففي القرن العاشر كان يتكون، حسب ما قاله المقدسي، من خمسة عشر رواقاً وكان يقوم على سبعمئة عامود رخام. وقد أكد حوقل ضخامة هذا المسجد حيث قال: "وبيت المقدس مسجد ليس في الإسلام مسجد أكبر منه، وله بناء في قبلته مسقف في زاوية من غربي المسجد ويمتد هذا التسقيف على نصف عرض المسجد..."^(١٩) ولكن المسجد قد تعرض عام ١٠٣٣ لزلزال كبير الأمر الذي نتج عنه دمر جزء كبير منه فقام الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله (١٠٢١-١٠٣٦) بترميمه عام ١٠٣٤ ولكنه حذف منه أربعة أروقة من كل

جانب حتى أصبح يتكون من سبعة أروقة فقط (كما هو عليه وضعه اليوم)، وأصبح عدد أعمدته حسب ما أثبتته ناصري خسرو منتين وثمانين عاموداً^(٢٠). باختصار فإن مبنى المسجد الأقصى كان عظيماً جداً لأن ما تبقى منه حتى الآن ما زال يعتبر من المساجد الكبيرة في العالم الإسلامي وأنه ما زال حتى اليوم دون منافس له بين جوامع فلسطين. فوجود مبنى عظيم بهذا الشكل مع وجود أمكنة عبادة أخرى يشير إلى كثرة عدد السكان المسلمين في المدينة وفي المنطقة القريبة منها ليس فقط منذ نهاية القرن الحادي عشر وإنما أيضاً منذ فترة حكم الخلفاء الأمويين عبد الملك ابن مروان والوليد بن عبد الملك اللذين أشادا مبني قبة الصخرة والمسجد الأقصى، إن هذا الأمر ليس مستغرباً لأن عدد المسلمين الذين استوطنوا المدينة بعد فتحها مباشرة كان كبيراً، ومما يؤكد ذلك حجم المسجد الأول الذي أقامه المسلمون آنذاك حيث وصفه القس الرحالة الفرنسي اركولف الذي زار المدينة في فترة حكم معاوية بن أبي سفيان، بأنه مسجد كبير يتسع لثلاثة آلاف مصل.^(٢١)

من الواضح أن مبنى المسجد الأقصى لم يبن ليلبي حاجة مسلمي المدينة فقط وإنما ليلبي حاجة جميع المسلمين في العالم

(٢٠) ناصري خسرو، ص ٦١. حمد يوسف ص ١٢٨. Encyclopedia of Islam, second edition, vol.5 p. 342.

(٢١) عارف العارف: المفصل في تاريخ القدس، (القدس مطبعة المعارف، ط ٣، ١٩٩٢). ص ١٠٦. حمد يوسف ص ٧١-٧٢.

(١٩) أبو القاسم ابن حوقل النصيبي، كتاب صورة الأرض، (بيروت، دار مكتبة الحياة). ص ١٥٨. المقدسي ص ١٦٩. العسلي ص ١٥٣. بياضون ص ٤٨-٤٩.

خصوصاً أن هذا المسجد يعتبر من أهم المقدسات الإسلامية. وما انفك المسلمون على مر العصور يزورونه بأعداد كبيرة جداً، فقد ناصري خسرو عدد الحجاج المسلمين الذين كانوا يزورونه في موسم الحج والذين لم يتمكنوا من أداء فريضة الحج إلى مكة بحوالي ٢٠٠٠٠ شخص سنوياً.^(٢٢) إنه من غير المعقول أن هذا البناء العظيم بني بهذه الضخامة لخدم الزوار الموسمييين فقط، ولا بد أنه بني في الأساس لخدمة السكان المسلمين المحليين. وبالنسبة إلى الزوار الموسمييين فإذا زاد عددهم عن مساحة المبنى فإنه كان بمقدورهم استعمال ساحة المسجد المكشوفة كما يفعل كثير من المصلين المعاصرين.

بالنسبة إلى الانتماء المذهبي لمسلمي القدس فانتمى غالبيتهم في منتصف القرن العاشر للمذاهب المسنية، وإن عدداً كبيراً منهم انتمى للفرقة الكرامية. فالمقدسي يقول عن موضوع الانتماء المذهبي لأهل بلاد الشام بشكل عام وبضمنهم سكان القدس: "مذاهبهم مستقيمة، أهل جماعة وسنة، وأهل طبرية ونصف نابلس وقدس (قرية على الشمال من طبريا) وأكثر عمان شيعية، ولا ماء فيه لمعتزلي إنما هم في خفية، وبيت المقدس خلق من الكرامية لهم خوانق ومجالس، ولا ترى به مالكيّاً ولا داوياً،

وللأوزاعية مجلس بجامع دمشق". أما بالنسبة إلى الكراميين الذين ذكرهم المقدسي كسكان في مدينة القدس فقد تواجد عدد كبير منهم في المدينة ومنطقتها، حيث بلغ عددهم حسب بعض المصادر ٢٠٠٠٠ شخص. وهؤلاء الكراميون انتموا إلى الفرقة الإسلامية التي أسسها محمد بن كرام السجستاني في منتصف القرن التاسع ميلادي. وكان المؤسس قد انتقل مع عدد من أتباعه إلى مدينة القدس حيث توفي ودفن. وتعتبر هذه الفرقة التي كان لها مراكز ومجالس درس في القدس من الفرق المشبهة، بمعنى أنها كانت تقول إن الله سبحانه وتعالى يشبه الإنسان في صورته.^(٢٣)

من المعروف أن مدينة القدس قد خضعت للحكم الفاطمي الشيعي لفترة قرن من الزمان (منذ عام ٩٧٥ وحتى عام ١٠٧٢). ومن المعروف أيضاً أن الفاطميين الشيعة كانوا متعصبين لمذهبهم وقد بذلوا جهوداً كبيرة في سبيل نشر تعاليمهم بين المسلمين. لذلك فإننا سوف لن نكون بعيدين عن الصحة لو اعتقدنا بأن عدداً من سكان المدينة قد تشيعوا خلال هذه الفترة الطويلة. في ١٠٧٢ سقطت مدينة القدس بيد الحكام السلاجقة الذين كانوا سنيين والذين بذلوا جهوداً جبارة للقضاء على الفكر الشيعي وفي سبيل إعادة السيطرة السنية على العالم الإسلامي. ومن الجدير ذكره أن السلاجقة ووزيرهم المشهور نظام الملك قد

(٢٣) المقدسي، ص ١٧٩. Shorter Encyclopaedia of Islam, edited by H.R. Gibb and J. H. Kramers. (Ithaca, Cornell University Press, 1953).

(٢٢) ناصري خسرو، ص ٥٥.

أسسوا المدارس، كالمدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية في بغداد، كوسيلة لمحاربة التعاليم الشيعية واحتوائها. ومما يشير إلى انتشار الفكر الشيعي بين سكان مدينة القدس خلال الفترة الفاطمية أن سكان المدينة قد ثاروا على حكامهم السلاجقة عام ١٠٧٦ وأعادوا الخطبة للخليفة الفاطمي أثناء محاولة حاكمهم اتسز فتح مصر. وعلى ما يظهر أن قصدهم من هذه الثورة كان ليس فقط التخلص من الحكام السنيين وإنما أيضاً لإجبار هؤلاء الحكام على إلغاء مشروعهم لاحتلال مصر التي كانت معقل الشيعة الفاطميين في العالم الإسلامي. ويشير رد فعل اتسز العنيف ضد الثوار المقدسيين إلى تعصب ديني من جانبه حيث قتل عدداً كبيراً من الثوار يزيد عددهم حسب بعض المصادر على ٣٠٠٠ شخص وذلك رغم أنهم احتموا بالمسجد الأقصى، وقد سلب من المدينة أموالاً طائلة.^(٢٤) وإن احتلال الفاطميين للقدس عشية الاحتلال الصليبي لها يندرج تحت بند الصراع الديني بين الشيعة والسنيين ولم يندرج تحت بند حماية المدينة من الهجوم الصليبي الوشيك.

لقد بذل السلاجقة خلال فترة حكمهم للمدينة جهوداً كبيرة لنشر التعاليم السنية وحاولوا احتواء الفكر الشيعي وغيره من الفرق الإسلامية، فأنشأوا مدرسة للمذهب الشافعي إلى جانب باب الأسباط وهي

المدرسة النصرية، وأخرى للمذهب الحنفي وكانت تدعى مدرسة أبي عقبة وكانت بالقرب من كنيسة القيامة. وقد وصف ابن العربي النشاط التعليمي والمناظرات الدينية التي كانت تتم في هذه المدارس بشيء من التفصيل، الأمر الذي يشير إلى أن هذه المدارس كانت مراكز عملية عظيمة الأهمية حتى إنها جلبت إليها خيرة الطلاب أمثال ابن عربي نفسه وخيرة المدرسين أمثال أبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي الفهري ونصر ابن إبراهيم النابلسي المقدسي وزوار المدينة كآبي حامد الغزالي وغيرهم كثير.^(٢٥)

والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا أقاموا مدرستين واحدة للشافعيين وأخرى للحنفيين؟ والجواب عن ذلك هو أن المدرسة الشافعية أقيمت لخدمة سكان المدينة الذين كانوا في غالبيتهم شافعيين، أما المدرسة الحنفية فيظهر أنها أقيمت لنشر هذا المذهب الذي كان مذهب الحكام السلاجقة أنفسهم. ومما يؤكد انتماء غالبية سكان المدينة السنيين للمذهب الشافعي إن غالبية علماء المدينة الذين ذكرتهم المصادر ينتمون إلى هذا المذهب، إلى جانب ذلك فإن الغالبية العظمى من سكان القدس وفلسطين ما زالوا ينتمون إلى هذا المذهب حتى اليوم. وانتمى بعض سكانها المسلمين في نهاية القرن إلى الفرق الشيعية والكرامية والمعتزلة وغيرها من الفرق حيث ذكر ابن العربي: "وكنا نفاوض الكرامية والمعتزلة

(٢٤) ابن الأثير، ج ١٠، ص ١٠٣.

(٢٥) العسلي ص ٥٣، ١٦٩، ١٧١.

والمشبهة" وفي كتاب آخر ذكر " وكان فيه (أي بيت المقدس) من رؤوس العلماء ورؤوس المبتدعة، على اختلاف طبقاتهم كثير".^(٢٦)

أدت القدس دوراً تعليمياً مهماً بالنسبة إلى المسلمين. وقد زارها وعلم وتعلم بها عدد كبير جداً من مشاهير العلماء المسلمين أمثال ابن كرام السجستاني والغزالي وابن العربي. وقد نبغ من أبنائها المسلمين عدد كبير من الأشخاص الذين اشتهروا في مجالات عديدة. ومن بين الذين اشتهروا بالتأليف والذين عاشوا في القرن الذي سبق الاحتلال الصليبي نذكر: أبو المعالي المشرف ابن المرجي بن إبراهيم المقدسي الذي كتب كتاباً بعنوان فضائل بيت المقدس والصخرة، وكتاباً آخر بعنوان آثار فضائل الشام. ونصر بن إبراهيم ابن داود المقدسي النابلسي الذي ألف كتاب الانتخاب الدمشقي وقد جاء في أكثر من عشرة مجلدات، وكتاب التهذيب. وأبو القاسم مكي بن عبد السلام الرميلى المقدسي، الذي قتله الصليبيون عام ١٠٩٩ ويذكر بأنه ألف كتاباً بعنوان تاريخ بيت المقدس. وأبو الفتح سلطان بن إبراهيم بن المسلم، وكتب كتاباً بعنوان الذخائر. وأبو الفضل محمد بن طاهر ابن علي المقدسي الشيباني، مؤلف رجال الصحيحين، وصفوة التصرف، وأطراف

الكتب الستة. أما أشهر المؤلفين المقدسة على الإطلاق فكان شمس الدين محمد بن بكر المقدسي الذي عرف بكثرة ترحاله وسفره وبحدة ذكائه وحسن اطلاعه، وقد كتب كتاباً بعنوان أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الذي يعتبر من أفضل ما كتب في الجغرافية على الإطلاق حتى فترة العصور الوسطى.^(٢٧)

النصارى:

هناك تناقض ما، بين ما تذكره المصادر العربية الإسلامية وبين ما تذكره المصادر الصليبية بشأن الوضع الاقتصادي وربما عدد السكان النصارى في مدينة القدس في نهاية القرن الحادي عشر. فالمصادر العربية الإسلامية المتمثلة في المقدسي الذي قال "وكانت البلاد لهم يأكرون ضياعها ويلتزمون أديارها ويعمرون كنائسها"، تعطي الانطباع بأن عدد النصارى في المدينة ربما كان كبيراً وأن وضعهم الاقتصادي كان ممتازاً. في مقابل ذلك تعطي المصادر الصليبية والمتمثلة في رئيس أساقفة مدينة صور - وليم الصوري في كتابه "تاريخ الحروب الصليبية"، الانطباع أن عدد نصارى المدينة كان قليلاً وأن وضعهم الاقتصادي كان سيئاً إلى حد كبير. وبما أننا قد ناقشنا سابقاً ما ورد في المصدرين العربيين الإسلاميين فإننا سنركز

(٢٦) العسلي ص ١٧٠، ٥٤. أبو اليمى مجير الدين الحنبلي: الأندلس الجليل بتاريخ القدس والخليل، (عمان، مكتبة المحتسب، ١٩٧٣). ج ١، ص ٢٩٦-٣٠٣. غويتاين، ص ٢٩.

(٢٧) م. جيل: فلسطين خلال الفترة الإسلامية الأولى، ١٠٩٩-٦٣٤ (تل أبيب، ١٩٨٣). (بالعبرية). ص ٣٥٣-٣٤٧. غويتاين ص ٢٨-٣٠. edition, vol Encyclopedia of Islam, second 5, p. 330

النقاش في هذا الفصل على المعلومات الواردة في الكتب الصليبية.

سكن النصارى في منتصف القرن الحادي عشر في حي واحد من المدينة وهو الحي المعروف إلى اليوم باسم حارة النصارى، الذي امتد من باب الخليل غرباً وحتى باب العامود شمالاً. فبعد أن ضرب المدينة زلزال وهدم أجزاء من سورها عام ١٠٢٣ أمر الخليفة الفاطمي سكان المدينة بترميم ما تشعث من سورها وحصونها. وقد فرض على النصارى إصلاح السور الذي يحيط بحارتهم، إلا أنهم لم يتمكنوا من تنفيذ ما فرض عليهم، لذلك لبوا المساعدة المالية من الإمبراطور البيزنطي الذي وافق على مساعدتهم بشرط أن يخصص هذا الحي من المدينة لهم وحدهم. وقد وافقت جميع الأطراف المعنية على ذلك وبضمنهم الخليفة الفاطمي نفسه، فرمم السور عام ١٠٦٣. عن هذا الموضوع يقول وليم الصوري: "وكان المسيحيون والمسلمون قد سكنوا مع بعضهم بدون تمييز حتى تلك الآونة (عام ١٠٦٣)، وأجبر المسلمون منذ ذلك الحين فصاعداً، بأمر الخليفة، على الانتقال إلى أجزاء أخرى من القدس، تاركين المكان المذكور للمؤمنين دون جدال،... وسارت حياتهم بشكل أكثر هدوءاً بعدما تمكنوا أخيراً من العيش وحدهم... ويمكن وصف هذا الربع على النحو

التالي: يشكل الحد الخارجي السور الذي يمتد من الباب الغربي، أو باب داود (باب الخليل) ماراً بالبرج الواقع عند الزاوية... وصولاً حتى الباب الشمالي المعروف باسم أول الشهداء ستيفن (باب العامود)، بينما يشكل الحد الداخلي الطريق العام الذي يمتد من باب ستيفن على موائد الصرافين ويعود من هناك ثانية إلى الباب الغربي".^(٢٨)

هناك عدد من الأمور المهمة ذات الصلة بموضوع البحث والمتعلقة بالنص السابق وهي:

(١) أن النص يشير إلى انتقال المسلمين من هذا الحي إلى أحياء أخرى في حين لم يشر إلى انتقال النصارى من أحياء أخرى إلى هذا الحي، الأمر الذي يقودنا إلى الاعتقاد بأن جميع نصارى المدينة كانوا يسكنون قبل عام ١٠٦٣ في هذا الحي.

(٢) كانت مساحة الحي المذكور تساوي حوالي سدس مساحة المدينة فقط.

(٣) على ما يظهر فإن انتقال المسلمين على خارج حي النصارى قد ترك هذا الحي قليل الكثافة السكانية مقارنة بالأحياء الأخرى، الأمر الذي شجع المسلمين على العودة للسكن ولإنشاء المؤسسات به. فابن العربي الذي سكن المدينة بعد انتقال المسلمين من هذا الحي بأقل من ثلاثة عقود وجد به مسلمين

(٢٨) وليم رئيس أساقفة صور، تاريخ الحروب الصليبية، الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، نقله إلى العربية سهيل زكار (دار الفكر، ١٩٩٠). ص ٤٧٠-٤٧١.

ووجد مدرسة للحنفيين في قلب الحي إلى جانب كنيسة القيامة^(٢٩) لو كانت الكثافة السكانية في هذا الحي، بعد انتقال المسلمين منه شبيهة بكثافتهم في جميع أنحاء المدينة فإننا لن نكون بعيدين عن الحقيقة إذا قدرنا عدد نصارى المدينة بحوالي ٤١٧٠ شخصاً، على اعتبار أن مجموع سكان المدينة كان حوالي ٢٥٠٠٠ نسمة. ولكن الكثافة السكانية في هذا الحي كانت أقل منه في الأحياء الأخرى، لذلك لا بد أن عدد سكان نصارى المدينة كان أقل من ٤١٧٠.

عندما كانت جيوش الصليبيين تزحف في طريقها على مدينة القدس، فرض حكام المدينة المسلمين جزية على سكانها النصارى مقدارها ١٤,٠٠٠ قطعة ذهبية (أي دنائير)، حسب ما ذكره وليم الصوري الذي يضيف بهذا الشأن: "وتوجب على البطريك الذي كان يترأس (كنيسة) المدينة في تلك الآونة أن يدفع الجزية هذه، وذلك بالإضافة وبالتعاون مع السكان المسيحيين الموجودين في المدينة والأديرة القائمة في المنطقة المجاورة. ولم تكن جميع ممتلكات المسيحيين القاطنين في القدس كافية لدفع هذا المبلغ، لذلك توجب على البطريك المبجل القيام برحلة على قبرص ليحصل على الوسائل اللازمة لتلبية هذا

المطلب الثقيل...^(٣٠) ولكن هذا المبلغ لم يكن مبالغاً فيه لو كان عدد النصارى كبيراً. ففي ظروف مشابهة لظروف نصارى القدس فرض على مدينة أنطاكية عام ١٠٦٨ مبلغ قدره ١٠٠,٠٠٠ دينار، وبعد سبع سنوات فرضت على المدينة جزية جديدة مقدارها ٢٠,٠٠٠ دينار. وفي عام ١٠٩٢ دفعت مدينة طرابلس الشام مبلغ ٦٠,٠٠٠ دينار كجزية، وفي عام ١٠٩٣ فرض الفاطميون على مدينة صور جزية مقدارها ٦٠,٠٠٠ دينار كجزية، وفي عام ١٠٩٣ فرض الفاطميون على مدينة صور جزية مقدارها ٦٠,٠٠٠ دينار.^(٣١) لقد كان حجم سكان المدن التي ذكرت أعلاه وعددها شبيهاً بحجم سكان القدس وعددهم، خصوصاً مدينة طرابلس التي قال نصاري خسرو عن عدد سكانها إنه مطابق لعدد سكان القدس^(٣٢). لقد كان نصيب كل فرد من سكان طرابلس من جزية عام ١٠٩٢ حوالي ثلاثة دنائير. فلو كان نصيب كل نصرائي من نصارى القدس ثلاثة دنائير لاستنتجنا بأن عددهم كان حوالي ٤٦٦٠ شخصاً، وهو رقم شبيه بالرقم الذي قدرناه على أساس حجم الحي. ولكن وليم الصوري يدعي بأن نصيب كل واحد من الجزية المذكورة كان أكثر من ثلاثة دنائير بكثير حيث ادعى أن جميع

= ص ١٢٤ ؛ يوسف بن قزغلو سبط بن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ العيان، تحقيق علي سفيان (أنقرة: جامعة أنقرة، ١٩٦٨). ص ١٧٥-١٧٦.

(٣٢) نصاري خسرو ص ٤٧-٤٨.

(٢٩) العسلي ص ٥٣، ١٧١.
(٣٠) وليم رئيس أساقفة صور، ج ١، ص ٤٠١-٤٠٢.
(٣١) كمال الدين بن العديم: زبدة الحب في تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان ج ٢، ص ١١-١٢؛ ابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٢٣، ٢٠٣؛ ابن القلانسي، =

أثناء الحصار وكانوا يقومون بأعمال شاقة حيث قال: "فقد أرغموا على تأدية جميع الأعمال الاستثنائية... وسحبوا مكبلين بالسلاسل إلى السجون... ولم يتجرأ أحد من المؤمنين على صعود الأسوار أو الظهور علناً ما لم يكن محملاً بحمل ثقيل... وأجبروا على حمل الأحمال الثقيلة. كما أرغم الذين كانوا مهرة في أية مهنة على ممارستها... وفرض عليهم استقبال اللاجئين من القلاع والقرى المجاورة الذين هربوا إلى القدس في بيوتهم... وتوجب عليهم أن يتقاسموا مقتنياتهم مع الغرباء.^(٣٣)

عند دراستنا لشخصية هذا الأسقف المؤرخ نجد أنه كان يكن العداء التام للمسلمين وحاول إظهارهم بمظهر الكفرة والقتلة والمتوحشين. وعلى هذا الأساس نستنتج أن اتهامه السلطات الإسلامية بقتل سكان المدينة النصارى ما هو إلا مجرد تهمة لا أكثر ولا أقل، مع أننا لا نستبعد أن يكون أفراد قلائل قد لاقوا حتفهم في ظل الظروف العنصرية التي مرت بها المنطقة قبل واثناء حصار المدينة. فلو تم قتلهم فعلاً لما وجدنا هذا المؤرخ يدعي في مكان آخر بأنهم طردوا من المدينة أو أجبروا على القيام بالأعمال الشاقة داخلها في أثناء حصارها، ولوجدناه يتقيض بوصف أعمال القتل وليس يذكر ذلك بشكل عابر جداً. كذلك الحال فإنه من المستبعد أن يكون المسلمون قد

ممتلكاتهم لم تكن كافية لدفع المبلغ. الأمر الذي يؤكد لنا مرة أخرى أن عددهم في نهاية القرن الحادي عشر كان أقل من ٤٦٦٠ بكثير بل ربما لم يتجاوز ثلث أو حتى ربع هذا العدد.

وفيما يتعلق بمصيرهم أثناء تقدم القوات الصليبية نحو المدينة، يورد وليم الصوري معلومات مختلفة بل حتى متناقضة مع بعضها بعضاً. ففي مكان ما من كتابه ادعى بأن المسلمين قد قتلوه حيث قال: "بينما قلت المحن والمصائب الكثيرة تعداد المسيحيين السريان، الذين كانوا في الأصل سكان المدينة،... بحيث اضمحلت أعدادهم وباتت لا شيء تقريباً... بدأ الكفار (المسلمين) من أبناء جلدتهم بالإساءة إليهم... حيث قتلوا الكثيرين منهم لأتفه الأسباب ولم يوفروا المسنين ولا العجزة". وفي مكان آخر ادعى بأن السلطات المسلمة قد طردتهم من المدينة حيث قال "ثم طردوهم من المدينة باستثناء الرجال المسنين والمرضى والنساء والأطفال، وكان هؤلاء المنفيون حتى ساعة قدومنا يموتون جوعاً وهم يتسكعون في القرى الصغيرة الواقعة بالقرب من المدينة بانتظار مستمر للموت. ولم يكن هناك مكان آمن أو ملاذ لهم حتى في خارجها، حيث أحاط مضطهدوهم بهم، ونظر سكان القرى بارتياح إلى تحركهم، وكلفوهم بأشد المهام مشقة وخزياً" وفي مكان ثالث من الكتاب تكلم عنهم على أنهم كانوا موجودين في المدينة

(٣٣) وليم رئيس أساقفة صور، ج ١، ص ٤٠٢، ٤٢١، ٥٦٠.

أخرجوا أعداداً كبيرة من سكانها النصارى إلى خارجها لأنه لو حدث ذلك لوجدناهم يتعاونون مع الصليبيين ويقدمون لهم يد المساعدة أثناء الحصار، انتقاماً من المسلمين. إن اتصالهم بالصليبيين والانضمام إليهم في أعقاب المعاملة السيئة ليس بالأمر الغريب، فنصارى مدينة بيت لحم اتصلوا بالصليبيين ومدوا لهم يد العون وطلبوا منهم احتلال مدينتهم^(٣٤) حتى دون أن يجبرهم المسلمون على مغادرة بيوتهم ومدينتهم. إننا لم نجد حتى مصدراً واحداً يشير من قريب أو بعيد إلى أي نوع من التعاون قد تم بين نصارى القدس والصليبيين رغم كثرة المصادر التي اهتمت بهذه الفترة وكتبت عنها، ورغم أنه كان يهم كثير من المؤرخين الصليبيين إظهار مدى مساعدة نصارى القدس وتعاونهم مع القوات الصليبية المهاجمة.

فإذا استثنينا الروايتين السابقتين نستخلص أن الرواية الثالثة التي تكلمت عن بقاء النصارى في بيوتهم ومدينتهم هي الرواية الأقرب إلى الصحة والأقرب إلى المنطق. إننا قلما نجد في التاريخ الإسلامي أن السلطات تجبر جزءاً من السكان على مغادرة مدينته عشية مهاجمتها من قبل العداء. ومن المتوقع أن هذه السلطات لم تجبر بل ربما لم تفكر إخراج نصارى القدس عشية مهاجمة الصليبيين لها باختصار عن بقائهم في المدينة كان أمراً طبيعياً، وربما شاركوا في الدفاع

عن مدينتهم ضد الصليبيين بمحض إرادتهم ولم يكرهوا على ذلك كما ادعى ولیم الصوري. وربما قررت السلطات المسلمة إبقاءهم في المدينة للاستفادة منهم في الأعمال الدفاعية ولخوفها من مساندتهم للقوات الصليبية.

ولو تواجد نصارى من المدينة خارجها في أثناء حصارها لعادوا إليها وإلى بيوتهم بعد احتلالها من قبل الصليبيين، إلا أنه لم تكن هناك عودة إلى بيوت الحي المسيحي، بل على العكس من ذلك فإن حقيقة خلو هذا الحي من سكانه هو الذي شجع النصارى الأوروبين (الصليبيين) على الاستيطان في الحي المذكور. أما النصارى الشرقيون الذين تجمعوا في المدينة مع مرور الزمن فقد سكنوا في الحارة الشمالية الواقعة إلى الشرق من حارة النصارى.^(٣٥) والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو ماذا حدث لهؤلاء السكان الذين يظهر بأنهم قد اختفوا بشكل مفاجي؟ في الحقيقة لا توجد إجابة شافية لهذا السؤال ولكن على ما يظهر أنهم لاقوا حتفهم أثناء المجزرة الرهيبة التي نفذها الصليبيون بحق سكانها. إننا لا ندعي بأن الصليبيين قد قتلوهم بشكل متعمد، رغم أن ذلك غير مستبعد كلياً، ولكننا نعتقد بأن حالة النشوة أصابتهم في أعقاب انتصارهم على المسلمين ودخولهم المدينة المقدسة قد أفقدتهم إحساسهم الإنساني حتى إنهم لم يميزوا بين مسلمين وغير مسلمين.

عسكرية على منطقة شرق الأردن للوصول إلى نصارى منطقة الكرك والشوبك. وبالفعل تكلفت حملته التي قام بها عام ١١١٦ بالنجاح، فاحتل المنطقة وأقنع عدداً كبيراً من مسيحييها بالهجرة إلى المدينة المقدسة. وقد تم توطينهم في "حارة المشارقة" التي كانت تقع على الشرق من باب العامود.^(٣٦)

في اعتقادي أن عدد سكان المدينة النصارى ووضعهم الاقتصادي كان أقل مما أوحى به المصادر العربية، ولكنه كان أكبر وأفضل مما أوحى به المصادر الصليبية.

اليهود:

بالنسبة إلى سكان القدس اليهود فقد تفاوت عددهم بين مد وجزر. فمن المعروف أن السلطات المسيحية البيزنطية التي كانت تحكم المدينة قبل الفتح الإسلامي قد منعتهم من السكن داخل المدينة منعاً باتاً. ولأسباب غير واضحة حاول نصارى المدينة الإبقاء على هذا المنع حتى بعد الفتح العربي للمدينة حيث تم إدخال بند ينص على عدم السماح لليهود بالسكن في القدس فيما يعرف العهد العمرية أو كتاب الأمان الذي كتبه خليفة المسلمين عمر بن الخطاب لسكان القدس. الآن يتوفر لدينا نسخ مختلفة الفحوى لهذه الاتفاقية أو لهذا الأمان إلا أن غالبية هذه النسخ تشير إلى هذا البند، أما النسخ التي لا تشير إليه فيوجد شبه إجماع عليها بأنها غير صحيحة.^(٣٧) في

بعد احتلال القدس عاد عدد كبير من المحاربين الصليبيين إلى بلادهم الأصلية في أوروبا والتحق بعضه بالمدن والمعسكرات الصليبية المتأثرة في فلسطين وفي بلاد الشام. أما الذين استوطنوا في المدينة فكان عددهم قليلاً جداً، حتى إن حارة النصارى التي تعتبر إحدى الحارات الصغيرة في المدينة قد زادت عن حاجتهم. إن قلة عدد المستوطنين في المدينة اعتبر من قبل السلطات الصليبية مشكلة عسكرية من الدرجة الأولى لذلك شجعت الهجرة المسيحية إليها، حيث أعطت امتيازات كثيرة ومغرية لكل شخص من أصل أوروبي أو محلي رغب في السكن بالمدينة بشكل دائم. ولكن هذه المغريات لم تحل مشكلة خلوها من السكان. فيصف وليم الصوري الوضع الديموغرافي للمدينة بعد عقدين من احتلالها قائلاً: "في هذه الآونة لاحظ الملك بقلق كبير أن المدينة المقدسة، حبيبة الله، خالية من السكان تقريباً، حيث لم يكن هنالك عدد كاف لمواصلة المشروعات اللازمة للمملكة، وبالفعل لم يكن هناك عدد كاف لحماية المداخل إلى المدينة وللدفاع عن الأسوار والأبراج... وكان أهالي بلدنا قليلين جداً ومعوزين لدرجة أنهم لم يستطيعوا شغل شارع واحد إلا بصعوبة". وبعد أن ينس الملك "بالدوين الأول" من هجرة النصارى الأوروبيين والمحليين للمدينة قام بحملة

(٣٧) حمد يوسف ص ٤٨-٤٩.

(٣٦) وليم رني أساقفة صور، ج ١، ص ٥٦٠-٥٦١.
Prawer pp. 91-3.

الحقيقة لا يمكن الركون إلى هذه النسخ حتى التي يميل الباحثون إلى القبول بها وذلك لأسباب عديدة أهمها: أنه إذا كانت هذه العهدة أماناً من خليفة المسلمين لسكان المدينة أو اتفاقية بين المسلمين الفاتحين وبين سكان المدينة النصارى فهل من المعقول أن يرمي المسلمون بها عرض الحائط ولا يطبقوا ما وعدوا به أو اتفقوا عليه؟! حيث نجد فترة وجيزة أحد المراكز اليهودية الدينية المهمة في فلسطين.

رغم قلة عدد اليهود في فلسطين وفي القدس إلا أنهم انقسموا إلى ثلاث فرق رئيسية وهم: الربانيون والقراؤون والسامريون. أما بالنسبة إلى الربانيين فإنهم يمثلون التيار القديم والأساسي ويعتمدون في شريعتهم على التوراة وعلى تعاليم مجتهديه وشيوخهم، في حين تعتمد طائفة القرائين، التي ظهرت للوجود وانفصلت عن الربانيين في القرن الثامن ميلادي، على التوراة فقط ولم تأخذ باجتهد المجتهدين الذي جمع في كتب التلمود والمشناة. وفيما يتعلق بالسامريين فإنهم يعتبرون أنفسهم اليهود الأصليين وأن التوراة التي يتداولونها هي التوراة الصحيحة، ويعتبرون التوراة التي يتداولها الربانيون والقراؤون محرفة وغير صحيحة، في حين يعتبرهم الربانيون والقراؤون كفاراً وخارجين عن الملة اليهودية.^(٣٨)

كما هو متوقع في مثل ظروف الانشقاق التي سادت بين الفرق اليهودية فإن العلاقة بينهم كانت علاقة تنافس وحسد وعداء، حيث ادعت كل فرقة منهم أنها تمثل تعاليم الدين اليهودي الصحيحة، وتتافسوا فيما بينهم على كسب أعضاء بعضهم بعضاً وعلى كسب ود السلطات المسلمة. أما بالنسبة إلى الفروق التي وجدت بين السامريين من جهة والربانيين والقرائين من جهة أخرى فكانت كبيرة جداً حتى إن السامريين كانوا يفضلون المسلمين من ناحية اجتماعية على باقي اليهود.^(٣٩) أما بالنسبة إلى التنافس والعداوة بين الربانيين والقرائين فكان على أشده ربما لأوجه الشبه الكبيرة بين الطرفين من ناحية دينية ولسكنهم إلى جانب بعضهم بعضاً في المدن الفلسطينية. ففي نهاية عيد العرش الذي كان يحتفل به في مدينة القدس كان رئيس الكلية التلمودية الربانية يعلن عن مواعيد الأعياد والتقويم للسنة القادمة، الأمر الذي كان يعارضه القراؤون لأن القرائين كانوا يعينونها بواسطة رؤيا الهلال بالعين المجردة بالعكس من الربانيين الذين كانوا يعينونها بواسطة الحساب الفلكي.^(٤٠) وكان رئيس الكلية يعلن في الاحتفالات نفسها عن تجديد الحرمان على القرائين كأفراد وكمجموعة، الأمر الذي كان يثير أعمال الشغب بينهم.

= عجائب البر والبحر، تحقيق مهران، (بطر سبورغ، الأكاديمية الملكية العلمية، ١٨٦٦). ص ٢٠١.

Norman A. Stillman: *The Jews of The Arab Lkand, A History and source Book*, (Philadilphia, 1979). pp. 154-5.

Jacob Mann: *The Jews in Egypt and in Palestine Under the Fatimid Caliphs*, ed.by Gerson D.Cohen (New York, Ktav Publishing House, 1970). pp. 42, 61, 135.

(٣٩) شمس الدين محمد الدمشقي: كتاب نخبة الدهر في =

وعلى هذا الأساس كان القراؤون يشتكون للسلطات المسلمة ويطالبونها بالتدخل وتحميل الربانيين مسؤولية الإخلال بالنظام والأعمال العدائية التي كانت تنشب بين الجهتين والتي راح ضحيتها عدد من القتلى من كلا الطرفين ومن بينهم شخصيات قيادية. وبالنسبة إلى الربانيين فبالإضافة إلى خلافاتهم الدينية مع القرائين فقد كان يثير الحسد في نفوسهم أن عدد القرائين أصبح وبسرعة يفوق عددهم في القدس، وأصبح الأفراد الربانيون يتأثرون بتعاليمهم، وأن السلطات أصبحت تفضلهم عليهم. إن نقل الربانيين للأكاديمية التلمودية من الرملة إلى القدس كإجراء لتعزيز وضعهم في المدينة لم يجد نفعاً حيث أصبح القراؤون، خلال القرن العاشر الميلادي، أكثر عدداً منهم وأصبحت السلطات تعتمدهم كممثلين لجميع يهود المدينة.^(٤١)

انتمى سكان القدس اليهود في نهاية القرن الحادي عشر ميلادي إلى فرقة القرائين وفرقة الربانيين فقط ولم ينتموا إلى فرقة السامريين. ربما يكون السبب في ذلك عدم اعتبار السامريين مدينة القدس مدينة مقدسة، حيث احتفظوا بهذا المنصب لمدينة نابلس التي مازالوا يعتبرونها قدس الأقداس. لقد سكن السامريون في كل من الرملة وبينه

وعسقلان وغيرها من المدن الفلسطينية على جانب سكنهم في مدينة نابلس. أما بالنسبة إلى القرائين الذين انشقوا عن الربانيين خلال القرن الثامن ميلادي فكان مركزهم في العراق. وعلى ما يظهر فإن جميع القرائين الفلسطينيين كانوا من أصل عراقي وإيراني، حتى إنه كان يطلق على حيهم الذي سكنوه في مدينة القدس (إلى الشرق من باب العامود) اسم حي المشاركة نسبة إلى أصلهم العراقي والإيراني. لقد هاجر القراؤون إلى القدس والرملة منذ الثلث الثاني من القرن التاسع ميلادي. أما الربانيون الذين سكنوا في القدس منذ الفتح العربي للمدينة وسكنوا في مدن فلسطينية أخرى بل وفي بعض القرى الجليلية فكانوا خليطاً من سكان فلسطين ومن مهاجرين هاجروا لهذا البلد من مصر والمغرب وأوروبا. لقد تضاعف عدد الربانيين في القدس مع مرور الزمن حتى كاد يتلاشى في القرن الحادي عشر. إن هذه الأوضاع أدت بهم إلى إعادة أكاديميتهم سالف الذكر إلى مدينة الرملة، ولكن سوء الأوضاع الأمنية في منطقة الرملة خلال هذه الفترة أجبرهم على نقلها إلى حيفا ومن ثم إلى عكا وبعد ذلك إلى صور وعلى إثر احتلال الصليبيين لهذه المدينة تم نقلها إلى دمشق حيث استقرت لفترة طويلة.^(٤٢)

= أحمد بن جبير: رحلة ابن جبير، (بيروت، دار صادر ودار بيروت، ١٩٥٩) ص ٧٣. محسن يوسف: "الخارطة الدينية لسكان فلسطين عشية الاحتلال الصليبي" أفاق فلسطينية، مجلة أبحاث جامعة بير زيت، (عدد ٧، ١٩٩٣، ص ٢٤-٤٧). ص ٢٦-٢٧. Encyclopaedia Judaica, vol. 9, p. 1412 Mann, p. 42.

(٤١) Encyclopaedia Judaica, vol. 9, pp. 1411-2 Mann, pp. 42, 143-5.

(٤٢) ينر براك: في ظل الصليب، مجتمع كولونيالي (القدس، معهد بيبالك، ١٩٧٥). ص ١٩٨. برافر، ص ٧٣. المقدسي ص ١٧٩. أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي: كتاب البلدان، تحقيق م.ج. دي خويه، (لیدن، برل، ١٨٩٢). ص ٣٢٨-٣٢٩. محمد بن =

كنا نتوقع أن يكون عدد اليهود في مدينة القدس كبيراً جداً وذلك لعدد من الأسباب أهمها:

(١) أن السلطات المسلمة سمحت لهم بزيارتها والسكن بها بحرية تامة بعد أن منعتهم من ذلك السلطات الرومانية والبيزنطية لفترة طويلة جداً.

(٢) أن القدس لا تعتبر فقط أقدس المقدسات بالنسبة إليهم وإنما تكاد تكون مدينتهم المقدسة الوحيدة في العالم.

(٣) أنهم طالما ادعوا أن السكن بالقدس وزيارتها ركن من أركان الدين وحلمهم القديم.

ولكن توقعنا هذا كان خاطئاً لأن عددهم بقي قليلاً على مر القرون الخمسة الأولى من حكم المسلمين، بل إن المدينة كادت تخلو منهم تماماً في نهاية القرن الحادي عشر. فالمصادر تعلمنا بأن السلطات المسلمة قد فرضت على يهود المدينة في نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر ضريبة مقطوعة مقدارها ١٠٠ دينار سنوياً.^(٤٣) وهي ضريبة صغيرة جداً حسب جميع المقاييس. وكما هو معروف فإن السلطات المسلمة كانت تفرض على أهل الذمة ضريبة على الرأس اسمها الجزية وكان مقدارها ديناراً واحداً على الأشخاص العاديين ودينارين على أبناء الطبقة الوسطى وأربع دنانير على الأغنياء. ومن المعروف أيضاً أن هذه الضريبة فرضت على العاملين فقط ولم

تفرض على الفقراء والنساء والأولاد وغيرهم ممن لم يملك دخلاً. في اعتقادي أننا لن نكون بعيدين عن الصحة لو افترضنا بناءً على حجم الضريبة المذكورة أن عدد العائلات اليهودية في المدينة كان حوالي ١٠٠ عائلة. والسبب في ذلك أنه في حين دفع رؤساء العائلات دينارين وأربعة دنانير لوضعهم الاقتصادي الجيد لم يدفع عدد منهم الجزية بتاتاً بسبب فقرهم. ولا بد هنا من الإشارة إلى أنه سكن في المدينة عدد من المجاورين الفقراء اليهود بشكل أفراد ودون أن يكون لهم عائلات. فإذا صحت هذه التقديرات يكون العدد الإجمالي لليهود المدينة حوالي ٥٠٠ شخص أو ما يعادل ٢% من مجموع السكان.

إن هذا الرقم وهذه النسبة على صغرها تظهر كبيرة ومبالغاً فيها. ومما يؤكد هذه المبالغة رسالة بعث بها رجل دين من القدس إلى يهود القاهرة يطلب منهم مساعدة مالية حيث يقول في الرسالة: "الضريبة المفروضة علينا الآن ثقيلة ومقطوعة، وعددنا قليل وما يوجد لدينا من مال لا يكفي إلا لتغطية جزء بسيط من الضريبة، أما الباقي فنستدينه بفائدة، لكي يتمكن الحجاج من زيارة المدينة المقدسة دون أن تفرض عليهم السلطات أي ضرائب."^(٤٤) فهذه الرسالة توضح عدداً من الأمور التي تهمنا في هذا المقام وهي:

(١) أن عدد اليهود كان قليلاً.

(٤٤) Mann, p. 163. Stillman, pp. 192-193.

(٤٣) غويتاين، ص ٢٧.

ملاحقة قام بها السلاجقة ضد أهل الذمة على العكس من ذلك فإنها تشير إلى معاملتهم بشكل جيد وربما متميز. فعلى سبيل المثال، لم ينتقم القائد السلجوقي استر من أهل الذمة المقدسيين في أعقاب إخماد الثورة التي اندلعت بها ضده عام ١٠٧٨م في حين انتقم من مسلميها. في اعتقادي أن تدني عدد اليهود في بداية القرن الحادي عشر نابع من طبيعة نمط حياة يهود المدينة ومن الأوضاع الاقتصادية العامة في المنطقة. فجزء كبير من يهود القدس كانوا رجال دين وتلاميذ ومجاورين ومتعبدين ولم يمارسوا أي نشاط اقتصادي، واعتمدوا في معاشهم على الهبات التي كانوا يحصلون عليها من القاهرة والرملة وغيرها من البلاد. ولهذا السبب تأثر يهود المدينة سلباً بشكل كبير جداً عندما ساءت الأوضاع الاقتصادية في مصر وفلسطين في بداية القرن الحادي عشر على إثر الاضطرابات والحروب والزلازل التي أصابت المنطقة، الأمر الذي أدى بكثير منهم إلى الهجرة إلى مناطق أخرى.^(٤٥)

إن أحداث الاحتلال الصليبي للقدس عام ١٠٩٩م تؤكد قلة عدد اليهود وطبيعة الحياة التي كانوا يعيشونها في هذه المدينة والتي تميزت بأنها دينية وغير منتجة اقتصادياً. فالمصادر تشير إلى أن الصليبيين قد جمعوا

(٢) أن الضريبة المذكورة أعلاه ومقدارها ١٠٠ دينار كانت مجموع ما فرض على يهود المدينة من ضرائب وليس فقط ضريبة الجزية.

(٣) أن الضريبة المذكورة احتوت أيضاً على مبلغ من المال مقابل السماح للحجاج اليهود بزيارة القدس دون أن يدفعوا الجزية المستحقة عليهم وغيرها من الضرائب التي كانت تفرض على الحجاج والزوار من غير المسلمين. وبناء على ذلك فإن عدد العائلات اليهودية في المدينة كان أقل من ١٠٠ عائلة وأن عددهم الإجمالي كان أقل بكثير من ٥٠٠ شخص.

تكاد تكون المصادر والمراجع اليهودية القديمة والمعاصرة تجمع على أن عدد اليهود في مدينة القدس قد قل بشكل كبير جداً خلال القرن الحادي عشر خصوصاً خلال النصف الثاني منه، ويعزون ذلك على معاملة السلاجقة السيئة لهم ولأهل الذمة بصورة عامة. إنني أوافق هذه المصادر على أن عدد يهود المدينة كان متدنياً في نهاية القرن المذكور ولكنني أعتقد أن العدد قد تدنى خلال الفترة الفاطمية المتأخرة، أي في بداية القرن الحادي عشر، وليس خلال الفترة السلجوقية. فالمصادر العربية الإسلامية لم تشير إلى أي

192-3. Mann, p.162 *Encyclopedia of* vol. = 6, pp. 278-295). P. 293. Stillman, *Islam*, second edition, vol. 1, p. 751
ص ص ٧٤-٧٣.

S. D. Goitein: Evidence on the Muslim (٤٥) Poll tax From Non- Muslim Sources *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, (1963, pp. =

غالبية اليهود في كنيسهم وأحرقوهم فيه، أما القلة المتبقية منهم التي بقيت تخضع لحكم المسلمين لفترة طويلة جداً بعد سقوط القدس.^(٤٦) إن الرحالة والجغرافيين المسلمين والمسيحيين واليهود الذين زاروا القدس وتركوا أوصافاً شبه مفصلة عن الأمكنة المقدسة الإسلامية والمسيحية لم يذكروا أي تفاصيل ذات قيمة عن كنيس اليهود، الأمر الذي يقودنا للاعتقاد بأنه كان صغيراً وبسيطاً جداً، وعليه لا يمكن أن يكون عدد اليهود الذين أحرقوا فيه كبيراً.

الخاتمة

بالعكس مما يدعيه بعض المستشرقين فإن المصادر قد أثبتت أن المسلمين بصورة عامة والحكام المسلمين بصورة خاصة قد أبدوا اهتماماً عظيماً بمدينة القدس يفوق اهتمامهم بغالبية المدن الأخرى في العالم الإسلامي، خصوصاً في المجال العمراني وفي المجالات ذات العلاقة بقدسيتها. أما بالنسبة إلى قلة اهتمامهم بها سياسياً وعسكرياً فذلك مرده سوء موقعها الجغرافي المتمثل في وعرة منطقتها وعدم وقوعها على الطرق التجارية الرئيسية التي تمر من المنطقة. ولكن سوء ووعرة موقعها لم يمنعها من أن تكون ثاني أعظم مدينة في فلسطين من الناحية الديموغرافية خلال القرون الأولى من التاريخ الإسلامي، بل على العكس من ذلك فإن هذا العامل قد أصبح

عاملاً إيجابياً عندما ساءت الأحوال الأمنية خلال القرن الحادي عشر، حيث أصبحت أكثر أمناً من المدن التي كانت تتمتع بموقع استراتيجي ووقعت على الطرق التجارية الرئيسية مثل مدينة الرملة، الأمر الذي جعل منها أعظم مدينة في فلسطين من الناحيتين الديموغرافية والسياسية أثناء الحكم السلجوقي. وقد تراوح عدد سكانها في نهاية القرن بين ٢٠٠,٠٠٠ و ٣٠٠,٠٠٠ نسمة.

مدينة القدس مدينة مقدسة لدى المسلمين والنصارى واليهود لذلك سكنها أتباع هذه الأديان أثناء حكم المسلمين لها. فبالعكس من الرومان والبيزنطيين والصليبيين فقد فتح المسلمون المدينة على مصراعيها أمام جميع من رغب في زيارتها والسكن بها. إنه لا تتوفر لدينا معلومات إحصائية دقيقة أو حتى تقريبية عن التركيبة الطائفية لسكان المدينة خلال الفترة الخاضعة للبحث، ولكن المصادر تزودنا بمعلومات كافية لتقدير حجم ونسب هذه التركيبة. المعلومات التي تحدثت عن مسلمي المدينة بشكل مباشر هي معلومات عامة جداً ولا تشير إلى أكثر من أن عددهم كان كبيراً. أما بالنسبة إلى معلومات المتعلقة بالنصارى واليهود فهي أكثر دقة وبإمكانها أن تساعدنا في احتساب عددهم التقريبي ونسبتهم لمجموع السكان. ففقد سكن النصارى في نهاية القرن الحادي عشر في حي واحد من المدينة، وهو

(٤٦) ابن القلانسي ص ١٣٧. براك ص ١٩٩.
Encyclopaedia Judaica, Vol. 9, p. 1415.

حي النصارى الحالي، إلا أن الكثافة السكانية في هذا الحي أصبحت متدنية في أعقاب إجبار سكانه المسلمين على مغادرته خلال العقد السادس من القرن نفسه. وبما أن حجم هذا الحي كان يعادل سدس حجم المدينة فإننا لن نكون بعيدين عن الحقيقة إذا افترضنا أن عدد النصارى لم يتجاوز ٢٥٠٠ شخص، أي ما يعادل ١٠ بالمئة من السكان. أما بالنسبة إلى اليهود فإننا نقدر عددهم بناءً على حجم الضرائب التي كانوا يدفعونها وحجم كنيسهم الذي أحرقهم به الصليبيون بأقل من تقدير نسبة المسلمين لمجموع سكان المدينة بأكثر من ٨٥ بالمئة. وقد انعكس هذا الأمر على نبوغ واشتهار عدد لا بأس به من رجالها المسلمين على المستوى المحلي والإسلامي والعالمي أمثال المقدسي البشاري في حين لم يشتهر أي من أبنائها النصارى أو اليهود.

إن غالبية المؤرخين الذين ادعوا أن المسلمين لم يعيروا المدينة الاهتمام الذي يليق

بها هم من اليهود الصهيونيين، ولكن هؤلاء المؤرخين تجاهلوا كلياً والتزموا جانب الصمت فيما يتعلق بعدم اهتمام الشعب اليهودي وقيادته الدينية بالمدينة التي يعتبرونها مدينتهم المقدسة الوحيدة في العالم. لقد فتح الحكام المسلمون الباب على مصراعيه أمامهم وامام غيرهم للانتقال إليها وإنشاء المؤسسات التي يرونها بها، إلا أنهم لم يفعلوا ذلك إلا على نطاق ضيق وفضلوا السكن وإنشاء المؤسسات الدينية والاقتصادية في المدن الاستراتيجية والواقعة على الطريق التجارية الرئيسية أمثال مدن الرملة وعسقلان في فلسطين ودمشق والقاهرة وبغداد في المنطقة القريبة منها. وهنا تجدر الإشارة إلى أن منطقة القدس تحتل الآن، وفي ظل الحكم الإسرائيلي، المرتبة الثانية بل تكاد تكون المرتبة الثالثة، ديموغرافياً واقتصادياً بعد مرتبة منطقتي تل أبيب وحيفا.

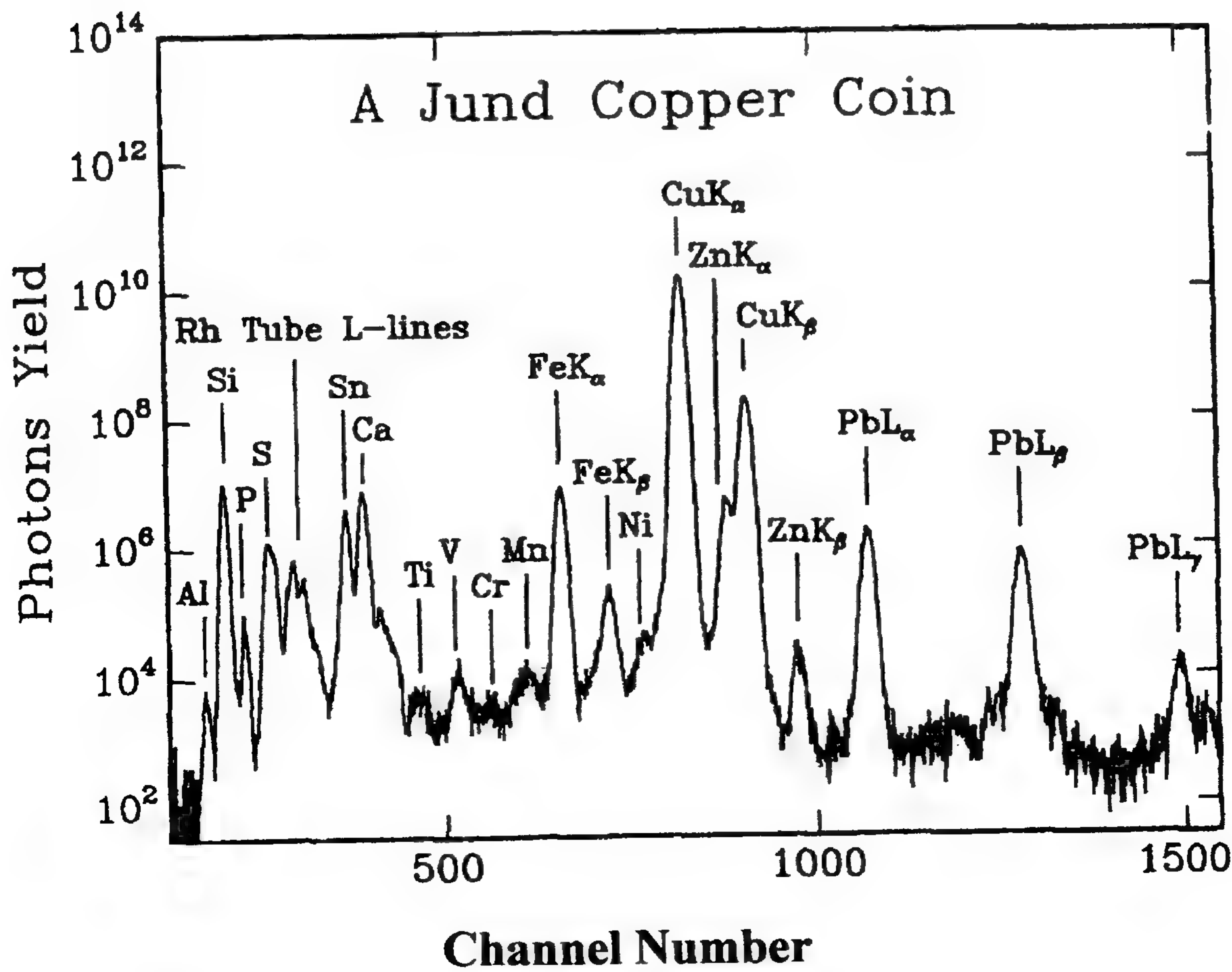


Fig. 3: A representative XRF spectrum for coin D1 showing the characteristic K- and L-lines of various elements in the coin sample.



Fig. 2: A Photograph showing the obverse and reverse sides of a typical Jund's copper coin-the coin number D1 of Jund Dimashaq.

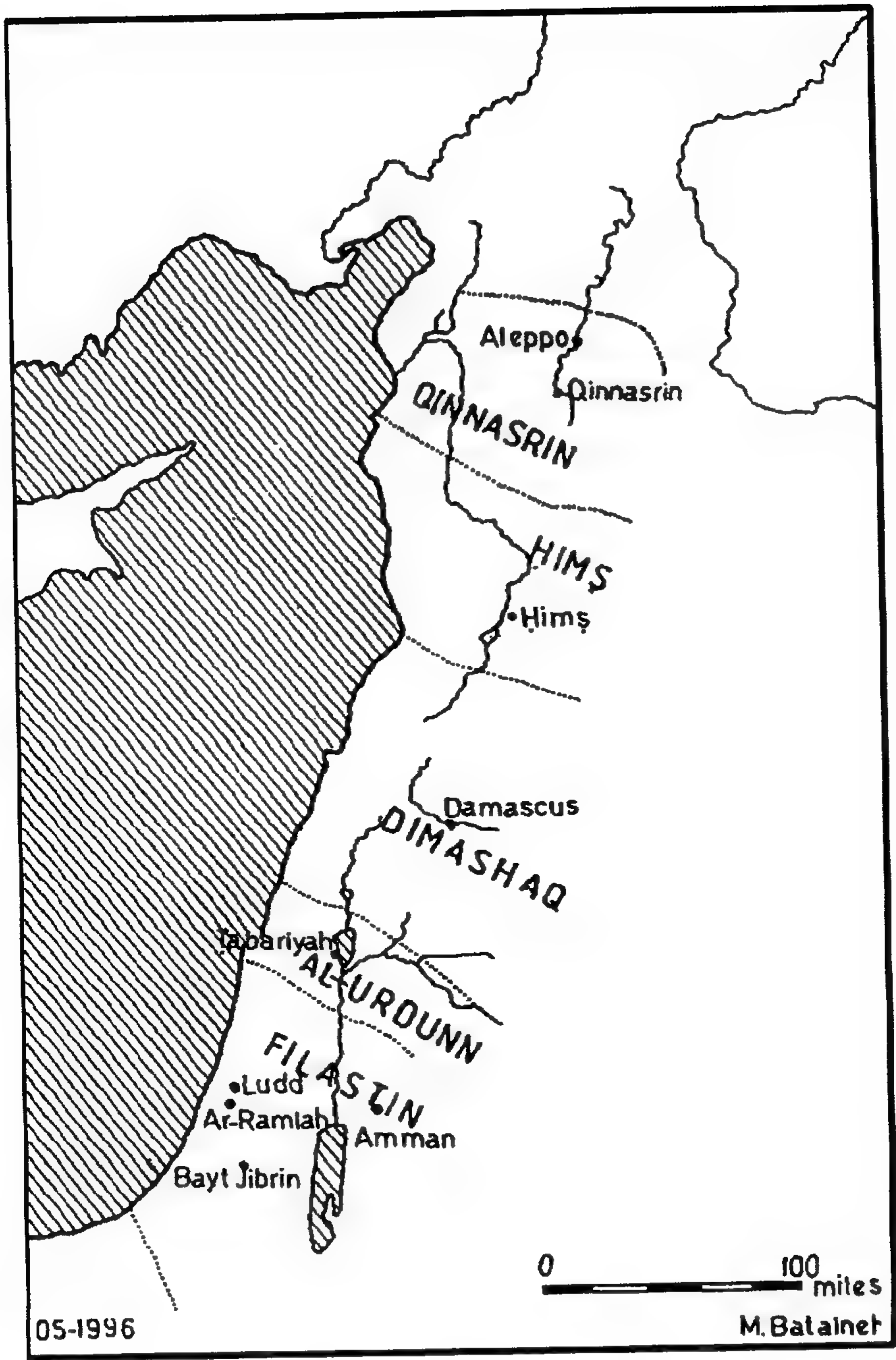


Fig. 1: A map showing the locations of the five Junds (counties) of the Umayyad state where the copper coins were issued. These Junds are: Al-Urdunn (Jordan), Filastin (Palestine), Dimashaq (Damascus), Hims and Qinnasrin.

Table 3: Constituents of the Coins for the Junds of Jordan, Palestine, Hims and Qinnasrin..

Coin	A1	A2	A3	A4	F1	F2	H1	H2	Q1	Q2
El.	Wt.%or	Wt.%or	Wt.%or	Wt.%or	Wt.%or	Wt.%or	Wt.%or	Wt.%or	Wt.%or	Wt.%or
	ppm	ppm	ppm	ppm	ppm	ppm	ppm	ppm	ppm	ppm
Al	0.43	0.66	0.22	2.90	11.16	6.77	2.14	5.64	2.08	0.66
Si	3.01	7.01	1.00	7.98	25.82	24.70	12.90	21.08	14.41	5.76
P	0.35	0.71	0.48	0.99	0.39	0.26	0.52	0.27	2.57	1.28
S	0.24	764ppm	0.12	439ppm	0.19	0.12	2.15	0.47	0.32	0.45
K	886ppm	144ppm	---	0.38	3.28	1.86	0.41	1.95	0.36	77ppm
Ca	0.92	1.79	1.21	3.22	2.57	10.22	6.27	2.05	7.31	0.94
Ti	----	----	114ppm	617ppm	0,61	0.52	830.ppm	0,20	0.10	----
V	391 ppm	380ppm	106ppm	440ppm	459ppm	0.30	784ppm	0.35	0.27	262ppm
Cr	132 ppm	---	---	56ppm	198ppm	380ppm	136ppm	43ppm	14ppm	39ppm
Mn	518ppm	---	240ppm	906ppm	855ppm	633ppm	290ppm	---	169ppm	----
Fe	0.22	1.03	0.34	0.44	4.39	3.12	0.63	1.10	0.66	0.13
Co	352ppm	---	109ppm	528ppm	252ppm	123ppm	138ppm	---	124ppm	----
Ni	369ppm	528ppm	934ppm	218ppm	0.15	935ppm	9ppm	612ppm	520ppm	----
Cu	86.65	77.72	67.27	81.20	43.41	44.76	57.80	57.76	42.23	74.12
Zn	0.76	0.77	0.22	----	1.24	----	0.11	0.20	0.20	----
Ag	1ppm	1ppm	6ppm	3ppm	3ppm	----	6ppm	5ppm	----	----
In	46ppm	22ppm	4ppm	7ppm	10ppm	9ppm	32ppm	26ppm	19ppm	7ppm
Sn	2.84	2.39	1.73	2.54ppm	0.66	0.86	1.20	1.62	1.49	0.50
Pb	7.08	7.73	27.27	2.54	5.94	6.30	15.65	7.23	27.92	16.12

Table 2: Constituents of Jund Coins investigated in the present work which were issued at Damascus.

Coin	D1	D2	D3	D4	D5	D6	D7	D8
El.	Wt.%or	Wt.%or	Wt.%or	Wt.%or	Wt.%or	Wt.%or	Wt.%or	Wt.%or
	ppm	ppm	ppm	Ppm	ppm	ppm	ppm	ppm
Al	1.71	0.56	7.31	0.53	1.92	0.44	0.31	0.57
Si	9.33	3.32	6.03	0.91	8.63	0.79	1.30	2.73
P	0.83	1.16	1.76	0.31	1.14	0.39	0.43	0.50
S	0.49	0.48	0.21	0.29	0.32	0.27	0.26	0.62
K	0.53	0.28	1.36	333ppm	0.32	----	----	----
Ca	3.58	2.02	2.90	0.53	6.53	0.76	1.13	1.50
Ti	593ppm	258ppm	0.41	----	675ppm	----	315ppm	----
V	826ppm	350ppm	694ppm	17 ppm	----	----	----	----
Cr	250ppm	----	----	60 ppm	13 ppm	----	----	32 ppm
Mn	286ppm	----	0.37	----	----	----	356ppm	155ppm
Fe	1.83	1.07	2.16	0.22	0.54	0.16	0.29	1.03
Co	426ppm	127ppm	346ppm	----	146ppm	----	57 ppm	327ppm
Ni	458ppm	523ppm	226ppm	288ppm	519ppm	596ppm	0.11	369ppm
Cu	72.26	50.72	52.71	85.34	63.00	89.13	80.78	83.67
Zn	1.15	2.62	165ppm	0.31	0.24	0.16	0.32	----
Ag	4 ppm	6 ppm	10 ppm	3 ppm	----	----	----	----
In	25 ppm	33 ppm	45 ppm	21 ppm	7 ppm	15 ppm	50 ppm	66 ppm
Sn	1.89	2.12	1.11	1.11	1.44	0.83	1.72	3.02
Pb	6.11	35.52	23.51	10.37	15.79	7.01	13.26	6.25

high temperature, and many sophisticated extraction processes, which were not available at that time. However, the copper coins have the least value compared to the golden and silver coins, which explains why such variations in the concentrations of all constituents were both tolerable and acceptable.

Table 1: Information about the 18 coins concerning: coin symbol in the present work, city and Jund (county) of issue, mass and diameter.

Coin Symbol	City of Issue	Jund (County)	Mass (gram)	Diameter (mm)
D1	Amman	Dimashaq	1.75	16
D2	Damascus	Dimashaq	1.84	17
D3	Damascus	Dimashaq	2.22	15
D4	Amman	Dimashaq	2.55	17
D5	Amman	Dimashaq	2.67	17
D6	Damasucs	Dimashaq	2.26	18
D7	Damasucs	Dimashaq	1.77	17
D8	Damasucs	Dimashaq	2.15	17
A1	Tabariyah	Al-Urdunn	3.14	22
A2	Tabariyah	Al-Urdunn	3.67	17
A3	Al-Urdunn	Al-Urdunn	2.15	16
A4	Al-Urdunn	Al-Urdunn	5.54	22
F1	Ar-Ramlah	Filastin	3.43	17
F2	Ludd	Filastin	4.25	20
H1	Hims	Hims	2.09	13
H2	Hims	Hims	1.63	15
Q1	Qinnasrin	Qinnasrin	3.86	19
Q2	Aleppo	Qinnasrin	4.34	16

Table 2 shows that the coins: D4, D6, D7 and D8 of Jund Dimashaq are HQC, the coins: D1 and D5 are MQC and the coins: D2 and D3 are LQC. Likewise, table 3 shows that the coins: A1 and A4 of Jund Al-Urdunn are HQC, the coins : A2 and A3 of Jund Al-Urdunn and Q2 of Jund Qinnasrin are MQC, and the coins : F1 and F2 of Jund Filastin, H1 and H2 of Jund Hims, and Q1 of Jund Qinnasrin are LQC. Therefore, the best quality copper coins were made in the Junds of Dimashaq and Al-Urdunn and the lowest quality copper coins were made in the Junds of Filastin and Hims. This can be understood on light of the fact that Jund Dimashaq was at the center of the Umayyad Empire, with Dimashaq city being the capital of the empire, and Jund Al-Urdunn is located nearby Jund Dimashaq, see Fig1. Thus, the mints that issued the copper coins were of the best quality and more advanced ones. Moreover, many of those mints were under strict control of the central government beside the control of the local Jund authorities, so that it always makes the coins that had the best quality.

The variations in the concentrations of various major, minor and trace constituents in the coins were significant and did not follow clear patterns. This

indicates that various mints at different issuing cities fabricated the copper coins by following different techniques, and using various types of raw materials containing copper as their major element. The changes in the type of elements, and in their concentrations indicate that the copper raw materials, were brought from different sources. The significant changes in the concentrations of major and minor elements, implies that very poor quality control practices, or none of such practices were followed in the making of the copper coins in the mints far away from the center of the empire:

The significant variations, in the concentrations of the constituents of the coins, and the poor quality control in the fabrication of the coins, can also be attributed to the fact that the process of coin making at the Great Islamic Empire was in its early stages. The Great Umayyad Caliph Abd al-Malik bin Marwan has initiated this process, and introduced the first Arabic-Islamic coinage, in the year 77H (697AD), to replace the modified Byzantine and Sassanian coins, that had been used until then⁽¹⁵⁾. Another reason for the poor making of this coinage is that the smelting of copper raw materials requires

(15) "History of the Ancient Middle East", Grolier Multimedia Encyclopedia, Grolier Electronic Publishing, Inc., U.S.A. (1993).

curves to relate the intensity of X-ray photons at a specific tube current with elemental concentration. From the quantitative XRF analysis of the coins, the concentrations of various constituents present in these samples were determined.

Table 2 gives the constituents of the eight coins belonging to Jund Dimashaq, and table 3 gives the constituents of the remaining ten coins, belonging to the Junds of Al-Urdunn, Filastin, Hims and Qinnasrin. For convenience, we shall call the elements which have concentrations of more than 1% by weight in this paper as major elements, elements of concentrations between 0.1% and 1% as minor elements, and elements of concentrations less than 0.1% as trace elements. As shown in tables 2 and 3, the major elements the coins are: Cu, Pb, Si, Ca and Sn. The minor elements are: P, S, K, Fe and Zn, and the trace elements are: Ti, V, Cr, Mn, Co, Ni, Ag and In. However, this classification of the elements is not strict, since some of the major elements, like Al and Si, are minor in some of the coins; and some minor elements, like P and Fe are major in some of the coins.

3.3 Discussion

As shown in tables 2 and 3, the coins were found to have compositions ranging from about 42.23% to 89.13% by weight

Cu, 2.54% to 35.52% Pb, 0.79% to 25.82% Si, 0.22% to 11.16% Al, 0.53% to 10.22% Ca and 0.50% to 3.02% Sn. The addition of some major elements like Pb, Si, Al and Sn to copper produces types of copper alloys which have better mechanical properties. This is important in the fabrication of the coins and in making them more resistant to corrosion and erosion. As for the minor and trace elements in the coins, the variations in their concentrations may be attributed to the variation in the origins of the raw materials used in making the coins.

It is appropriate to classify the coins into three categories: High-, Medium- and Low Quality Coins based on the concentration of Cu in their composition. High Quality Coins (HQC) have a concentration of Cu by weight of 80% or more, Medium Quality Coins (MQC) have a concentration of Cu which is more than 60% and less than 80%, and Low Quality Coins (LQC) have a concentration of Cu which is less than 60%. Tables 2 and 3 show that the coin D6 of Jund Dimashaq has the best quality, where the concentration of Cu in this coin is 89.13% by weight. The tables also show that the coin Q1 of Jund Qinnasrin has the lowest quality, where the concentration of Cu in this coin is 42.23% by weight.

copper coin (fils)^(13,14). Obviously, the dinar is the most valuable, and the fils is the least.

Arabic inscriptions from the Quran-the holy book of Islam-decorated the two sides of the coins. For convenience, these two sides are named as obverse and reverse sides in this study. All of the eighteen coins have the Arabic statement "لا إله إلا الله وحده" on their obverse side, which means, "There is No God but Allah Alone". Likewise, the eighteen coins have the Arabic statement "محمد رسول الله" on their reverse side, which means "Mohammed is the Messenger of Allah". These statements are much shorter than the similar decoration statements written on the silver coins (dirhams) of the same period(2). The reason for this is that the size of the copper coins is much smaller than that of the silver coins.

In addition the Arabic inscriptions on the coins, there were some geometrical ornaments and drawings of plants and/or animals on the obverse side of the coins. An image of a flower or a drawing of a six point's star decorated the coins of Jund Dimashaq. An image of a palm tree appeared on the coins of Jund Al-Urdunn. An eight point's star decorated

the coins of Junds Filastin and Qinnasrin. Lastly, an image of Jarbou (an animal) decorated the coins Jund Hims. Fig.2 shows a photograph of the obverse and reverse sides of atypical Jund's coin.

3.2 Constituents of the Coins

Fig. 3 Shows a representative XRF spectrum for one of the coins- D1 of Jund Dimashaq. The spectrum show the characteristic K-and L-lines of various elements present in the coin sample. The XpertEase Software package was used for the acquisition of the XRF spectra as well as for qualitative and quantitative analysis of the coin samples(10). After acquiring the XRF spectrum for a coin sample, a qualitative analysis was performed to identify the constituents of the sample. Then a method was tailored using the General and Very Heavy fixed conditions and the acquired spectrum to evaluate the composition of the sample. XpertEase implements the Fundamental Parameter Method with a similar standard for the computation of concentrations for various constituents in the samples. It uses a multielement standard for energy calibration and a pure titanium standard- 99.99%- as well as a set of data libraries for the profiles of k- and L-lines and concentration sensitivity

(13) N. Goussos and K. Tarawneh, "Coinage of the Ancient and Islamic World", Aquamedia Press, Amman, Jordan (1991) p.47.

(14) Michael Mitchiner, "The World of Islam", London (1977) p.55.

condition of the system are selected through the software package XpertEase⁽¹¹⁾ running under Windows 3.11 on an IBM 486DX-2 66 MHz computer. XpertEase also sets the tube current and voltage and controls the acquisition of X-ray spectra on-line.

The samples were irradiated in two different fixed conditions under vacuum to achieve the best sensitivity and to cover all elements in the periodic table between Na and U. These conditions are named: General and Very Heavy Elements. The General fixed condition uses a tube voltage of 25 kV (at 10 mA) without a primary beam filter to excite all the elements from sodium to uranium in the sample. A primary beam aperture of 4.5 mm is used to restrict the forward power. So that the count rate remains within the normal measurement range. The characteristic X-ray K-lines are used to identify elements between Na and Mo, while the characteristic L-lines are used for the identification of heavier elements from Rh to U.

The Very Heavy Elements fixed condition uses a tube voltage of 50 kV (at 280 mA) with a thick copper filter. This method is suitable for major to trace concentration levels of the elements Nb

to Nd (k-lines) and Th to U (L-lines). K line peaks resolve well in this region showing both K alpha 1 & 2 and K 2. The two methods complemented one another in the comprehensive analysis of the coin samples.

3 Results and Discussion

3.1 Description of the Coins

The place of issue of each coin, its diameter and mass are given in table 1. As shown in the table, eight coins were issued in Jund Dimashaq in two cities Damascus and Amman. Four coins were issued in Jund Al-Urdunn and in the city of Tabariyah. Two coins were issued in Jund Filastin in the cities of Ar-Ramlah and Ludd. Two coins were issued in Jund Hims in the city of Hims itself. Finally, two coins were issued in Jund Qinnasrin in the cities of Qinnasrin and Aleppo. Figure 1 shows the locations of the aforementioned cities as well as the boundaries of these five Junds⁽¹²⁾. It is worth mentioning that the values of these copper coins are equal, regardless of their mass and diameter. There were three types of coins in that period with three different values: the golden coin (dinar), the silver coin (dirham) and the

(10) & (11) Oxford Instruments Industrial Analysis Group, 19/20 Nuffield Way, Abingdon, Oxon, OX14 1TX, England. Fax: (01235) 535416.

(12) Al-Baladhuri, "Kitab Futuh Al-Buldan", M. de Goeje, editor, Leiden (1866) p131.

Empire (GIE). Five Junds (counties) of the Umayyad state issued these coins, namely: Al-Urdunn (Jordan), Filastin (Palestine), Dimashaq (Damascus), Hims and Qinnasrin. As shown in Fig. 1, the boundaries of these Junds extended over the territories located in the eastern coast of the Mediterranean and covered parts of the states of Syria, Jordan, Palestine and Lebanon. This region is usually referred to in the literature as Bilad Ash-Sham. During the Umayyad period, Damascus was the capital of the state where the Caliph resided and ruled the empire. The remaining four Junds were the closest to the capital, Hims and Qinnasrin from the north, and Al-Urdunn and Filastin from the South⁽⁹⁾. The study of Umayyad coinage is of great importance because the Umayyad State was the first state to issue its own currency in the Great Islamic Empire. More historical details about the five Junds and the Umayyad coinage will be given later in the discussion section.

XRF is a well-established technique for nondestructive analysis of materials. It has the advantages of multielemental analysis, Na to U, in one run with precision of better than 5%. Essentially, the primary beam from an X-ray tube or a radioisotope excites the characteristic X-

rays of each elements present in the sample. Processing the complete spectrum of the sample to measure the energies of these characteristic X-rays identifies the elements and then the intensities of these energies indicate their concentration.

2 Experimental

2.1 Sample preparation

The eighteen copper coins were cleaned by water and soap using a steel brush and then dried by a clean piece of cloth. After that, soft cotton and acetone was used to clean the coins from any residues that may be left on their surfaces.

2.2 Sample irradiation

The Oxford ED2000 energy dispersive X-ray fluorescence spectrometer⁽¹⁰⁾, at the Physics Department of Yarmouk University - Jordan, was used to irradiate the coins and to collect their characteristic X-ray spectra. This system uses a rhodium target and a set of aluminum and copper filters and apertures with a high voltage power supply of up to 50 kV. It operates under more than 20 preset fixed settings for the filters and/or apertures and for the high voltage of the X-ray tube. The proper filter and/or aperture for each fixed

(9) Alan G. Walmsley, "The Administrative Structure and Urban Geography of the Jund of Filastin =

= and the Jund of Al-Urdunn". University of Sidney (Australia), (1987) p1.

judgments on the strength and order of the state that issued the coin⁽¹⁾.

Different workers have used various nondestructive techniques for investigating such precious ancient coins. X-Ray Fluorescence (XRF) has been used to study dirhams (silver coins) belonging to the Abbasid period 775-833 AD of the Great Islamic Empire⁽²⁾. Particle Induced X-Ray Emission (PIXE) has been used to study dirhams from the Umayyad period 702-748 AD of the same empire⁽³⁾. PIXE also was used for the elemental analysis of ancient Chinese artifacts belonging to the period 618-1679 AD⁽⁴⁾. Moreover, External-Beam PIXE was also used for the analysis of Chinese Coins belonging to the period 1644-1911 AD⁽⁵⁾. Instrumental Neutron

Activation Analysis (INAA) has been used for the analysis of ancient punchmark coins ranging between 8th century B. C. to 2nd century B.C.⁽⁶⁾. Concentration levels of various elements, viz. Cu, Ag, Sn, Sb, Au and As have been estimated in different ancient Indian coins using Cf-252 neutron source by Instrumental Neutron Activation Analysis (INAA)⁽⁷⁾. The metal contents of several ancient uncleaned Portuguese gold coins, with compositions ranging from about 35% to 99% Au, were determined and compared by using two techniques: EDXRF and PIXE⁽⁸⁾.

In the present work, XRF is used to study eighteen ancient copper coins belonging the Umayyad period 41-132 H (661-748 AD) of the Great Islamic

(1) Guerra-MF, "Elemental Analysis of Coins and Glass", *Applied Radiation and Isotopes*, Vol. 46, (1995) 583-588.

(2) M. M. Al-Kofahi, K. F. Al-Tarawneh and J. M. Shobaki, "Analysis of Abbasi Dirhams Using XRF Technique", Submitted for publication in *X-Ray Spectrometry*.

(3) M. M. Al-Kofahi, S. Sari and W. A. Sawafteh, "A Study of Umayyad Dirhams Using PIXE Technique", *Dirasat*, Vol. 19, (1992) 33-55.

(4) E. K. Lin, C. W. Wang, Y. C. Yu, W. C. Cheng, C. H. Chang, Y. C. Yang and C. Y. Chang, "Application of PIXE For Elemental Analysis of Ancient Chinese Artifacts", *Nuclear Instruments & Methods In Physics Research-Section B*, Vol. 99, (1995) 394-398.

(5) E. K. Lin, C. T. Shen, Y. C. Yu, C. W. Wang, C. H. Hsieh and S.C. Wu, "External-Beam PIXE Analysis of Ancient Chinese Coins", *Nuclear =*

= Instruments & Methods In Physics Research-Section B, Vol. 85 (1994) 869-873.

(6) N. S. Rajurkar, A. K. Jha and R. P. Bhadane, "Instrumental Neutron Activation Analysis Of Some Ancient Punchmark Coins From India", *Journal Of Radioanalytical and Nuclear Chemistry Letters*, Vol. 186, (1994) 393-400.

(7) N. S. Rajurkar and R. P. Bhadane, "Multielemental instrumental neutron activation analysis of some ancient Indian coins", *Applied Radiation and Isotopes*, Vol. 44, (1993) 781-782.

(8) M. F. Araujo and J. M. P. Cabral, "Comparison of EDXRF and PIXE in the analysis of ancient old coins", *International Conference On Particle Induced X-ray Emission (PIXE) and Its Analytical Applications*, Tokyo (Japan). 20-24 Jul 1992.

ANALYSIS OF JUND COINS USING XRF TECHNIQUES

Dr. K. F. Al-Tarawneh, M. M. Al-Kofahi, J. M. Shobaki

Abstract:

Eighteen ancient copper coins, from the Umayyad period 41-132 Hijri (661-748 AD) of the Great Islamic Empire, were analyzed using X-Ray Fluorescence technique. The coins were issued in five Junds (counties) of the empire: Al-Urdunn, Filastin, Dimashaq, Hims and Qinnasrin. The coins were found to have compositions ranging from about 42% to 89% by weight Cu. In addition to Cu, the main element in the coins, the major constituents of the coins, with concentrations of 1% or more, were Al, Si, Sn and Pb. The minor constituents in the coins, with concentrations between 0.1% and 1% were S, P, K, Ca, Fe and Zn. The trace elements in the coins, with concentrations of less than 0.1%, were Ti, V, Cr, Mn, Co, Ni, Ag and In. Significant variations in the concentrations of the major, minor and trace constituents of the coins were observed. These variations were correlated to the historical period in which the coins were issued.

INTRODUCTION

Analysis of precious ancient coins by nondestructive techniques has become a powerful tool toward a better understanding of old civilizations. In particular, it enabled historians to draw sounder conclusion about the points of strength and weakness of these civilizations. Furthermore, the precise

determination of the constituents of such ancient coins is essential in order to check on the quality control practices adhered to during the making of such coins in each period. Moreover, many historical questions can be solved by the analysis of ancient coins. For instance, knowledge of such quality control practices in the fabrication of coins is indispensable for historians in their

Contents

English Section

- **Analysis of Jund Coins Using XRF Techniques**
Dr. K. F. Al-Tarawneh, M. M. Al-Kofahi, J. M. Shobaki 9

القسم العربي

- **العصور الحجرية في وادي النيل**
د. يوسف مختار الأمين ٧
- **شعيب المصانع : قرية تعدينية في منطقة المدينة المنورة (دراسة أثرية)**
د. علي بن إبراهيم غبان ٣٥
- **التأديب والتثقيف الموجه نحو الخلفاء والعباسيين وأبنائهم في مرحلة ما قبل العهد البويهي (٢٧٩ - ٣٣٤هـ)**
د. عبد الرحمن بن علي السنيدي ٧٩
- **نقش تأسيسي عثمانى من حي القلعة بالقطيف مؤرخ في عام ١٠٣٩هـ**
د. مشلح بن كميخ المريخي ١٠١
- **سكان القدس في نهاية القرن الحادي عشر ميلادي**
د. محسن يوسف ١١٣

Consultants

Prof. Abdullah Yoursif Al-Shibl, Former-President of Imam Mohammad Ibn Saud Islamic University, Riyadh.

Prof. Abd Al-Aziz Al-Duri, Department of History, College of Arts. The University of Jordan, Jordan.

Prof. Abd Al-Aziz Al-Helabi, Department of History, College of Arts. King Saud University, Riyadh.

Prof. Abd Al-Aziz bin Abdollah, Director, Arabization Bureau, Rabat, Morocco.

Prof. Abd Al-Jelil Temimi, Le Centre d'Etudes et de Recherches Ottomanes, Morisquesm de Documentation et d'Information. Tunisia.

Prof. Ali Mohafza, Faculty of Humanities and Social Sciences. University of Jordan, Jordan.

Prof. Daif Allah Yhya Al Zahrani, Department of Modern History and Islamic Civilization, Umm Al-Qura University.

Prof. Ekmeledin Ihsanoglu, Director General, Research Centre for Islamic History, Art and Culture, Istanbul, Turkey.

Dr. Fahd Ibn Abdullah Alsmari, Secretary General, King Abdul Aziz Foundation for Research and Archives.

Prof. Halil Inalcik, The University of Chicago, U.S.A.

Prof. Ibrahim Shbbuh, Director general de la Bibliotheque Nationale.

Prof. Irfan Shahid, George Town University, Washington D.C., U.S.A.

Prof. Jamal Zakaria Qasim, Department of History, Faculty of Arts, Aim Shams University, Egypt.

Prof. Khairia Kasmieh, Modern and Contemporary History. Dept. of History, Damascus University, Syria.

Prof. Mostafa Kamal Abdul-Alim, Department of History, Cairo University. Egypt..

Prof. Mohammad Adnan Al-Bakhit, President of Al- alBait University . Jordan.

Prof. Mohammad Fantar, Director du Centre de la Civilisation Punique.

Prof. Mohammed Zaid Kebbe, College of Arts, King Saud University, Riyadh.

Prof. Naser Al-Din Al-Asad, Director, Royal Academy for Islamic Civilization Research, Jordan.

Prof. Richard L. Chambers, The University of Chicago, U.S.A.

All MSS should be addressed to :

- Mars Publishing House,

P.O. Box : 10720, Riyadh 11443.

Saudi Arabia.

The Arabic Publishing & Distribution House Ltd.

49 Goldhawk Road

London W12 8 QP

England

- ANNUAL SUBSCRIPTION RATE :

- - Saudi Arabia S.R. 100

- - All Arab Countries U.S. \$ 35

- - All European Countries U.S. \$ 40

- - U.S.A. & Canada U.S. \$ 45

- - Australia & South Asia U.S. \$ 50

© 2002 MARS PUBLISHING HOUSE, Riyadh, Saudi Arabia,

P.O. Box 10720 Riyadh 11443 , Tel 4647531 – 4658523 , Fax 4657939 .

Email : marspub1@zajil.net

No part of this work may be reproduced or utilized in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopying, recording, or by any information storage and retrieval system without prior written permission from the publisher.

Agēs

A Semal - annual Journal of Historical, Archaeological and Civilizational Studies

CHIEF EDITORS

Prof. Abdel Fattah H. Abu-Alieh

Prof. Sayed Farag Rashed

Prof. Raafat M. El-Nabarawi

Dr. Adnan M. Al-Harthy

Dr. Abdullah A. Al-Wazrah

Administrative Manager

Abdullah Al-Magid

VOLUME	12
PART	1
JULY	2002
RABI' II	1422



Published by : Mars Publishing House London

المصور

مجلة علمية محكمة ، نصف سنوية ، تعنى بنشر البحوث التاريخية والأثرية والحضارية

رئاسة التحرير

الأستاذ الدكتور	عبد الفتاح حسن أبو عليّة
الأستاذ الدكتور	سيد فرج راشد
الأستاذ الدكتور	رافقت محمد النبيراوي
الدكتور	عدنان محمد الحارثي
الدكتور	عبد الله عبد الرحمن الوزرة
المدير المسؤول	عبد الله الماجد

المجلد الثاني عشر
الجزء الثاني
يوليو ٢٠٠٢م
ربيع الثاني ١٤٢٣هـ

تصدر عن : دار المريخ للنشر - لندن



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المنصور

© دار المريخ للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار المريخ للنشر - الرياض
المملكة العربية السعودية، ص. ب. ١٠٧٢٠ - الرمز البريدي ١١٤٤٣
فاكس ٤٦٥٧٩٣٩، هاتف ٤٦٤٧٥٢١ / ٤٦٥٨٥٢٣
البريد الإلكتروني : email : marspub1@zajil.net
لا يجوز استنساخ أو طباعة أو تصوير أي جزء من هذا الكتاب أو
إخترانه بأية وسيلة إلا بإذن مسبق من الناشر.



موقع المجلة على الإنترنت
<http://alosour.netfirms.com>

البريد الإلكتروني للمجلة
al_Osour@hotmail.com



- تكون جميع المراسلات والاشتراكات لجميع دول العالم على العنوان التالي :
- دار المريخ للنشر - ص. ب. ١٠٧٢٠ الرياض : ١١٤٤٣ - المملكة العربية السعودية.
 - دار المريخ للنشر - ٤ ش الفرات - مدينة المهندسين - جمهورية مصر العربية.
 - هاتف ٣٣٧٦٥٧٩ فاكس ٧٦٠٩٤٥٧.
 - الدار العربية للنشر والتوزيع - ٤٩ جولد هوك رود، لندن - W128QP المملكة المتحدة.



الاشتراكات السنوية :

- المملكة العربية السعودية (١٠٠) ريال سعودي.
- الدول العربية (٢٥) دولارا أميركيا أو ما يعادلها.
- الدول الأوروبية (٤٠) دولارا أميركيا .
- أمريكا وكندا (٤٥) دولارا أميركيا .
- استراليا وجنوب شرق آسيا (٥٠) دولارا أميركيا .



* ما ينشر في هذه المجلة من مواد تعبر عن آراء أصحابها.

المستشارون

الأستاذ الدكتور إبراهيم شيوخ ، المدير العام لدار الكتب الوطنية ، تونس — الجمهورية التونسية.

الأستاذ الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو ، مدير عام مركز الأبحاث للتاريخ والفن والثقافة الإسلامية ، استانبول — الجمهورية التركية .

الأستاذ الدكتور جمال زكريا قاسم ، أستاذ التاريخ الحديث ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية .

الأستاذ الدكتور خليل إنالجيك ، قسم دراسات الشرق الأوسط ، جامعة شيكاغو — الولايات المتحدة الأمريكية .

الأستاذ الدكتور خيرية قاسمية ، قسم التاريخ — جامعة دمشق — الجمهورية العربية السورية.

الأستاذ الدكتور ريتشارد تشيمبرز ، قسم دراسات الشرق الأوسط ، جامعة شيكاغو — الولايات المتحدة الأمريكية .

الأستاذ الدكتور عبد الجليل التميمي ، أستاذ التاريخ الحديث بالجامعة التونسية ، مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق ، زغوان ، الجمهورية العربية التونسية .

الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري ، أستاذ التاريخ الإسلامي ، الجامعة الأردنية ، عمان — المملكة الأردنية الهاشمية .

الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح الهلابي ، قسم التاريخ — جامعة الملك سعود — الرياض.

الأستاذ الدكتور عبد الله بن يوسف الشبل ، مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (سابقا) — الرياض .

الأستاذ الدكتور عرفان شهيد ، جامعة جورج تاون ، واشنطن دي . سي — الولايات المتحدة الأمريكية .

الأستاذ الدكتور علي محافظة ، كلية الإنسانيات والدراسات الإسلامية ، الجامعة الأردنية — المملكة الأردنية الهاشمية.

الدكتور فهد بن عبد الله السماري أمين عام دارة الملك عبد العزيز — المملكة العربية السعودية

الأستاذ الدكتور محمد زياد كبة ، كلية الآداب — جامعة الملك سعود — المملكة العربية السعودية.

الأستاذ الدكتور محمد فنطر ، مدير مركز الدراسات البونيقية واللووية ، تونس — الجمهورية التونسية .

الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت ، رئيس جامعة آل البيت — المملكة الأردنية الهاشمية .

الأستاذ الدكتور مصطفى كمال عبد العليم ، قسم التاريخ ، جامعة القاهرة — جمهورية مصر العربية.

الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد ، رئيس المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ، عمان — المملكة الأردنية الهاشمية .

المحتويات

القسم العربي

- نقوش سبئية جديدة في ذكر المرض
د. سعيد بن فايز إبراهيم السعيد ٧
- الاهتمامات العلمية للخلفاء العباسيين في الفترة (٥٧٥-٦٥٦هـ/١١٧٩-١٢٥٨م)
د. محمد عبد الله القدحات ٢٣
- مفردات فنية جديدة للزجاج المزخرف بأكاسيد معدنية في مصر الإسلامية حتى
نهاية العصر الفاطمي (في ضوء مجموعة جديدة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة)
د. جمال عبدالرحيم إبراهيم ٤٧
- نقش تأسيسي عثماني من حي القلعة بالقطيف مؤرخ في عام ١٠٣٩هـ
د. مشلح بن كميخ المريخي ٨١
- الحياة الزراعية في الريف الفلسطيني في أواخر العهد العثماني
د. محمد الحزماوي ٩٧
- اللغة كمتغير مصاحب لبعض المناشد الاجتماعية: دراسة سسيوأنثروبولوجية لدور اللغة في
عمليات التشييد والبناء في قبيلة بني عمرو
د. سليمان بن عبد الله العقيل ١٣٥

نقوش هبئية جديدة في ذكر المرض

د. سعيد بن فايز إبراهيم السعيد

ملخص البحث :

لقد حبا الله - عز وجل - الإنسان بالقوة والعزم، ولكن المرض من أبرز العوامل التي اعترضت إرادته، فظل المرض - على الدوام - القاهر لجبروته، والكابح لطموحه. ومن هنا فلا غرابة أن نجده يشغل حيزاً واسعاً من تفكير الإنسان، بغية قهره والسيطرة عليه. ومجموعة النقوش التي يتناولها البحث شاهد على معاناة الإنسان العربي القديم من المرض وصراعه ضده، وفيها إحياءات يُستدلُّ من خلالها على ما أحدثه من خوف ورعب للإنسان في مراحل حياته المتعددة. ومن خلال هذه النقوش عبّر عدد من أبناء جنوب جزيرة العرب - رجالاً ونساءً - عن شكرهم لمعبودهم الوثني (إل مقه) على ما منَّ به عليهم من نعمة الشفاء من مرض ألمَّ بهم، فجاء تعبيرهم عن فرحتهم بالخلاص منه من خلال قيامهم بتقديم قربان تمثلت في مجموعة من التماثيل قدمت له في معبده الرئيس في مدينة مارب.

ويتناولونه عن طريق العدوى، ولا يسلم منه إلا ما شاء الله عز وجل.

- مرض خاص: وهو ما يصيب شخصاً بعينه دون سواه من أبناء مجتمعه.

أما تركّز ذكر المرض ومسمياته وأسبابه في نقوش المسند ضمن ما يصنف تحت إطار النقوش الدينية فلا ريب في أن السبب يرجع إلى اعتقاد سكان جنوب الجزيرة العربية - آنذاك - بأن المعبود هو من بيده إنزال المرض على العابد. ويستدل من رواية

على الرغم من أن مجموعة النقوش العربية الجنوبية القديمة تخلو - حتى الآن - من نصوص طبية، إلا أن ذكر المرض اتخذ حيزاً لا بأس به في مدونة نقوش المسند، وتعددت مسمياته في متون عدد من النقوش التي يندرج موضوعها ضمن إطار النقوش الدينية، وعلى هدي رواية هذه النقوش يمكن تقسيم المرض إلى نوعين:

- مرض عام^(١): وهو ما ينتشر وباؤه في منطقة أو مجتمع ما، فيفتك بالناس،

- الذي يذكر انتشار وباء عام في (ظفار) خلال فترة حكم (ثاران يهنعم) وابنه (ملك كرب) ملكي سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت.

(١) انظر - على سبيل المثال - النقش السبئي (Ja 670, s. Jamme, A., Sabaean Inscriptions from (Mahram Bilgis (Mârib), Baltimore 1962

النقوش السبئية - المعروفة حتى الآن - أن أحد مسببات الإصابة بالمرض في اعتقادهم يكمن في توتر العلاقة بين العابد والمعبود، إذ إن قيام العابد باقتراف ذنب تجاه معبوده مسوّغ كاف للمعبود بأن يُنزلَ المرض على عابده عقاباً له على ما ارتكبه من خطأ تجاهه، ففي أحد النقوش السبئية^(٢) الذي يتحدث عن قيام شخص بارتكاب خطأ في معبد الإله (إل مقه) يرد ما نصه:

و ن ق م ا ع ب د ه و ا ث و ب ا ل ا ب م
ر ض ا ا (ض) ر س ه و ا و ث ن ه و ا

المعنى: "وعاقب عبده (المدعو) ثوب إل بمرض أضراسه وثناياه". فهذا الشاهد ينبئ أن صاحب النقش (ثوب إل) حلت عليه عقوبة المعبود (إل مقه) جراء ما اقترفه من خطأ في حق معبوده ومعبدّه، وأنزل به مرضاً أصاب أسنانه.

ويذكر نقش سبئي آخر^(٣) حول الموضوع نفسه ما نصه:

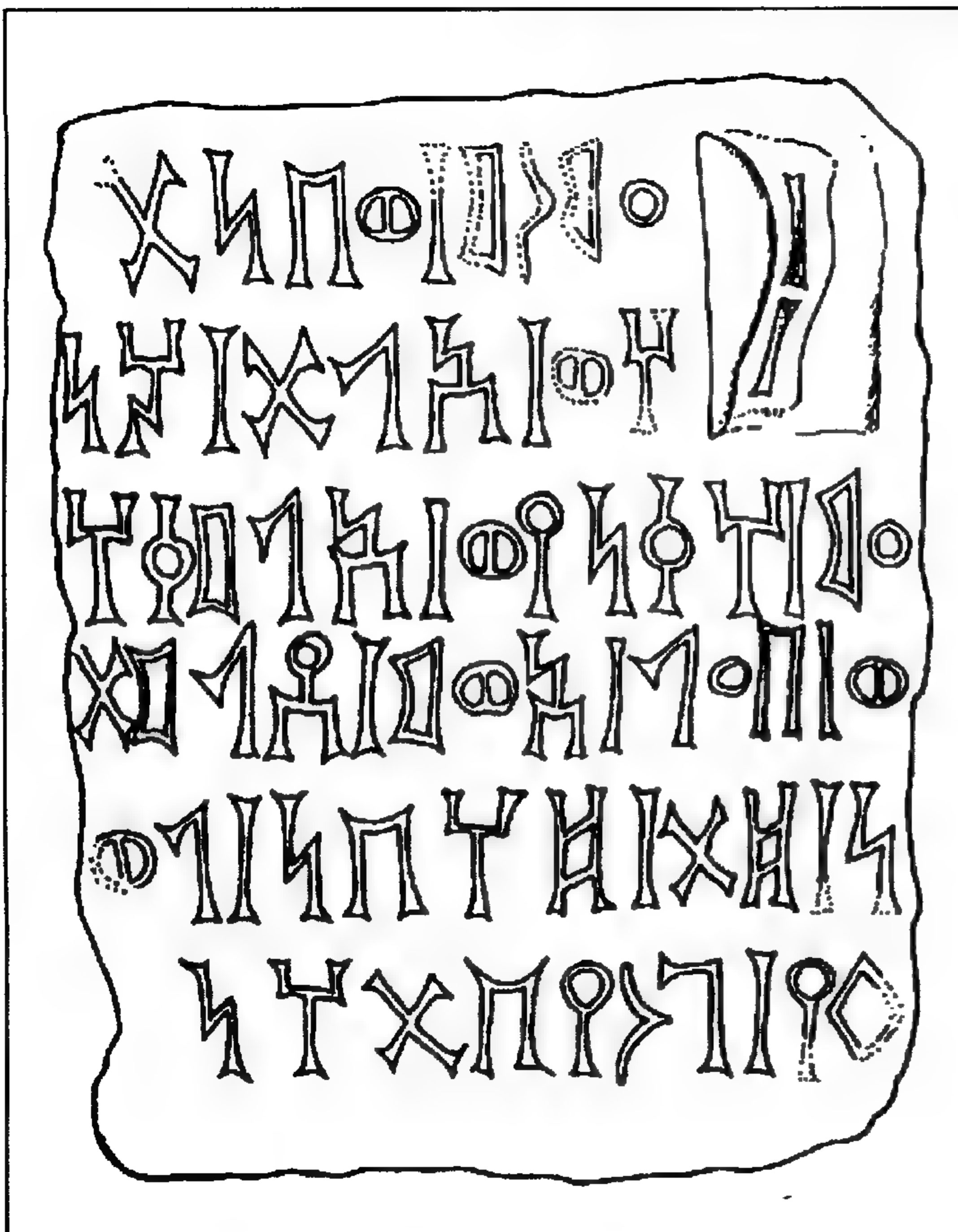
و ت س ن ا ن ك ر ا ع ب د ه و ا ا ج
ر م ا س ث ا ا و ر خ م ا م ر ض م ا ف
ش ا م ا ذ ا ل ا م ن ا ش ع ر ا ك م ه ن ا
ه ا ا ح ل ظ ه و

المعنى: "وسنّ (أي إل مقه) عقوبة (على) عبده أجزم (تمثلت بـ) ستة أشهر من مرض تفشى (في جسمه)، لا أحد يعرف ما هو (سبب) ألمه". ومضمون هذا الشاهد ينبئ أن ذلك المرض الذي استعصى عليهم تشخيصه ومعرفة أسبابه، كان من تدبير المعبود على عابده ومعاقبة له جراء ما اقترفه في حق معبدّه.

أما الشفاء من المرض فهو أيضاً - حسب رواية النقوش - من المعبود، فهو المُعافي من الشكوى والطبيب المداوي من الداء. والنقوش موضوع الدراسة تشهد بذلك، فمن خلالها وثّق أشخاصٌ أصيبوا بالمرض إقدامهم على تقديم قرابين لكبير معبودات مملكة سبأ (إل مقه)، وذلك شكراً وعرفاناً منهم على ما منّ به عليهم من نعمة الشفاء من المرض الذي ألمّ بهم. ومن المرجح أن المسوّغ لقيامهم بهذه الأفعال يرجع إلى حرصهم على الوفاء بنذور قطعوها على أنفسهم، إن هم تعافوا مما حلّ بهم، فسيقومون بالوفاء بنذورهم تجاه معبودهم، وحينما تحقق لهم ذلك دفعوا ما وجب عليهم من نذور مقابل عونه لهم بالخلاص من المرض وشفائه لهم منه.

Ja 720/11-14, s. Jamme, Sabaean (٣) Inscriptions, p. 203.

Ja 702/10-13, s. Jamme, Sabaean (٢) Inscriptions, p. 192.



نقش رقم (١)

النقش رقم ١ :

الإيضاح:

المكان: معبد أوام - مارب، مكان الحفظ:
جامعة الملك سعود - قسم الآثار والمتاحف.

الزمان: العصر السبئي الوسيط.

النقش بحروف اللغة العربية الفصحى:

- ١- ع م ر م ا و ب ن ت
- ٢- هـ و ا ل ت ا خ ن
- ٣- ع م ا هـ ق ن ي و ا ل م ق هـ
- ٤- و ا ب ع ل ا أ و م ا ص ل م ت
- ٥- ن ا ذ ت ا ذ هـ ب ن ا ل و
- ٦- ف ي ا ج ر ي ب ت هـ ن

نقل المعنى إلى اللغة العربية الفصحى:

- ١- عَمَّ رَامَ وابنتها
- ٢- (اللّتان ينتميان) إلى عائلة خَنْعُم
- ٣- قَدَمَتَا لِلإله إل مقه
- ٤- بعل (صاحب معبد) أوام الصنمين (صنمين مؤنثين)
- ٥- البرونزيين (وذلك) لسلامة
- ٦- أجسادهن

ع م ر م: هي صاحبة النقش، واسمها مركب على صيغ الجملة الفعلية من (ع م) "عَمَّ"، وهو لفظ القرابة وصفة الإله، ثم (رم)، صيغة الماضي من الفعل ر و م / ر ي م، أي "علا، وسما"، وعليه فالاسم يفيد معنى عَمَّ علا وسما، وهذا الاسم تكرر في النقوش السبئية^(٤) والمعينية^(٥) على صيغة الجملة الاسمية بهيئة ع م ر ي م (عَمَّ رِيَام)، أي "عَمَّ عالٍ وسام"، أما (ع م ر م) الذي تكرر اسم علم لرجل في النقوش السبئية والقتبانة والحضرية^(٦) فمن الجائز أن تكون دلالاته مشابهة لاسم صاحبة النقش هذا، وليس من المستبعد أن حرف الميم في آخره عوضاً عن التتوين في العربية الفصحى، وبذلك يُقرأ الاسم عَمْرُم، أو عامرُم قياساً على عمر وعامر في وقتنا المعاصر.

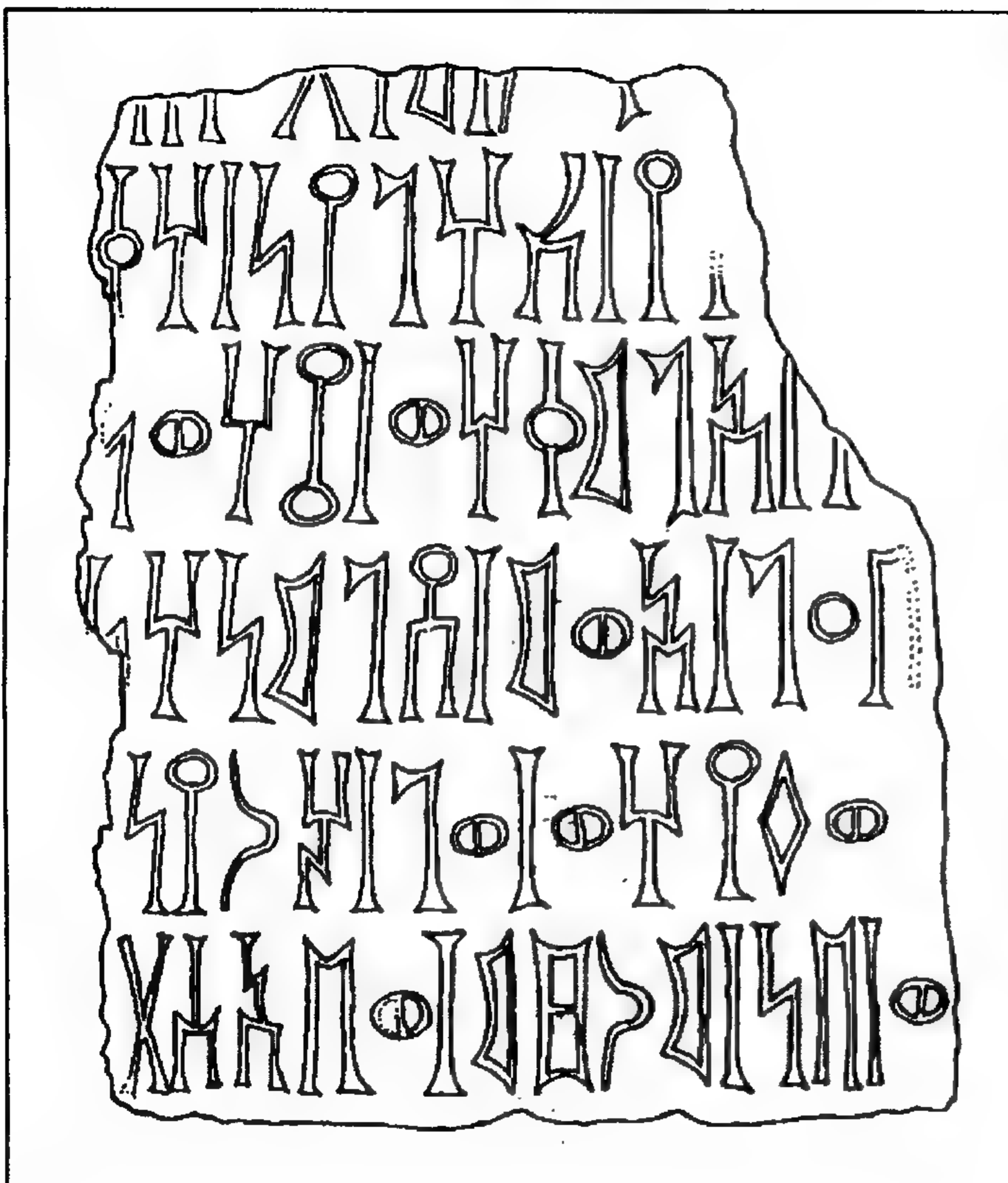
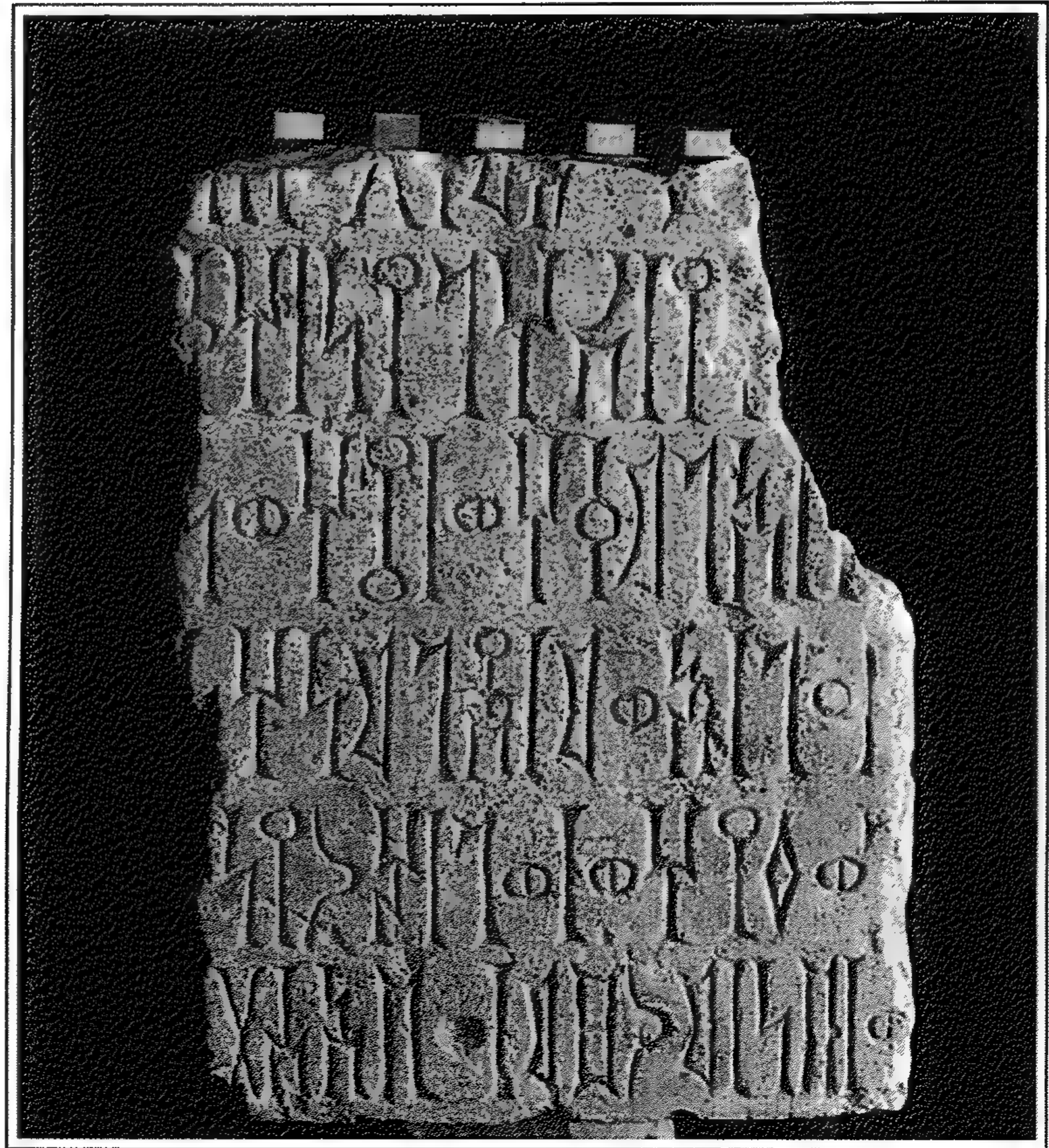
و ب ن ت هـ و: الواو في أوله حرف عطف - ب ن ت: اسم مفرد مؤنث حذفت منه همزة الوصل كما هو الحال في عربية

= Wissenschaften und der Literatur-Mainz, Veröffentlichungen der Orientalischen Kommission, Band 41, Wiesbaden, 1995, p. 141.

(٦) Hayajneh, H., Die Personennamen in den qatabanischen Inschriften, Lexikalische und grammatische Analyse im Kontext der semitischen Anthroponomastik, (Texte und Studien zur Orientalistik 10), Hildesheim 1998, p 199.

(٤) Tairan, S.A., Die Personennamen in den altsabäischen Inschriften, Ein Beitrag zur altsüdarabischen Namengebung (Texte und Studien zur Orientalistik, Band 8), Hildesheim 1992, p. 164.

(٥) Al-Said, S., Die Personennamen in den minäischen Inschriften, Eine etymologische und lexikalische Studie im Breich der semitischen Sprachen, Akademie der =



نقش رقم (٢)

الفصحى حين يقع بين علمين، ويفيد معنى "بِئْت، مؤنث ابن"، وحرفا الهاء والواو في آخره ضمير الغائب المؤنث المفرد في لهجة نقوش العصر السبئي الوسيط^(٧).

أ ل ت: جمع ذت "ذات"، وهو اسم موصول مؤنث بصيغة الجمع، ويستخدم كأداة نسب للعائلة والعشيرة والقبيلة في لهجات نقوش خط المسند.

خ ن ع م: عائلة صاحبة النقش وابنتها من الجائز قراءتها خُناعُم، وذلك قياساً على الأسماء العربية خُناعَة^(٨)، وخُنَيْعَة^(٩).

ج ر ي ب ت ه ن: جمع تكسير مفردة: ج ر ب، أي "جسم، وبدن"^(١٠)، والهاء والنون في آخره ضمير الغائب المتصل لجمع الإناث.

النقش رقم ٢:

المكان: معبد أوام - مارب، مكان الحفظ: جامعة الملك سعود - قسم الآثار والمتاحف.

الزمان: العصر السبئي الوسيط.

النقش بحروف اللغة العربية الفصحى:

١- ... م ا ت . ب

٢- ... ب ا ن ي ا ك ه ل ي ن ا ه ق ا ن

٣- ي ا ا ل م ق ه ا ت ه و ن ا

٤- ب ع ل ا أ و م ا ص ل م ن ه ن ا

٥- ل و ف ي ه و ا و ل ا خ ر ي ن [هـ]

٦- و ا ب ن ا م ر ض م ا و ب ا س ت

نقل المعنى:

١- فلان بن فلان

٢- من قبيلة كُهاليان (الكُهالي) قَدَم

٣- (للمعبود) إل مقه ثهوان

٤- بعل (صاحب معبد) أوام (هذين) الصنمين

٥- (ونلك) لسلامته ولنجاته

٦- من (كل) مرض وبأساء

الإيضاح:

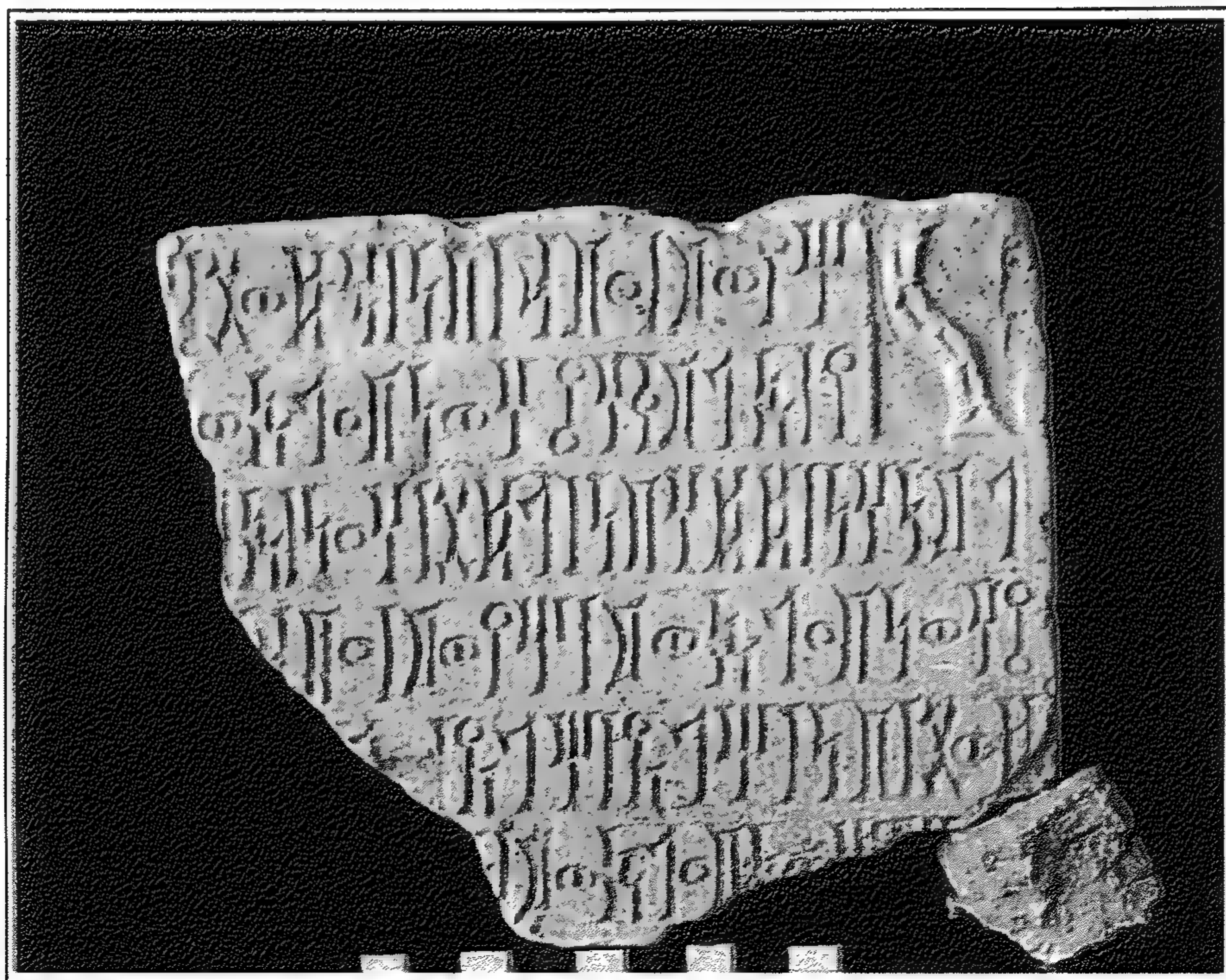
لم يكن بالمستطاع التعرف على صاحب النقش، نظراً لتحطم الجزء العلوي منه، ولكنه - على أي حال - ينتمي إلى قبيلة كُهاليان، وهي قبيلة الكُهالي التي تستوطن - في عصرنا الحاضر - سفح جبل كُهال

(٩) الهمداني، أبو محمد الحسن، الإكليل، ج ٢، تحقيق: محمد الأكوع الحوالي، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ١٤٣.

(١٠) Sabaic Dictionary = Beeston, A.F.L.; Ghul, M.A. - Müller, W.W. - Ryckmans, J., Sabaic Dictionary (English-French-Arabic), Louvain-la-Neuve, Beyrouth 1982, p. 50.

(٧) Beeston, A. F.L., Sabaic Grammer, Journal of Semitic Studies Monograph No. 6, Manchester 1984, p. 39.

(٨) الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٢٠، الكويت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ٥٣٢.



نقش رقم (٣)

- ٣- ل م ن هـ ن ا ذ هـ ب ن ا ل ذ ت ا
هـ ع ن ا ل [م ق هـ]
٤- ث هـ و ن ب ع ل أ و م ا ح ي و م ا
ع ب د ا [ب ن ا ح]
٥- ذ و ت ا ب ن ا ح ل ظ ا ح ل ظ ا ...
٦- ... | [أ ل م ق هـ ث] هـ و ن ب
ع ل أ و م ا ...

نقل المعنى إلى اللغة العربية الفصحى:

- ١- حَيَّوم عَبْد (خادم) قَبِيلَة حَذْوَة قَدَّم
٢- (للمعبود) إل مقه ثهوان بعل (صاحب
معبد) أوام
٣- الصنمين البرونزيين، لأن إل مقه
٤- ثهوان بعل (معبد) أوام نَجَّى حَيَّوم عَبْد
قَبِيلَة
٥- حَذْوَة من ألم أصابه ...
٦- ... إل مقه ثهوان بعل (معبد) أوام ...

الإيضاح:

ح ي و م: اسم صاحب النقش معناه يفيد
"حَي، ضد ميت"، والميم في آخره عوضاً
عن التثوين في عربية الفصحى، وقد تكرر

بالقرب من قضاء النادرة في لواء إب^(١١)،
واسم هذه القبيلة في أصله منسوب إلى
مصنعة كُهال التي يقول صاحب معجم
البلدان^(١٢) إنها اتخذت اسمها من كُهال بن
عدي. على أي حال الاسم كُهال، هكذا على
وزن فُعَال يفيد معنى "القوي، والشديد"، وذلك
من قولهم في العربية الفصحى: إنه لشديد
الكاهل، أي منيع الجانب؛ ومنه قولهم: فلان
كاهل بني فلان، أي مُعتمد في الملهمات
وسندهم في المهمات^(١٣).

م ر ض: انظر شرح دلالة الاسم في
المبحث أدناه.

النقش رقم ٣ :

المكان: معبد أوام - مارب، مكان الحفظ:
جامعة الملك سعود - قسم الآثار والمتاحف.
الزمان: العصر السبئي الوسيط.

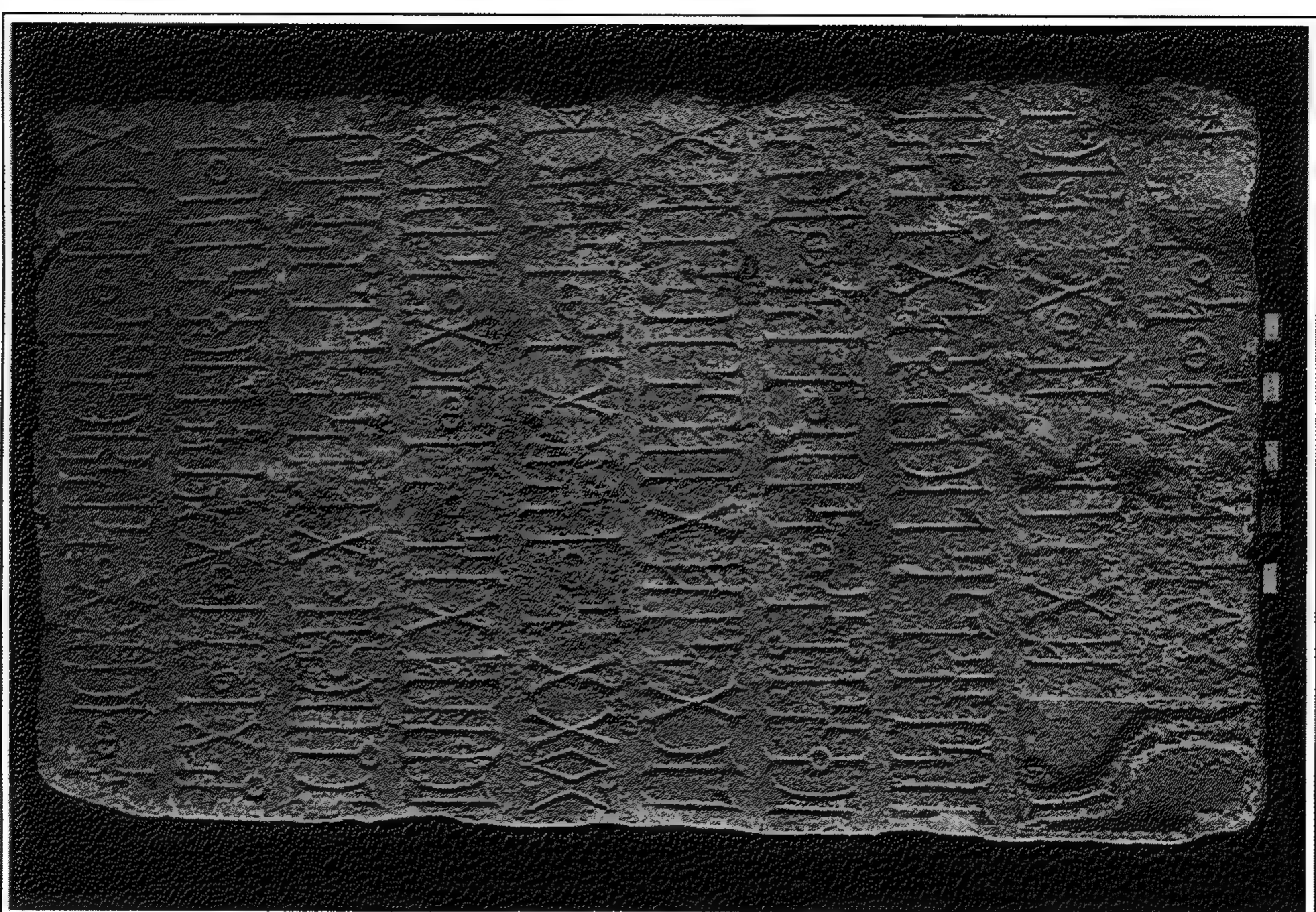
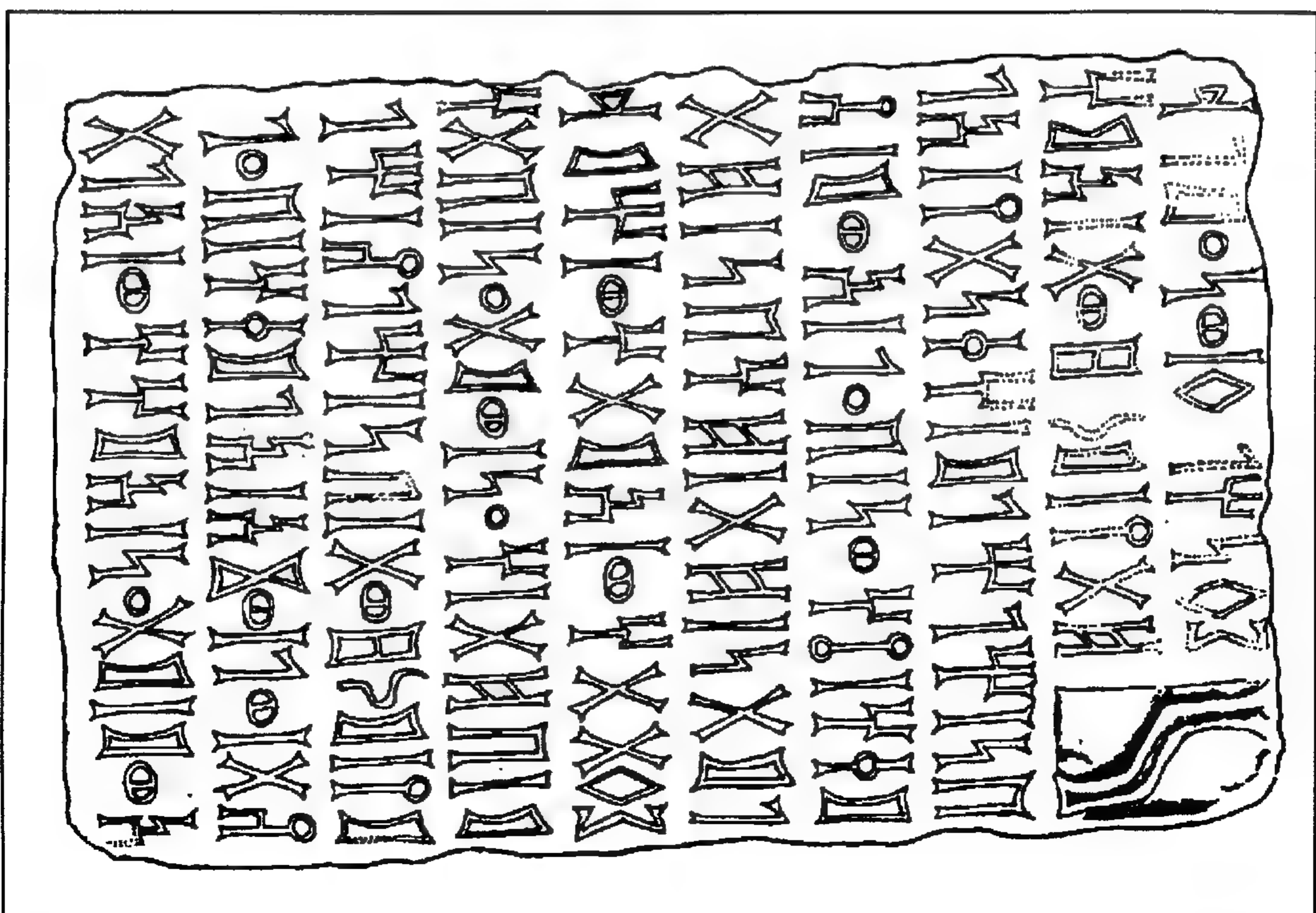
النقش بحروف اللغة العربية الفصحى:

- ١- ح ي و م ا ع ب د ا ب ن ا خ ذ و ت ا
هـ [ق ن]
٢- ي | أ ل م ق هـ ث هـ و ن ب ع ل
أ و م ا [ص]

(١٢) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، تحقيق: فريد
عبد العزيز الجندي، ج ٤، بيروت، ص ٥٦٤؛
الحجري، محمد بن أحمد، مجموع بلدان اليمن
وقبائلها، تحقيق: إسماعيل الأكوخ، صنعاء
١٩٩٦، ص ٦٧٣.

(١٣) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان
العرب، بيروت ١٩٩٢م، ج ١١، ص ٦٠٢.

(١١) الإرياني، مطهر، في تاريخ اليمن، نقوش مسندية
وتعليقات، مركز الدراسات اليمني، صنعاء ١٩٩٠م،
ص ٣١، حاشية ١؛ Abdallah, Y.M., Die
Personennamen in al-Hamdānī al-Iklīl und
ihre Parallelen in den altsüdarabischen
Inschriften, Ein Beitrag zur jemenitischen
Namengebung, Tübingen, 1975, p. 85.



نقش رقم (٤)

ذكره اسم علم لشخص في النقوش العربية الجنوبية ما عدا الحضرمية^(١٤).

ح ذ و ت: من المرجح ضبط الاسم على صيغة فعّله، أي حذوة، وهي قبيلة عربية جنوبية تكرر ذكرها في عدد من النقوش السبئية، وإليها ينتسب وهب أوام يؤذف الذي تبوأ منزلة مقتوي عند الملك السبئي إل شرح يحضب^(١٥).

ح ل ظ: انظر شرح دلالة الاسم في المبحث أدناه.

النقش رقم ٤:

المكان: معبد أوام - مارب، مكان الحفظ: جامعة الملك سعود - قسم الآثار والمتاحف.

الزمان: العصر السبئي الوسيط.

النقش بحروف اللغة العربية الفصحى:

- ١- ش ف ن ح ل ف ا و ن ع م ج د
- ٢- ذ ت ي ا م ر ض و ت ا م هـ
- ٣- ب ن ا ح ل ح ل م ا هـ ق ن ت ي ا ل
- ٤- م ق هـ ا ث هـ و ن ا ب ع ل ا و م ا ص
- ٥- ل م ت ن ا ذ ت ا ذ هـ ب ن ا ذ ت ا
- ٦- ش ف ت ت هـ و ا م ت هـ و ا ح م د
- ٧- م ا ب ذ ت ا هـ ع ن ا و م ت ع ن ا ب ت هـ
- ٨- م ي ا م ر ض و ت ا ب ن ا ح ل ظ ا ح ل

٩- ظ ت ا و ل ا و ز ا ل م ق هـ ا ب ع ل

١٠- ا و م ا م ت ع ن ا م هـ هـ و ا ل ت

نقل المعنى إلى اللغة العربية الفصحى:

- ١- شَفَانِي حَلَفَ وَنَعِيمَ جَدَّ
- ٢- من عائلة مَرْضَوْتِ إِمَاءِ (خادمات)
- ٣- قَبِيلَةَ حَلَحْلَمَ قَدَمَتَا (للمعبود)
- ٤- إل مقه ثهوان بعل (صاحب معبد) أوام
- ٥- الصنمين (صنمين مؤنثين) البرونزيين اللذين
- ٦- نذرتهمَا لَهُ أَمَتَاهُ (أي: شَفَانِي حلف، ونعيم جد)، وذلك حمداً
- ٧- لأنه نَجَّى وَخَلَّصَ ابْنَتَهُمَا
- ٨- مَرْضَوْتِ مِنْ أَلَمٍ أَصَابَهَا
- ٩- وَلِيُدِيمَ إل مقه بعل (صاحب معبد)
- ١٠- أوام نَجاة إِمَائِهِ أُولَئِكَ

الإيضاح:

ش ف ن ح ل ف: اسم علم لامرأة، يرد لأول مرة في النقوش العربية القديمة، وهو مركب على صيغة الجملة الفعلية من ثلاثة أجزاء: الأول الفعل الماضي (ش ف)، من الفعل ش و ف، أي "حمى، ورعى، ووقى" المثبت في لغة النقوش السبئية^(١٦)، والثاني ضمير المتكلم المتصل (ني، نا)^(١٧)، والثالث اسم معبود عربي جنوبي يرد بهذه الصيغة

(١٧) بسبب إهمال كتابة الحروف اللينة في قلم المسند يظل تحديد حال الضمير هل هو للمفرد أو للجمع غير ممكن.

(١٤) Al- Said, p. 97.

(١٥) الإرياني، في تاريخ اليمن، رقم: ١/٦٩.

(١٦) Sabaic Dictionary, p. 136

"جَدَّ"، والجَد هو "الحظ، ونقيض النحس"، وعليه فمن الجائز قراءة الاسم نَعِيم جَدَّ، وتفسيره بمعنى (الإله) جَدَّ (هو) نعيم وسرور".

ذ ت ي: اسم موصول للمؤنث المثني، يستخدم في لغة النقوش للنسب إلى العائلة أو القبيلة.

م ر ض و ت: اسم عائلة صاحبتى النقش، يرد هنا لأول مرة في النقوش العربية القديمة، ومن المرجح قراءته مَرَضَوْت، واشتقاقه من الفعل (ر ض و / ر ض ي) الذي يفيد معنى "رَضِي، خلاف سَخِط" (٢٢).

أ م هـ: أي "إماء"، وهي صيغة الجمع من أمة "نقيض حرّة" (٢٣).

ح ل ح ل م: حَلْحَم، قبيلة عربية جنوبية قديمة، تركز استيطانها في مدينة نشق (حالياً البيضاء في جوف اليمن)، وتتبع النقوش

للمرة الأولى، ومن المرجح أنه هو المعبود الوثني ح ل ف ن (هكذا بإثبات حرف النون في آخره) الذي تكرر في عدد من نقوش مدينة هرم^(١٨)، وطرحت من آخره النون للاختصار وتخفيف النطق^(١٩). وعلى هدي ذلك فقراءة الاسم وتفسيره يتوقفان على حال الضمير، فإن كان الضمير للجمع فالاسم يجب أن يُقرأ: (شَفَانَا حَلْف)، أي "حمانا حَلْف"، وإن كان الضمير للمفرد فقراءة الاسم على هيئة (شَفَانِي حَلْف) "حمانِي حَلْف" جائزة.

ن ع م ج د: اسم علم لامرأة تكرر بالصيغة نفسها في النقوش السبئية^(٢٠) والقتبانية^(٢١)، وهو مركب على صيغة الجملة الاسمية من (ن ع م)، صيغة اسم الفاعل، بمعنى اسم المفعول على وزن فَعِيل، أي "نعيم، وسرور"، ثم اسم المعبود ج د

(٢٠) Sholan, A. Frauennamen in den altsüdarabischen Inschriften, (Texte und Studien zur Orientalistik, Band 11), Hildesheim 1999, p. 38.

(٢١) Hayajneh, H., Die Personennamen in den qatabanischen Inschriften, Lexikalische und grammatische Analyse im Kontext der semitischen Anthroponomastik, (Texte und Studien zur Orientalistik 10), Hildesheim 1998, p. 344.

(٢٢) Sabaic Dictionary, p. 115.

(٢٣) Beeston, A. F.L., Sabaic Grammer, Journal of Semitic Studies Monograph No. 6, Manchester 1984, p. 27.

(١٨) Robin, Chr. Inventaire des inscriptions sudarabiques. Tome 1. Inabba', Haram, al—Kāfir, Kamna et al-Harāshif. Fasc. A: Les documents. Fasc. B: Les planches, Académie des Inscriptions et Belles-Lettres (Paris), Istituto Italiano per il Medio ed. Estremo Oriente (Rome), Paris – Rome 1992, p. 46.

(١٩) ظاهرة حذف الحروف الأخيرة من أسماء المعبودات في أسماء الأشخاص المركبة تتكرر في عدد من أسماء أعلام النقوش العربية القديمة، انظر على سبيل المثال: د ه ل ن ع ث ت "دهلنا/ دهلني عثتر"، وكذلك ر ف أ ن ث ه و "رفأنا/ رفأني ثهوان" (الصلوي، ابراهيم، أعلام يمنية قديمة مركبة، ريدان ٦، ١٩٩٤م، ص ١٢٢).

الصحة إلى الفتور ونقص القوة الجسمانية، وهو إذاً مصطلح لا يعني مرضاً بعينه - كما هو أيضاً حال معنى الاسم في اللغات السامية الأخرى - وإذا ما أريد تخصيصه فيشار إلى موضع المرض، كما تؤكد على ذلك أمثلة من النقوش المختارة التالية:

ب ن ا م ر ض ا م ر ض ت ا ع ي ن ه — و^(٢٦)،
أي: "مِنْ مَرَضٍ أَصَابَ عَيْنَهُ"^(٢٧).

ب م ر ض ا م ر ض ر س ه — و^(٢٨)، أي: "في مرض أضراسه".

ففي كلا المثالين المرض مصطلح للجنس، موضِعُهُ في الأول العين، وفي الثاني الضرس.

كذلك الأمر في مصطلح (ح ل ظ)^(٢٩) فهو اسم جنس يدل على معنى معيّن هو

السبئية التي تعود إلى العصر السبئي الوسيط أن هذه القبيلة تمتعت بمكانة مميزة في مناطقها، وبشأن وحظوة لدى حكام سبأ^(٢٤).

دلالة مصطلحي (مرض وحلظ) في النقوش السبئية:

تكرر في عدد من النقوش السبئية ذكر مصطلحي (مرض وحلظ)، وبينما اشتركت لغة النقوش السبئية مع أغلب اللغات السامية في استخدامها لمصطلح (مرض) معنى ومبنى، فإنها انفردت دون سواها بذكر مصطلح (حلظ) في متون نقوشها. وكلا المصطلحين فُسِّرا من قبل أصحاب المعجم السبئي بمعنى "المرض، والعياء"^(٢٥).

ومما يتضح من خلال رواية النقوش السبئية أن المرض هو اسم جنس يدل على اضطراب الجسم بعد صفائه وخروجه من

(٢٧) انظر السياق نفسه في أحد نقوش خط (الزبور)، حيث تتحدث من خلاله امرأة تدعى (حموة) عن شفائها من مرض أصاب عيناها، قائلة: وهأ | رسعت | مرضتم | بن | عينه، أي "هي شفيت من مرض في عينها" انظر: عبدالله، يوسف محمد، رسالة من امرأة، نقش بخط الزبور اليماني، المسند، المجلد الأول، العدد الأول، ٢٠٠١، ص ٦، سطر ٤.

(٢٨) Ja 702/12, s. Jamme, Sabaean Inscriptions, p. 192.

(٢٩) يرجّح أصحاب المعجم السبئي (Sabaic Dictionary, p. 68) أن الفعل (ح ل ظ) (هكذا بحرف الصاد في آخره) الذي يرد في نقش يعود لعهد الملك السبئي شمر يهرعش (Ja 650/32) له علاقة بالفعل (ح ل ظ)، وعلى الرغم من أن ثمة براهين من النقوش السبئية نفسها تشهد على التبديل بين حرفي (الطاء والصاد) في بعض المفردات، إلا أن شاهد الفعل (ح ل ص) - آنف الذكر - وحيد وأبتر ولا يكفي لتأكيد علاقة الفعلين ببعضهما البعض.

(٢٤) الإرياني، في تاريخ اليمن، ص ٥٤؛ وانظر أيضاً النقش (Ja 619/1-3) الذي يعود إلى فترة حكم الملك السبئي (نشاكرب يها من يهرحب) ويذكر أن: رب ب أ ل | أش و ع | ا و ب ن ي ه — و ا د د أ ل | ا ب ن و ا ح ل ح ل م ا ع ق ب ت ا م ل ك ن ا ب ه — ج ر ن ا ن ش ق م "رَبِّيبِ إِبْنِ وَابْنِهِ وَدِدَالٍ مِنْ قَبِيلَةِ حَلْظَمْ عَمَالٍ (أي: ولاة الملك السبئي نشاكرب يها من يهرحب) في مدينة نشق (البيضاء حالياً)، إضافة إلى ذلك يشير النقش السبئي (Ja 673) إلى مشاركة أفراد من هذه القبيلة مع الملك السبئي شاعرِم أوتر أثناء غارته الحربية على شبوة حاضرة مملكة حضرموت.

(٢٥) Sabaic Dictionary, p. 68, 87.

(٢٦) Ja 706/6-7, s. Jamme, Sabaean Inscriptions, p. 195.

وأَتَعِبَهُ هُوَ وَمُقْتَوِيهِ (أَعْوَانُهُ، وَخَدْمُهُ) فِي مَدِينَةِ نَشَقِمَ.

أَوْ أَنْ يَقُولَ: ح م د م ب ذ ت ا ه ع ن ا و م ت ع ن ا ج ر ب ا ع ب د ه و ا ع و ف م ا ي غ ن م ا ب ن ا م ذ ك ر م ا و ر ش د م ا ب ن ا ح ل ظ ا ح ل ظ ا ب ه ج ر ن ا م ر ب ا ب و ر خ ا ذ م ل ي ت (٣٣).

المعنى: "شكراً لأنه (إل مقه) حمى ونجى جسم عبده عوفم يغنم من قبيلة مذكرم وراشدُم من أَلَمِ أَلَمَ به في مدينة مارب (وذلك) في شهر ذي مليت"

ففي المثال الأول الإشارة إلى أن صاحبه أصيب بالحلظ أثناء إقامته في مدينة نشق (البيضاء حالياً، في جوف اليمن)، أما الشاهد الثاني فينبئ أن عوفاً أصيب بالحلظ وهو في مدينة مارب، وتحديدًا خلال شهر (ذي مليت). مما يعني أن (الحلظ) وجع عارض وغير مزمن^(٣٤)، يصيب صاحبه لفترة زمنية محددة، ويتمثل بعدها للشفاء من وعكته.

ويتضح من خلال هذه الأمثلة المختارة أن مصطلحي (مرض وحلظ) في لغة النقوش

"الألم والوجع"، وإن أُريدَ تخصيصه تبعه موضع الوجع من الجسم، كأن يقول:

ل ه — ع ن ه — و ا ب ن ا ح ل ظ ا ح ق و ن ه — ن ا و ا ح ل ظ ا ي م ر ن ه — و ا د ر م ا ب خ ر ف م (٣٠).

المعنى: "كي يُخلصه (أي الإله إل مقه) من ألم خاصرته ومن وجع يعود مرةً في العام".
أَوْ أَنْ يَقُولَ: ح ل ظ / ر ج ل ي ه و (٣١)،
أي: "وجع رجله".

وفي نقوش سبئية أخرى يكون تخصيص (الحلظ) عن طريق ذكر زمانه ومكانه، كأن يقول:

و ح م د م ا ب ذ ت ا ه ع ن ا و م ت ع ن ا ج ر ب ا ع ب د ه — و ا ح ي و م ا ب ن ا ح ل ظ ا و س د م ا ح ل ظ ا و س د م ا ه ا و م ق ت ت ه و ا ب ه ج ر ن ا ن ش ق م (٣٢).

المعنى: "وشكراً لأنه (أي إل مقه) حمى ونجى جسم عبده حيوم من أَلَمِ وسقم أَلَمَ به

(٣٣) Ja 613/6-10, s. Jamme, Sabaean Inscriptions, p. 110.

(٣٤) انظر ماريافنر Höfner, M., Eine altsüdarabische Sühne-Inschrift, In: Hebräische Wortforschung, FS.W. Baumgartner, Leiden (1969), p. 110 تقترح تفسير مصطلح (ح ل ظ) بمعنى "مُعَانَاة"، وترغم أنه مرض محدد أو نوع من أنواع المرض، ويستمر لفترة طويلة.

(٣٠) Ja 711/4-6, s. Jamme, Sabaean Inscriptions, p. 197.

(٣١) Ja 583/7, s. Jamme, Sabaean Inscriptions, p.89.

(٣٢) MAFRAY – al -Baydā' 100/ 11-14, s. Robin, À propos, d'une nouvelle inscription du règne de Sha'rum Awtar, un réexamen de l'éponymat sabéen à l'époque des rois Saba' et de dhū-Raydān, In: Arabia Felix, FS. Walter W. Müller, Wiesbaden 1994, p. 231.

السبئية يدلان على اسم جنس لا يختص بمرض دون سواه، وإنما يحتاج تخصيص معناه إلى تشخيص موضع العلة في الجسم، والسؤال هنا ما الفرق بينهما في المعنى؟ فعلى الرغم من اشتراكهما في وصف معاناة الإنسان ويدلان على عدم صفاء جسمه، إلا أن رواية النقوش تنبئ أن ثمة فرقاً دقيقاً بينهما، وهذا ما يؤكد أنه نقوش العصر السبئي الوسيط^(٣٥) الذي يرد في منته:

م ت ع ن ا ج ر ب ا ع ب د ه و ا ع و
ف م ا ي غ ن م ا ب ن ا م ذ ك ر م ا و ر
ش د م ا ب ن ا ح ل ظ م ا و م ر ض م .

المعنى: "نَجَّى جسم عبده عَوْقُم يَغْنُم من قبيلة مذكرم وراشدم من أَلَمٍ ومرضٍ (أَلَمٌ به)".

فذكر مصطلحي (مرض وحلظ) هنا تلو بعضهما البعض يدل من جانب أنهما ليسا من وضع قبيلتين، أو لهجتين مختلفتين عن بعضهما البعض، ومن جانب آخر في ذلك إشارة إلى أن ثمة فرقاً دقيقاً في المعنى بينهما^(٣٦). ومما يبدو أن (المرض) حسب تعبير لغة النقوش هو اسم عام لما يصيب

الجسم أو عضو منه من اضطراب وعلّة. أما (الحلظ) فهو أَلَمٌ يعتري الجسم أو أحد أعضائه، ويضطّر صاحبه إلى التضرور والتملل لفترة محددة من الزمن، وبعبارة أخرى (المرض) هو "اضطراب في الجسم وعلّة تلازم المريض مع ما يخامره من وهن وفتور ومعاناة". أما (الحلظ) فهو "عارض غير مُزمن يشعر من خلاله الإنسان بالألم ويتضرور من وجعه".

من جانب آخر يُستدلُّ مما سبق أن مصطلح "مرض" بقي على حاله منذ وضعه الأول ولم يطرأ عليه تغير لفظي أو تطور دلالي عبر عصور اللغة المتعاقبة، على العكس من ذلك فمن المرجح أن الاسم المفرد (ح ل ظ) في النقوش السبئية اعتراه تطور من جانبين، الأول: من حيث اللفظ، إذ تبدل حرف الظاء في آخره إلى طاء، فجاء في اللهجة اليمنية المعاصرة بصيغة (حلط)^(٣٧)، أما التطور الآخر الذي دخل على الكلمة فهو من جانب المعنى، حيث أصبح مصطلح حلظ (أو حلط في لهجة اليمن الحديثة) يفيد معنى "الضيق، والشدة". ولا ريب أن توارث اللغة من جيل إلى آخر هو المسوّغ - على ما يبدو - في تطور دلالة (حلظ) من مدلوله المادي في لغة النقوش السبئية إلى مدلوله

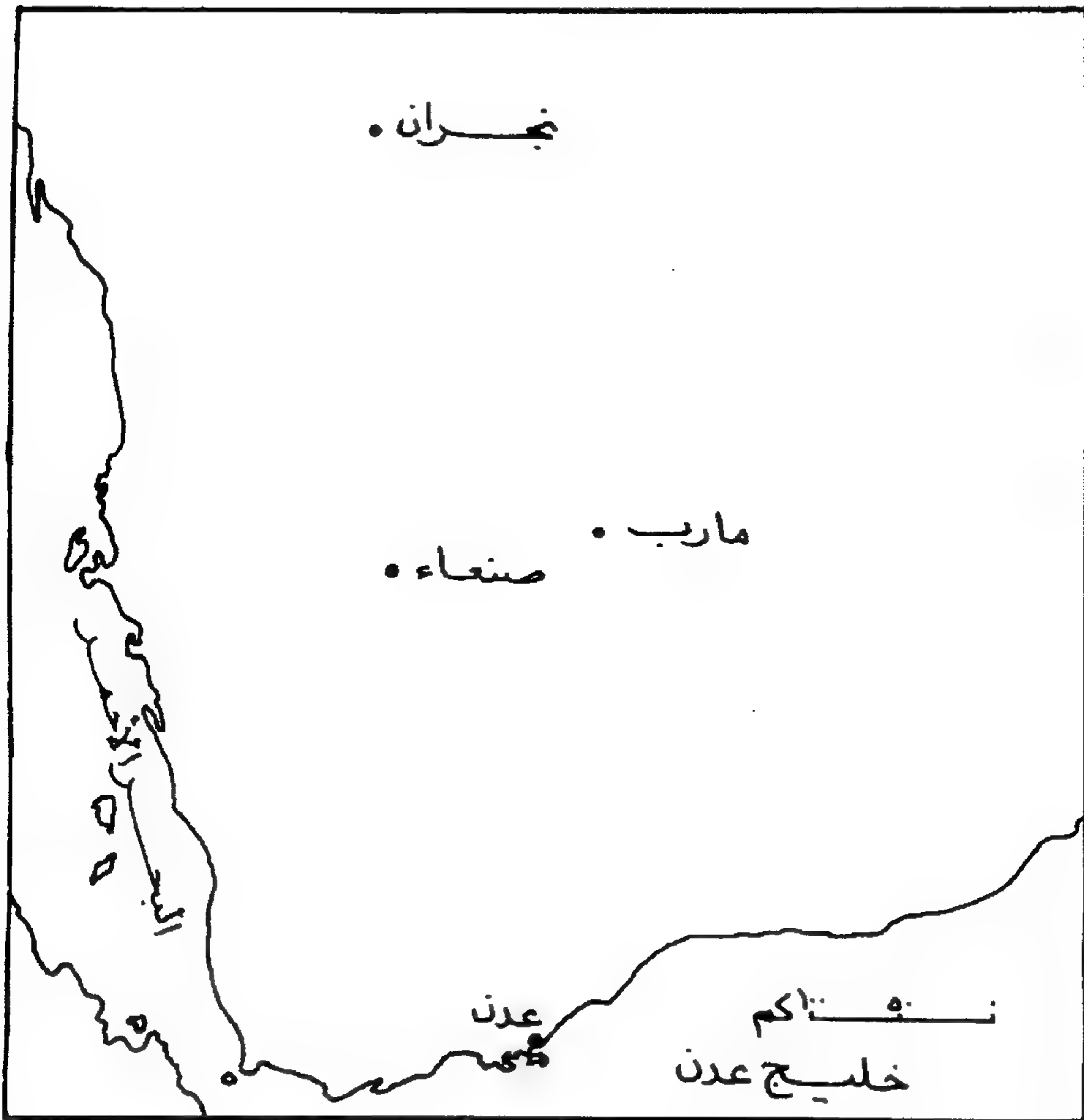
= من مثل: مرض، و عيي، ووَصِب، ونبف، ووجع . . . إلخ، فهذه الألفاظ وإن اشتركت في معناها العام، فلا ريب في أن ثمة فرقاً دقيقاً في خصوصية معانيها.

(٣٧) الإرياني، المعجم اليمني في اللغة والتراث، حول مفردات خاصة من اللهجة اليمنية، دمشق ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، ص ١٩٥.

(٣٥) Ja 613/12-15, s. Jamme, Sabaeen Inscriptions, p. 110.

(٣٦) حال لهجة النقوش السبئية في استخدامهما لمصطلحي (مرض وحلظ) مثل حال العربية الفصحى فهي تحتوي على مسميات عدة تعبر عن شكوى الإنسان أو الحيوان واعتلال صحته =

المعنوي في اللهجة اليمنية الحديثة، وعلى هدي ذلك يبدو أن (الحظ) بمعنى "الألم، والوجع" قديم، أما (الحظ/الحلط) بمعنى "الضيق، والشدة" جديد، وبعبارة أخرى فدلالة الألم والوجع للاسم تبدو أقرب إلى الدلالة الوضعية الأولى، ودلالة الضيق والشدة، هي تطور دلالي للفظ (حظ) عبر عصور اللغة المتعاقبة.



الاهتمامات العلمية للخلفاء العباسيين في الفترة (٥٧٥ - ٦٥٦ هـ / ١١٧٩ - ١٢٥٨م)

د. محمد عبد الله القدمات

ملخص البحث :

شهدت هذه الفترة محاولات جادة من الخلفاء لإحياء سلطة الخلافة العباسية وإعادة نفوذها إلى ما كانت عليه في عصرها الأول. ولما كان الخلفاء يرون أنفسهم الورثة الشرعيين للإرث النبوي، والأحق بالخلافة، كان الاشتغال بالعلم والاهتمام به وبرجاله جزءاً من مقومات السياسة التي اتبعوها لإحياء الخلافة، فعلى الرغم من الدافع الذاتي والرغبة في تحصيل العلوم، إلا أنهم شعروا بأهمية هذا الجانب في إضفاء الشرعية الدينية على حكمهم، فتصدوا للتأليف والرواية والإجازة.

إن إنشاء المؤسسات الثقافية كالمدارس والمكتبات، لم يعد مقصوراً في هذه الفترة على أهل البر والخير من أبناء المجتمع، بل نجد أن الخلفاء أنفسهم أخذوا بإنشاء مثل هذه المؤسسات. ومن أجل استمرارها في تادية رسالتها، وقد حرص خلفاء هذه الفترة على دعمها مادياً من خلال الأوقاف التي أوقفوها عليها.

جهود الخلفاء للنهوض بالخلافة العباسية :

تولى منصب الخلافة في الفترة (٥٧٥ - ٦٥٦ هـ / ١١٧٩ - ١٢٥٨م) أربع من خلفاء بني العباس. كان أولهم أبو العباس أحمد بن الحسن^(١) الملقب بالناصر لدين الله^(٢). بويح

بالخلافة صباح يوم الأحد غرة ذي القعدة من عام (٥٧٥ هـ / ١١٧٩م)^(٣). وبعد أن استقر له الأمر ببغداد، بعث إلى ملوك الأطراف مبشراً بخلافته، طالباً منهم البيعة، كصاحب همذان^(٤)، وصاحب الموصل^(٥). وكان أول

= العميان، وقف على طبعة أحمد زكي، مصر، المطبعة الجمالية، ١٩١١م، ص ٩٣.

(٣) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٩٨.

(٤) أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٢٨م)، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، صححه محمد الكوثري، بيروت، دار الجيل (د.ت)، ج ٢ ص ١٥؛ ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٥٧م، ج ٢، ص ٩٠.

(١) ابن الكازروني، ظهير الدين علي بن محمد البغدادي، (ت ٦٩٧/١٢٩٧م) مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس، تحقيق مصطفى جواد، بغداد، مطبعة الحكومة، ١٩٧٠م، ص ٢٤٢.

(٢) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢م) الكامل في التاريخ، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت)، ج ١٠، ص ٩٨؛ ابن حنية، أبو الخطاب عمر ابن أبي علي، (ت ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥م) النبراس في تاريخ بني العباس، تحقيق عباس العزاوي، بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٤٦م، ص ١٦٥؛ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦م)، نكت الهميان في نكت =

بالخلافة^(٩)، ولقب بالظاهر بأمر الله. حيث تمت البيعة له يوم عيد الفطر من السنة نفسها^(١٠). ولم تدم خلافته سوى تسعة أشهر ونصف، حيث توفي في منتصف رجب سنة (٦٢٣هـ / ١٢٢٦م)^(١١).

وفي نفس اليوم الذي مات فيه الخليفة الظاهر، بويع لابنه الأكبر أبي جعفر المنصور الملقب بالمستنصر بالله، الذي سار في الناس^(١٢) سيرة حسنة، فأمر: فنودي ببغداد بإفاضة العدل، (وإن من كان له حاجة أو مظلمة يطالع بها، تقضى حاجته، وتكشف مظلمته)^(١٣). وقد استمرت خلافته حتى

من استجاب لذلك السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي أمر بالخطبة له في جميع أرجاء البلاد الخاضعة له^(١٤).

استمرت فترة حكم الناصر لدين الله سبعاً وأربعين سنة. وهو بذلك أطول خلفاء بني العباس حكماً. ورغم بعض الانتقادات التي وجهها له بعض المؤرخين إلا أنه قد أجمع على قوة شخصيته ومقدرته على إدارة شؤون الدولة^(١٥).

بعد وفاة الناصر لدين الله (٦٢٢هـ / ١٢٢٥م)^(١٦)، بويع لولده أبي نصر محمد

(٩) كان للناصر ولدان : أبو نصر محمد وهو الأكبر، وأبو الحسن علي وهو الأصغر، وكان الناصر قد أخذ البيعة بولاية العهد لوالده أبي نصر محمد سنة (٥٨٥هـ / ١١٨٩م). ولكنه بعد ذلك مال إلى ولده الأصغر علي فأمر ابنه أبا نصر بالتنازل عن ولاية العهد، وعهد بولاية العهد لعلي. لكن وفاته سنة (٦١٢هـ / ١٢١٥م)، اضطرت الناصر إلى إعادة البيعة لابنه أبي نصر محمد سنة (٦١٨هـ / ١٢٢١م) حول الظروف التي أحاطت بذلك، وتطور هذه القضية انظر: ابن الأثير، أبو عبد الله محمد بن سعيد (ت ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م)، ذيل تاريخ بغداد، تحقيق بشار عواد ط ٦، بغداد، مطبعة دار السلام، ١٩٧٤ - ١٩٧٩، ج ١، ص ١٤٨، ابن الساعي، أبو طالب علي بن أنجب (ت ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م) الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، تحقيق مصطفى جواد، بغداد، المطبعة السريانية الكاثوليكية، ١٩٣٤ م، ج ٩، ص ١٤٤؛ ابن الكازروني، ص ٢٤٨؛ الذهبي، تاريخ، حوادث (٦١١ - ٦٢٠هـ)، ص ٧٧.

(١٠) ابن الكازروني، ص ٢٥٥.

(١١) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٦٤.

(١٢) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٦٥؛ ابن الكازروني، ص ٢٨٥.

(١٣) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٦٥.

(٥) سبط بن الجوزي، أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي (ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، حيدر آباد الهند، مطبعة مجلس المعارف العثمانية، ١٩٥١م، ج ٢، ق ١، ص ٦٣٥؛ الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك، وقف على طبعة مكي جاسم، بغداد، مكتبة المثنى، ١٩٦٤م، ص ٢٨٢.

(٦) السيوطي، جلال الدين بن عبد الرحمن (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)، تاريخ الخلفاء، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م، ص ٥٣١؛ ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار إحياء التراث العربي (د.ت)، ج ٥، ص ٩٨.

(٧) الذهبي، محمد أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعيان، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٩٩م، حوادث (٦٢١ - ٦٣٠هـ)، ص ٩٢؛ الكتبي، محمد بن شاکر (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م)، فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، (د.ت)، ج ١، ص ٦٧. وتظهر من خلال تلك الروايات صورتان للخليفة، صورة رجل الدولة، المتابع للأمور بنفسه، وصورة الخليفة الظالم المتسلط. وهذا ما سنوضحه فيما بعد عند الحديث عن الجهود التي بذلها لإعادة بناء كيان الخلافة.

(٨) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٥١.

العاشر من جمادى الآخر سنة (٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م).^(١٤) بغداد عام (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م).^(١٨)

وتعتبر هذه الفترة من الفترات المهمة من عمر الخلافة العباسية، حيث شهدت مبادرات واضحة من الخلفاء - وبخاصة الناصر والمستنصر - لإعادة أمجاد الخلافة إلى ما كانت عليه في عصرها الأول.

شهد الناصر لدين الله قبل توليه الخلافة حالة الانقسام والتنافس بين كبار رجال الدولة. الذي كان في حقيقته يمثل التنافس بين السنة والشيعة^(١٩). لذلك وضع لنفسه سياسة ثابتة، وخصوصاً في تعامله مع السنة والشيعة، على مبدأ أنه خليفة المسلمين جميعاً، فقرّب الجميع، ورعى الجميع، وهذه السياسة دفعت بعض المؤرخين إلى اتهامه باتّباع سياسات متناقضة^(٢٠). بل إن الذهبي^(٢١) وابن أبي

وعندما شغل منصب الخلافة بوفاء المستنصر بالله، ولم يكن قد عهد لأحد بعهد، نجد أن الحاشية عادت لتلعب نفس الدور الذي لعبته من قبل في اختيار الخليفة ولم يكن من مصلحتهم أن يتولى الخلافة رجل قوي قادر على الاستمرار بالسياسة التي رسمها من سبقوه من الخلفاء^(١٥). فاتفق إقبال الشرابي (أحد مماليك الخليفة الظاهر)^(١٦)، وقائد الجيش الدويدار مجاهد الدين أيبك الصغير على تقليد الأمير أبي أحمد عبد الله منصب الخلافة ولقب بالمستعصم بالله^(١٧). وكان المستعصم آخر خلفاء بني العباس، فكان في جملة من قتل على أيدي المغول الذين اجتاحتها

= القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٠ م، ج ٣، ص ص ٣٧٠ - ٣٧١.

(١٧) ابن الكازروني، ص ٢٦٦.

(١٨) الأربلي، ص ٢٩٠؛ الغساني، أبو العباس إسماعيل ابن العباس (ت ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م)، المسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق شاكِر عبد المنعم، ط ١، بغداد، دار البيان، ١٩٧٥ م، ص ٤٥٦.

(١٩) أشار سبط بن الجوزي إلى أثر مثل هذا التنافس في اختيار الناصر نفسه ليكون ولياً لعهد والده المستضيء. فقد كان ابن العطار وحاشيته من السنة يؤيدون أن يكون ولي العهد أبا منصور هاشم (شقيق الناصر)، أما ابن الصاحب وحاشيته من الشيعة فكانت ترغب في أن يتولى أبو العباس أحمد ولاية العهد. فقام المستضيء بتعيين ولده أبا منصور ولياً للعهد، لكن موته جعل المستضيء يعهد بولاية العهد لأبي العباس (الناصر). للمزيد انظر: سبط بن الجوزي، ج ٨، ق ١، ص ٣٥٤.

(٢٠) ابن الأثير ج ١٠، ص ٤٥٣.

(٢١) الذهبي، تاريخ حوادث (٦٢١ - ٦٣٠ هـ)، ص ٨٤.

(١٤) الذهبي، تاريخ، حوادث (٦٣١ - ٦٤٠ هـ)، ص ٤٢٧؛ (مجهول منسوب خطأ لابن الفوطي)، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في السنة السابعة، تحقيق مصطفى جواد، بغداد، مطبعة الفرات، ١٩٣٢ م، ص ١٥٥.

(١٥) كان للمستنصر بالله أخ يدعى الخفاجي، وكان قوي الشخصية، شديد البأس، وكان يقول "لئن وليت لأعبرن بالعساكر نهر جيحون، وأخذ البلاد من التتار" فخاف الدويدار والشرابي منه، فاتفقا على البيعة سراً بالخلافة للمستعصم بالله، قبل إعلان البيعة للناس. اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد (ت ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م)، ذيل مرآة الزمان، حيدر آباد الهند، مطبعة مجلس المعارف العثمانية، ١٩٦٠ م، ج ١، ص ٢٥٥.

(١٦) إقبال الشرابي: هو أحد مماليك الخليفة الظاهر بأمر الله. أصبح بيده الحل والعقد في أيام المستعصم، وفي إدارته شؤون الدولة، حتى مات سنة (٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م)، ابن أبي الحديد، عز الدين عبد الحميد بن هبة الله (ت ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م)، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، =

عذبية^(٢٢) وابن الطقطقا^(٢٣) - ونتيجة لتسامحه مع الشيعة - اتهموه بالتشيع.

هذه السياسة المتسامحة مع الشيعة جعلته يختار من بينهم بعض كبار رجال الدولة. فاستعمل ناصر الدين بن مهدي نقيب العلويين وولاه نيابة الوزارة، ثم ولاه الوزارة سنة (٦٠٢هـ - ١٢٠٥م)^(٢٤). وسار حفيده المستنصر بالله فيما بعد على مثل هذه السياسة، فعين مؤيد الدين ابن العلقمي أستاذاً لدار الخلافة^(٢٥) سنة (٦٢٩هـ / ١٢٣١م)^(٢٦)، ثم تولى الوزارة في عهد المستنصر بالله سنة (٦٤٣هـ / ١٢٤٥م)^(٢٧).

وفي سنة (٦٠٨هـ / ١٢١١م) اتخذ الناصر خطوة جريئة على سبيل التقريب بين المذاهب حيث أمر بقراءة مسند الإمام أحمد بن حنبل

في مشهد موسى الكاظم^(٢٨). أما المستنصر، فإنه أمر أستاذ الدار سنة (٦٢٧هـ / ١٢٢٩م) بإعمار مساجد الكرخ، كما قام بنفسه بزيارة مشهد الإمام موسى الكاظم^(٢٩)، وأمر بتوزيع ثلاثة آلاف دينار على العلويين المقيمين في مشهد علي بن أبي طالب والحسين بن علي وموسى بن جعفر^(٣٠).

واستكمالاً لسياسة النهوض بالخلافة، كان لا بد من الاهتمام بالجيش^(٣١)، تلك الأداة الفاعلة والقادرة على حفظ الأمن في الداخل، وحماية البلاد من الأخطار الخارجية.

وبهذا الجيش الذي أعيد تنظيمه، استطاعت الخلافة استعادة كثير من المدن والأقاليم التي كانت خارج نطاق سيطرتها، حيث استعيدت دقوقا سنة (٥٧٩هـ / ١١٨٣م)^(٣٢)، وتكريت، وحديثة عانة^(٣٣).

(٢٢) ابن أبي عذبية، أحمد بن محمد بن علي (من أبناء القرن السابع) إنسان العيون في مشاهير سادس القرون، مخطوط، صورة محفوظة في مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، عمان، رقم ١٠٨٣، ورقة ٤.

(٢٣) ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩هـ / ١٣٠٨م)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ط ١، بيروت، دار صادر، ١٩٦٦، ص ٣٢٢.

(٢٤) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج ٩، ص ١٦٨.

(٢٥) وظيفة إدارية، يتولى صاحبها شؤون دار الخلافة ونفقاتها وأمور الأسرة العباسية المقيمة في الدار انظر : أحلام النقيب، سياسة الخليفة الناصر لدين الله الداخلية، رسالة ماجستير / جامعة بغداد، ١٩٨٨م، ص ٣٠.

(٢٦) مجهول، الحوادث، ص ٣٥.

(٢٧) مجهول، الحوادث، ص ٧٩.

(٢٨) سبط بن الجوزي، ج ٨، ق ٢، ص ٥٥٦.

(٢٩) مجهول الحوادث، ص ١٥.

(٣٠) مجهول، الحوادث، ص ٥٥.

(٣١) هذه الإجراءات والإصلاحات كانت بحاجة إلى الأموال الطائلة، فحرص الناصر على جمع الأموال وسلك في سبيل ذلك كل طريق، من فرض الضرائب والمكوس، فمثلاً فرض على قرية بعقوبة مبلغ ثمانين ألف دينار، في حين كان يؤخذ منها من قبل ثمانية آلاف دينار، ولعل هذه السياسة كانت وراء اتهامه من قبل بعض المؤرخين بالظلم والاستبداد، فقد وصفه ابن الأثير بقوله : " كان قبيح السيرة في رعيته ظالماً لهم، وأن العراق خرب في أيامه ". ابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٥٨.

(٣٢) ابن الديبشي، ج ١، ص ١٤٩.

(٣٣) سبط بن الجوزي، ج ٨، ق ١، ص ٣٧٧.

هذا الجيش التصدي للمغول الذي اجتاحت بغداد، وأسقط الخلافة العباسية ٦٥٦/ ١٢٥٨^(٤٠).

كان إعادة تنظيم الفتوة^(٤١) من أهم الخطوات التي اتخذها الناصر لدين الله لتوحيد الجبهة الداخلية، فقد دلت هذه الخطوة على حنكته السياسية وقدرته على التعامل مع الأحداث الجسام. فرغم الجهود التي بذلت من قبل للقضاء على الفتن المذهبية بين السنة والشيعة، إلا أنه وقعت بينهم عدة فتن، منها ما حدث في الأعوام: (٥٨١ هـ — ١١٨٥ م)^(٤٢)، (٥٩٢ هـ / ١١٩٥ م)^(٤٣)، (٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م) وكانت أشدها^(٤٤). فكانت خطوة إحياء نظام الفتوة من جديد.

وإضافة إلى ما سبق، أراد الناصر تحقيق هدف مهم من وراء إحيائه لنظام الفتوة يتمثل في ربط جميع رعايا الدولة بشخص الخليفة، سواء كانوا حكاماً أو محكومين. ومن خلال فكرة الفتوة استطاع أن يجمع المسلمين تحت لوائه على مختلف طبقاتهم ومعتقداتهم،

وارتبط استعادة خوزستان بالصراع مع السلاجقة، حيث طلب طغرل الثالث إعادة الخطبة له ببغداد، فسير الخليفة الناصر وزيره ابن القصاب على رأس جيش فدخلها^(٣٤)، سنة (٥٩١ هـ / ١١٩٤ م). وفي العام نفسه استعيدت همذان وأصبهان^(٣٥). وفي سنة (٦٣٠ هـ / ١٢٣٢) سيطرت قوات المستنصر بالله على أربل^(٣٦).

تابع المستنصر بالله السياسة التي انتهجها جده الناصر، من تجنيد الجيوش، وإقامة الحصون، خصوصاً بعد ظهور الخطر المغولي، حتى بلغ جيشه أكثر من مائة ألف^(٣٧).

ولكن بعد وفاة المستنصر وتولية المستعصم مقاليد الحكم^(٣٨) تراجعت قوة الدولة التي حرص سابقوه طوال خمسة وستين عاماً على ترسيخها، بسبب ضعفه وقلة خبرته السياسية، وعودة رجال البلاط للتحكم في الأمور من جديد. فقام بإنقاص عدد الجيش إلى عشرين ألفاً لتوفير الأموال^(٣٩). ولم يستطع

A.Rashad The Abassid Caliphate (575 – 656 H) University of London, 1963, p 101.

وهناك دراسة متكاملة ظهرت حديثاً حول الفتوة من قبل الناصر للباحث يحيى حسين، الفتوة في العصر العباسي الأخير، رسالة ماجستير غير منشورة، عمان، الجامعة الأردنية، ١٩٩٤ م.

(٤٢) ابن الأثير، ج ١٠، ص ١٣٨.

(٤٣) سبط بن الجوزي، ج ٨، ق ١، ص ص ٣٨٦ – ٣٨٩.

(٤٤) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج ٩، ص ص ٢٠٠ – ٢٠١.

(٣٤) الغساني، ص ٢٣٠.

(٣٥) ابن الأثير، ج ١٠، ص ص ٢٣٥ – ٢٣٦.

(٣٦) مجهول، الحوادث، ص ص ٤٤ – ٤٧.

(٣٧) اليونيني، ج ١، ص ٢٥٥.

(٣٨) لعل من المناسب الإشارة هنا إلى أن المستنصر قد ارتكب خطأ حين ترك منصب ولاية العهد شاغراً، فلم يعهد لأحد من بعده، مما جعل الحاشية تتدخل في اختيار الأضعف حماية لمصالحها الخاصة.

(٣٩) ابن الكازروني، ص ص ٢٧٠.

(٤٠) مجهول، الحوادث، ص ص ٣٢٣ – ٣٢٥.

(٤١) حول الفتوة انظر : مصطفى جواد في تقديمه لكتاب الفتوة لابن المعمار ؛

المقريء (ت ٥٧٢هـ / ١١٧٦م)، وروى عنه بالإجازة^(٤٨). كما أجاز له أبو الحسين بن عبد الخالق بن يوسف اليوسفي^(٤٩)، وأحمد ابن محمد بن كرم البندنجي (ت ٦١٥هـ / ١٢١٨م)^(٥٠)، وسمع من شهدة الأبرية^(٥١).

أما الظاهر بالله، فقد قرأ القرآن على الشيخ أبي القاسم هبة الله بن الحسين بن أحمد البغدادي المعروف بابن الأشقر (ت ٦٣٤هـ / ١٢٣٦م). وبلغ من احترام الظاهر لشيخه ابن الأشقر، أنه عندما تولى الخلافة بالغ في إكرامه وأعطاه بغلة والده الناصر فركبها^(٥٢). كما أخذ الظاهر عن والده الناصر، فأجاز له برواية مسند الإمام أحمد بن حنبل^(٥٣).

وقد وصف الأربلي اهتمام الخليفة المستنصر بالعلم فقال: "فإنه لم يزل من أول أمره، ومبدأ عمره متشاعلاً بالعلوم الدينية والأدبية، عاكفاً على نقل الكتب، حريصاً على ذلك، مواظباً عليه، حسن الخط،

فجمعت الفتوة بين السنة والشيعة، وبين الخاصة والعامة. إضافة إلى أنه استطاع من خلالها تعزيز مكانته وفرض هيئته كونه خليفة للمسلمين المفترض الطاعة على الخلق أجمعين، وكونه قبلة الفتوة ورأسها^(٤٥). لذلك قام بإهدار الفتوة القديمة وتنظيمها من جديد، وكتب في ذلك منشوراً أمر بقراءته على رؤوس الفتيان^(٤٦). لذلك، تحولت منظمة الفتوة من حركة شعبية لا يربطها رابط بالدولة، إلى منظمة رسمية، لها رسوم لا بد من أدائها لمن أراد الدخول فيها^(٤٧).

الاهتمامات العلمية للخلفاء :

حرص الخلفاء - على جاري العادة - على تعليم أبنائهم وإسناد هذه المهمة إلى كبار العلماء، ليكونوا مؤهلين لتحمل الأعباء التي ستعهد إليهم مستقبلاً.

تلقى الناصر لدين الله علومه على عدد من العلماء، منهم علي بن عساكر بن المرحب

(٤٥) معن مقابلة، جهود الخلفاء لإحياء الخلافة (٥١٢ - ٦٢٢هـ)، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، عمان ١٩٩٩م، ص ١٧٢.

(٤٦) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج ٩، ص ص ٢٢٢ - ٢٢٤.

(٤٧) ابن المعمار، الفتوة، ص ص ٥١ - ٥٢ ؛ بدري محمد فهد، تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير، بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٩٧٣م، ص ٣٩٣.

(٤٨) الصفدي، صلاح الدين بن أيوب، (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م)، الوافي بالوفيات، تحقيق عدد من الأساتذة، قيسبان، دار فرائز شتايز، ١٩٩١ - ١٩٩٣م، ج ٦، ص ٣١١ ؛ ابن رجب، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن (ت ٧٩٥هـ / ١٣٩٢م)، نيل طبقات الحنابلة، منشور مع = طبقات الحنابلة في الجزئين (٣، ٤) بيروت، دار المعرفة (د.ت)، ج ٣، ص ٣٣٦.

(٤٩) المنذري، زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)، التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار عواد ط٦، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١م، ج ٣، ص ١٦١، الذهبي، محمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)، سير أعلام النبلاء، تحقيق بشار عواد ومحبي الدين سرحان ط٦، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥، ج ٢٢، ص ١٩٣.

(٥٠) ابن رجب، ج ٤، ص ١٠٨.

(٥١) ظهرت دراسة جادة حول دور شهدة الكاتبة المعروفة بالأبرية في الحياة العلمية للدكتورة ناجية عبدالله، عن دار البلم، عمان، ١٩٩٧م.

(٥٢) ابن الديبشي، ج ١، ص ١٤٩ ؛ الأربلي، ص ٢٨٤ ؛ ابن رجب، ج ٤، ص ٢١١.

(٥٣) ابن رجب، ج ٤، ص ٢١٨.

صحيح الضبط" (٥٤). وأول من تتلمذ على يديه الشيخ هبة الله بن الحسن المعروف بابن الأشقر، فكان يدخل عليه ويقرئه القرآن (٥٥).

وقد لمح به جده الخليفة الناصر الذكاء والفطنة، فحرص على تقريبه منه، وإحضاره مجالسه، وكان يسميه القاضي "لعقله وهديه وإنكاره المنكر" (٥٦).

وعندما تولى الخلافة، لم تله شؤون الحكم والإدارة عن العلم، فإنه عندما أنشأ المدرسة المستنصرية حرص على متابعة دروسها، فكان له شباك على إيوان الحنابلة يسمع الدرس منه (٥٧).

كان للاهتمام الذي أبداه المستنصر بالله، أثره البالغ في إقبال العلماء على العلم والتأليف وقد وصف لنا المؤرخ ابن النجار المعاصر للخليفة المستنصر ذلك بقوله: (وبيعت كتب العلم في أيامه بأعلى الأثمان، لرغبته فيها ولوقفها) (٥٨).

كما دفع ذلك أيضاً العلماء إلى تأليف بدائع المصنفات في فنون العلم ليتقربوا بإهدائها من الخليفة (٥٩).

سار المستنصر على خطى سلفه في تلقي العلوم. فتولى تأديبه وتعليمه أبو المظفر علي ابن النيار (ت ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) فحفظ

القرآن على يديه (٦٠). ويوم ختمه للقرآن، أقيمت دعوة عظيمة، خلعت فيها الخلع على أرباب الدولة وأعيانها، وبلغت تكاليفها عشرين ألف دينار، وخلع على مؤدبه ابن النيار خلعة مذهبة، فامتنع عن لبسها تورعاً، فخلع عليه غيرها، وخلعت تلك على ولده، كما أعطي خمسة آلاف دينار، "وحمل إلى داره ما حملة نيف وأربعون حمالاً" (٦١).

وحرص المستنصر على تحصيل الإجازات العلمية من عدد من العلماء، وكلف بتحصيلها له المؤرخ ابن النجار، فحصل له إجازة من المؤيد الطوسي، وأخرى من عبدالمعز الهروي (٦٢).

أشرنا في مقدمة البحث إلى أن خلفاء هذه الفترة حرصوا على إحياء مؤسسة الخلافة من جديد، فبذلوا جهوداً متشعبة من تقوية الجيش وإقامة الحصون واستعادت بعض ممتلكات الخلافة. لكنهم أدركوا أن لا طائل من كل تلك الجهود إذا لم ينشئوا جبهة داخلية متماسكة، تتصهر في ثناياها جميع فئات المجتمع، كما تجمع من شتاتهم ويلات الفتن الطائفية (السنة والشيعة) وباعتبارهم خلفاء المسلمين بجميع فئاتهم ومذاهبهم، كان عليهم الابتعاد عن الدخول في تلك الصراعات، أو الوقوف

(٥٩) الكتبي، ج ٤، ص ١٧٠.

(٦٠) مجهول، الحوادث، ص ٣٢.

(٦١) الذهبي، سير، ج ٢٣، ص ١٧٣؛ الأربلي، ص ٢٨٩-٢٩٠؛ الغساني، ص ص ٤٦٤ - ٤٦٥.

(٦٢) الذهبي، سير، ج ٢٣، ص ١٧٤.

(٥٤) خلاصة، ص ٢٨٦.

(٥٥) ابن رجب، ج ٤، ص ٢١١.

(٥٦) الكتبي، ج ٤، ص ١٧٠.

(٥٧) الذهبي، سير، ج ٢٣، ص ١٦٧؛ ابن رجب، ج ٤، ص ٢٦٠.

(٥٨) الذهبي، سير، ج ٢٣، ص ١٥٧.

بجانب فئة على حساب الأخرى، فكانت جملة الخطوات التي تحدثنا عنها.

ولإعطاء تلك الإجراءات شرعية تجعلها أكثر قبولاً من الناس. اتجه الخلفاء إلى تقريب العلماء والفقهاء، وإلى الاشتغال بالعلم. فكان أن اقتحموا باب التأليف والرواية، فصنف الناصر لدين الله كتاباً سماه (روح العارفين) حوى سبعين حديثاً^(٦٣)، إجازة لجماعة من أهل العلم على رأسهم كبار علماء المذاهب الأربعة. فقد سلم إجازة الحنفية إلى ضياء الدين أحمد بن مسعود التركستاني، وإجازة الشافعية إلى عبد الوهاب بن سكيئة، وإجازة المالكية إلى علي بن جابر المغربي، وإجازة أصحاب الإمام أحمد إلى أبي صالح نصر بن عبدالرزاق الجيلي^(٦٤).

حرص الناصر لدين الله على نشر الكتاب في جميع الأمصار فقرأ ببغداد في أكثر من مائة مسجد^(٦٥)، وأجازه للملك العادل

وأبنائه^(٦٦)، ولجماعة من أهل العراق والشام ومصر. ورواه ابن النجار عنه بالإجازة في الحرمين ودمشق وحلب والقدس ونيسابور ومرو وهمذان^(٦٧).

وقد ظهر لهذا الكتاب شرح، وضعه سبطا ابن الجوزي بناءً على طلب الملك الأشرف بعد أن "عجز العلماء عن شرحه" سماه شرح روح العارفين^(٦٨).

كما ألقى الخليفة الناصر لدين الله دروساً في شرح مسند الإمام أحمد بن حنبل، وأجاز فيه عدداً من علماء الحنابلة، وسمح لهم في شرح مسند أحمد، وأذن لهم بروايته عنه. وأجاز لعلي بن جابر المغربي لموطأ الإمام مالك، ورواه عنه بجامع القصر ببغداد^(٦٩).

يظهر أن الخليفة الناصر كان يرمي من وراء ذلك كله اكتساب احترام ودعم الفقهاء والعلماء. إلى جانب محاولته الحد من الخلافات المذهبية التي كانت تثار بين أصحاب المذهبين: السني والشيعة^(٧٠). كذلك

(٦٣) ابن واصل، ج ٣، ص ٣٢؛ الأربلي، ص ٢٨١. لم يكن الناصر أول خليفة يتصدى للتأليف، بل سبقه الخليفة القادر بالله، الذي صنف كتاباً في الأصول، وذكر فيه فضل الصحابة على ترتيب مذهب أصحاب الحديث، وكان الكتاب يقرأ كل جمعة بجامع المهدي. الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ/١٠٧٠ م) تاريخ بغداد، تحقيق مصطفى عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧، ج ٤، ص ٢٥٧.

(٦٤) ابن الكازروني، ص ٢٤٥؛ ابن واصل، ج ٤، ص ١٦٥؛ الذهبي، سير، ج ٢٢، ص ١٩٨.

(٦٥) الذهبي، سير، ج ٢٢، ص ١٩٧؛ الأربلي، ص ٢٨١.

(٦٦) الذهبي، سير، ج ٢٢، ص ١٩٧.
(٦٧) المنذري، ج ٣، ص ١٦١. وانظر: الصفدي، الوافي، ج ٦، ص ٣١٦؛ القرشي، أبو محمد عبدالقادر بن محمد (٧٧٥ هـ/١٣٧٣ م)، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، تحقيق عبد الفتاح الحلو، ط ٦، القاهرة، دار هجر، ١٩٩٣ م، ج ٢، ص ٢٠٢؛ ابن العماد، ج ٥، ص ٩٨.

(٦٨) أبو شامة، ج ١، ص ٩٣.
(٦٩) ابن النجار، محب الدين أبو عبد الله محمد بن محمود (ت ٦٤٣ هـ/١٢٤٥ م)، ذيل تاريخ بغداد، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، منشور مع تاريخ بغداد الأجزاء (١٦ - ٢٠)، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧ م، ج ١٧، ص ١٥٩.

Rashad, op. cit, p 125.

(٧٠)

فيها حيث قال : (وقيل إنه كان يدخل على الناصر ...) (٧٤).

ولكن هذه الرواية رغم الشك الظاهري فيها، فإنه لم يكن صدفة أن يهدي شهاب الدين السهروردي كتابه الذي حمل فيه على الفلسفة اليونانية حملة شعواء ونعته بـ : (كشف القبائح اليونانية ورشف النصائح الإيمانية) إلى الخليفة الناصر لدين الله (٧٥). كما أن هذا يتعارض مع ما قدمناه حول اهتمام الخليفة بالعلوم الدينية وبخاصة علم الحديث.

يرتبط باهتمامات الخلفاء العلمية حرصهم على اقتناء الكتب وإنشاء المكتبات الخاصة في قصورهم. فأنشأ الناصر لدين الله في قصره خزانة كتب ضخمة، حوت فرائد المؤلفات ونوادر المصنفات. يستدل على عظم هذه الخزانة مما نقل منها إلى خزانة المدرسة النظامية وإلى دار المسناة - كما سنبينه لاحقاً - فذكر القفطي أن الناصر نقل إليهما وإلى غيرهما من خزانة كتبه الخاصة. واعتمد على

لأجل تثبيت قدسية الخلافة في نفوس الناس وفي نفوس ملوك الأطراف.

لم يكن الخليفة الناصر وحده من اشتغل بالتحديث والرواية بل تابعه في ذلك من أعقبه من الخلفاء. ذكر ابن الفوطي في ترجمة كمال الدين الشيرازي الحكيم المهندس أنه سمع الأحاديث الثمانية من رواية الإمام المستعصم بالله على الأمير أبي نصر محمد سماعاً على والده الخليفة وذلك بجرنداب (٧١) بتبريز (٧٢).

وهناك ملاحظة مهمة لا بد من التوقف عندها، فقد أوردت بعض المصادر أن الخليفة الناصر كان يتعلم علوم الأوائل (الفلسفة). ففي ترجمة كامل بن الفتح (ت ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م) قال الكتبي : "كان يدخل على الخليفة الناصر، ويحاضره، ويخلو معه، وعلمه علم الأوائل، وهون عليه الشرائع، والله أعلم" (٧٣).

وإلى مثل ذلك ذهب من قبله ياقوت، لكنه عندما أورد الرواية، أوردتها بشكل يثير الشك

(٧٤) ياقوت الحموي، أبو عبدالله بن عبدالله الرومي (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م)، معجم الأئباء ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩١ م، ج ٥، ص ١٣.

(٧٥) كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار وآخرون، بيروت، دار المعارف، (د.ت)، ج ١، ص ٤٤٠. جولد سهير، موقف أهل السنة من الفلسفة، بحث منشور ضمن مجموعة أبحاث تحت عنوان التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، ترجمة عبدالرحمن بدوي، دار المعارف، القاهرة (د.ت) ص ١٣٠.

(٧١) جرنداب : مقبرة مشهورة بتبريز، دفن فيها شمس الدين الجويني. ابن الفوطي، كمال الدين عبدالرزاق بن تاج الدين (ت ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م)، تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق مصطفى جواد، دمشق، المطبعة الهاشمية، ١٩٦٥ م والجزء الخامس، لاهور، (د.ت)، ج ٤، ق ١، ص ٣٨٥.

(٧٢) ابن الفوطي، ج ٥، ص ١٦١.

(٧٣) الكتبي، ج ٣، ص ٢١٧. ولو كان الناصر من المهتمين بعلوم الأوائل لما تعرض عبد السلام بن عبد الوهاب الجيلي للمضايقة، حتى أخذت كتبه فأحرقت على الملأ، لأنه وجد بينها ما يتعلق بعلم النجوم انظر الغساني، ص ٣٤٧.

أبي الرشيد مبشر الرازي (ت ٥٩٨هـ / ١٢٠١م) في اختيار تلك الكتب^(٧٦).

أما المستنصر بالله، فقد أنشأ خزانة كتب قريبة من مجلسه حوت أنواعاً من الكتب العلمية والأدبية. أوكل مهمة خزنها والإشراف عليها (أبي محمد عبد الله البادراني)^(٧٧).

وفي سنة (٦٤١هـ / ١٢٤٣م)، أمر الخليفة المستنصر بالله بإنشاء خزانتين للكتب متقابلتين في قصره. فجاءت كل واحدة منهما في نهاية الحسن، وجعل فيهما من نفائس الكتب في سائر العلوم. وكتب على وجه الأولى :-

أنشأ عمارتها خليفة عصره
لا زالت الأملاك من أنصاره
مستعصم بالله من أوصافه
جمع العلوم بليله ونهاره
فأصولها من بيته وفروعها
تقرأ عليه وكتبه في داره

وكتب على وجه الأخرى :

خليفة الله قد أكملت بنيتها
فليس في وقتها شيء يدانيها

أودعتها من عقول الناس ما سمحت
به النفوس وأبدت معانيها
حتى كأن شيوخ العلم قاطبة
جاءوا إليك وقد أسكنتهم^(٧٨) فيها^(٧٩)
وسلم المستنصر مفاتيح الأولى لعبد المؤمن
ابن فاخر الأرموي، وكلفه بنسخ ما يريد من
الكتب. وسلم الثانية إلى مؤدبه وشيخه علي بن
النيار^(٨٠).

تقريب الخلفاء للعلماء ورعايتهم :

أدرك الخلفاء دور الفقهاء والعلماء
باعتبارهم قادة الفكر والرأي في توجيه العامة،
وذلك من خلال اتصالهم المباشر معهم، سواء
في الجوامع والمساجد أو في دروس الوعظ.
إضافة إلى أنهم لم يكونوا فئة منعزلة، بل جزء
من المجتمع، ينتمون إلى كل فئاته الاجتماعية.
وساعدوا بذلك على تنمية التماسك والاستقرار
في المجتمع. لذلك أولى الخلفاء اهتماماً بهم
وبمؤسساتهم. لاستثمار هذه المؤسسات
وتوجيهها بما يخدم مصالحهم وأغراضهم
فكان الخليفة الناصر يدعو شيخ الحنابلة أبا
الفرج عبد الرحمن بن الجوزي^(٨١) والشيخ
عمر السهروردي^(٨٢)، ورضي الدين القزويني

= (ت ٨٢٣هـ / ١٤٣٢٠م)، القاموس المحيط، ٦ ط ١، بيروت، دار الكتاب العربي (د.ت)، ج ١، ص ١٥٩. ولعل الأصح ما أثبتناه ليستقيم بذلك الوزن والمعنى.

(٧٩) الغساني، ص ٥١٦، مجهول، الحوادث، ص ١٨٤.

(٨٠) ابن الطقطقي، ص ٣٣٣.

(٨١) الذهبي، تاريخ، حوادث (٦٢١ - ٦٣٠هـ)، ص ٩٠.

(٨٢) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج ٩، ص ١٤٥.

(٧٦) القفطي، جمال الدين علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م)، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة، مكتبة المثنى، (د.ت)، ص ١٧٧؛ كوركيس عواد، خزائن الكتب القديمة في العراق، سومر، مج ٢، ج ٢، بغداد، ١٩٤٦م، ص ٢٣١.

(٧٧) ابن الكازروني، ص ٢٥٩؛ الأربلي، ص ٢٨٦.

(٧٨) وردت في الأصل أنكتهم وتعني : ألقاه على رأسه. الفيروز آبادي، مجد الدين أبو الطاهر بن يعقوب =

مؤدب المستنصر بالله، يدخل عليه بعد توليه الخلافة، فلا يقبل الأرض على جاري العادة^(٨٩).

ونال الفقيه شمس الدين أبو المظفر علي بن النيار مكانة عالية لدى الخلفاء، و تولى تأديب أبنائهم. فقد أدب المستنصر، فلما أفضت الخلافة إليه رعى له حق الخدمة وقربه، وعول عليه في كثير من الأمور، حتى إنه عرض عليه منصب الوزارة، فأبى. وقال: "إني عاهدت الله أن لا أغير لبس المتصوفة، ولا أنزع عني ما تعودته"^(٩٠). عند ذلك سلمه مفاتيح إحدى خزائن كتبه، وكلفه بالاهتمام بشؤون الحج^(٩١).

ومن المنطلق السابق نفسه، لقي كبار العلماء الوافدين إلى بغداد الحفاوة والتكريم، فكان يخرج الموكب الشريف للقاء القادم من العلماء. فعندما وصل صدر الدين محمد بن عبد اللطيف الخجندي إلى أطراف بغداد، خرج الموكب الشريف بأمر من الخليفة للقاءه. فلما وصل أنعم عليه الخليفة الناصر وقربه وخلع عليه، وبالع في احترامه، ثم ولاه تدريس النظامية^(٩٢). كذلك عندما وصل الفقيه

أحد أعلام الشافعية، للجلوس بباب بدر^(٨٣) - والذي يمثل جزءاً من حرم دار الخلافة - لعقد مجالس وعظهم. بل إن الناصر حرص على حضور تلك المجالس من شباك دار الخلافة من وراء ستار^(٨٤).

أما الظاهر، فقد وصفه الذهبي بقوله: "نشر العدل، وبث المعروف، وقرب العلماء والصلحاء، وبني المساجد والمدارس والربط"^(٨٥).

وحرص المستنصر بالله على تقريب العلماء وإحضارهم مجالسه، فكان الشيخ الفقيه عبد العزيز بن دلف الخازن (ت ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م) شيخ رباط الحريم الطاهري له الخطوة عند المستنصر بالله حتى صار "يقضي حوائج الناس عنده وعند غيره"^(٨٦). وجالس المستنصر بالله الفقيه أبا الحسن علي ابن الخطابي الواسطي (ت ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م)^(٨٧). ومما يؤثر عنه في تقديره للعلماء، أنه كان يذهب إلى (العلث) على مسافة يومين من بغداد لزيارة الفقيه الزاهد اسحاق بن أحمد العلبي^(٨٨). كما كان الفقيه أبو القاسم هبة الله بن أحمد المعروف بابن الأشقر

(٨٦) الذهبي، سير، ج ٢٣، ص ١٥٦، ج ٢، ص ٧٢.

(٨٧) مجهول، الحوادث، ص ١٣٤.

(٨٨) سبط بن الجوري، ج ٨، ق ٢، ص ٧٤٠.

(٨٩) ابن رجب، ج ٤، ص ٢١١.

(٩٠) مجهول، الحوادث، ص ص ٢٨٤ - ٢٨٥.

(٩١) مجهول، الحوادث، ص ص ١٦٣ - ١٦٤.

(٩٢) ابن أبي عذينة، مخ، ورقة ٦٥-٦٦.

(٨٣) الأيوبي، محمد بن عمر بن شاهنشاه (ت ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م)، مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٦٨ م، ص ١٢٠.

(٨٤) الذهبي، تاريخ، حوادث (٦٢١ - ٦٣٠ هـ)، ص ١٣٢.

(٨٥) ولكن لم نعثر في مصادرنا على إشارة لقيام الظاهر بأمر الله بإنشاء مدرسة أو مكتبة.

المالكي عبد الله بن عبد الرحمن الشرمساحي الأسكندري سنة (٦٢٣هـ / ١٢٣٥م) قوبل بالترحاب في ديوان الخلافة، وأحضر إلى دار الوزارة، وأحضر جميع المدرسين، فخلع عليه، وأهدي بغلة أسوة بالمدرسين بالمدرسة المستنصرية^(٩٣).

ومن مظاهر التقريب والاحترام التي أولاها الخلفاء للعلماء، توزيع الأعطيات والهدايا عليهم في مختلف المناسبات، وبخاصة الأعياد الدينية. فقد فرق الظاهر بأمر الله في ليلة عيد الأضحى عام (٦٢٠هـ / ١٢٢٣م) مائة ألف دينار^(٩٤) على العلماء والصالحين. وكذلك فعل المستنصر بالله، ففي يوم عيد الفطر سنة (٦٢٣هـ / ١٢٢٦م)، أمر بتفريق الأموال على الفقهاء والصوفية وعلى الفقراء وأئمة المساجد^(٩٥).

وفي رمضان سنة ٦٢٣هـ أمر المستنصر بحضور ذوي الجاه والمناصب والفقهاء ومشايخ الصوفية إلى التربة الشريفة بالرصافة، للمشاركة بالختمة، وبعد انتهاء المراسيم، أمر بانصراف الجميع ما عدا الفقهاء والصوفية والوعاظ والقراء، فأمر بخدمتهم، وتقديم ما يلزمهم على نفقة الخليفة^(٩٦).

كما حرص الخلفاء على أن تشمل الوظيفة الرمضانية - التي كانت توزع كل عام في نهاية شهر شعبان - العلماء والفقهاء والمدرسين وطلاب العلم^(٩٧).

هناك فئة من العلماء حظيت برعاية واهتمام الخلفاء نتيجة للخدمات التي قدمتها للخلفاء، وهؤلاء هم الأطباء. وتجدر الملاحظة إلى أن معظم الأطباء كانوا من أهل الذمة وخصوصاً من النصاري، فكان أبو الفرج بن المسيحي رئيس الطب ببغداد^(٩٨). وكان صاعد بن توما النصراني من أشهر أطباء عصره، حتى صار الطبيب الخاص للخليفة الناصر لدين الله. وتقدم في أيام الناصر حتى صار بمنزلة الوزراء، وربطته بالخليفة علاقة وثيقة، جعلت الخليفة يستأمنه على حفظ أمواله الخاصة، ويرسله في مهمات خاصة خفية إلى وزرائه^(٩٩).

أما الطبيب أبو نصر بن المسيحي (غير الأول)، فقد ارتفعت مكانته بين أقرانه من الأطباء، بعد أن استطاع علاج الخليفة الناصر لدين الله من مرض أصابه. فقد أشار ابن أبي أصيبعة إلى أن الناصر لدين الله أصيب بانتفاخ المثانة نتيجة للحصى، وطال المرض، وعجز الأطباء عن علاجه، إلى أن أحضر أبا نصر،

(٩٣) مجهول، الحوادث، ص ٨١.

(٩٤) الصفدي، الوافي، ج ٢، ص ٩٦؛ ج ٢، ص ١٤٤، ابن أبي عذبة، ورقة ٢٣٨.

(٩٥) الغساني، ص ٤٢٢، مجهول، الحوادث، ص ١٥٦.

(٩٦) مصطفى جواد، المدرسة المستنصرية، مجلة سومر، مج ١٤، ج ١، بغداد، ١٩٥٨م، ص ٥٨.

(٩٧) الغساني، ص ٦٠٣.

(٩٨) مجهول الحوادث، ص ١٣.

(٩٩) ابن القطني، ص ١٤٤، ابن أبي أصيبعة، أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي (ت ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م) عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م، ص ٣٧١.

المشهور بابن الأخضر^(١٠٣) (ت ٦١١ هـ / ١٢١٤ م)^(١٠٤)، وشهد الصلاة عليه كبار رجال الدولة^(١٠٥). وكذلك أبو الفتوح عبد اللطيف بن علي بن البخاري (ت ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م)، وكانت جنازته عظيمة حضرها أرباب الدولة^(١٠٦).

اهتمام الخلفاء بالشعراء :

اختلف موقف الخلفاء من الشعر من عصر إلى آخر. وفي الفترة التي تلت التخلص من السيطرة السلجوقية، ظهر خلفاء وقفوا من الشعر وأهله موقفاً ودياً. وقد يكون لسريان شيء من الروح العربية في جسم الدولة العباسية بعد طرد السلاجقة من العراق أثر في ذلك. لأنه من الطبيعي أن يزدهر الشعر بين أهله. ويدل على هذا الرأي علو منزله الشعر والشعراء في ظل خلفاء هذه الفترة. فكان معظم الخلفاء يحبون الشعر، وربما نظموا. فعرف عن الخليفة الناصر تشجيعه للشعراء كما تروى له أبيات، منها تلك الأبيات التي أوردها الصفدي يدافع الخليفة الناصر فيها عن نفسه ضد من اتهموه بالتشيع حيث قال :

رَعَمُوا أَنْتِي أَحَبُّ عَلِيًّا

صَدَقُوا كُلُّهُمْ لَدَيَّ عَلِيٌّ

فعاين العضو المصاب، وبعد عدة محاولات علاجية، استطاع استخراج الحصاة دون الحاجة إلى شق العضو المصاب. فأمر الخليفة طبيبه ابن المسيحي بالدخول إلى دار الضرب وأن يحمل ما يقدر عليه من الدنانير والذهب. ثم أتته الخلع من أم الخليفة (زمرد خاتون)، ومن ولدي الخليفة : محمد وعلي، ومن الوزير نصير الدين أبي الحسن بن مهدي العلوي، ومن سائر كبار رجال الدولة. وقد حصل من العين عشرين ألف دينار، وفرض له راتب سنوي. ولم يزل مستمراً في ذلك إلى أن مات الناصر^(١٠٠).

وفي صورة تنم عن مدى الاحترام الذي أولاه الخلفاء للعلماء بعد وفاتهم ، والمتمثلة في السماح بإقامة صلاة الجنازة على كبارهم في مسجد القصر الشريف. ذلك المسجد الذي يعتبر بمثابة المسجد الرسمي للدولة، ففيه تقرأ عهود القضاة، وفيه يصلى على جنائز الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة^(١٠١). وكان هذا المسجد لا يفتح لإقامة صلاة الجنازة إلا بإذن شريف من الخليفة نفسه^(١٠٢). سُمح بأداء صلاة الجنازة في مسجد القصر على الفقيه أبو محمد عبد العزيز بن محمود بن المبارك

(١٠٠) ابن أبي أصيبعة، ص ٣٧٠.

(١٠١) انظر ابن الساعي، الجامع المختصر، ج ٩، ص ٦٤، ص ٨١، ص ٨٢، ص ١١٠، ص ١٥٧، ص ٢٥١، مصطفى جواد وأحمد سوسة، دليل خارطة بغداد المفصل، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٨ م، ص ص ٢٤-٢٥.

(١٠٢) الأيوبي، ص ١٣٠.

(١٠٣) الفاسي، النقي المكي، تاريخ علماء بغداد المسمى منتخب المختار لأبي علي محمد بن رافع السلامي، انتخبه الفاسي، تحقيق عباس العزاوي، بغداد، مطبعة الأهالي، ١٩٣٨ م، ص ١٣٧.

(١٠٤) ابن نقطة، أبو بكر محمد بن عبد الفتى (ت ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م)، التقييد لمعرفة الرواة والسنن والمسائيد، بيروت، دار الحديث ١٩٨٦ م، ج ٢، ص ١٢٩.

(١٠٥) المنري، ج ٢، ص ٣١٧.

(١٠٦) المنري، ج ٣، ص ١٠.

كُلُّ مَنْ صَاحَبَ النَّبِيَّ وَلَوْ
طَرْفَةً عَيْنٍ فَحَقَّهُ مَرَعِيٌّ
فَلَقَدْ قَلَّ عَقْلُ كُلِّ غَبِيٍّ
هُوَ مِنْ شِيعَةِ النَّبِيِّ بَرِيٌّ (١٠٧)

ونظم الخليفة الناصر أبياتاً حاول من خلالها تشخيص حالة الضعف التي كانت تعيشها الخلافة العباسية، وما يحيط بها من أخطار :

إن طال عمري فما قصرت في كرم
ولا حراسة ملكي من أعاديهِ
عربٌ وعجمٌ ورومٌ كلهم طمعوا
فلم يفوزوا بشيء غير تمويه
بليت حتى بأدنى الناس من خلدي
يريد موتي وبالأرواح أقدية (١٠٨)

وإدراكاً من الخلفاء بأهمية الشعراء كوسيلة من وسائل الدعاية التي تظهر عظمتهم وتشر مآثرهم، استمالوا الشعراء، فكان من نتيجة ذلك أن وجد في هذا العصر شعراء اختصوا بالخلفاء، يمكننا أن نسميهم " الشعراء الرسميين للدولة " وقد كان يطلق عليهم في ذلك الوقت اسم شعراء الديوان العزيز (١٠٩).

وقد عرفت هذه التسمية في السنوات الأولى من خلافة الناصر لدين الله، حيث لم نعثر على

هذه التسمية قبل هذا الوقت. ويرى مصطفى جواد أن الخليفة الناصر جعل للشعراء ديواناً خاصاً في الدولة يسمى ديوان الشعراء، وسمى الشعراء المثبته أسماؤهم فيه (١١٠).

ذكرت كتب التراجم شعراء عدة، ونعتهم بأنهم كانوا من شعراء الديوان، منهم: أبو الفرج محمد بن أحمد بن سعيد بن نبهان (١١١)، والحسن بن محمد بن عبدوس الواسطي (١١٢)، وأبو محمد عيسى بن نصر بن منصور النميري (١١٣)، وأبو الفوارس نصر بن ناصر ابن ليث المكي المدائني (١١٤)، وأبو شجاع بن دواس القنا محمد بن أحمد (١١٥)، وعبد المنعم ابن عبد العزيز بن أبي بكر المعروف بالنطروني (١١٦)، محمد بن صدقة المعروف بالخفاجي (١١٧)، وعبدالله بن جميل وكان متقدم شعراء الديوان (١١٨).

ونلمس دور الشعراء في الترويج لكثير من الآراء والقضايا السياسية التي لا يستطيع التعبير عنها غيرهم. مثل نظرية الحكم المطلق، وأحقية بني العباس بالخلافة باعتبارهم أصحاب النسب الرفيع ووارثي النبوة. فالشاعر أسعد بن إبراهيم الشيباني حين

(١١١) الصفدي، الوافي، ج ٢، ص ١٠٦.

(١١٢) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج ٩، ص ١٥٣.

(١١٣) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج ٩، ص ٦٩.

(١١٤) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج ٩، ص ٢٧٨.

(١١٥) الصفدي، الوافي، ج ٢، ص ١١٩.

(١١٦) الكتبي، ج ٣، ص ١١٧.

(١١٧) ابن الديبشي، ج ١، ص ٢٩١.

(١١٨) مجهول، الحوادث، ص ١٨٤.

(١٠٧) الصفدي، الوافي، ج ٦، ص ٣١٥.

(١٠٨) الكتبي، ج ١، ص ٦٨، الصفدي، الوافي، ج ٦، ص ٣١٥.

(١٠٩) ابن الديبشي، ج ١، ص ١٥٠، ص ٢٩١؛ ابن الساعي، الجامع المختصر، ج ٩، ص ٦٩، ص ١٥٣.

(١١٠) ابن الساعي، علي بن أنجب، نساء الخلفاء من الحرائر والإماء، تحقيق مصطفى جواد، مصر، دار المعارف، (د.ت)، (مقدمة المحقق) ص ٩.

يمدح الخليفة المستنصر بالله يؤكد هذا الإرث المقدس:

أعلى الأئمة من سلامة هاشم
قدراً وأشرف محتداً من عنصر
ورث النبوة طاهراً عن طاهر

إرثاً ينزهه عن مقالة مفترى^(١١٩)

ليس هذا فحسب بل ذهب بعضهم إلى القول بامتلاك الخلفاء لقوى خارقة قادرة على تذليل المستحيل من الأشياء.

فقال أسعد بن إبراهيم في المستنصر بالله :

لو أنه في الجاهلية ما رأى
منه رسول الله أمراً منكراً
ولو أن موسى يستجنّ ببأسه
ما كان يوم الطور ولي مديراً
ولو استعان به المسيح لما غدا
بين النصاري كالصليب مضوراً^(١٢٠)

ومن قبله قال سبطا بن التعاويذي في الخليفة المستنصر والد الخليفة الناصر :

لك النهي بعد الله في الخلق والأمر
وفي يدك المبسوطة النفع والضرر
وطاعتك الإيمان بالله والهدى
وعصيانك الإلحاد في الدين والكفر
ولولاك ما صحت عقيدة مؤمن
تقي ولم يقبل دعاء ولا نذر^(١٢١)

ولم يتورع شاعر مثل سبط بن التعاويذي من منح الخلفاء صفات مقصورة على الذات الإلهية. فهو حين يمدح الخليفة الناصر، ملكه والنفع والضرر، والليل والنهار، والشمس والقمر، والبر والبحر بقوله :

يا صاحب العصر والزمان ومن
في يده النفع بعد والضرر
ومن له الليل والنهار وما
كرا عليه الشمس والقمر
والبر والبحر والشواهد والـ
غر الغواصي والنجم والشجر^(١٢٢)

استخدام العلماء في الإدارة :

استكمالاً لبناء دولة الخلافة، كان لا بد من الاهتمام بتنظيم المؤسسات الإدارية. ولا يكون لهذا التنظيم جدوى، إلا باختيار الرجال الأكفاء لتولي تلك المؤسسات. فكان حرص الناصر شديداً في اختيار رجال دولته.

أشار ابن الطقطقي إلى السياسة التي اتبعها الناصر في اختيار كبار الموظفين. تلك السياسة التي تتم عن حكمة وبعد نظر، وقدرة على تصريف أمور الدولة. تتلخص سياسة الخليفة في أنه إذا أراد تولية شخص منصب ما، أشاع الخبر بذلك بين الناس من خلال أشخاص عرفوا (بالعيون)^(١٢٣)، فيكثر كلام

(١٢١) سبط بن التعاويذي، الديوان، مصر، ١٩٠٣م، ص ١٧٣.

(١٢٢) سبط بن التعاويذي، ص ١٥٨.

(١٢٣) كان من سياسة الناصر أن تكون له عيون يتابعون الأمور من خلال الاحتكاك بالعامّة، كما =

(١١٩) اليونيني، ج ١، ص ١٢١.

(١٢٠) ديوان أسعد بن إبراهيم الشيباني، مج، ورق ٢٨، نقلاً عن عبدالكريم العبود، الشعر في العراق في الفترة (٥٧٥ - ٦٥٦ هـ)، ط ١، بغداد، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٧٨م، ص ٧٧.

الناس في ذلك الشخص بين المدح والذم، والثناء والقدح. وكانت العيون تجمع تلك الآراء وترفعها إلى الخليفة، فإذا وصلت إليه، وازن بينها. فإن وجد أغلبية الآراء تمدحه وتصفه بحسن الإدارة ولاءه، وإلا تجاوز عنه إلى غيره^(١٢٤).

ولما كان العلماء يمثلون نخبة علمية متميزة، كان الحرص على الاستعانة بهم ليشغلوا الوظائف الإدارية العليا، إضافة إلى الوظائف الدينية المعتادة كالقضاء والحسبة والخطابة في المساجد والنظر في الأوقاف.

أوردت المصادر عدداً من الوظائف الإدارية، التي شغلها علماء وفقهاء، من أهمها: الوزارة، والحجابه، وأستاذية الدار، وأعمال الدواوين.

كان اختيار الوزراء يتم من بين الأشخاص الذين جمعوا المقدرة على الإدارة والثقافة في آن واحد معاً، ليكونوا قادرين على القيام بأعباء مسؤولياتهم.

كان أبو طالب علي بن البخاري نائب الوزارة^(١٢٥)، من بيت عرف بالعدالة والعلم والفقه، تفقه على مذهب الشافعي^(١٢٦)، وسمع الحديث من أبي الوقت وابن عبد الأول وغيرهما، وكانت له مناظرات^(١٢٧).

وكان الوزير معز الدولة بن سعيد بن حديدة، محدثاً وفقهياً^(١٢٨)، له إجازات^(١٢٩)، قرب العلماء، وأكثر من الإنفاق عليهم، ويدعو ابن الجوزي الواعظ لعقد مجلس وعظه في داره^(١٣٠).

ونشأ الوزير مجد الدين بن القصاب مشغلاً بالعلوم، لا سيما علوم الحساب، والمساحة، والمقاسمات^(١٣١)، إضافة إلى الاشتغال بالأدب^(١٣٢) حتى وصف بأنه من رجال الدهر: "شهامه ودهاء، مع النظم والنثر والبلاغة"^(١٣٣).

واشتغل الوزير نصير الدين ناصر بن

= يزودونه بأخبار البلاد الكلية والجزئية. وكان رجاله يبالغون في نقل الأخبار إليه، ويروي المؤرخون حكايات كثيرة عن ذلك، تبين مدى اطلاعه على أحوال البلاد. وبلغت هذه الحكايات من الكثرة والغرابة حداً جعل بعض المؤرخين يحاولون تحليل هذا الأمر بأن الناصر كان مخدوماً من الجن. للمزيد عن ذلك انظر: الذهبي، سير، ج ٢٢، ص ١٩٨؛ ابن أبي عذينة، معج، ورقة ٤.

(١٢٤) ابن الطقطقي، ص ٣٩.

(١٢٥) استوزر الناصر أربعة عشر شخصاً، ولكنه لم يقلد سوى أربعة منهم منصب الوزارة الكاملة، واكتفى الباقي بمنصب نائب الوزارة. ابن الطقطقي، ص ص ٣٢٤ - ٣٢٧ وقد فصلت ذلك وأشار إلى الأسباب التي كانت وراء =

= تلك السياسة : محمد صالح القزاز، الحياة السياسية في العراق العصر العباسي الأخير (٥١٢ - ٦٥٦هـ)، بغداد، مطبعة القضاء، ١٩٧١م، ص ص ٧٠ - ٧٧، وأيضاً النقيب، ص ص ٤٢ - ٤٧.

(١٢٦) سبط بن الجوزي، ج ٨، ق ٢، ص ٢٨١؛ الصفدي، الوافي، ج ٢١، ص ٣٣٨.

(١٢٧) المنذري، ج ١، ص ٢٨١.

(١٢٨) سبط بن الجوزي، ج ٨، ق ١، ص ٥٦٨؛ الذهبي، تاريخ، حوادث (٦٠٠ - ٦١٠هـ)، ص ٣٦٨.

(١٢٩) سبط بن الجوزي، ج ٨، ق ١، ص ٥٦٧.

(١٣٠) ابن الطقطقي، ص ٣٢٤.

(١٣١) الذهبي، تاريخ، حوادث (٥٩٠ - ٦٠٠هـ)، ص ١١١؛ ابن العماد، ج ٦، ص ١٣٩.

(١٣٢) الذهبي، سير، ج ٢١، ص ٣٢٣.

(١٣٣) ابن الطقطقي، ص ٣٢٥.

أبو محمد يوسف بن الجوزي منصب محتسب بغداد، ثم تولى أستاذية الدار للخليفة المستعصم بالله^(١٤٤).

ولنا في عز الدين بن أبي الحديد المدائني (ت ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) الذي كان أديباً فاضلاً وحكيماً وكاتباً خير مثال على تقدير العلماء، حيث قلده المستعصم بالله الكتابة بدار التشریفات، ثم في المخزن سنة (٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م). ثم جعله كاتباً في الديوان. وكتب باسم المستعصم بالله كتابه الموسوم (المستصريات)^(١٤٥).

تكليف العلماء بمهمات السفارة :

مما يؤكد بصورة أوضح متانة العلاقة التي ربطت الخلفاء بالعلماء إشراكهم لهم في مجال السياسة الخارجية للدولة. وذلك من خلال تكليفهم بمهمة السفراء، إما لنقل رسائل الخلفاء إلى الملوك وأمراء الأطراف، وإما للوساطة في حل خلاف بين طرفين. كما حصل عند قيام صلاح الدين الأيوبي بمحاصرة مدينة الموصل، فأسرع صاحبها إلى طلب المساعدة

مهدي في صباه بالأدب، فحصل منه طرفاً. قرب العلماء، فكان خصيصاً بعدد منهم^(١٣٤).

واشتهر محمد بن برز القمي بالأدب والبلاغة والإنشاء^(١٣٥)، حتى صار متمكناً من أدوات الكتابة، خبيراً بالحساب وكان مجلسه ملتقى للشعراء^(١٣٦).

أما الوزير مؤيد الدين بن العلقمي، فقد عرف باهتمامه بالأدب منذ صباه، وامتاز بأسلوب بليغ في الكتابة والإنشاء^(١٣٧)، نال حظاً من المعرفة بالحديث والفقه^(١٣٨).

أما الوظائف الأخرى، فقد تولى الشيخ رضي الدين بن عمر التبريزي منصب حاجب الحجاب، وكان من قبل أحد علماء النظامية ببغداد^(١٣٩). وأسند الناصر لدين الله إلى الفقيه عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلاني ديوان المظالم^(١٤٠). كما تولى المبارك بن عبد الله البغدادي المعدل الوكالة للناصر بباب طراد^(١٤١). وأوكلت مهمة النظر في عقارات الناصر لدين الله لمحمد بن محمد بن عبد الصمد النرسي^(١٤٢). وتولى الفقيه أبو عبد الله محيي الدين بن يحيى بن فضالان ديوان الجوالي^(١٤٣). وشغل الفقيه

(١٣٩) ابن أبي عذبة، مج، ورقة ٧٠.

(١٤٠) ابن رجب، ج ٤، ص ٥١.

(١٤١) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج ٩، ص ١٤٥.

(١٤٢) الصفدي، الوافي، ج ١، ص ١٤٦.

(١٤٣) مجهول، الحوادث، ص ١٣.

(١٤٤) سبط بن الجوزي، ج ٨، ق ٢، ص ٥٠٣.

(١٤٥) ابن الفوطي، ج ٤، ق ١، ص ١٩٠ - ١٩١؛ حسين الجميلي، عصر الخليفة المستعصم بالله، رسالة ماجستير، جامعة الموصل، ١٩٨٩ م، ص ١٤٠.

(١٣٤) ومن هؤلاء العلماء : الفقيه أحمد بن مسعود التركستاني، وعبد الله بن الحسين بن عبد الله العبكري، ويعقوب بن صابر الحراني، وأبي البقاء بن أبي عبد الله الضرير النحوي. الصفدي، الوافي، ج ٨، ص ١٧٨؛ الذهبي، تاريخ (٦١٠ - ٦٢٠ هـ)، ص ٢٩٥؛ مجهول، الحوادث، ص ٩ - ١٠.

(١٣٥) الذهبي، سير، ج ٢٢، ص ٣٤٦.

(١٣٦) الذهبي، تاريخ، حوادث (٦٢٠ - ٦٣٠ هـ)، ص ٤٠٨.

(١٣٧) الغساني، ص ٦٤٠.

(١٣٨) ابن الطقطقي، ص ٣٣٧.

من الخليفة الناصر لدين الله، الذي أرسل شيخ الشيوخ إسماعيل بن أحمد النيسابوري ليقوم بمهمة الوساطة بين الطرفين، وبعد مفاوضات تم الصلح وغادرت قوات صلاح الدين مدينة الموصل، تقديراً منه للخليفة الناصر لدين الله^(١٤٦).

وللسبب ذاته، أرسل الخليفة المستنصر بالله سنة (٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) وفداً إلى (خلاط) أثناء حصار جلال الدين خوارزم شاه لها، وكان على رأس الوفد الشيخ أبو البركات عبدالرحمن بن شيخ الشيوخ^(١٤٧).

وفي أثناء الصراع بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر، وتأزم الموقف بين الطرفين سنة (٦٥١هـ / ١٢٥٣م)، إلى إعلان حالة الحرب، أرسل الملك العزيز يوسف بن محمد صاحب حلب ودمشق إلى الخليفة المستنصر بالله طالباً منه التدخل لمنع تدهور الموقف. فأرسل الخليفة الفقيه أبا محمد نجم الدين البادراني للوساطة بين الطرفين. واستطاع إحلال الصلح بينهما على أن تكون مصر وجنوب فلسطين وبيت المقدس للمماليك، والشام تبقى في أيدي أصحابها الأيوبيين^(١٤٨).

وقام عدد من العلماء بمهمة السفارة

للخلفاء، لكن لم تذكر المصادر طبيعة تلك السفارات. منهم : أبو القاسم عمر بن إبراهيم التركستاني، أرسله الخليفة الناصر لدين الله إلى السلطان شهاب الدين الغوري^(١٤٩). وأبو القاسم عبدالرحمن بن يحيى بن الربيع، أرسل بأكثر من سفارة إلى الملك ذاته^(١٥٠). كما أرسل الناصر لدين الله أبا الفضائل الحسن بن محمد إلى ملك الهند، وبقي هناك فترة طويلة بعد وفاة الناصر، فلما عاد إلى بغداد أرسله المستنصر بالله رسولاً إلى الملك نفسه مرة أخرى^(١٥١). كما أرسل المستنصر بالله الفقيه أبا عبدالله محمد بن يحيى بن فضالان إلى ملك الروم، ولما عاد ولاه تدريس النظامية^(١٥٢).

وكان شيخ الشيوخ أبو حفص عمر السهروردي بمثابة السفير الخاص للخلفاء، حيث أرسل إلى عدة جهات في مهمات خاصة نيابة عن الخليفة، وقد أظهر دوره في إنجاز تلك المهمات^(١٥٣).

إنشاء الخلفاء للمؤسسات الثقافية العامة :

شهد هذا العصر اهتماماً ملحوظاً بإنشاء المؤسسات الثقافية العامة كالمدارس والمكتبات. فعندما زار الرحالة الأندلسي ابن جبير بغداد عام (٥٨٠هـ / ١١٨٤م) أشار إلى أن فيها من المدارس نحو ثلاثين مدرسة^(١٥٤).

(١٥٠) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج ٩، ص ١٨٣، ص ١٨٧.

(١٥١) الذهبي، سير، ج ٢٣، ص ٣٣٢.

(١٥٢) مجهول، الحوادث، ص ٦٤.

(١٥٣) الفاسي، ص ١٣٨.

(١٥٤) ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد، رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة =

(١٤٦) الغساني، ص ١٩٢.

(١٤٧) مجهول، الحوادث، ص ٤.

(١٤٨) المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ /

١٤٤٢م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق

محمد زيادة، القاهرة ١٩٣٤م، ج ١، ص ص

٣٨٥ - ٣٨٦؛ الفسائي، ص ٥٨٦.

(١٤٩) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج ٩، ص ١٨٤.

الخليفة الناصر لدين الله في عام (٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) بعمارة خزانة كتبها، ثم نقل إليها من مكتبته الخاصة ألوفاً من الكتب النفيسة^(١٥٧). حدد ابن تغري بردي عدد الكتب المنقولة بعشرة آلاف مجلد^(١٥٨). وإذا كنا نعلم أن المدرسة النظامية كان بها دار كتب منذ زمن طويل، أيقنا أن الكتب التي حملها الناصر كانت من باب الزيادات، ولكن يظهر أن هذا العدد كان ضعفي ما كان فيها من قبل فقد أشار ابن الجوزي سنة (٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م) إلى أن بها نحواً من ستة آلاف كتاب^(١٥٩).

كما أنشأ الخليفة الناصر دار علم خاصة عرفت "بدار المسناة"^(١٦٠). أنشأها لتكون مقراً للمناظرات ومجالس العلم. وجعل بها خزانة كتب ضخمة حوت نفائس ما أبدعته عقول العلماء والأدباء. ليس أدل على ذلك من أن الخليفة كلف بالإشراف على اختيار هذه الكتب أحد أشهر علماء عصره بالحساب والجبر والهندسة ألا وهو أبو الرشيد مبشر بن

حرص منشئوها على تخصيص الأوقاف من الأراضي والعقارات لأجل ديمومتها واستمرارها في تأدية رسالتها التعليمية^(١٥٥). يلاحظ في هذه الفترة أن مهمة إنشاء المؤسسات الثقافية لم تعد تقتصر على أهل الخير من الأمراء والأعيان والعلماء، بل ساهم الخلفاء بنصيب وافر. فأنشأوا المكتبات والمدارس، وأوقفوا عليها الوقوف، كما حرصوا على متابعة شؤونها ومراقبة إدارتها وأوقافها.

أظهر الخليفة الناصر اهتمامه بالمؤسسات الثقافية من خلال القيام بجولات تفقدية لها. ففي رمضان من عام (٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م)، قام الناصر بزيارة إلى المدرسة النظامية، فشهد ما آلت إليه من الإهمال، فلما خرج كلف أستاذ داره ابن الصاحب بعمارة المدرسة على نفقة ديوان الأبنية، فأعيد ترميمها، وفرشت بالحصر من جديد^(١٥٦).

واستكمالاً لعمارة المدرسة النظامية، أمر

= والمناسك المعروفة برحلة ابن جبير، بيروت، دار الهلال ١٩٨١ م، ص ١٨٣.

(١٥٥) ابن جبير، ص ١٨٣.

(١٥٦) الأيوبي، ص ١٧٠.

(١٥٧) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٢٩، الغساني، ص ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

(١٥٨) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي

(ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) النجوم الزاهرة في أخبار

ملوك مصر والقاهرة، مصر، نسخة مصورة عن

طبعة دار الكتب المصرية، (د.ت) ج ٦، ص ١٣٦.

(١٥٩) ابن الجوزي، صيد الخاطر، ج ٣، ص ٦٠٧،

مصطفى جواد، دار المسناة، بقايا الإيوان بالقلعة،

مجلة لغة العرب، عدد ٨، بغداد، ١٩٣٠ م،

ص ٥٦٣.

(١٦٠) ذهب غير واحد من الباحثين إلى أن هذه الدار هي

البناء العباسي العتيق الذي تقوم بقاياه اليوم في

قلعة بغداد على ضفتها اليسرى. كوركيس عواد،

خزائن الكتب القديمة في العراق، مجلة سومر،

مج ٢، ج ٢، ١٩٤٦ م، ص ٢٣١. ولكن الأستاذ

مصطفى جواد أشار إلى أن هذا البناء يختلف عن

بقية المباني الأخرى المخصصة للسكن، من حيث

أن بناءها كان أقرب إلى بنايات المدارس

وأضاف أن الذي صمم المدرسة المستنصرية فيما

بعد اقتبس بعض تصاميمه منها. جواد وسوسة،

دليل خارطة بغداد، ص ١٨٦، ويؤكد هذا الرأي

ما أشرنا إليه في المتن.

ولما كانت هذه الخزانة مجاورة لرباطها، أصبحت هذه الخزانة مشتركة بينهما^(١٦٤).

ويلاحظ أن هدف الخليفة الناصر من إخراج الكتب من دار الخلافة وتوزيعها بين ثلاثة خزائن : مكتبة المدرسة النظامية، دار المسناة، تربة سلجوقي خاتون، إنما كان بهدف نشر العلم بين الناس، ونيل الثواب^(١٦٥). كما تعكس لنا عدد الكتب التي كانت في خزانة كتب دار الخلافة التي أسهمت بتنمية وإنشاء ثلاث من دور الكتب^(١٦٦).

لم يتوقف الأمر بالخليفة عند ذلك، بل حرص على أن تضم الربط خزائن كتب، لتكون بالإضافة إلى دورها في رعاية وخدمة الصوفية مراكز علم وثقافة. فإنه عندما أنشأ رباط الحريم الطاهري على دجلة غربي بغداد سنة (٥٨٩/١١٩٣م)، نقل إليه كتباً كثيرة^(١٦٧)، لتكون نواة لمكتبة عامرة فيما بعد.

ومن أجل استمرار هذه المؤسسات في تأدية دورها الثقافي أوقف الخليفة الناصر لدين الله عليها الأوقاف الكثيرة^(١٦٨).

ولعل قصر خلافة الظاهر لم تمهله من إقامة منشآت ثقافية، حيث لم تذكر المصادر المتاحة أية إشارات لمنشآت ثقافية في عهده.

أحمد بن الرازي، الذي وصفه القفطي بقوله : " كان أوحـد زمانه، فاضلاً، كثير المعرفة"^(١٦١). هذه المكانة العلمية جعلته مقرباً من الخليفة، بحيث سمح له بالدخول إلى مكتبه الخاص لاختيار الكتب التي ستنتقل إلى الدار.

استمرت دار المسناة تؤدي دورها في خدمة العلم وطلابه حتى عام (٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م) حيث تحولت من دار علم إلى رباط للصوفية، قال صاحب (الحوادث) في حديثه عن مقتل مظفر الدين علي بن علاء الدين صاحب الديوان : " ثم أمر السلطان غازان بقتل مظفر الدين علي بن علاء الدين صاحب الديوان، فنفذ إلى بغداد من قبض عليه واعتقله أياماً، ثم قتل ودفن في دار المسناة التي بأعلى بغداد، وعملت الدار رباطاً، ثم نقل منها ودفن عند والدته في الرباط المجاور للمستعصمية"^(١٦٢).

ووفاءً من الخليفة الناصر لدين الله لزوجته السيدة (سلجوقي خاتون) أنشأ خزانة كتب عامرة بتربتها بباب البصرة في الجانب الغربي من بغداد. وكانت قد توفيت سنة (٥٨٤هـ/١١٨٨م). وتم نقل كتب هذه الخزانة من مكتبة الخليفة الناصر الخاصة أيضاً^(١٦٣).

(١٦١) القفطي، ص ١٧٧.

(١٦٢) مجهول، الحوادث، ص ٤٩٤.

(١٦٣) ابن الأثير، ج ١٠، ص ١٧٩ ؛ ابن أبي عذبة، مج، ورقة ٢٢٦ - ٢٢٧.

(١٦٤) ابن الفوطي، ج ٤، ق ١، ص ٦٢٣.

(١٦٥) جواد، دار المسناة، ص ٥٦٤.

(١٦٦) عبد الحسين الرحيم، الخدمات العامة ببغداد (٤٠٠ - ٦٥٦هـ)، بغداد، وزارة الثقافة، ١٩٨٨م، ص ١٨٢.

(١٦٧) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٢٩ ؛ ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص ١١٨ ؛ الغساني، ص ٢٢٤.

(١٦٨) الأربلي، ص ٢٨٢.

أنها أصبحت دليلاً على مدى اهتمام الخليفة بالعلم. ومن خلالها عدّ عصره بحق عصر الازدهار الفكري والثقافي.

ما يهم الباحث في هذا الموضوع تبيان الأسباب التي كانت وراء إنشاء المستنصر بالله لهذه المؤسسة العلمية. يمكن اعتبار الباعث الديني واحداً من أهم البواعث التي حفزت الخليفة إلى إنشاء هذه المدرسة، وخصوصاً لدى ملاحظته طريقة التدريس في المدارس السابقة لعصره، فقد كانت كل مدرسة مقتصرة على تدريس مذهب معين حدده الواقف في وثيقة الوقف. فأراد المستنصر أن يجمع المذاهب الأربعة في مدرسة واحدة، تكون تحت إشرافه، لتعم الفائدة. أشارت إلى ذلك المصادر الموثوقة بها ومن بينها كتاب سبط بن الجوزي، الذي قال: "عمر المدرسة الشاطئية، ووقفها على المذاهب الأربعة، وأوقف عليها الأوقاف الكثيرة" (١٧٣).

فأراد المستنصر بالله من هذه المدرسة أن تكون محط أنظار أهل السنة جميعاً، لا يقف شرط مذهبي عائقاً أمام الطالب في دخولها،

تعد فترة حكم الخليفة المستنصر بالله بحق عهد النهضة العلمية والثقافية. وقد أكد المؤرخون المعاصرون له ومن جاء بعدهم على ذلك من خلال إيرادهم لروايات تبين اهتمامه بالعلم والعلماء أشرنا إليها سابقاً.

أما أول المنشآت العلمية التي أنشأها المستنصر بالله، فهو مسجد قمريه^(١٦٩)، والظاهر أن السبب الذي دفعه لإنشائه، أنه أراد أن يكون داراً للعلم فضلاً عن دوره لمكان للعبادة. وكان ذلك قبل تفكيره في إنشاء المدرسة المستنصرية بأربع سنوات. قال ابن الكازروني "فتحت عمارته في سنة ست وعشرين وستمائة، وشرط أن يكون فيه من المتلقين ثلاثين نفساً"^(١٧٠). كما جعل في المسجد خزانة كتب^(١٧١).

كان إنشاء المدرسة المستنصرية عام (٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) من أبرز المآثر التي خلفها الخليفة المستنصر بالله، والتي خلّدت اسمه على مر العصور.

وكان هذا الأثر العلمي قد أثار اهتمام الباحثين المحدثين للكشف عن جوانبه المختلفة، سواء العلمية أو العمرانية^(١٧٢). كما

= ص ١١٦؛ حسين أمين، المدرسة المستنصرية، بغداد، ١٩٦٠م؛ ناجي معروف، خزانة المستنصرية، مجلة الأقلام، ج ٤، السنة الثانية، بغداد، ١٩٦٥م؛ ناجي معروف، المستنصرية وأساتذتها، بغداد، (د.ب.ت)؛ ناجي معروف، تاريخ علماء المستنصرية، بغداد، مطبعة العاني، ١٩٦٥م؛ الجميلي، ص ص ١٤٣ - ١٥٨.

(١٧٣) سبط بن الجوزي، ج ١، ق ٢، ص ٣٧٩. وانظر: أبو شامة، ص ١٥٠؛ ابن واصل، ج ٥، ص ١٠٧.

(١٦٩) حدّد صاحب الحوادث موقع المسجد بأنه بالجانب الغربي من بغداد، مقابل لرباط البسطامي، الحوادث، ص ٤.

(١٧٠) ابن الكازروني، ص ص ٢٦٠ - ٢٦١.

(١٧١) مجهول، الحوادث، ص ٤.

(١٧٢) حول ذلك انظر: مصطفى جواد، المدرسة المستنصرية، سومر، مج ١٤، ج ١، بغداد، ١٩٥٨م، ص ٣٧ - ٦٧؛ طاهر العميد، دور المدارس الأثرية في التعليم في العصر العباسي، مجلة كلية الآداب، ع ١٤ بغداد ١٩٥٩م، =

كما كان الحال في المدارس السابقة للمستصرية^(١٧٤).

يمكن القول أيضاً أن تأسيس المدرسة المستصرية يعتبر امتداداً لفكرة تأسيس المدارس النظامية، أو لفكرة تأسيس المدارس بوجه عام. وهي مقاومة الدعوة الشيعية وبخاصة المغالية منها، والتي أخذت تشكك في صحة الخلافة العباسية^(١٧٥).

وتأكيداً لرغبته هذه، كان المستصر بالله يتابع المدرسة بنفسه، ويشرف على سير التدريس فيها، ويستمتع إلى محاضرات ومناظرات العلماء من خلال منظرية في جدار المدرسة تطل على قاعات التدريس، فيرى المدرسين، ويستمتع إلى دروسهم دون أن يروه^(١٧٦).

ومن صور المتابعة للمدرسة أنه في سنة (٦٤٥هـ / ١٢٤٧م)، نَمَّ إليه خبر أن بعض الفقهاء الذين يدرسون بالمدرسة، أعرضوا عن تدريس ما كان مقرراً من مؤلفات كبار الفقهاء، وأخذوا بتدريس مصنفاتهم، فلما انته هذا الخبر إلى الخليفة، أمر أن يلزم الجميع بذكر كلام المشايخ واحترامهم^(١٧٧).

لم يرد المستصر بالله أن تكون المستصرية مدرسة للعلوم الدينية واللغوية

فقط، بل أرادها مدرسة شاملة، تضم إلى جانب العلوم الدينية واللغوية العلوم العقلية وبخاصة علوم الطب، لما لهذا العلم من أهمية في خدمة المجتمع. لذلك نجده بعد عامين من إنشاء المدرسة، أي عام (٦٣٣هـ / ١٢٣٥م) يأمر بإنشاء إيوان للطب، وجعل فيه جماعة من المشتغلين بالطب يعلمون الطلاب. كما يكون ذلك المكان بمثابة مستشفى لمعالجة الناس، والفقراء خاصة، وقد وفر فيه ما يحتاج إليه الطبيب من العلاجات والأدوية^(١٧٨).

وبخطوة مشابهة، ومن أجل التوسع في هذه الفكرة ونشرها، نجده يوعز إلى الأمير شمس الدين بتكين أمير البصرة بإنشاء مارستان ومدرسة للحنابلة وأخرى لعلم الطب^(١٧٩).

عبر الشاعر سعد بن إبراهيم الشيباني عن أهداف المستصر بالله من وراء تأسيسه للمستصرية، وذلك عندما زارها، ولمس اشتغال العلماء والطلاب بالفقه والحديث، ونشاط الأدب، وازدهار حركة التصنيف، وما وجده من مناقشات بين أتباع المذاهب الأربعة، فصوّر ذلك تصويراً بديعاً بقوله :

هي دارُ السلامَ فسَلِّمَ لها وجـ

هاً وصَعَدَ صَعِيدَها تَعْفِيراً

لِترى دِينَكَ القَويِّمُ وأما

لُكَ تَسْمُو وذُنُوبُكَ المَغفُورُ

(١٧٨) ابن الكازروني، ص ٢٦١؛ الغساني، ص ٤٧١؛

مجهول، الحوادث، ص ٨٢.

(١٧٩) مجهول، الحوادث، ص ٣٣، ١٨١؛ ناجي

معروف، علماء النظاميات ومدارس المشرق

الإسلامي، بغداد، ١٩٧٣م، ص ١٤٦.

(١٧٤) أمين، ص ٢٩.

(١٧٥) أمين، ص ٣٠؛ الجميلي، ص ١٤٦.

(١٧٦) اليونيني، ج ١، ص ١٣٦؛ مجهول، الحوادث،

ص ص ٥٤ - ٥٥.

(١٧٧) مجهول، الحوادث، ص ٢١٧.

دوراً في خدمة العلم حتى بعد سقوط بغداد
بأيدي المغول (١٨٣).

وقامت إحدى نساء الخليفة المستعصم بالله
والمدعوة (باب بشير) سنة (٦٥٢ هـ /
١٢٥٤ م) بإنشاء دار لتعليم القرآن وتحفيظه،
على شاطئ دجلة الغربي من بغداد (١٨٤).
وتم افتتاح المدرسة في جمادى الآخر سنة
(٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م)، وقد أوقفتها على
المذاهب الأربعة، على قاعدة المدرسة
المستنصرية. وحضر الاحتفال الخليفة
المستعصم بالله وأبناءؤه من الأمراء، والوزير
مؤيد الدين بن العلقمي، وكافة العلماء
والمدرسين (١٨٥). وجعلت بها مكتبة ضخمة
حوت نفائس الكتب بالخطوط المنسوبة فيها ما
هو بخط الخطاط العراقي المشهور (ابن
البواب)، ومصحف بخط عثمان بن عفان،
 وآخر بخط زين العابدين بن علي بن الحسين
رضي الله عنه (١٨٦).

وإذا جئت مربع العلم فيها
تلقى روضاً من العلا محبوراً
وترى مالكا وأحمد والنعم
— مان والشافعي والمسطورا
والأحاديث والتصانيف والآ
داب تحوي المنظوم والمنثور (١٨٠)

وفي مناسبات عدة، حرص المستنصر على
زيارة المدرسة المستنصرية. وفي إحداها
حضر إلى المدرسة، فوقف الشيخ عبدالعزيز
ابن دلف بين يديه، وسلم عليه، وأعقب دعاءه،
تلى قوله تعالى ﴿تبارك الذي إن شاء جعل
لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها
الأنهار، ويجعل لك قصوراً﴾ (١٨١). فبدأ
خشوع الخليفة، وتقاطرت دموعه (١٨٢).

سار المستعصم بالله على خطى أسلافه من
حيث إنشاء المؤسسات الثقافية، فأنشأ المدرسة
المستنصرية، وقد بقيت هذه المدرسة تؤدي

(١٨٤) مجهول، الحوادث، ص ٢٧٥.

(١٨٥) الغساني، ص ٦٠٩، مجهول، الحوادث،
ص ٣٠٧.

(١٨٦) الغساني، ص ٦١٠، كما أن السيدة "باب بشير"
قامت بإنشاء رباط للنساء المتصوفات، ووقفت
على جميع الأوقاف الكثيرة، الغساني، ص ٦٠٨.

(١٨٠) ديوان الأربلي، ورقة ٣٣، نقلاً عن عبيد،
ص ٢٩٤.

(١٨١) سورة، الفرقان؛ الآية ٢٥.

(١٨٢) مجهول، الحوادث، ص ص ٥٤ - ٥٥.

(١٨٣) ابن رجب، ج ٤، ص ٢٤٥، رؤوف، المدارس،
ص ٢٠٣.

مفردات فنية جديدة للزجاج المزخرف أكاسيد

معدنية في مصر الإسلامية حتى نهاية

العصر الفاطمي

(في ضوء مجموعة جديدة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة)

د. جمال عبد الرحيم إبراهيم

ملخص البحث :

تهدف هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على صناعة جديدة في تذهيب بعض الأواني الزجاجية والمحفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة - تنشر لأول مرة -.

وهذه الطريقة الجديدة تتم بأن يقوم الفنان برسم العناصر الزخرفية المطلوبة باللون الذهبي مضافاً إليه الأكاسيد المعدنية داخل سطح الإناء. ثم تضاف عليه طبقة زجاجية أخرى شفافة، ثم تحرق الأنية في درجة حرارة معينة فتظهر الزخارف بين طبقتين من الزجاج وليس على سطح الإناء نفسه، كما كان متبعاً من قبل وهو الأسلوب الصناعي في استخدام مادة البريق المعدني على الزجاج.

ويوضح البحث الآراء التي تناولت فن التذهيب على الزجاج مثل رأي الدكتور/ إستيفا كربوني وهو إيطالي الجنسية ويدرس بالجامعات الإنجليزية، والذي ذكر في مقال له باللغة الإيطالية أن طريقة التذهيب على الزجاج تتم بأسلوبين: الأسلوب الأول وهو التذهيب على البارد، والثاني التذهيب على الساخن.

كل هذه الأساليب الزخرفية في صناعة التذهيب على الزجاج جعلت الفنان المسلم يبتكر أساليب جديدة في صناعة التذهيب على الزجاج ومنها الطريقة المبتكرة التي تناولتها هذه الدراسة، حيث ظهرت الكثير من الزخارف المذهبة من عناصر نباتية وهندسية وأشكال حيوانية وطيور، بالإضافة إلى توقيعات الصناع.

أنه شاهد من الزجاج المصري نوعاً فاحراً يشبه الزمرد كان يباع لنفاسته بالوزن^(١).

وفي متحف الفن الإسلامي بالقاهرة قطع من الزجاج المذهب، تمتاز بإبداع أشكالها

عندما زار الرحالة الفارسي ناصر خسرو مصر سنة ٤٣٩هـ/ ١٠٤٧م ووصف نظمها ومدنها وغناها وثروتها وحضارتها، أعجب بصناعة الزجاج، وبخاصة المذهب منه إعجابه بصناعة الخزف ذي البريق المعدني. ووصف ما رأى فيه من شفافية ونقاوة، وذلك

(١) خسرو، ناصر، سفرنامه، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٩٣م، ص ١١٨.

بالمينا وذلك في الفترة الزمنية موضوع البحث.

ونظراً لما تعج به المتاحف العالمية من نماذج رائعة للمنتجات الزجاجية الإسلامية بمصر حتى نهاية العصر الفاطمي، نجد أنها جذبت الكثير من أنظار المهتمين والمشتغلين في مجال الفنون والآثار الإسلامية الذين قاموا بعمل دراسات تناولت شرحاً وتحليلاً لهذه المنتجات^(٣)، على الرغم من أن كثيراً مما وصلنا يمثل قطعاً مختلفة الأشكال والأحجام أكثر منها أو ان سليمة، والسبب في ذلك يرجع إلى طبيعة مادة هذه التحف التي غالباً ما تتعرض للكسر بسهولة.

● والأسلوب الفني الصناعي والزخرفي لفن التذهيب المبتكر يتمثل في وضع طبقة رقيقة من الأكاسيد المعدنية المذهبة كما سبق القول، ويتم تثبيتها على السطح الخارجي للإناء، ويتم حفر الزخارف المطلوبة عليها، ثم يغطى سطح الإناء

وجمال نسبها مما يشهد للصناع المصريين ببلوغهم المرتبة العظيمة وحقق في أسرار هذه الصناعة فساروا بها قدماً إلى الأمام، وأخذوا يبتكرون طرقاً جديدة في المضمون الفني لم يكن معروفاً من قبل.

والابتكار الفني الجديد الذي وجد في بعض هذه القطع يتمثل في وضع طبقة من الأكاسيد المعدنية المذهبة^(٢) داخل سطح الإناء، ثم يضاف عليها طبقة زجاجية أخرى شفافة، ثم تحرق في درجة حرارة معينة فتظهر بين طبقتين من الزجاج وليس على سطح الإناء نفسه كما هو متبع وشائع في أسلوب صناعة استخدام الأكاسيد المعدنية المذهبة سواء على مادتي الزجاج أو الخزف.

ولهذا فإن هذه الدراسة ستلقي الضوء على التعريف لفن هذه الصناعة المبتكرة، بالإضافة إلى معرفة مفهوم تذهيب الأواني الزجاجية سواء باستخدام مادة البريق المعدني أو التمويه

(٢) التذهيب في الزجاج هو مصطلح أهل الصناعة على الرغم من استخدام أكاسيد معدنية أخرى ومتعددة.

انظر :

- David Whitehouse, Glass : A pocket Dictionary of Terms Commonly Used to Describe Glass and Glassmaking, New York 1993, p. 37.

(٣) من هذه الدراسات :

- حسن، زكي محمد، كنوز الفاطميين، القاهرة ١٩٣٧م، فنون الإسلام، القاهرة ١٩٤٨م.

- يوسف، عبد الرؤوف علي، دراسة في الزجاج المصري في العصر الإسلامي، مارس ١٩٦٩م.

= - الباشا، حسن، وآخرون، القاهرة تاريخها. فنونها. آثارها، ١٩٧٠م.

- مرزوق، عبد العزيز، الفنون الزخرفية الإسلامية في مصر قبل الفاطميين، القاهرة ١٩٧٤م.

- نوبصر، حسني، الآثار الإسلامية، القاهرة ١٩٩٦م.

- Lamm (C.J.), Mittellaterliche Glaser Und Steinschnittarbeiten aus dem Naher Osten, 2 vols. Berlin 1929.

- Basta, (S.J.), A study of ancient Islamic glass in Egypt, Master thesis, Faculty of Sciences Ain Shams University, Cairo, 1976.

Scanlon (G.T.), Rich finds at Fustat diggings in Egyptian Mail, 1985.

الأزرق وفي حالة وجود نسبة من أكاسيد الحديد فإن اللون يصبح بين الأزرق والأخضر.

- أكسيد الحديد وهو يوجد في صورة أيوني الحديدوز والحديديك، ويعطي كل منهما اللون الأزرق واللون الأصفر وخلطهما يعطي اللون الأخضر المائل للأصفرار.

- أكسيد المنجنيز، وهذا الأكسيد لا يعتبر عاملاً ملوناً، وإنما يعتبر عاملاً مزيلاً للون الأكاسيد الأخرى. وإذا وجد في صورة أكسيده الثلاثي يعطي لوناً بنفسجياً.

- أكسيد الكوبالت وهو يعطي بعد أكسدته اللون الأزرق أو يعطي اللون القرمزي^(٦).

• أما الطريقة الثانية والمعروفة الانتشار في الزجاج والخزف فهي الزخرفة بالبريق المعدني.

وتعد هذه الطريقة من ابتكار الفنان المسلم أيضاً لدرجة أنها ارتبطت ارتباطاً تاماً بالفنون الإسلامية^(٧). فلقد كانت مصر سباقة في هذا

بطبقة رقيقة أخرى من الزجاج الأبيض الشفاف يتم نفخها أمام النار، ولا تستخدم أي مادة لاصقة بين الإناء الداخلي والخارجي. ثم تحرق الأنية بالكامل في درجة حرارة معينة فيظهر الرسم ثابتاً كأنه بين طبقتين من الزجاج وليس على سطح الأنية نفسه^(٤). وقد نجح الفنان المسلم خصوصاً في العصر الفاطمي في تفادي عيوب هذه الطريقة من وجود فقاعات هوائية محصورة بين الطبقتين، بوضع كمية متوازنة من الزجاج الأبيض الشفاف المنصهر بحيث تغطي سطح الأنية بصورة تدريجية من الداخل إلى الخارج لتفريغ الهواء فيظهر تطابق في سطحي الأنية في الشكل والحجم^(٥).

والأكاسيد الملونة التي استخدمت في هذه

الطريقة هي :

- أكاسيد النحاس : فإذا استخدم في صورة أكسيد النحاسيك تم الحصول على اللون

(٥) جاد الكريم، سلوى، دراسة ترميم وصيانة الآثار الزجاجية في مصر تطبيقاً على نماذج مختارة. مخطوط رسالة دكتوراه بكلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٩٥م، ص ٣٤ - ٣٥.

(٦) جاد الكريم، سلوى، علاج وترميم أربع قطع زجاجية من العصرين الإسلامي المبكر والمملوكي. مخطوط رسالة ماجستير بكلية الآثار جامعة القاهرة ١٩٨٢م، ص ٤٤ - ٤٥.

(٧) Basta (S.J.), A study of ancient Islamic glass, pp. 116-119.

- Tait (H.), Five thousand years of glass, p. 125.

= - Tait (H.), Five thousand years of glass, London 1995.

- Carboni, (S.), Venezia Eloriente Attide Primo Simpsio International Sull'arte Venezianal L'arte Islamica, Venerzia, 9-12 December 1985.

- Osborne (H.), The Oxford Companion (٤) to Art. Oxford 1978, p. 744.

- Hodges (H.), Artifacts, an introduction to early materials and technology, London 1988. p. 61.

- Newton and Davison, Technology and Decoration of Glass. London, 1989. p. 87.

- Carboni, (S.), Venezia Eloriente. P. 19.

المجال عن غيرها من الأقطار الإسلامية. حيث عرفت طرق صناعته منذ منتصف القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي على أقل تقدير، بينما لم يعرف هذا المنتج إلا في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي في الأقاليم الأخرى^(٨).

وتتم هذه الطريقة بتطبيق صبغات من الأكاسيد المعدنية الملونة على سطح الزجاج وإحراقها في جو مختزل لإنتاج ألوان متباينة، وأهم الأكاسيد المعدنية التي استخدمت قديماً أكاسيد الذهب والنحاس والفضة وبرادة الحديد، ويتم إذابتها في الخل أو حامض آخر، وعند الاستخدام يضاف إليها وسيط زيتي، ويتكون من ذلك سائل يستخدم في الرسم على سطح الزجاج. وتحرق الأنية في جو مختزل في فرن ناره هادئة وهوؤه قليل ودخانه كثير بأول أكسيد الكربون، فينتج عن ذلك انصهار أكسيد المعدن بصورة رقيقة موزع على سطح الأنية بالتساوي وذو بريق متلألئ^(٩).

● والطريقتان السابقتان تختلفان من حيث المضمون الفني والزخرفي للأسلوب

الذي تطور والمعروف باسم "التمويه بالمينا". والمينا كلمة فارسية قديمة كانت تستخدم بمذلولات عديدة. فهي تعني بلوراً متعدد الألوان كان يستخدم في الترصيع، كما تعني أيضاً بلوراً أبيض أو زجاجياً أزرق أو الماس أو الزمرد أو الزبرجد وتكتب مينا وتعني طلاء زجاج لامع^(١٠). ويعرفها القزويني باسم "المرداسنج" نقلاً عن أرسطو بأنه حجر يتخذ من الرصاص، وهو تعريف قريب من الحقيقة لأن المرداسنج هو أول أكسيد الرصاص وهو من المواد الأساسية التي تدخل في تركيب المينا^(١١). وبعد دراسة هذه المادة دراسة تكنولوجية وفنية اقترح أحد الباحثين بأن يطلق على هذا الأسلوب الفني في الزخرفة اسم "الزخرفة بالمينا" وليس "التمويه بالمينا"^(١٢). لأن معنى التمويه في قواميس اللغة العربية مقصور فقط على عملية الزخرفة بماء الذهب والفضة، فيقال موه أو مهى أو ماه^(١٣).

وكما سبق القول فإن هذه الطريقة انتشرت

(١١) - Azeez (H.) and Ghietas (M.), Adictionary of archaeological and artistic terms, the EIP. 1993, p. 41.

نقلاً عن :

- رمضان عوض رمضان، الآثار الزجاجية المزخرفة بالمينا المموهة بالذهب، مخطوط رسالة ماجستير بكلية الآثار، جامعة القاهرة سنة ١٩٩٩م، ص ٣٠.

(١٢) رمضان، عوض رمضان، الآثار الزجاجية، ص ٣١.

(١٣) يحيى، محمد بكري، فن المينا، القاهرة ١٩٦٨م، ص ٣، ٤.

(٨) نويصر، الآثار الإسلامية، ص ٣٥٤.

(٩) - Tait (H.), Five thousand years of glass, p. 127.

- مرزوق، الفنون الزخرفية قبل الفاطميين، ص ١١٩.

- جاد الكريم، دراسة وترميم وصيانة الآثار الزجاجية، ص ٣٣.

(١٠) نويصر، الآثار الإسلامية، ص ٣٥٦.

إضافة الأكاسيد المعدنية السابقة الذكر، ثم توضع هذه المكونات في بواتق توضع بدورها داخل قِمانن كبيرة بشكل كاف لاستيعاب الإنتاج المطلوب^(١٧).

ولاستخدام المعادن البراقة في زخرفة الزجاج فقد كانت ترجع إلى قديم الزمان، وصل المصريون القدماء إلى مهارة فائقة في طريقة لصق رقائق الذهب على الزجاج، وذلك دون التوصل إلى طريقة تحويل معدن الذهب إلى محلول سائل للزخرفة به على الزجاج. وهناك بعض الأمثلة على استخدام رقائق الذهب ترجع إلى الأسرة الثامنة عشرة - الدولة الحديثة لمصر الفرعونية^(١٨).

ثم استخدمت هذه الطريقة - وضع رقائق ذهب على الزجاج - في مصر الرومانية، لكن من عيوبها أنها كانت عرضة للزوال، ولحمايتها من السقوط كان يوضع شبكة زجاجية بأسلوب الإضافة تحيط بالإناء من الخارج^(١٩).

واستمر تطوير هذه الصناعة باستخدام أكثر من لون براق. وبداية استخدام أكسيد المعدن كان منذ الفترة البيزنطية في مصر وقبل

في مصر في زخرفة الأواني الزجاجية الأيوبية، وزادت انتشاراً في العصر المملوكي لا سيما على زخرفة المشكاوات الزجاجية، وكذلك في العصر العثماني. ويعد استخدامها في الأخير أكثر دقة وإتقاناً حيث يتم استخدام الزخرفة بالمينا على الساخن، وبالتالي لم تتساقط المينا الملونة بمرور الزمن^(١٤)، بينما كانت من قبل تستخدم الزخرفة على البارد فتتساقط طبقة التذهيب مع قدم الزمن وإن كانت تترك جزءاً كبيراً منها على سطح الإناء^(١٥).

كل هذه الطرق الفنية التي انتشرت واستخدمت في صناعة الزجاج الإسلامي إذا دلت على شيء فإنما تدل على ابتكار الفنان المسلم على مر العصور الإسلامية، واستيعابه لجميع الطرق الصناعية التي سبقته.

أما عن الزجاج نفسه فيمكن تعريفه بمضمونه العادي بأنه مادة صلبة غير متبلورة سهلة الكسر وشفاف، تصنع بصهر الرمل مع الصودا أو البوتاس أو كليهما مع مكونات أخرى عند درجة حرارة غير ثابتة، كما لا تتجمد أيضاً عند درجة حرارة معينة^(١٦).

وللحصول على زجاج شفاف نقي ملون يتم

(١٧) - Hill, (D.R.), Islamic Technology An Illustrated History, Unesco, 1992, p. 154.

(١٨) - Newton, and Davison, Conservation of glass, p. 88.

(١٩) - Hodges, Artifacts. P. 61.

(١٤) أوقطاي أصلان آباء فنون الترك وعمائرهم، ترجمة أحمد عيسى، استانبول ١٩٨٧م، ص ٢٧٠.

(١٥) - Newton (R.) and Davison (S.), Conservation of glass, London, 1995, p. 87.

(١٦) نحاس، رؤوف، صناعة الزجاج، القاهرة سنة ١٩٦٨م، ص ٨٨.

وخير مثال على وجود هذه الاستمرارية أن مصلحة الآثار والبعثة الأمريكية عثرت على بقايا فرن من أفران صهر الزجاج من العصر الإسلامي بمدينة الفسطاط. ويتضح من تقارير البعثة أن هذه الأفران كانت تبنى على أطراف المدينة لأن صناعة الزجاج من الصناعات الضارة بالصحة، وكان يشترك في بنائها أن تكون جيدة التهوية وذات مساحات كبيرة وسقف مرتفع حتى يهوى للصانع نفسه ظروف عمل جيدة^(٢٣).

كما كان لصناعة الزجاج شأن عظيم في القرون الأولى للإسلام وحتى نهاية العصر الفاطمي لدى أصحابها أو صانعيها، حيث اقترنت وظيفة "الزجاج" بلقب عائلتهم لدرجة أنها كانت تكتب على شواهد قبور هؤلاء الصناع. فلقد وردت هذه الصناعة على شاهد قبر من الرخام من العصر العباسي مؤرخ بسنة ٣٤٧هـ/٨٦١م، يحتفظ به المتحف الإسلامي بكلية الآثار جامعة القاهرة^(٢٤). وعلى شاهد قبر من الحجر الرملي مؤرخ بسنة ٣٢٦هـ/٩٣٧م من العصر الأخشيدي باسم يوسف بن اسحق بن كامل الزجاج

دخول الإسلام مباشرة، كما يظهر في إناءين صغيرين بمتحف فيكتوريا وألبرت بلندن بهما زخرفة نباتية شبيهة بالزخارف النباتية في دير باويط بصعيد مصر، ويرجعان إلى فترة الانتقال بين العصرين البيزنطي والإسلامي بمصر^(٢٠). ولكننا لا نطمئن إلى أن الزخارف الموجودة على بعض الأواني الزجاجية قبل الإسلام مرسومة بمادة البريق المعدني، على الرغم من أنها تشبهه في اللون^(٢١).

وفي بداية العصر الإسلامي يمكن التأكيد بوجود أوان زجاجية صنعت في مصر مزخرفة بفن التذهيب والبريق المعدني، أي أن الفضل ينسب للفنان المصري المسلم في ابتكار ثم انتشار هذه الصناعة^(٢٢).

والحق يقال أن ازدهار هذه الصناعة في مصر الإسلامية يعتبر استمراراً للتقاليد الموروثة، ثم الارتقاء بهذه الصناعة الدقيقة والإبداع في أساليب الزخرفة وإخراج كل ما هو جديد في الشكل والمضمون حتى صارت صناعة الزجاج وزخرفته تمثل باباً فريداً في ميدان الفن المصري والإسلامي.

= - أبو سديرة، سيد طه، الحرف والصناعات في مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي، سلسلة الألف كتاب الثاني العدد ٩٥، القاهرة ١٩٩١م، ص ١٢٤.

(٢٤) الجهنني، محمد محمود، شاهد قبر أبو الفرج الزجاج المحفوظ بالمتحف الإسلامي بكلية الآثار، جامعة القاهرة، مجلة كلية الآداب بقنا جامعة جنوب الوادي، العدد السابع لسنة ١٩٩٧م، ص ٢٣٣.

(٢٠) مرزوق، الفنون الزخرفية قبل الفاطميين، ص ١١٩.

(٢١) زكي حسن، فنون الإسلام، ص ٥٨٥.

(٢٢) Butler (A.J.), Islamic Pottery, A study Mainly Historical, London, 1926, p. 21.

(٢٣) داود، مایسة محمود، المشكاوات الزجاجية في العصر المملوكي، مخطوط رسالة ماجستير بكلية الآداب، جامعة القاهرة سنة ١٩٧٥م، ص ٢٠٣ =

من طائفة الفنانين والمزخرفين والمذهبيين الذين وضعوا بصماتهم الفنية وساهموا بقسط كبير في تقدم صناعة الزجاج^(٢٧).

ومن خلال ما تقدم نجد أن صيغة "زجاج" تشمل المعنى والمضمون في هذه الصناعة، والأجدر بنا عند الحديث عن هذه الصناعة ووظيفة صانعيها أن نقول "مزخرف الزجاج" أكثر مما نقول "صانع الزجاج" لأنه من الإنصاف أن نعطي الأول حقه، فجمال وروعة التحفة الزجاجية يتجلى من خلال جودة الصناعة وحسن المظهر وجمال الزخارف التي تحليها من الداخل والخارج، وهذا يعني أن دور مزخرف الزجاج لا يقل أهمية عن دور صانع الزجاج من أجل إنتاج تحفة زجاجية يشهد لها بحسن الصناعة وجمال الزخارف.

وتجدر الإشارة إلى أنه يصعب في كثير من الأحيان نسب التحف الزجاجية إلى إقليم محدد خصوصاً في صناعة الزجاج التي ترجع إلى القرون الثلاثة الأولى للإسلام، وذلك بسبب تشابه الأساليب الفنية والزخرفية إلى حد كبير بين دول الشرق الأوسط الإسلامي مصر وسوريا والعراق، اللهم إلا إذا وجد عليها ما يثبت ذلك من مدن صناعته^(٢٨).

ويحتفظ به متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، وعلى شاهد آخر من الحجر الرملي من العصر الفاطمي بمصر مؤرخ بسنة ٤٠٣هـ/ ١٠١١م باسم محمد بن مرزوق الله بن عيسى ابن اسحق بن كامل الزجاج ويحتفظ به المتحف نفسه^(٢٥). وفي الأخير تأكيد لوجود مدارس فنية في صناعة الزجاج استمر إنتاجها على مر العصور الإسلامية المبكرة وحتى نهاية العصر الفاطمي كان يتوارثها الأبناء عن آبائهم مثل غيرهم في الصناعات الإسلامية الأخرى.

كما وصلنا أيضاً قطع من الأواني الزجاجية على بعضها زخارف مذهبة براقعة تضم توقيع وأسماء صانعيها، تؤكد أيضاً استمرارية إنتاج مدارسهم الفنية في صناعة الزجاج، فيوجد بالمتحف الإسلامي بالقاهرة قطعة يقرأ عليها "عمل نصير بن أحمد بن هيثم" وهي خاصة بالأمير ربيعة بن أحمد بن طولون، الذي قتل إثر ثورته على ابن أخيه هارون بن خمارويه سنة ٢٨٤هـ/ ٨٩٦م، وقطع أخرى بالمتحف نفسه عليها اسم "عباس بن نصير" وهو زجاج قاهري من العصر الفاطمي ربما كان ابن الزجاج الأول^(٢٦). كل هذا بالإضافة إلى كل من زاول هذه الصناعة من مشاهير المسلمين ممن وصلتنا أسماؤهم

(٢٧) عبد الوهاب، حسن، توقيعات الصناع على آثار مصر الإسلامية، المجمع العلمي المصري، الجزء الثاني سنة ١٩٤٥م، ص ٥٣٨.

(٢٨) ماهر، سعاد، الفنون الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ١٥٨.

(٢٥) الباشا، حسن، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ١٩٦٦م، ج ٢، ص ٥٦١ - ٥٦٢.

(٢٦) R.C.E.A., Répertoire Chronologique - D'Epigraphie arabes. Le Caire (Dépui) 1931, Tom, VI, p. 76.

ففي مصر الإسلامية عرفت مدن كثيرة، واشتهرت كمراكز لصناعة الزجاج المزخرف والمذهب، يأتي في مقدمتها مدينة الفسطاط والتي اشتهرت كأهم مركز لصناعة الزجاج حتى نهاية العصر الفاطمي، كما عرفت مدينة تنيس ببخيرة المنزلة بصناعة الزجاج وكذلك مدينة الفيوم والأشمونيين وأخميم^(٢٩).

وتعد مصر الإسلامية هي أول دولة إسلامية عرفت صناعة التذهيب بأكسيد المعدن على الزجاج وهي الطريقة الفنية الثانية لصناعة التذهيب بالزجاج^(٣٠)، حسب ما جاء ذكرها في هذا البحث.

فالمتحف الإسلامي بالقاهرة به قطعتان من الزجاج، زخرفت كل منهما بزخارف متنوعة بالتذهيب الخارجي على سطحها، وهما من أول وأقدم الأمثلة لهذه الصناعة.

● القطعة الأولى عبارة عن كأس (لوحة أ، ب، ج) عثرت عليه البعثة الأمريكية في حفائرها بمدينة الفسطاط سنة ١٩٦٥م^(٣١).

والكأس مخروطي الشكل يتألف من عدة أجزاء صغيرة ملتصقة، وينقص من حافته وجداره جزء صغير مثلثي الشكل، كما ينقصه أجزاء صغيرة أخرى في بعض المواضع.

(٢٩) حسن، زكي، كنوز الفاطميين، القاهرة، ١٩٣٧م، ص ٢١ - ٢٣.

(٣٠) انظر : الطرق الصناعية الثلاث في مقدمة هذا البحث.

(٣١) رقم السجل بالمتحف ٢٣٢٨٤، قطر ١٣,٥ سم، ارتفاع ٩ سم، قطر القاعدة ٥,٥ سم، سمك ٢,٥ مم.

والزخارف المذهبة بالبريق المعدني على جدرانه باللون العسلي Amber Iustre وتضم زخارف كتابية بالخط الكوفي البسيط بالإضافة إلى عناصر نباتية متنوعة. فعلى الحافة العلوية شريط صغير شغل بالنص الكتابي "بسم الله الرحمن الرحيم ... عبد الصمد ابن علي أصلحه الله وأعز نصره". يلي ذلك شريط آخر صغير متشابه في المساحة للشريط السابق ولكنه شغل برسم فرع نباتي متموج يحصر بداخله نقاط دائرية متشابهة ومطموسة بلون البريق. يلي ذلك شريط دائري عريض به زخارف نباتية لزهرة اللوتس متجاورة داخل مناطق لوزية الشكل يتخللها من على الجانبين أنصاف مراوح نخيلية، أما قاع الكأس فقد شغل بالكامل برسم وريدة متعددة البتلات مجسمة تجسيمياً خفيفاً.

والنص المكتوب على هذه الكأس لأمير كان أحد أفراد أسرة الخلافة العباسية على مصر، وقد تولى ولاية مصر سنة ١٥٥هـ/ ٧٢٢ - ٧٧٣م أيام الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور^(٣٢). وكانت هذه الفترة التاريخية تمثل نضوج الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بمصر^(٣٣). وتشهد هذه التحفة الجميلة أن مصر قد صنعت من أواني الشراب

(٣٢) يوسف، الزجاج، ص ٣٣٣.

(٣٣) الكندي، كتاب الولاية والقضاة، طبعة بيروت، ١٩٠٨م، ص ١١٦.

أسرة بني قلاوون عن غيرهم من الأسر الحاكمة الأخرى^(٣٥).

ونوع الخط الذي زخرف به هذه الكأس هو الخط الكوفي الذي لم يصبه التوريق أو الإزهار أو التخميل وأن مادته كتابية بحثة أيضاً مثل البدائي والبسيط، وقد عرفه أ.د. مصطفى نجيب بالخط الكوفي البرعمي، وذلك أثناء عمل دراسة جديدة لنص ١٣٦ هـ بالجامع الكبير بصنعاء، على أساس أنه الخط الكوفي البسيط وقبل الكوفي المزهر، حيث إن الأخير شبه بالزهرة التي كانت داخل كمها أو برعمها ثم خرجت منه وأزهرت، أما البرعمي فيتميز بأن له هامات ونهايات لحروفه تشبه برعم الزهرة قبل تفتحها^(٣٦).

وتشبه تماماً كتابات الكأس بكتابات النص الذي قام بدراسته أ.د. مصطفى نجيب، كما أن النصين ضم كل منهما صيغة متكررة وهي "أصلحه الله". والتي يبدو أنها كانت منتشرة في الأمصار الإسلامية التابعة للخلافة العباسية في بغداد وكانت تكتب ضمن النصوص الكتابية الخاصة لولاية هذه الأمصار.

وكؤوسه تحفاً فاخرة وزينتها برسوم جميلة نافست فيها حاضرة الخلافة في بغداد إذ ذاك.

والجدير بالملاحظة أن العنصر النباتي الجذاب الرئيسي والذي زخرف به هذه الكأس وهو زهرة اللوتس، أصولها آسيوية تطورت إلى أشكال عربية إسلامية غاية في الإبداع. وانتشر على كثير من المنتجات الفنية الإسلامية المبكرة، وخير مثال لها على الأفريز أو الطبلية الخشبية فوق أعمدة رواق القبلة بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط وهي ترجع إلى تجديدات الوالي العباسي عبد الله بن طاهر في هذا الجامع سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م^(٣٤).

كما أن عنصر الوريذة المتعددة البتلات انتشرت على العمارة والفنون الإسلامية بعد ذلك، فعلى سبيل المثال وجدت في أسقف أبواب مدينة القاهرة الفاطمية من عمل الوزير بدر الجمالي لا سيما باب النصر ٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧ م، وعلى زخارف القبة الحجرية الملحقة بخانقاة السلطان الأشرف برسباني بقرافة المماليك ٨٣٥ هـ/١٤٣٢ م. أما على الفنون الفرعية فلقد انتشرت هذه الوريذة بأشكالها المتعددة على كثير من المنتجات المعدنية، لدرجة أنها ميزت الأعمال الفنية

(٣٥) أسين أتل، نهضة الفن الإسلامي في العهد المملوكي، الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٨١، ص ٦٤ - ٦٥، لوحات ٢٦، ٣٢، ١١٣.

(٣٦) نجيب، مصطفى، دراسة جديدة لنص ١٣٦ هـ بالجامع الكبير بصنعاء، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، العدد السابع، سنة ١٩٩٦ م، ص ١٢.

(٣٤) شافعي، فريد، العمارة العربية في مصر الإسلامية، المجلد الأول، عصر الولاية ٢١ - ٣٥٨ (٦٣٩ - ٩٦٩)، القاهرة ١٩٧٠ م، ص ٢٧٥، شكل ١٨١، ص ٣٦٤، شكل ٢١٠.

● والقطعة الثانية التي زخرفت بنفس أسلوب الكأس السابق قطعة من الزجاج الفريد (لوحة ٢) تعد أقدم قطعة مؤرخة من الزجاج المصري الإسلامي المذهب بالأكاسيد المعدنية. وهي تمثل قاع إناء صغير^(٣٧). من الزجاج الأبيض الشفاف ذهبت بالأكاسيد المعدنية باللونين الأصفر والبنفسجي الداكن، وقوام زخرفتها رسم وريدة محورة بخطوط شبه هندسية بسيطة تشغل حيز القاعدة، يلي ذلك من خارجها نص كتابي بالخط الكوفي البسيط غير المعجم نصه "من عمل طراز الفيلة بمصر سنة ١٦٣ هـ - مكتوبة بالأرقام القبطية" أي أنها تعادل سنة ٧٧٩ م. وهي بذلك صنعت في أيام الوالي العباسي على مصر يحيى بن داود بن ممدود الحرشي في عهد الخليفة العباسي المهدي سنة ١٦٢ - ١٦٤ هـ / ٧٧٨ - ٧٨٠ م. حيث كانت الخلافة العباسية في بغداد لا تزال في أوج قوتها وسيطرتها على الأمصار التابعة لها، وذلك من خلال عمالها ذوي المهن المرموقة في الدولة^(٣٨).

والجدير بالذكر أن كتابة التواريخ على التحف والآثار الإسلامية بالحروف القبطية استمر وجودها في مصر حتى العصر

الفاطمي، حيث يتضح ذلك من خلال مجموعة من الوثائق المكتوبة على أوراق البردي^(٣٩).

وعند العودة إلى شكل ومضمون النص الكتابي يُلاحظ فقدان جزء من بداية النص، ومن خلال تحديد حجم ومساحة هذا الجزء المفقود والمضمون العام للنص كله يمكن وضع كلمة "من" ثم يأتي بعدها كلمة "عمل" وبها مد طويل لحرف "اللام" كما هو واضح في النص ثم يأتي بعدها كلمة "طراز" ليصبح النص كاملاً كما سبق قراءته. ولا توجد كلمة "في" بالنص على الرغم من أن معظم المراجع صارت على منوال القراءة التي قرأها الأستاذ عبد الرؤوف علي يوسف بصيغة "مما عمل في طراز الفيلة بمصر سنة ثلاث وستين ومائة"^(٤٠).

وشكل الخط المستخدم في النص يمثل الشخصية المتميزة للخط الكوفي والتي بدأت تظهر بوضوح في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، السابع الميلادي. حيث أصبحت الحروف أكثر جموداً وذات طابع هندسي واضح نتيجة تلاقي خطوط الحروف الأفقية مع الحروف الرأسية المتعامدة عليها فتكونت زوايا عديدة ميزت هذا الخط لدرجة أنه يوصف بالخط المزوي نسبة إليها^(٤١).

(٣٩) يوسف، أبحاث الندوة، ص ٦٥٢.

(٤٠) نوبصر، الآثار الإسلامية، ص ٢٢٢.

(٤١) عليوه، حسين عبد الرحيم، الكتابات الأثرية العربية، دراسة في الشكل والمضمون، القاهرة ١٩٨٤م، ص ٨.

(٣٧) رقم السجل بالمتحف ١٢٧٣٩/٩، قطر القطعة ٥,٤ سم، قطر القاعدة ٢,٥ سم، الارتفاع ١,٧ سم، السمك ٢ مم.

(٣٨) ماجد، عبد المنعم، العصر العباسي الأول، القاهرة ١٩٧٣م، ج ١، ص ١١٦.

كلها، فقد تميزت أفرانه بالدقة والنقاء وكثرة الطلب عليه سواء من العامة أو الخاصة جعلته في المقدمة عن غيره في المنطقة والبلدان المصرية.

ويبدو أن صناعة التذهيب قد قلت في الفترة التالية بعد صناعة القطعتين السابقتين، ولم يصل إلينا إلا نادراً وإن كانت غالبية صناعته بالأسلوب الفني التقليدي الموروث مثل النفخ والقطع والإضافة. كما يبدو أيضاً أن طريقة التذهيب بالأكاسيد المعدنية بدأت تنتشر بصورة أكبر على الخزف، اعتقاداً من الفنان بأن هذه المادة أكثر رواجاً من الزجاج وأقل تعرضاً للكسر. وعليه يمكن القول بأن صناعة التذهيب على الزجاج اختفت في مصر الإسلامية منذ القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي وتحولت مصانعه إلى صناعة الخزف ذي البريق المعدني، إلا أنها عادت مرة أخرى في الإنتاج منذ القرن الرابع الهجري : العاشر الميلادي وطوال العصر الفاطمي بمصر وتحمل معها خبراتها السابقة ولتنتج نماذج رائعة ومبتكرة من حيث الشكل والمضمون كما سيأتي الحديث بعد.

والدلائل التي تشير إلى ندرة إنتاج الزجاج المذهب في القرن ٣هـ/٩م، هو ما كشفت عنه حفائر الفسطاط لبعض قطع الخزف ذي البريق المعدني ترجع إلى العصر الطولوني

وتعد هذه القطعة هي أول تحفة فنية إسلامية بمصر يزين الفنان نصها بزخارف نباتية بسيطة. حيث ستأتي محاولته فيما بعد لتزويق وتطوير هذا الخط ليصبح تسميته بالخط "الكوفي المزهر". أما الوريذة المحورة بمنصف القاع فهي تمثل بداية محاولات الفنان في رسم العناصر النباتية الجيدة والمنسقة التكوين والمعروفة باسم الوريدات البتلات؛ على الرغم من أن فن صناعة المعادن الإسلامية كان سابقاً على التحف الأخرى في زخرفة هذا العنصر وبصورة جيدة^(٤٢).

كما أن الشكل العام لهذه الوريذة - على القاع - يمثل أيضاً المحاولة الأولى لبداية تنسيق العناصر الهندسية تنسيقاً مدروساً لتصبح فيما بعد العنصر الهندسي الرائع المعروف بالطبق النجمي.

وقد اختلفت الآراء والاحتمالات في تسمية "الفيلة" الواردة في النص، هل هي "بالفاء" أو "بالقاف".

وإنني أميل بأنها "بالفاء" والفيلة كان اسم مصنع من مصانع الزجاج بمصر الفسطاط، وذلك استناداً إلى النص في الصيغة "من عمل" وهذا يدل على أن هذا المصنع كان من أهم وأكبر مصانع الزجاج إنتاجاً في مصر

(٤٢) حسن، زكي محمد، أطلس الفنون الزخرفية والتصوير الإسلامية، القاهرة ١٩٥٦م، شكل ٩، ٥١٦، ٤٤١.

وباطن القاع من الداخل عليه زخرفة مذهبة باللون الذهبي لدوائر مختلفة المساحات ذات مركز واحد. ففي المنتصف توجد كلمة بالخط الكوفي المزهر محجوزة بلون البطانة بصيغة "عافية" بنفس طريقة البريق المعدني على الخزف والتي تعد نموذجاً متطوراً لفن الزخرفة في القرن السادس الهجري / الثاني الميلادي^(٤٧). يحدد هذه الكلمة من أعلى ومن الأسفل رسوم شبه مضفرة، يلي ذلك دائرة أخرى أكثر اتساعاً شغلت برسوم متراسة بالحجر أيضاً تشبه عين الكتكوت وهي تسمية من صناع المهنة أنفسهم. يلي ذلك رسوم لأفرع نباتية ملتوية مذهبة على أرضية بيضاء زخرفت على نمط زخرفة التوريق العربي المعروفة باسم (أرابيسك). أما القاع فزخرف بزخارف هندسية وأوراق نباتية محورة وخطوط غير منتظمة باللونين الذهبي والأزرق الداكن على أرضية بيضاء، وفي المنتصف يوجد توقيع الصانع بخط سميك يميل إلى الخط النسخ مما يؤكد أن هذه القطعة ترجع إلى القرن السادس الهجري. والتوقيع

عليها مناظر رسوم آدمية تمثل موسيقيين، مثل موسيقي يعزف على عود أو رجل يقعد متربصاً أو غير ذلك^(٤٣).

وشهدت مصر خلال العصر الفاطمي ٣٥٨ - ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ - ١١٧١ م رواجاً وتقدماً في صناعة المنتجات الزجاجية بالأكاسيد المعدنية زخرفت برسوم كتابية وطيور وحيوانات وزخارف نباتية وهندسية وغيرها رسمت بنفس الأسلوب المعروف على أواني الخزف ذي البريق المعدني من هذا العصر^(٤٤) - بالإضافة إلى الطريقة المبتكرة كما سبق ذكرها - مما يقطع بارتباط صناعة الزجاج بالخزف في هذا العصر وبأن بعض الفنانين كانوا يعملون في كلا الميدانين في وقت واحد. ومن هذه الأمثلة^(٤٥).

● جزء من قاع إناء^(٤٦) من عجينة زجاجية عليه زخرفة بالتذهيب بالأكاسيد المعدنية المطبقة على سطحه (لوحة ٣) وهي الطريقة التقليدية المعروفة. ولهذه القطعة خلفية مزخرفة بالتذهيب أيضاً (لوحة ٤).

= بالإضافة إلى توضيح القطع التي زخرفت بالأسلوب التقليدي السطحي أو المزخرفة بالأسلوب المبتكر.

(٤٦) رقم السجل بالمتحف ٦٩٤٩، أكبر طول ٨,٤ سم، أكبر عرض ٦,٩ سم، القاعدة ٤ سم، السمك ٤ مم، ينشر لأول مرة.

- Migeon, G., Manuel d'Art Musulman, (٤٧) Arts Plastiques et Industriels, Paris 1927, II. P. 118, Fig. 187.

- Lamm C.J., Mittellaterliche glaser, p. 127, Tafel 45/8.

(٤٣) الباشا، حسن، فنون التصوير الإسلامي في مصر، القاهرة ١٩٧٣م، ص ٥١.

- Ali Bahgat et Félix Massoul, la Céramique Musalmane de l'Egypte, Le Caire, 1936 Pls. II-V.

(٤٤) Lane-Poole, (S.), The Art of the Saracens in Egypt, London, 1886, p. 207.

(٤٥) ستوضح الدراسة التحف المنشورة والتي لم يسبق نشرها من خلال الوصف الزخرفي لكل قطعة، =

عدداً كبيراً منهم لا يزالون على دينهم المسيحي^(٥٠).

● جزء من حافة طبق من الزجاج المذهب بأكاسيد معدنية بني اللون^(٥١). عليه كتابة بالخط الكوفي المورق المذهبة على أرضية بيضاء تقرأ " .. أبي علي الحسين ابن علي بن القـ ... " لوحة (٥).

وقد نفذت هذه الكتابات وزخارفها بنفس الأسلوب السابق للقطعة السابقة وهو التطبيق بالأكاسيد المعدنية على السطح الخارجي للإتاء.

ومن خلال مضمون كتابات هذه القطعة وشكلها يرجح بأن تنسب إلى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي. إذ من المعروف أن هذه العبارات كانت تكتب كثيراً على الفنون التطبيقية وعلى العماير الفاطمية في تلك الفترة^(٥٢)، بالإضافة إلى أن كثيراً من خلفاء الدولة الفاطمية خصوصاً في بداية حكمهم كان ينتهي نسبهم ويكتب بهذه الصيغة^(٥٣). وبمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة لوح من الرخام المحفور حفرأ بارزاً عليه كتابة مشابهة بالقطعة السابقة يقرأ فيه اسم

بصيغة "زكري"، وهو من أشهر الفخاريين والخزفيين المسلمين الذين ظهرت لهم توقيعات منذ أوائل القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي^(٤٨). وربما يكون هذا الصانع مذهباً قد قام بالتذهيب على الزجاج بعد الانتهاء من زخرفته، أو ربما كان صانعاً يمتلك مصنعاً في مدينة الفسطاط وكانت تختتم الأواني وتوقع باسمه سواء كانت من الفخار أو الزجاج وذلك لتسويقها محلياً وخارجياً.

ومما لا شك فيه أن هذا الصانع يعتبر استاذاً مثل أساتذة هذه الصناعات وكان له تلاميذ استمروا في التوقيع على القطع حتى العصر المملوكي، ولدينا أمثلة لذلك في فن الخط مثل الخطاط ياقوت المستعصي الذي كان يوقع تلاميذه باسمه، رغم أنهم هم الذين قاموا بكتابة المصحف حتى بعد وفاته وذلك لتسويقها^(٤٩).

كما أنه يبدو من الاسم أنه مصري نصراني. ولا غرابة في ذلك إذ من المعروف أن أقباط مصر حملوا الواء معظم الصناعات الفنية والزخرفية لمدة طويلة بعد الفتح العربي، وأن

(٤٨) يوسف، عبد الرؤوف علي، الفخار، كتاب القاهرة، ص ٣٢٣.

(٤٩) الباشا، حسن، الخط هو الفن العربي الأصل، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، القاهرة ١٩٩٩م، المجلد الثالث، ص ١٦٤.

(٥٠) المقرئزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطوط والآثار، طبعة بولاق، ١٢٨٠هـ، ج ١، ص ١٨١. انظر أيضاً :

= - الفريد ج. بتلر، فتح العرب لمصر، ترجمة محد فريد أبو حديد، مكتبة الأسرة ١٩٩٩م، ص ٥١٤.

(٥١) رقم السجل بالمتحف ١٣٩٦٦، أكبر طول ٩,٣ سم، أكبر عرض ٢,٨ سم، السمك ١,٥ مم. تنشر لأول مرة.

(٥٢) حسن، أطلس الفنون، شكل ٣٥٩.

(٥٣) المقرئزي، الخطوط، ج ١، ص ٣٤٩.

الذي انتشر بعد ذلك خلال العصر الفاطمي ويقرأ من النص "... له لـ..." ويبدو أنها كانت جزءاً من النص العلوي. وذلك بالتهذيب البني على أرضية شفاف بيضاء هي لون الزجاج.

وتشهد هذه التحفة أن مصر قد صنعت من أواني الشراب وكؤوسه الزجاجية تحفاً فاخرة وزينتها برسوم جميلة نافست وتفوقت فيها الحضارات السابقة عن العصر الفاطمي. والجدير بالذكر أن مضمون كتابات هذه القطعة انتشر على كثير من منتجات هذه الفترة فصيغة "بركة" بالخط الكوفي المورق وجدت زخرفتها على قدر من الخزف الأبيض ذي نقوش خضراء وزرقاء من مصر من القرن الرابع الهجري أو الخامس الهجري/ ١٠ - ١١ م^(٥٦).

كما وجدت صيغة "بركة لصاحبه" مشابهة لقطعة موضوع الدراسة مزخرفة على قنينة من البلور الصخري بالمتحف نفسه^(٥٧).

ووجدت على قطعة أخرى من البلور الصخري بصيغة "بركة لصاحبه" بالمتحف نفسه^(٥٨). والقطعتان ترجعان إلى العصر الفاطمي القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. أي أن هذه الصيغة الدعائية يبدو

شخص علوي يدعى حمزة بن علي، ثم يرفع نسبه إلى علي بن أبي طالب ويتبع ذلك بالصيغة الدعائية المعتادة عند الشيعة عند ذكر اسم علي. واللوح من العصر الفاطمي يرجع إلى نهاية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي^(٥٤).

● ومن القطع الزجاجية التي نفذت بنفس الأسلوب الفني السابق، جزء من جدار كأس كان مخروطي الشكل^(٥٥). مذهب بالأكاسيد المعدنية البنية اللون (لوحة ٦) على السطح الخارجي فقط وتم حرقه في القرن ويرجع أيضاً إلى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي.

وتضم هذه القطعة شريطاً ضيقاً من أعلى الفوهة الخارجية للكأس محدداً من أعلى وأسفل بلون التذهيب، وشعل بداخله بنفس لون التذهيب على أرضية بيضاء نص كتابي بالخط الكوفي البسيط يقرأ منه " .. من الله صاحبه الله لكل ... " ويبدو أن النص كان "بركة من الله صاحبه الله لكل ...". يلي ذلك من أسفل تحديد بالإضافة من مادة الزجاج بارزة باللون الأخضر الفاتح، ثم مساحة كبرى تشغل معظم حيز الكأس شغلت بكتابات كوفية مورقة يتخللها أفرع نباتية تمثل المرحلة الأولى لبداية ظهور الخط الكوفي المزهر

(٥٤) وزارة الثقافة : معرض الفن الإسلامي في مصر من ٩٦٩ إلى ١٥١٧م، ص ٢٦١، لوحة ٣٢.

(٥٥) رقم السجل بالمتحف ١٤٧٣٠/٤، مشتراه من مسيو ناتو سنة ١٩٤٣م، ارتفاع ٦,٩ سم، سمك ٣ مم.

(٥٦) حسن، فنون الإسلام، ص ٣٢١، شكل ٢٥٢.

(٥٧) - Lamm, Mittellaterliche glaser, p. 207, Tafel 74/3.

(٥٨) - Lamm, Mittellaterliche glaser, p. 110, Tafel 34/8.

- أنها انتشرت على معظم المنتجات الفنية في هذه الفترة وما بعدها.
- ومن القطع الزجاجية التي نفذت أيضاً بالأسلوب الفني السابق ومذهبة باللون البني أيضاً^(٥٩) جزء من حافة علوية لإناء متسع من فتحته العلوية (لوحة ٧). وهي ترجع إلى أواخر القرن الرابع الهجري وبداية القرن الخامس / العاشر، والحادي عشر الميلادي. ويزينها من الخارج شريط من شبه الكتابة الكوفية المورقة عبارة عن حرف "كا" متكرر، وشرطة الكاف مثنية بأسلوب زخرفي يبدو وكأنه فرع ملتوي.
- وبالمتحف نفسه سلطانية من الزجاج، ذات قاعة مدورة. تزينها من الداخل زخارف تشبه تماماً زخارف القطعة السابقة – موضوع الدراسة – ومذهبة بأكسيد معدني بني اللون قائم^(٦٠).
- كما يوجد شبيه لزخارف هذه القطعة على إناء زجاجي من العصر الفاطمي ومذهب بنفس الأكاسيد المعدنية يرجع إلى بداية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ومحفوظ بمتحف فكتوريا وألبرت^(٦١).
- وبنفس الأسلوب الفني السابق وباستخدام الأكاسيد المعدنية المذهبة باللون البني الفاتح والقائم هناك جزء كبير لسلطانية صغيرة من الزجاج ذات قاعدة مدورة والجوانب منفرجة انفرجاً طفيفاً^(٦٢). (لوحة ٨). يزينها من الخارج عند الحافة العلوية خطان متوازيان أسفلهما بقايا رسوم كتابية غير مقروءة بأسلوب نباتي وهندسي. وترجع هذه القطعة إلى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي.
- ولم تقتصر القطع – موضوع الدراسة – على زخرفتها بالزخارف الكتابية المقروءة وغير المقروءة بأسلوب نباتي أو هندسي، وإنما يوجد قطع زجاجية زينت بزخارف أشكال طيور وزخارف كتابية. فيوجد بالمتحف جزء من قاع إناء (لوحة ٩)^(٦٣)، باللون الأبيض الشفاف نفذت زخارفها بالأسلوب الفني المبتكر – وضع طبقة رقيقة من أكسيد المعدن وعليه طبقة أخرى من الزجاج الشفاف – ترجع إلى نهاية القرن الخامس، بداية السادس الهجري / الحادي عشر، الثاني عشر الميلادي. ويزينها بأكسيد معدني

(٦٢) رقم السجل بالمتحف ١٤٤٦٤/٣، أكبر طول ٨,٨ سم، أكبر عرض ٣,٨ سم، سمك ٢ مم، تنشر لأول مرة، مشتراه.

(٦٣) رقم السجل بالمتحف ١٤٤٥٩/١، أكبر طول ٧,٥ سم، أكبر عرض ٩,٣ سم، سمك ٣ مم، تنشر لأول مرة، وعثر عليها في حفائر ميدان المملكة فريدة خلف البوستان في ٢٩ يوليو ١٩٣٩ م.

(٥٩) رقم السجل بالمتحف ١٤٠٥٩، طول ٩,٢ سم، عرض ٦,٣ سم، سمك ٣ مم، تنشر لأول مرة، مصدرها من حفائر الفسطاط في ٢٠ يونيو ١٩٣٨ م.

(٦٠) - Lamm, Mittellaterliche glaser, p. 110, Tafel 34/8.

(٦١) - Lamm, Mittellaterliche glaser, p. 117, Tafel 37/10.

بني فاتح رسم طائر (عصفور) في قاع القطعة المستدير واقف ومتجه إلى اليمين، وهو يمسك في منقاره فرعاً نباتياً ملتوياً ينتهي بأوراق دقيقة، يمثل هذا الفرع خلفية هذا القاع، وعلى بقية الجدران كتابات الخط الكوفي المورق يقرأ منها "العز .." ويبدو أنها جزء من عبارة "اليمن والعز والإقبال" وهي صيغة دعائية انتشرت على بعض قطع النسيج الفاطمي التي ترجع إلى المرحلة الثالثة في ١٢/هـ ١٢م^(٦٤).

ولقد تكررت هذه العناصر الزخرفية في كثير من المنتجات الفنية الفاطمية لاسيما رسم الطائر، فنجد على الزجاج المزخرف بالبريق المعدني في كسر من قاع صحن بالمتحف نفسه^(٦٥). وظهر أيضاً على نماذج متعددة من الأواني الخزفية المرسومة بالبريق المعدني ويخرج من منقاره أيضاً فرعاً نباتياً مثل تلك الموجودة على قاع إناء صغير محفوظ بمتحف كلية الآثار جامعة القاهرة^(٦٦). كما أن رسم الطائر مثل مكرراً أو مع عدة طيور على كثير من المنتجات الفاطمية في الخزف والعاج^(٦٧). ومن العناصر الزخرفية الحيوانية الرائعة

على قطع الزجاج المذهب قطعة تمثل جزءاً من قاع إناء من الزجاج الأبيض الشفاف (لوحة ١٠) عليه زخرفة بالأكاسيد المعدنية بالأسلوب المبتكر السابق باللون البني القاتم^(٦٨). قوامه الزخرفي رسم غزال نابض بالحياة طويل القرون يجري في اتجاه اليمين، وهو يحمل في فمه فرعاً نباتياً ينتهي بورقة مخروطية الشكل تشبه القلب، ويزين الأرضية أفرع أخرى ملتوية تخرج منها أوراق متشابهة، والغزال مرسوم بعناية ودقة، وأجزاء من البدن كالصدر والبطن والفخذ مجسمة بنقط دقيقة وتظهر ناصعة خالية من الطلاء المعدني.

وهذه القطعة بأسلوبها الفني المبتكر ترجع إلى بداية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي. كما أن رسم الغزال انتشر بصورة جلية سواء مفرداً أو مع مجموعات على كثير من المنتجات الفنية الفاطمية وبخاصة الخزف ذو البريق المعدني، مثال ذلك صحن من الخزف يرجع إلى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي بالمتحف نفسه^(٦٩). كما ظهرت على زخرفة

(٦٨) رقم السجل بالمتحف ١٤٥١٩، الطول ١١,٥ سم، العرض ٩,٥ سم، السمك في الأطراف ٣ سم، وفي المنتصف ١ سم، مشتراه.

(٦٩) - Ali Bahgat et Massoul, (F.), le Céramique Musulmane De L'Egypte. Le Caire, 1930, pl. 24.

= وانظر أيضاً :

(٦٤) حسن، أطلس الفنون، شكل ٥٩٧.

(٦٥) وزارة الثقافة، معرض الفن الإسلامي، ص ٢٢٩.

(٦٦) رقم السجل ١٢٩٧.

انظر أيضاً :

- حسين، محمود إبراهيم، الفنون الإسلامية في

العصر الفاطمي، القاهرة ١٩٩٩م، ص ١٥٣.

(٦٧) نويصر، الآثار الإسلامية، ص ٢٣٠.

العاج الفاطمي^(٧٠).

ولم يقتصر رسم الغزال على الفنون الفرعية الفاطمية، بل وجد بصور جلية ودقيقة ورائعة على بعض المنتجات الفنية في العصر المملوكي بمصر، وخير مثال على ذلك جزء من قاع إناء من الخزف المصري من عمل الخزاف "غزال" محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة أيضاً^(٧١). وهذا يؤكد استمرارية العناصر الزخرفية المصرية على طوال فترات التاريخ.

• ومن القطع الزجاجية التي نفذت بنفس الأسلوب الفني السابق المبتكر وزينت بزخارف حيوانية وطيور، قطعة تمثل جزءاً من إناء من الزجاج الأبيض الشفاف (لوحة ١١)^(٧٢). ترجع إلى القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي. زينت بأكسيد معدني بني اللون قاتم لمؤخرة غزال يقف عليه نسر ناشر جناحيه. ويحيط بهذا التكوين رسوم نباتية لأفرع تخرج منها أوراق دقيقة وأنصاف مراوح نخيلية.

والقيمة الجمالية لهذه القطعة في أنها تجمع

أكثر من عنصر زخرفي نفذ بأسلوب فني واحد، وتلك العناصر انتشرت كثيراً في الفنون الفاطمية مثل ما سبق ذكره من زخارف نباتية ورسوم غزال. كما أن النسر أيضاً له دور بارز في هذه العناصر الزخرفية، فوجد علي سبيل المثال في وضع انقضاظ على غزال في رسوم الورق^(٧٣). كما وجد ناشراً جناحيه على شقافة من الخزف ترجع إلى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي بالمتحف نفسه مرسوم بالبريق المعدني^(٧٤).

ومهما يكن من الأمر فإن رسم النسر استمر في العصور التالية للعصر الفاطمي، وأخذ يتجه اتجاهاً آخر غير الزخرفة، حيث أصبح النسر يمثل شارة مميزة لكثير من السلاطين والأمراء إلا أنه من الناحية التصويرية فقد الكثير من قربته من الطبيعة^(٧٥).

• ومن القطع الزجاجية المذهبة والمنفذة أيضاً بالأسلوب المبتكر الفني الذي ساد صناعة الزجاج الفاطمي منذ أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي. جزء كبير من صحن زجاجي (ثلثيه) من عجينة معتمة ذات لون أحمر

= عثر عليها في حفائر ميدان الملكة فريدة خلف البوستان.

(٧٣) حسين، الفنون الإسلامية، ص ٦٠.

(٧٤) Ali Bahgat et Massoul, (F.), la Céramique Musulmane, Pl. 24.

(٧٥) عبد الرحيم، جمال، أعمال الأمير بيسرى المعمارية والفنية، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، العدد الثامن سنة ١٩٩٧م، ص ٥٣٠.

= حسن، زكي محمد، تحف جديدة من الخزف الفاطمي، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، ديسمبر ١٩٥١م، ص ١٠٧، لوحة ١٢.

(٧٠) حسين، الفنون الإسلامية، ص ٢٠٤.

(٧١) مصطفى، محمد، الخزف الإسلامي، القاهرة ١٩٥٦م، ص ١٨، شكل ٢٦.

(٧٢) رقم السجل ١٤٤٥٩/٢، أكبر طول ٩ سم، أكبر عرض ٧,٢ سم، سمك ٢,٥ مم، تنشر لأول مرة، =

داكن (لوحة ١٢)^(٧٦). زين برسم طائر (عصفور) يستعد للطيران ومتجه برأسه إلى جهة اليمين ويحتل الجزء الأكبر من مساحة الصحن. يحيط بهذا الطائر أفرع نباتية مرسومة بالأكاسيد المعدنية الزيتونية اللون وهي عبارة عن أرفع ملتوية تخرج منها أوراق ثلاثية ودقيقة وهي الأفرع المعروفة عن الفنون الفاطمية.

وكما سبق القول فإن هذه الرسوم ولا سيما شكل الطائر انتشرت على الفنون الفرعية الفاطمية.

● توجد قطعة زجاجية أخرى تشبه من حيث الأسلوب الفني المبتكر واللون القطعة السابقة، عبارة عن كسرة من قاع إناء به جزء من الجدار المنفرج^(٧٧)، وهي من الزجاج العسلي اللون ومذهب بأكسيد معدني أحمر اللون داكن (لوحة ١٣)، وترجع إلى نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي. والعنصر الزخرفي الرئيسي على هذه القطعة رسم شكل طائر خرافي يميل أحياناً إلى شكل الديك، وعلى الأجناب زخارف زهور

محورة، بعضها غير واضح. بالإضافة إلى كتابات بالخط الكوفي بحروف كبيرة غير واضحة. والجدير هنا أن هذا الطائر رسم أكثر من مرة على المنتجات الفاطمية خصوصاً على الورق والمخطوطات^(٧٨).

● وبنفس الأسلوب الفني المبتكر أيضاً، توجد قطعة من الزجاج الشفاف^(٧٩). عبارة عن جزء من إناء عليه بقايا رسم بالأكسيد المعدني البني القاتم (لوحة ١٤)، يوضح الجزء العلوي منه عصفوراً يقترب من فمه فرع نباتي من الأفرع المعروفة في الفن الفاطمي. ويرجع إلى بداية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي وقد نجح الفنان في تحديد مكونات العصفور وذلك من خلال رسم منقاره وفراغ العين والأجنحة، وهذا إذا دل فإنما يدل على تمرس المذهب وإتقانه في الزخرفة بهذا الأسلوب على الزجاج.

● ووجد أيضاً رسم الطيور بالتذهيب بالأكاسيد المعدنية باللون البني الفاتح، ولكن بالأسلوب الفني التقليدي بالرسم على السطح الخارجي للإناء في قطعة من الزجاج الشفاف تمثل جزءاً من بدن إناء

(٧٨) Grube E.J., Three Miniature from Fustat, London 1963, Pl. 1.

(٧٩) رقم السجل ١٤٤٦٠/٢، أكبر طول ٥,٤ سم، أكبر عرض ٣,٢ سم، سمك ٢ مم، ينشر لأول مرة، عثر عليه في حفائر ميدان الملكة فريدة خلف البوستان.

(٧٦) رقم السجل ٢٤٢١٦، قطر الصحن ٩,٢ سم، قطر القاعدة ٣,٥ سم، السمك ١,٥ مم، من حفائر الفسطاط ١٩٦٩/١٠/٤ م.

(٧٧) رقم السجل ١٦٤٣٢، أكبر طول ٨,٢ سم، أكبر عرض ٦,٥ سم، سمك القاعدة ٢,٥ مم، سمك البدن ٢ مم، مشتراه.

ترجع إلى بداية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي.

والمعروف أن رسم السمك على الفنون الإسلامية قد رسم بوضوح تام ويستطيع المرء أن يدرك الدقة والإتقان في تصوير هذا العنصر على كثير من المواد. فعلى سبيل المثال ظهر رسم لسمك على الورق الفاطمي يرجع إلى نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس الهجري / نهاية الحادي عشر وبداية الثاني عشر الميلادي^(٨٢) وعلى الخزف وبصفة خاصة المرسوم بالبريق المعدني. ونجد أن العصر العباسي بمصر كان سابقاً للفاطمي ويتضح ذلك من خلال صحن رسم عليه مركب ويظهر قاع البحر به رسم ثلاث سمكات^(٨٣). وفي العصر الفاطمي ظهر على كثير من الأواني سواء كانت تضم رسم سمكة واحدة أو اثنتين أو مجموعة من الأسماك^(٨٤). واستمر تصوير هذا العنصر الزخرفي على المنتجات الفنية المصرية في العصور الإسلامية التالية خصوصاً في العصر المملوكي، حيث نجح الفنان في إظهار أدق التفاصيل له من حيث

(لوحة ١٥)^(٨٠). زينت بشكل طائر يمسك في منقاره فرعاً نباتياً غليظ الحجم، فاقد أجزاء منه وإن كانت الرجل اليمنى، والشكل العام للطائر ربما يوحي حمامة أو عصفوراً. وكما سبق القول فقد انتشر هذا العنصر الزخرفي كثيراً في العصر الفاطمي.

والملاحظ هنا أن التذهيب باهت اللون وفقد أجزاء صغيرة منه، وربما يرجع السبب في ذلك إلى تأثير التربة على القطعة قبل استخراجها من الحفائر. وعليه فيمكن إرجاع هذه التحفة إلى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي.

ومن العناصر الزخرفية التي نفذت على بعض القطع الزجاجية - موضوع الدراسة - رسم السمك - ويتضح ذلك من خلال جزء من قاع إناء (لوحة ١٦)^(٨١). زين برسم سمكة بالأسلوب الفني المبتكر فاقدة الرأس على زجاج أبيض شفاف، ويضاف للتذهيب أكاسيد معدنية استخدمت فيها ألوان متدرجة وهي اللون الأخضر والأزرق والأصفر. وتعد هذه القطعة من القطع الفنية النادرة حيث إنها

(٨٢) حسين، الفنون الإسلامية، ص ٥٨.

(٨٣) حسن، فنون الإسلام، ص ١٣، شكل ٢٤٠.

(٨٤) يوسف، عبد الرؤوف علي، خزافون في العصر الفاطمي وأساليبهم الفنية، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد الثاني، الجزء الثاني، ديسمبر ١٩٥٨م، ص ٢٠.

(٨٠) رقم السجل ١٤٥٤٥، أكبر طول ٥,٧ سم، أكبر عرض ٥,٩ سم، سمك ٣ مم، ينشر لأول مرة، مشتراه.

(٨١) رقم السجل ١٤٥١٨، أكبر طول ٦,٥ سم، أكبر عرض ٥,٩ سم، سمك ٣ مم، ينشر لأول مرة، مشتراه.

بعدة بتلات محورة.

وانتشر هذا العنصر الهندسي على الفنون الإسلامية بكثرة منذ الفترة المبكرة ولاسيما على زخرفة الأخشاب^(٨٨). كذلك على صحن من الخزف الفاطمي ذي البريق المعدني يرجع إلى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي^(٨٩). إلا أن الأخشاب كان لها النصيب الأكبر من غيرها من الفنون الأخرى استخداماً لهذه الزخرفة على مر العصور الإسلامية التالية للعصر الفاطمي^(٩٠).

• ومن القطع الزجاجية التي ذهبت بنفس الأسلوب السابق جزء من سطح إناء (لوحة ١٩)^(٩١)، من الزجاج الأبيض الشفاف قوامه الزخرفي باللون السنجابي أيضاً نقطة مطموسة غير مستوية باللون الداكن تتقابل عندها وحدات متكررة غير مستوية المساحة تأخذ في هيئتها الخارجية والداخلية شكل اللوزات.

ولم تقتصر المنتجات المذهبة بالأكاسيد المعدنية على هذه القطع السابقة والتي تنتشر لأول مرة في العصر الفاطمي، وإنما توجد العديد من القطع الفنية بحالة جيدة وسليمة بعضها مكسور أيضاً نشر في العديد من

التكوينات والتصميمات خصوصاً على الفخار المطلي أو المعادن^(٨٥).

• وحظيت الزخارف الهندسية نصيباً في تزويق بعض القطع الزجاجية المذهبة - موضوع الدراسة -، فهناك قطعتان من الزجاج الأبيض الشفاف عليهما زخارف هندسية نفذت بالأسلوب التقليدي بالزخرفة على السطح الخارجي باستخدام أكسيد المعدن السنجابي اللون. وترجعان إلى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي. فالقطعة الأولى تمثل جزءاً من قاع إناء (لوحة ١٧)^(٨٦). قوامها الزخرفي رسم مثلثين متقاطعين أو نجمة سداسية مفقود أجزاء كبيرة من رؤوسها الستة، وفي الوسط نقطة كبيرة غير كاملة الاستدارة، بينما شغل مساحات الرؤوس الستة برسم نباتي بسيط يميل إلى شكل السهم. والقطعة الثانية تمثل جزءاً من قاع إناء أيضاً (لوحة ١٨)^(٨٧). قوامها الزخرفي رسم مثلثين متقاطعين مفقود رأسين فقط من رؤوسهما الستة، شغل مساحتهما بفرع نباتي بسيط ملتوي. بينما شغل معظم الحيز الداخلي للمثلثين أو النجمة أو النجمة السداسية برسم وريدة

(٨٨) حسن، أطلس الفنون الزخرفية، شكل ٢٧٤، ٢٧٦.

(٨٩) حسن، أطلس، شكل ٤٩.

(٩٠) - Eva Baer, Islamic Ornament, p. 81, Figs. 102 - 103.

(٩١) رقم السجل ١٤٤٧٤/٢، أكبر طول ٥,٤ سم، أكبر عرض ٤,٥ سم، سمك ٢,٥ مم، مشتراه، تنتشر لأول مرة.

(٨٥) - Eva Baer, Islamic Ornament, p. 105. Figs. 117 - 122.

(٨٦) رقم السجل ١٤٤٧٤/٣، أكبر طول ٧,٣ سم، أكبر عرض ٦ سم، سمك ٢,٥ مم، مشتراه، تنتشر لأول مرة.

(٨٧) رقم السجل ١٤٤٧٨/١، أكبر طول ٦,٩ سم، أكبر عرض ٥,٨ سم، سمك ٢,٥ مم، مشتراه، تنتشر لأول مرة.

وهكذا ومن خلال ما تقدم يمكن القول بأن صناعة الزجاج في مصر قد تطورت تطوراً كبيراً، وبخاصة المزخرفة بالتذهيب، وأن الفنان المسلم ولا سيما في العصر الفاطمي لم يقف عند الاكتفاء بتقليد ممن سبقوه في هذه الصناعة بل أخذ يفكر ويدرس ويبتكر أسلوباً جديداً في فن الصنعة، وهو التذهيب بين طبقتين من الزجاج والمعروف بالأسلوب المبتكر.

وعليه فيمكن تقسيم الفترات الزمنية لصناعة الزجاج المذهب بهذه الطريقة في العصر الفاطمي لمرحلتين، فالقطع ذات العناصر الزخرفية المنتشرة في بداية هذا العصر مثل الطيور والحيوانات والأشكال الهندسية مثل النجمة السداسية وأشكال اللوزات ترجع إلى نهاية القرن الرابع بداية الخامس الهجري / العاشر وبداية الحادي عشر الميلادي. وقد نفذت جميعها بالتذهيب على السطح الخارجي للأواني وتسمى "بالمرحلة الأولى". بينما القطع التي ظهرت بها نفس العناصر السابقة ورسوم السمك ونفذت بالأسلوب المبتكر بوضع الأكاسيد المعدنية بين طبقتين من الزجاج الشفاف فهي ترجع إلى نهاية القرن الخامس وبداية السادس الهجري / نهاية الحادي عشر الميلادي وبداية

المراجع العلمية، ويحتفظ بها متحف الفن الإسلامي بالقاهرة والمتاحف العالمية ومنها على سبيل المثال لا الحصر، صحن من الزجاج الأخضر بالمتحف الإسلامي بالقاهرة كان ضمن مجموعة الأمير يوسف كمال قوام زخرفته بالأسلوب التقليدي رسم وريدة في منتصف القاع، بالإضافة إلى زخرفة شبه كتابة كوفية عبارة عن حرفي "كا" مكرر أربع عشرة مرة في حافته. ويرجع إلى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي^(٩٢).

وبالمتحف نفسه بعض قطع من الزجاج الأخضر عليها رسم بالتذهيب التقليدي على السطح الخارجي بالبريق المعدني الذهبي اللون خمسة أسطر من كتابة قريبة للخط النسخ يقرأ منها "عمل عباس بن نصير بن أبي يوسف بن جرير بن سعيد التلاوي"^(٩٣).

ويمكن أن يكون "عباس" هذا له صلة قرابة وصانع الدوارق الزجاجية الجميلة "نصير بن أحمد بن هيثم" أيام الدولة الطولونية^(٩٤). ومن خلال النص الكتابي الذي يميل إلى النوع النسخ يمكن إرجاع هذه القطع إلى بداية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي.

= - نويصر، الآثار الإسلامية، ص ٣٥٥.

(٩٤) يوسف، دراسة في الزجاج المصري، ص ٦٥٠ - ٦٥١.

(٩٢) ديماندا، الفنون الإسلامية، ص ٢٣٥.

(٩٣) ماهر، سعاد، الفنون الإسلامية، القاهرة ١٩٨٦م، ص ١٦١.

الثاني عشر الميلادي، وتسمى "بالمرحلة الثانية المتطورة".

كما أنه يمكن القول بأن هذه الدراسة أثبتت استمرارية وجود العناصر الزخرفية بشكل أدق ومتطور من عصر إلى غيره من العصور التالية، حتى أثبت الفنان المسلم بأنه دائماً يبتكر ويتطور ولا يبقى على التقاليد الموروثة فقط. ومن هنا صار الفن الإسلامي في عصوره يحتل مكانة مرموقة بين الفنون العالمية، ويشهد على ذلك علماء الآثار

والفنون الأجانب أنفسهم.

كما أثبتت الدراسة التشابه في استخدام العناصر الزخرفية وتذهيبها بالبريق المعدني على مادتي الزجاج والخزف، ومن الممكن أن يكون المذوق والمذهب فناً واحداً في كل من المادتين.

كما يمكن القول أيضاً باستمرارية المدارس الفنية لصناعة الزجاج من عصر إلى عصر مباشرة مثل ما هو موجود في كتابة نص توقيع الصانع في التحفة الأخيرة.



(لوحة ١ أ) كأس من الزجاج المذهب بالبريق المعني بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
سجل رقم ٢٣٢٨٤ .



(لوحة ١ ب) صورة أخرى للكأس السابق.



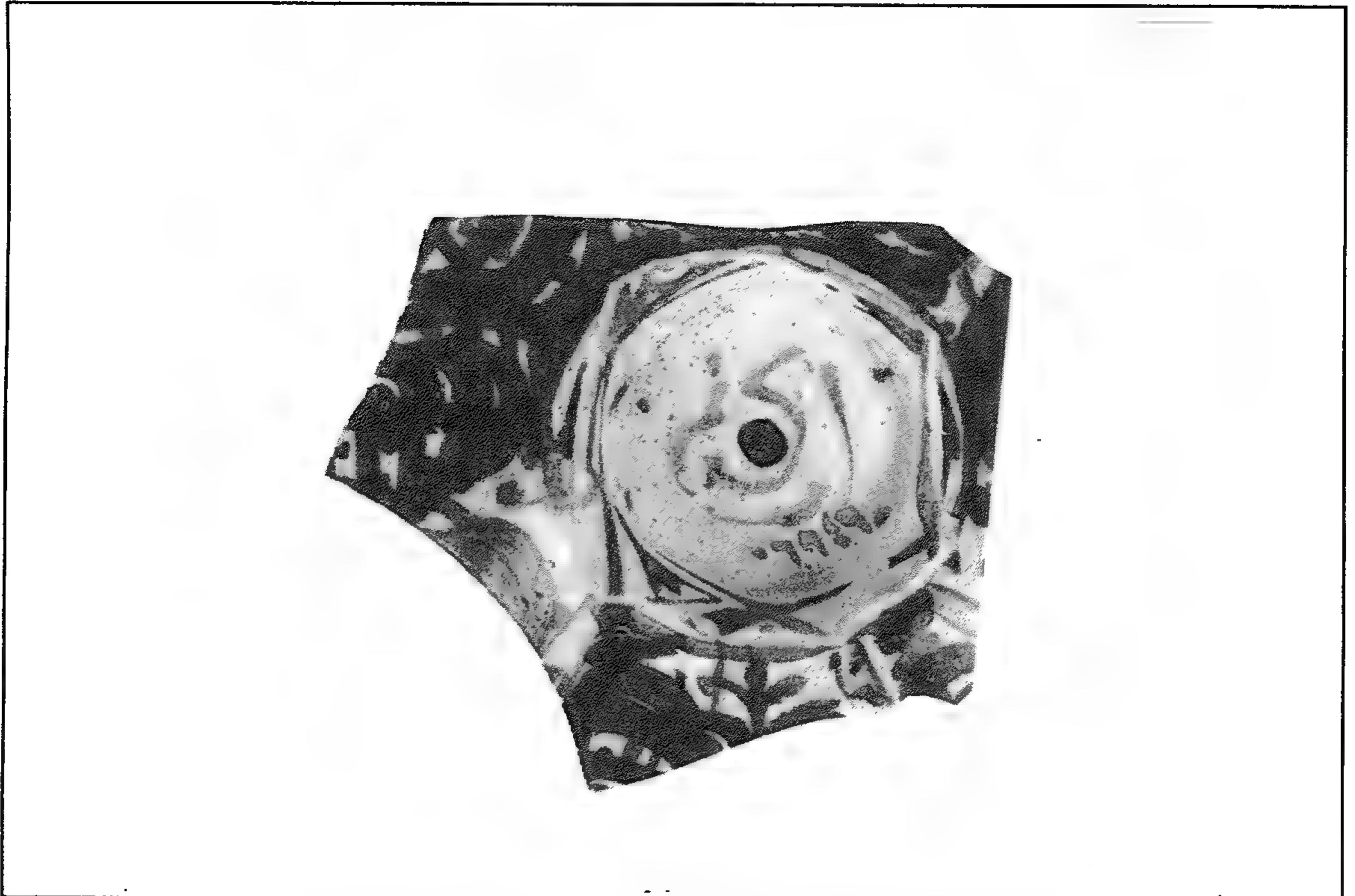
(لوحة ٤ ج) صورة أخرى للكائن السابق:



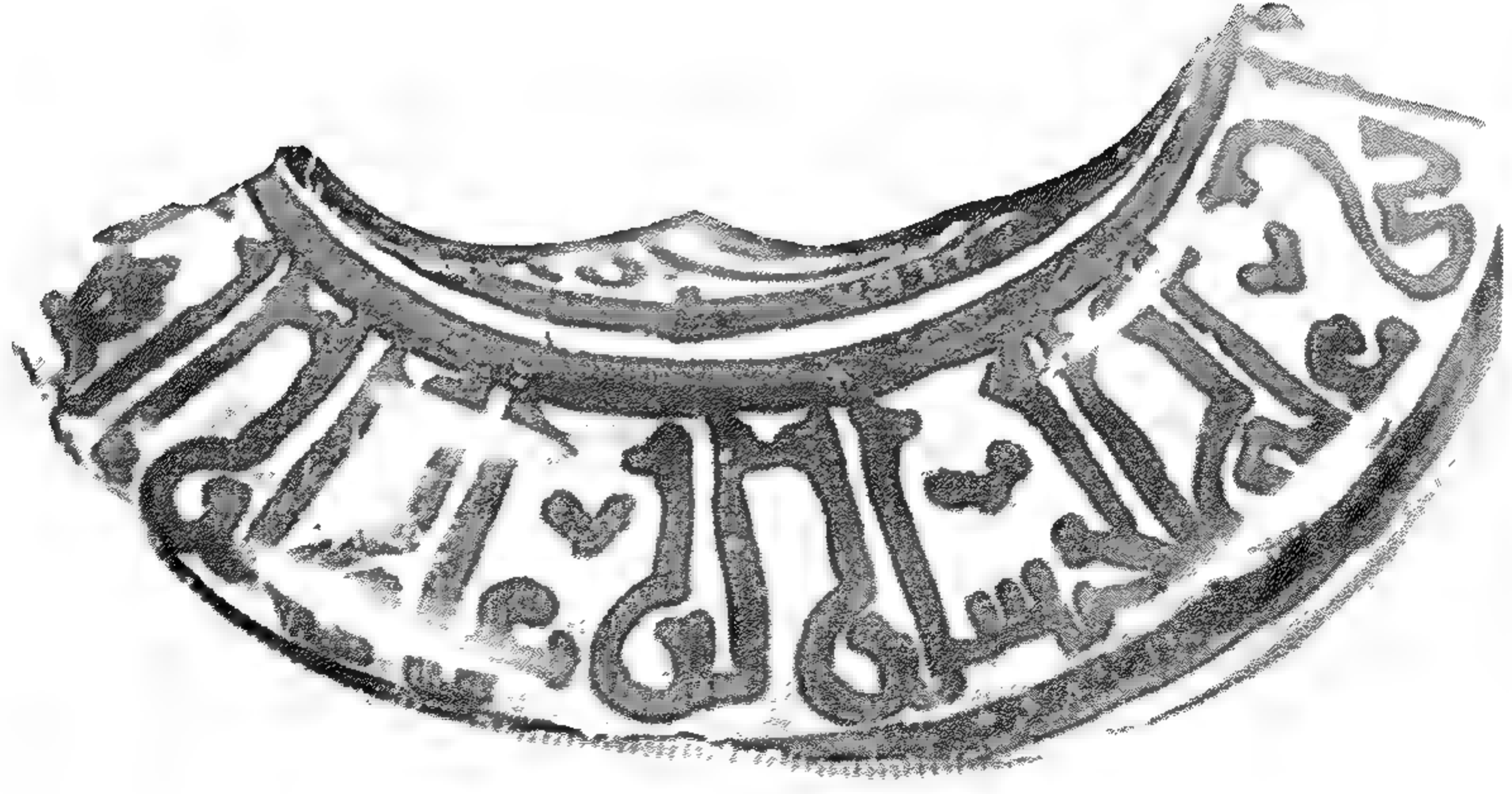
(لوحة ٢) جزء من قاع إناء صغير من الزجاج الأبيض المذهب بالأكاسيد المعدنية
بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة. سجل رقم ١٢٧٣٩/٩ .



(لوحة ٣) جزء من قاع إناء المذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
سجل رقم ٦٩٤٩.



(لوحة ٤) خلفية الجزء السابق. (ينشر لأول مرة).



(الوحة ٥) جزء من حلقة إتياء من الزجاج المذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
سجل رقم ١٣٩٦٦. (ينشر لأول مرة)



(الوحة ٦) جزء من جدار كأس من الزجاج المذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
سجل رقم ١٤٧٣٠/٤.



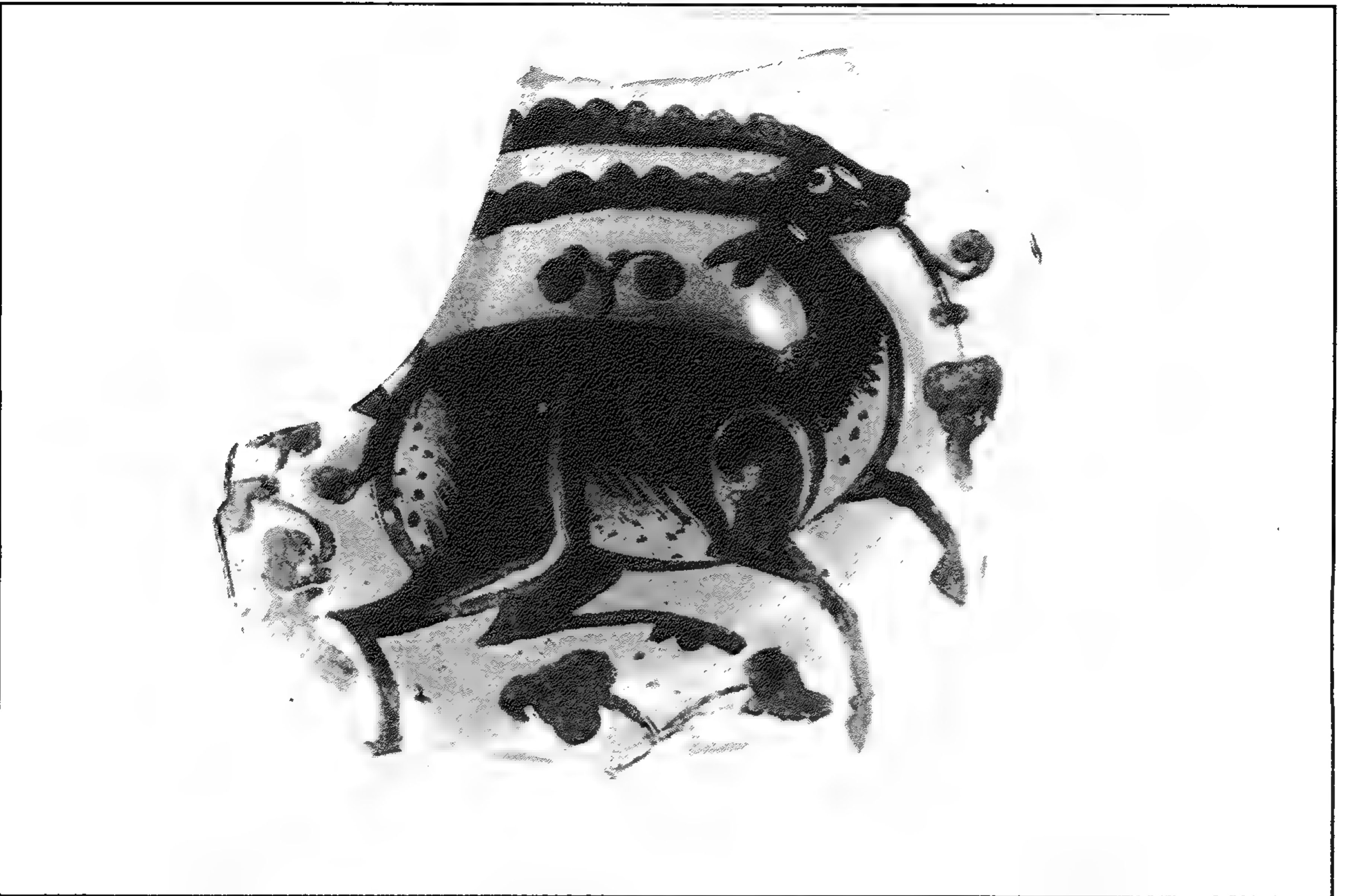
(الوحة ٧) جزء من حافة علوية لإناء من الزجاج المذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
سجل رقم ١٤٠٥٩ . (ينشر لأول مرة)



(الوحة ٨) جزء كبير لسلطانية من الزجاج المذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
سجل رقم ١٤٤٦٤/٣ . (ينشر لأول مرة).



(لوحة ٩) جزء من قاع إناء من الزجاج المذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
سجل رقم ١٤٤٥٩/١ . (ينشر لأول مرة)



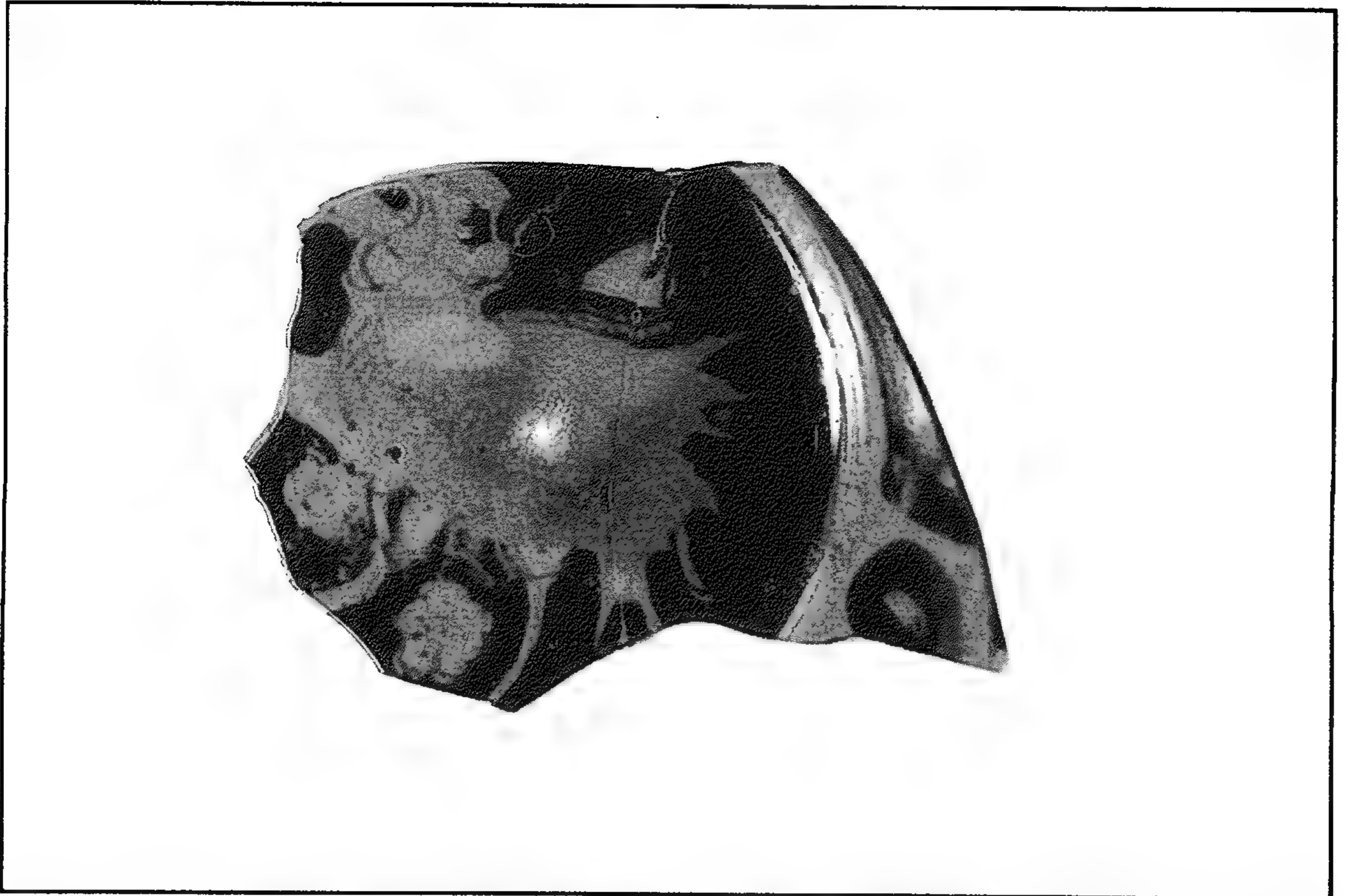
(لوحة ١٠) جزء من قاع إناء من الزجاج الأبيض الشفاف المذهب
بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة . سجل رقم ١٤٥١٩ .



(الوحة ١١) جزء من إناء شفاف مذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
سجل رقم ١٤٤٥٩/٢ . (ينشر لأول مرة)



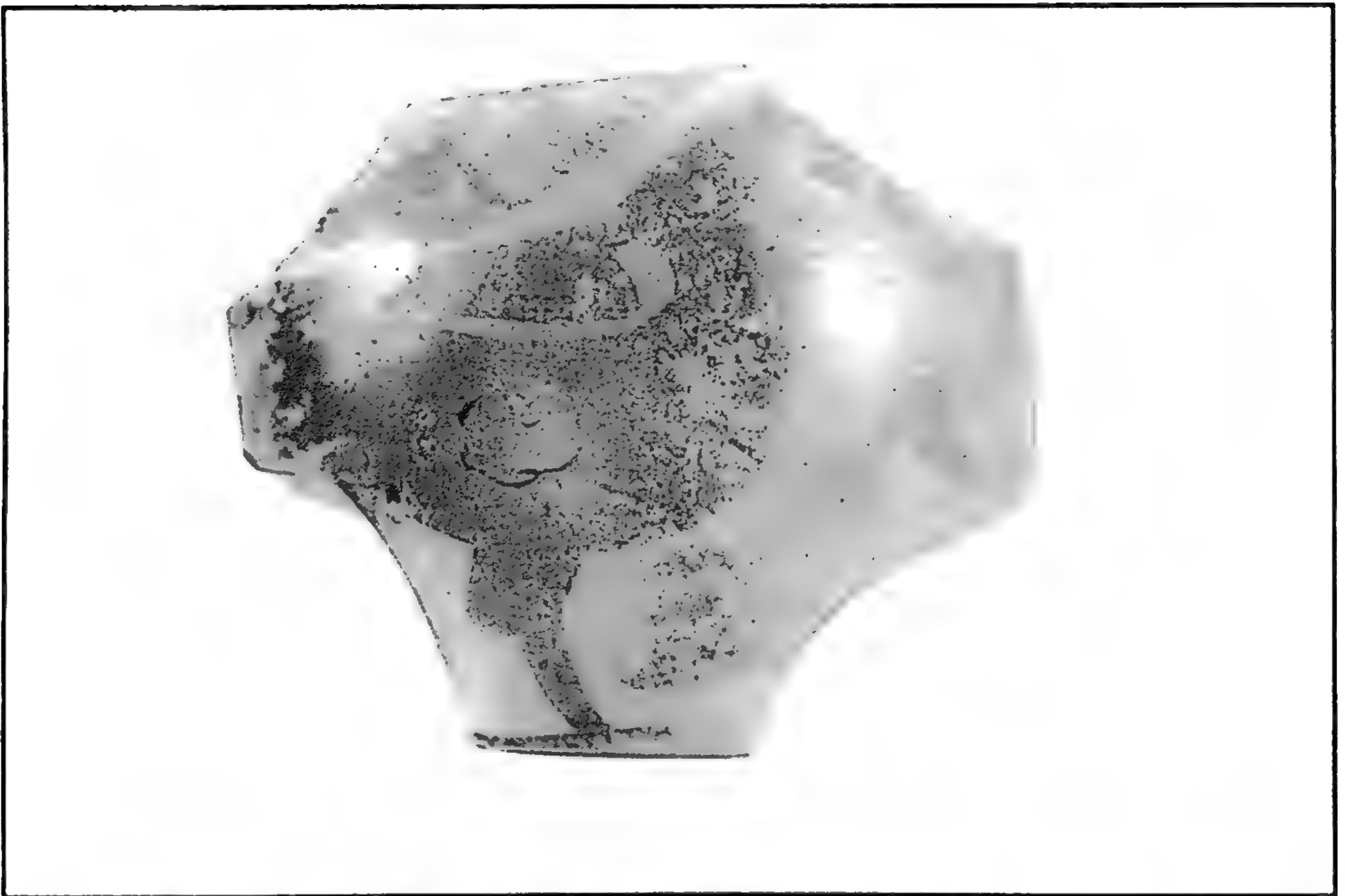
(الوحة ١٢) جزء كبير من صحن زجاجي مذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
سجل رقم ٢٤٢١٦ . (ينشر لأول مرة)



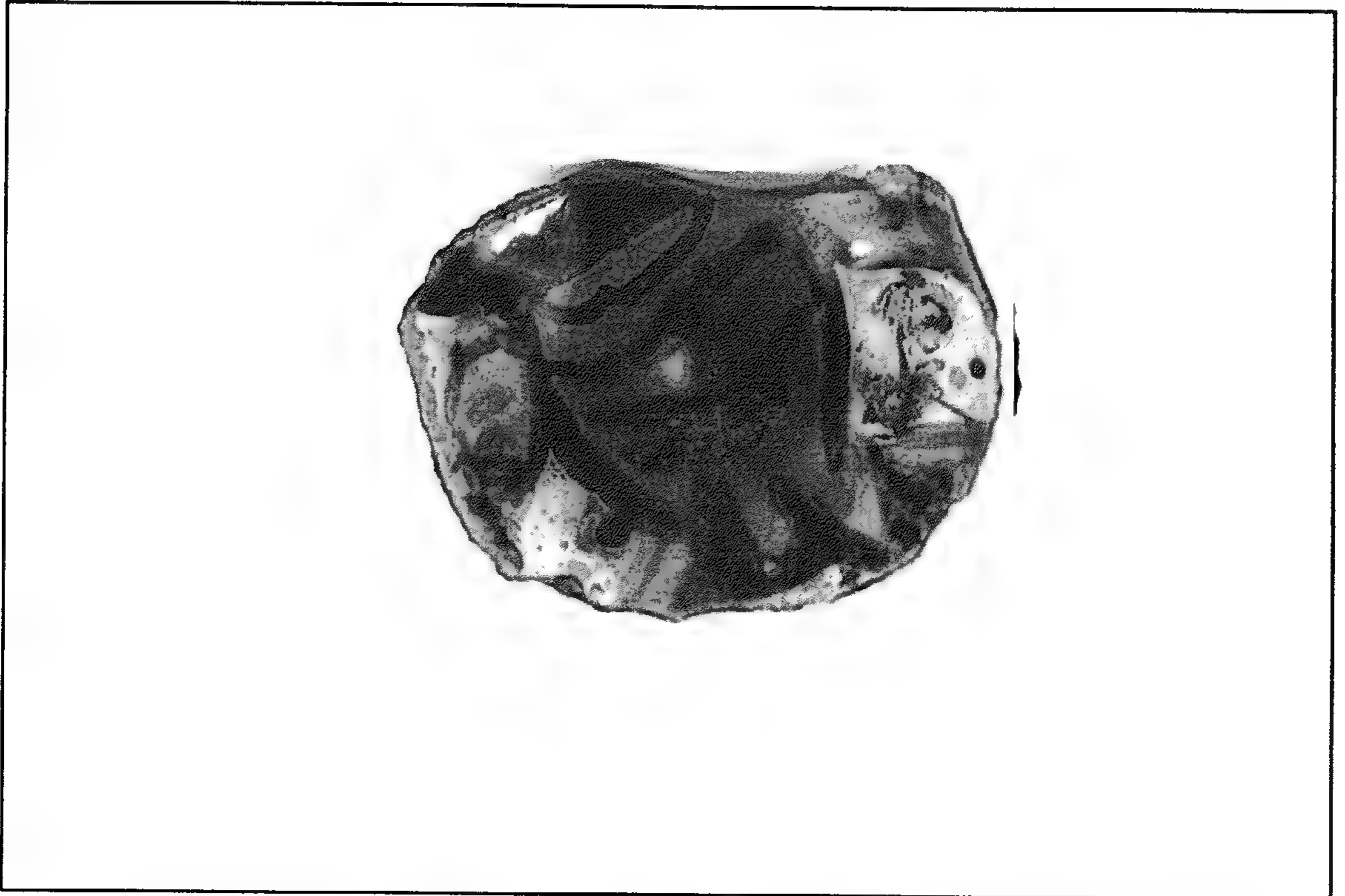
(الوحة ١٣) جزء من قاع إناء من الزجاج المذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة .
سجل رقم ١٦٤٣٢ .



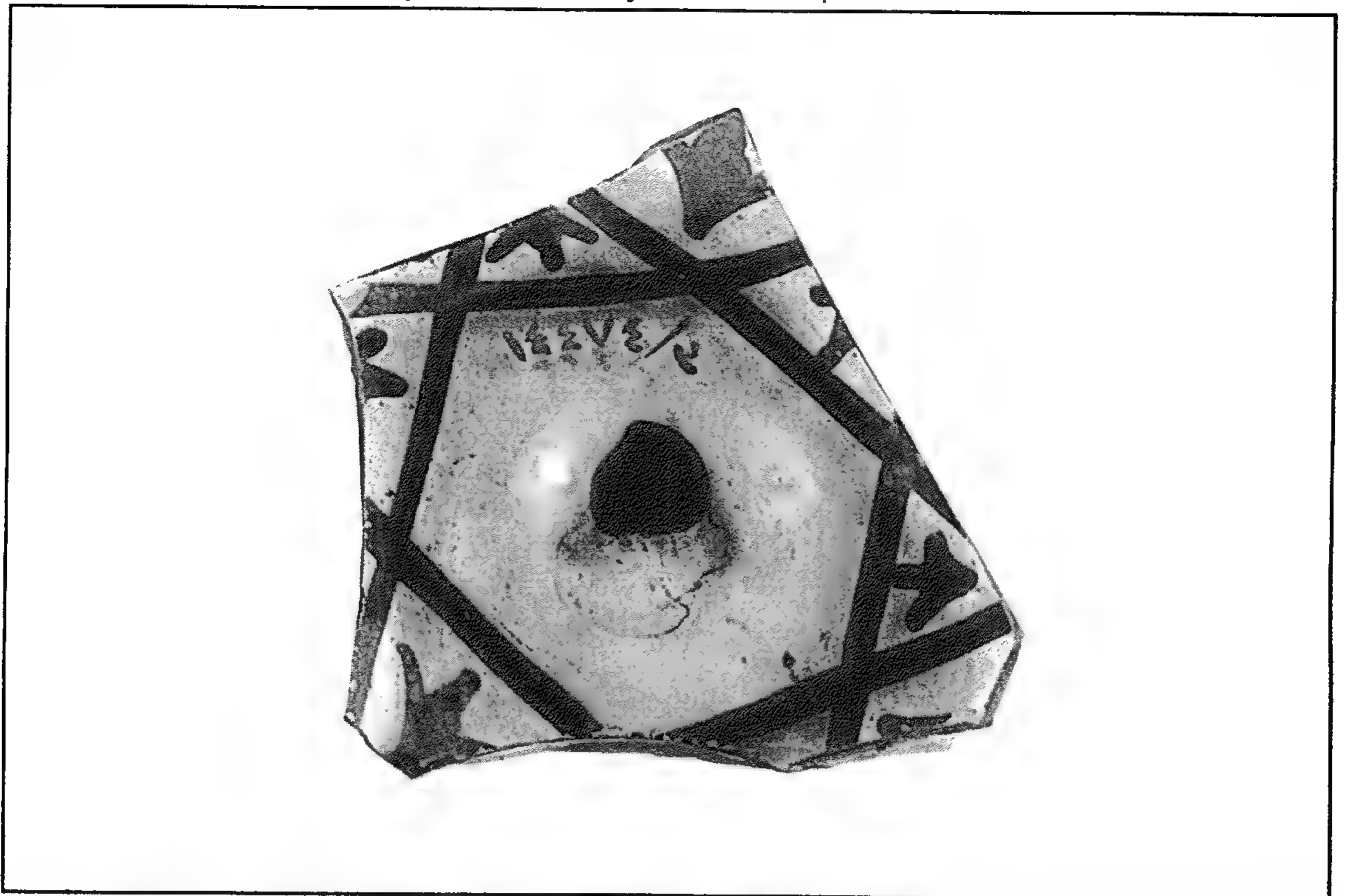
(لوحة ١٤) جزء من إناء زجاجي مذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
سجل رقم ١٤٤٦٠/٢ . (ينشر لأول مرة)



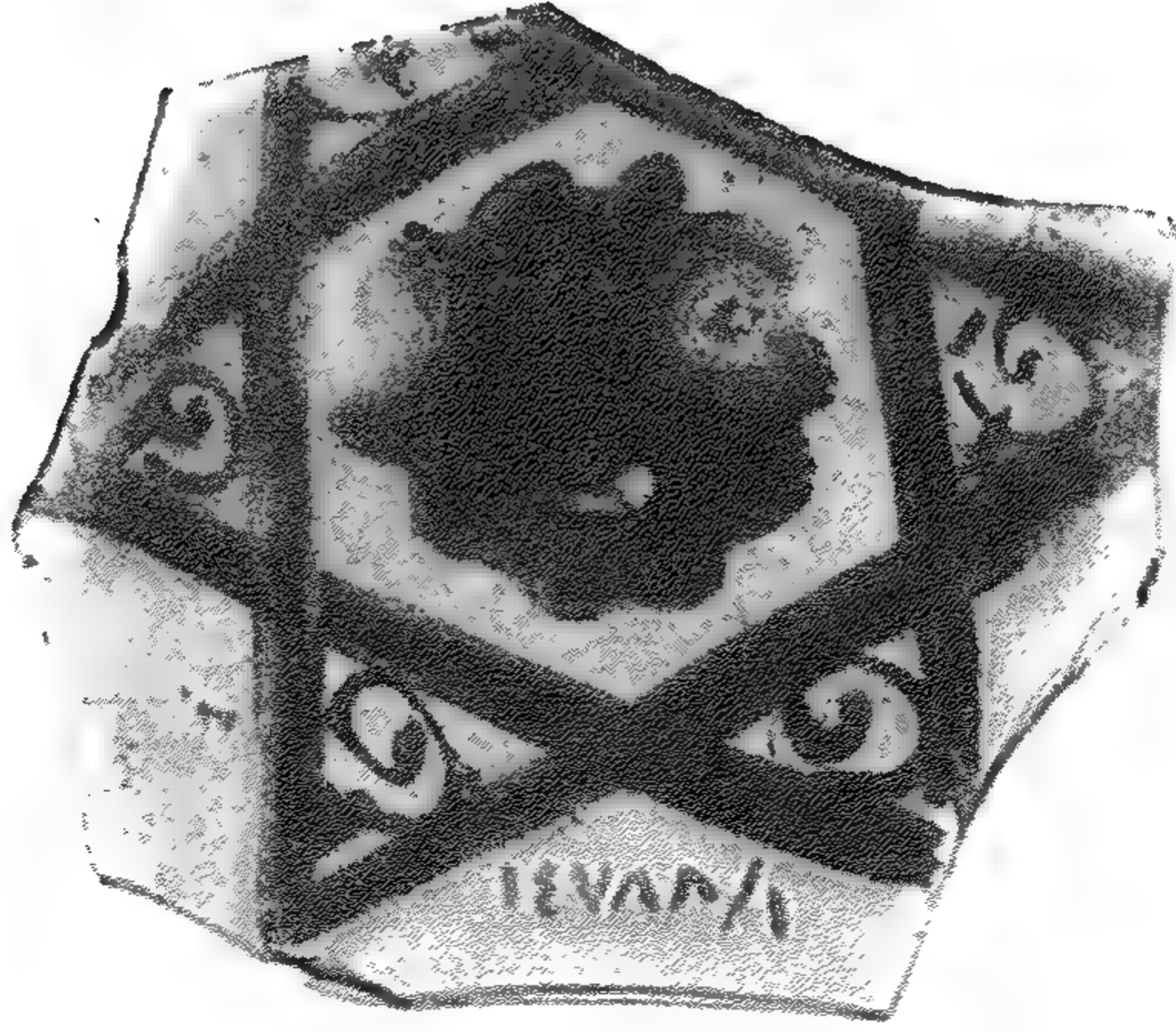
(لوحة ١٥) جزء من بدن إناء من الزجاج المذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
سجل رقم ١٤٥٤٥ . (ينشر لأول مرة).



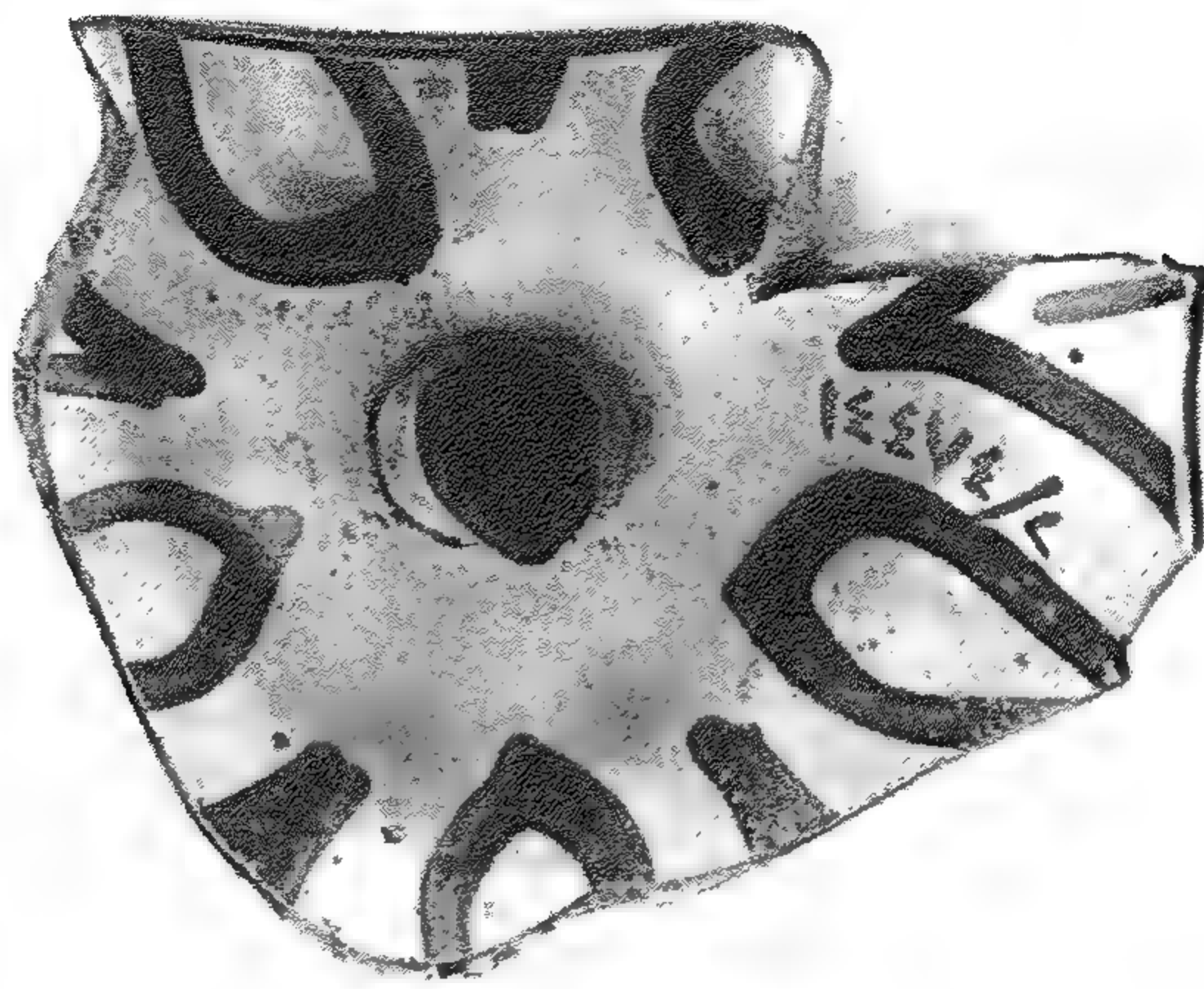
(لوحة ١٦) جزء من قاع إناء زجاجي مذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
سجل رقم ١٤٥١٨ . (ينشر لأول مرة)



(لوحة ١٧) جزء من قاع إناء من الزجاج المذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة .
سجل رقم ١٤٤٧٤/٣ . (ينشر لأول مرة).



(الوحة ١٨) جزء من قاع إناء من الزجاج المذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
سجل رقم ١٤٧٨٨/١ . (ينشر لأول مرة)



(الوحة ١٩) جزء من سطح إناء زجاجي مذهب بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.
سجل رقم ١٤٤٧٤/٢ . (ينشر لأول مرة).

نقش تاسيسي عثماني من حي القلعة بالقطيف مؤرخ في عام ١٠٣٩هـ

د. شليح بن كميخ المرتضى

ملخص البحث :

يتناول هذا البحث دراسة نقش تاسيسي عثماني من حي القلعة بالقطيف، مؤرخ عام ١٠٣٩هـ - مهور باسم أحد أشهر الولاة العثمانيين بمنطقة الخليج العربي. وتعنى هذه الدراسة بقراءة النص وتحليل مضمونه، مبينة أهمية مدلولاته التاريخية والأثرية، فضلاً عما يحمله من معطيات فنية وقيم جمالية، وتبرز الدراسة ما اشتمل عليه النقش من القاب، ونعوت، واسماء اعلام.

توطئة:

وقد مهد البرتغاليون لتدخلهم في منطقة الخليج باستيلائهم على بعض موانئ جنوب الجزيرة العربية وموانئ الساحل العماني، وتوجوه بالاستيلاء على جزيرة هرمز عام ٩١٢هـ / ١٥٠٧م.^(٢) وكان هدف البرتغاليين من ذلك هو تأمين تجارتهم من جوا على الساحل الهندي، مروراً بطريق رأس الرجاء الصالح، وصولاً إلى أوروبا عن طريق المحيط الأطلسي. وبالرغم من أن هذه الطريق كانت آمنة بالنسبة إلى تجارتهم، إلا أنهم كانوا يبحثون عن طرق أقصر وأوفر، لذلك كان تطلعهم للسيطرة على طريقي الخليج العربي والبحر الأحمر.^(٣)

تمتعت منطقة شرق الجزيرة العربية على مر العصور بأهمية اقتصادية واستراتيجية كبيرة، اكتسبتها نتيجة لكونها إحدى أهم معابر الطرق التجارية القديمة بين الشرق والغرب، وبين الشمال والجنوب. ونتيجة لذلك نشأت على شواطئ الخليج العربي موانئ ومدن مهمة، مثل: جزيرة هرمز، وصحار، وجلفار، والقطيف، والبحرين، والبصرة. وبسبب هذه الأهمية كانت المنطقة محطاً لأطماع القوى الخارجية وبخاصة الاستعمارية منها، بداية بالبرتغاليين، ومروراً بالإنجليز، ثم الهولنديين، ونهاية بالفرنسيين، ثم الإنجليز.^(١)

(٢) المسلم، محمد سعيد، ساحل الذهب الأسود: دراسة تاريخية إقتصادية لمنطقة الخليج العربي، دار مكتبة الحياة، بيروت، الطبعة الثانية (د.ت)، ص ١٧٠.

(٣) الخطيب، التنافس الدولي في الخليج العربي، ص ١٥.

(١) الخطيب، مصطفى عقيل، التنافس الدولي في الخليج العربي، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت (١٩٨١م)، ص ٧-١٢؛ الخصوصي، بدر الدين عباس، دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ج ١، منشورات ذات السلاسل، الكويت، الطبعة الثانية (١٩٨٤م)، ص ١٣-٤٨.

عام ٩٢٧هـ/١٥٢١م، ثم القطيف بين عامي ٩٣٢-٩٣٧هـ/١٥٢٦-١٥٣٠م. وبذلك بدأ ميناء القطيف يظهر بشكل أكثر أهمية على مسرح الأحداث، وأصبح سبباً للصراع بين أربع قوى هي: البرتغالية، والصفوية، والعثمانية، والمحلية.

وبعد سقوط القطيف أصبحت المدينة خاضعة لحكام هرمز الخاضعين بدورهم للسيطرة البرتغالية، فأيقن العثمانيون أن البرتغاليين أصبحوا يهددون ممتلكاتهم الجنوبية، لذلك استولوا على شمال العراق، ثم أتموا سيطرتهم عليه باستيلائهم على بغداد عام ٩٤١هـ/١٥٣٤م.

كان هناك ما يشبه الاتفاقية الاقتصادية بين البرتغاليين وبين آل مغامس،^(٦) حكام البصرة والقطيف والحساء، والتي تقضي بتأمين الطريق التجاري بين هرمز-البوابة الجنوبية للخليج- وبين البصرة بوابته الشمالية. ولكن بعد استيلاء البرتغاليين على القطيف ساءت العلاقة بين الطرفين، وأحس آل مغامس أن الوجود البرتغالي في الخليج أصبح يهدد سلطتهم على هذه المناطق.

لم يجد راشد بن مغامس بداً من اللجوء إلى العثمانيين لمساعدته ضد البرتغاليين،

لذا أحس المماليك بأن البرتغاليين بسيطرته على الطرق التجارية والاقتصاد العالمي، وكذلك بتهديدهم الأمكنة المقدسة، أصبحوا يهددون كيانه؛ لذلك دخلوا معهم في صراع، توجه البرتغاليون بالانتصار على القوات المملوكية في ديو عام ٩١٥هـ/١٥٠٩م.

وكان العثمانيون يراقبون الوضع بحذر، وعندما أحسوا بأن البرتغاليين أصبحوا يهددون الأمكنة المقدسة، وطرقهم التجارية، أيقنوا أن السبب الحقيقي يكمن في ضعف دولة المماليك، لذلك قرر العثمانيون الزحف ضد المماليك، فاستولوا على الشام عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م، ثم أنهوا حكم الأخيرين بالاستيلاء على مصر عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م.^(٤)

وفي هذه الأثناء دارت مفاوضات بين البرتغاليين والصفويين انتهت بتوقيع معاهدة صلح بين الطرفين عام ٩٢١هـ/١٥١٥م، وكان من أهم بنودها قيام تحالف عسكري بين الطرفين ضد الدولة العثمانية، وعلى أن تساعد البحرية البرتغالية القوات الإيرانية في الاستيلاء على البحرين والقطيف.^(٥) وقد نتج عن هذا التحالف أن ضم البرتغاليون البحرين

(٦) يطلق بعض المؤرخين على هذه الأسرة لقب آل شبيب، لمزيد من التفاصيل عن تاريخ هذه الأسرة وحكمها للبصرة والأحساء والقطيف، انظر الحميدان، عبداللطيف الناصر، إمارة آل شبيب في شرق جزيرة العرب، مطابع الحميضي، الرياض (١٩٩٧م).

(٤) إيفانوف، نيقولا، الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦-١٥٧٤م، نقله إلى العربية يوسف عطا الله، راجعه وقدم له سعود ضاهر، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى (١٩٨٨م) ص ٥٣ وما بعدها.
(٥) الخطيب، التنافس الدولي في الخليج العربي، ص ٢٤.

للحكم العثماني المباشر (٩٥٤-١٠٨٢هـ/ ١٥٤٧-١٦٧١م).

شعر العثمانيون أن سلطة آل مغامس في البصرة أصبحت ضعيفة وغير قادرة على الدفاع عن أراضيها، لذلك ضمت البصرة للحكم العثماني المباشر عام ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م، وفي السنة التالية ضمت الحسا وأعلنتها إيالة عثمانية. وبمساعدة السكان المحليين تمكن العثمانيون من استعادة القطيف من البرتغاليين عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م وأعلنوها لواءً عثمانياً تابعاً لإيالة البصرة، ثم تم ضمها لإيالة الحسا في وقت لاحق.

تعاقب على حكم إيالة الحسا خلال هذه الفترة ما يزيد على ٤٩ أميراً، تراوحت مدد حكمهم ما بين شهرين وخمس سنوات وأربعة أشهر. إلا أننا نجد أن اثنين من الأمراء قد زادت مدة حكم كل منهما على ربع قرن، وهما علي باشا الذي حكم لمدة ٢٦ سنة (١٠١٨-١٠٤٤هـ/ ١٦٠٩-١٦٣٤م) وابنه محمد باشا الذي حكم لمدة ٣٠ سنة (١٠٤٤-١٠٧٤هـ/ ١٦٣٥-١٦٦٣م).^(٨) وعلي باشا هذا هو الذي في عهده أعيد بناء القلعة التي يوجد فيها النقش التأسيسي الذي هو محور هذه الدراسة.

مر الحكم العثماني في بلدان الخليج بمراحل قوة وضعف تبعاً لقوة الدولة،

حيث كانت تربطه بهم صلة دينية ومصالح اقتصادية، لذلك رحب الشيخ راشد بن مغامس زعيم البصرة بالوجود العثماني في بغداد، وبعث ابنه مانع على رأس وفد إلى بغداد، حيث قدم للسلطان العثماني مفاتيح البصرة، وخطاب الولاء للسلطان العثماني.

تتابعت في السنوات التالية وفود حكام البصرة إلى استنبول حتى تم إعلان البصرة إيالة عثمانية عام ٩٤٥/١٥٣٨م، وتم تعيين الشيخ راشد بن مغامس حاكماً عليها برتبة أمير أمراء، وهي أعلى رتبة في الإيالات العثمانية آنذاك، وبذلك أصبحت المواجهة مباشرة بين العثمانيين والبرتغاليين. وبمساعدة العثمانيين تمكن مانع بن راشد من استعادة القطيف من البرتغاليين عام ٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م. وفي السنوات التالية دارت مناوشات بحرية بين العثمانيين والبرتغاليين في الخليج العربي والبحر الأحمر وبحر العرب. وكان من ضمن نتائجها سيطرة البرتغاليين على القطيف للمرة الثانية عام ٩٥٢هـ/ ١٥٤٥م، وإنهاؤهم لحكم آل مغامس في الحسا والقطيف.

ثم شن البرتغاليون حملة كبرى بهدف استعادة ميناء وقلعة القطيف، وبالرغم من فشلهم في تحقيق هدفهم إلا أنهم تمكنوا من تدمير ميناء المدينة وقلاعها وتحصيناتها الدفاعية،^(٧) وبذلك خضعت القطيف والحسا

(٧) الوهبي، عبد الكريم بن عبد الله، الحكم العثماني في الحسا (٩٥٤-١٠٨٢هـ/ ١٥٧٤-١٦٧١م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، قسم التاريخ - كلية =

= الآداب - جامعة الملك سعود، الرياض (١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م)، ص ١٤٨.

(٨) الوهبي، الحكم العثماني في الحسا، ص ٢٦٨.

العثمانية، أو السلطان العثماني، وينعت علي باشا أمير الحسا باللقاب سلطانية ودينية لا يمكن إطلاقها إلا على من يحكم باستقلالية.

وبالرغم من أن هذا ليس مدار دراستنا، فإن التساؤل الذي يظل مطروحاً هو: هل تمتعت الحسا بالحكم الذاتي بقيادة علي باشا وابنه محمد باشا؟، مع التذكير بأهمية نقشنا موضوع الدراسة على تأكيد ذلك.

أولاً: حي القلعة بالقطيف:

تقع القلعة في مدينة القطيف بالمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، إلى الشمال الغربي من مدينة الدمام، وكان حي القلعة هو مركز مدينة القطيف قديماً، إذ كانت مدينة محصنة ذات شكل بيضاوي، تنقسم إلى أربعة أحياء، ليس بينها فواصل، ولكل قسم (حي) اسم عرف به، فالجهة الجنوبية من الناحية الغربية كانت تسمى فريق الخان، وفي الناحية الشرقية كان يوجد فريق السدرة، وفي الجانب الشمالي من الناحية الغربية وجد فريق الزريب، وفي الناحية الشرقية كان يوجد فريق الوارش.^(٩) وكان يحف بالقلعة من الجهتين الغربية والجنوبية بعض الأحياء الصغيرة.

وضعها، أو لانشغالها بالدفاع عن حدودها الشاسعة، وخصوصاً على الجبهة الأوروبية، وقد شجع هذا الوضع بعض الأمراء على محاولة التخلص من التبعية العثمانية، ونجح بعضهم في الاستقلال بحكم إيالاتهم بما يشبه الحكم الذاتي، ومن أشهر الأمراء الذين استقلوا بالحكم أسرة الأفراسياب في البصرة.^(٩)

إن المتأمل لفترة حكم علي باشا وابنه محمد باشا من بعده يتساءل هل استقلا بحكم إيالة الحسا؟ وهو سؤال لدينا من المبررات ما يحملنا على الاعتقاد بتمتعهما بنوع من الاستقلال، يساند هذا الرأي عدة أمور، منها ما يلي:

١- طول فترة حكم كل من علي باشا وابنه محمد باشا من بعده، والتي زادت على نصف قرن.

٢- الصراع الذي دار بين الأفراسياب في البصرة وبين محمد باشا في الحسا، حيث كان هذا الصراع بعيداً عن أعين الدولة، مما يعني أنه صراع بين حاكمين مستقلين للسيطرة على أكبر مساحة من الأرض.

٣- إن النقش التأسيسي - موضوع هذه الدراسة - يخلو من أي ذكر للدولة

(٩) لمزيد من التفاصيل عن هذه الأسرة، انظر: الخطيب، التنافس الدولي في الخليج العربي، ص ٩٩ وما بعدها؛ الوهبي، الحكم العثماني في الحسا، ص ٤٣٩ وما بعدها؛ الحمداني، طارق نافع، "العلاقات بين أفراسياب والدولة العثمانية إبان حكم -

- أفراسياب باشا وعلي باشا ١٥٥٦-١٦٥٠م"، مجلة الخليج العربي، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، ع ١٤، مجلد ١٦، البصرة (١٩٨٤م).

(١٠) المسلم، ساحل الذهب الأسود، ص ٤٨.

لقد انتزعت ملكية القلعة في وقتنا الحاضر، وأزيل منها ثلاثة أحياء (فرق)، وهي فريق الخان، وفريق السدرة، وفريق السوارش، وأبقى على الحي الرابع، وهو فريق الزريب، حيث تسلمته وكالة الآثار والمتاحف السعودية للمحافظة عليه.^(١١)

وقد كانت القلعة تستخدم مستودعاً للعطور والتوابل ومختلف البضائع، ثم تحولت في فترة لاحقة إلى مقر سكني للأهالي، وذلك لمناعتها، وأصبحت تمثل حاضرة القطيف.^(١٢) وكان يحيط بالقلعة سور منيع يبلغ سمكه ٧ أقدام، وارتفاعه ٣٠ قدماً، وتبرز بين جوانبه وزواياه أبراج عالية مستديرة الشكل، وكانت توصل هذه الأبراج التي يبلغ عددها ١١ برجاً جسوراً ممتدة في أعلى السور لتمكين الحاميات من الاتصال ببعضها بعضاً أثناء المراقبة،^(١٣) وكان للقلعة أربعة أبواب، أحدها في الشرق، ويسمى دروابة البحر، والثاني في الغرب، ويسمى دروابة باب الشمال، والثالث في الجنوب عند مدخل السوق، ويسمى دروابة السوق، والرابع يقع في الشمال، ويصلها بالكوت.^(١٤)

إن أقدم إشارة لهذا السور في المصادر التاريخية تعود إلى القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، عندما ذكره أبو الفداء،^(١٥) ووصفه وصفاً لا يختلف عن وضعه المعروف عند أهالي المنطقة قبل ما يربو على الستين عاماً مضت.^(١٦) وقد جدد بناء السور في عهد السلطان سليمان القانوني في غرة المحرم من عام ٩٦٨هـ / ١٥٦٠م، كما يتضح من لوحة تأسيسية تشير إلى ذلك،^(١٧) ثم أعيد بناؤه في عام ١٠٣٩هـ أيضاً في عهد أحد الولاة العثمانيين؛ وهو الوالي علي باشا كما هو واضح من الحجر التأسيسي الذي كان مثبتاً بدروابة باب الشمال؛^(١٨) وهذا الحجر التأسيسي هو موضوع هذه الدراسة.

تجدر الإشارة إلى أن هناك عدة أمور دفعتني لدراسة هذا النقش التأسيسي، منها:

- ١- أنه لم يسبق نشره من قبل.
- ٢- إشارة المسلم له في كتابه "القطيف - سلسلة هذه بلادنا"، ص ص ٢٨-٢٩، وتضمن صورة النقش دون تقديم قراءة له، فضلاً عن الخطأ الذي وقع فيه عند إشارته إلى أن النص أرّخ بحساب

(١١) المسلم، محمد بن سعيد، القطيف: سلسلة هذه بلادنا، الرئاسة العامة لرعاية الشباب، الرياض، الطبعة الأولى (١٤١٠هـ/١٩٨٩م)، ص ٢٨، حاشية رقم ١.

(١٢) المسلم، القطيف، ص ٢٨.

(١٣) المسلم، ساحل الذهب الأسود، ص ٤٦.

(١٤) المسلم، القطيف، ص ص ٢٨-٢٩.

(١٥) المسلم، ساحل الذهب الأسود، ص ٤٤.

(١٦) المسلم، ساحل الذهب الأسود، ص ٤٤.

(١٧) المسلم، القطيف، ص ٢٨.

(١٨) المسلم، القطيف، ص ٢٩.

ثانياً: دراسة وصفية تحليلية لنقش حي القلعة التأسيسي بالقطيف:

١- وصف النقش:

نفذ هذا النقش بخط الثلث المركب، بطريقة الحفر البارز المفرغ^(٢١) على لوح حجري جيرى بحري. أبعاده ٩٣×٤٨سم، ويتكون النص من أربعة أسطر يحيط بها إطار مستطيل طولي، وضع كل سطر منها في إطار مستقل (خرطوش).

قراءة النص (لوحة ١، شكل ١):-

١. الحمد لله الذي أقام تشييد هذه القلعة
٢. الميمونة حرسها الله تعالى من العدوان بهمة
٣. الملك الهمام في سنة تسع وثلاثين وألف ١٠٣٩

٢- التحليل العام لمضمون النقش:

يتكون النص من أربعة أسطر، نقشت للإعلان عن الانتهاء من تشييد القلعة، وهي:

السطر الأول:

افتتح النص بالحمد لله الذي يسر إقامة وتشييد القلعة.

الجميل، وأنه تضمن كلمة "محفوظة" وهي ما يعادل ١٠٣٩هـ، والتاريخ صحيح ولكنه لم يدون بحساب الجمل، بل كتب بجملة عربية صريحة متبوعة بالتاريخ رقماً.

٣- ورود هذا النص في أطروحة ماجستير بقسم التاريخ بجامعة الملك سعود، مقدمة من الأستاذ عبد الكريم بن عبد الله الوهبي، الذي أشار خطأ إلى أن النص مؤرخ في سنة ١٠٣٧هـ.^(١٩)

٤- تضمينه إلى مجلد "المختار من إبداعات الخط العربي" الصادر عن الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض بمناسبة إقامة معرض الخط العربي، حيث وردت صورة النقش في المجلد ضمن نقوش أخرى قدمت قراءاتها ما عدا هذا النقش، وضاعف من الخطأ أن التاريخ الذي وضع هو سنة ٩٦٨هـ، فضلاً عن أن ما ورد من معلومات مصاحبة للصورة، لا تمت لها بصلة سواء فيما يتعلق بوصف مضمون النص أو تاريخه^(٢٠).

هذه الأسباب وغيرها دفعتني للقيام بتقديم قراءة لهذا النقش وتحليل مضمونه وتقديمه بدراسة منفردة.

(١٩) الوهبي، الحكم العثماني في الحسا، ص ٢٥٩.

(٢٠) مجلد المختار من إبداعات الخط العربي، صدر بمناسبة إقامة معرض الخط العربي الذي أقامته الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض، الرياض (١٤٢٠هـ)، ص ٢١٧.

(٢١) إن تنفيذ الكتابات بأسلوب الحفر البارز تعد طريقة أصعب وأشق مقارنة بالحفر الغائر، فهي تستحوذ على جهد أكبر، وتحتاج إلى دقة وإتقان وأناة وصبر.

السطر الثاني:

مشاهدته للقلعة، ووصفه لها. (٢٣)

تضمن نعت هذه القلعة بالميمونة، مع الدعاء والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى بأن يحميها ويحرسها من العدوان، مع الإشارة إلى أنها قامت بفضل وهمة الوالي العثماني.

السطر الثالث:

اشتمل على ألقاب من قام بتشييد هذه القلعة وهي "الملك الهمام" و "القائم بأمور الإسلام"، مع إيراد اسمه، وهو علي باشا.

السطر الرابع:

تضمن لقب الوالي العثماني، مع الدعاء له بدوام الإقبال. ثم ختم النص بتاريخ الانتهاء من تشييد القلعة، وهو سنة تسع وثلاثين وألف بعد الهجرة. علماً أن التاريخ كتب بجملة عربية صريحة متبوعة بكتابة التاريخ رقماً.

يفهم من مضمون نص النقش أن القلعة قد أنشئت في فترة ولاية الوالي العثماني علي باشا وذلك في عام ١٠٣٩هـ، والنص صريح في أنها عملية تشييد وبناء وليست ترميمات لمبنى قائم. ولكن الثابت تاريخياً وأثرياً أن القلعة كانت قائمة قبل هذا التاريخ، ودليلنا على ذلك النقش التأسيسي المؤرخ في سنة ٩٦٨هـ والذي يشير صراحة لبناء القلعة^(٢٢)، فضلاً عما ذكره أبو الفدا عن

إن هذا يقودنا إلى الاعتقاد بأن القلعة قد دمرت أثناء الاحتلال البرتغالي الأخير للمنطقة، إذ تذكر المصادر أنه نتيجة لثورة أهل القطيف، واحتجاجهم ضد الوجود البرتغالي، وطردهم لهم عادوا مرة أخرى، وانتقموا من أهل القطيف شر انتقام، ودمروا الحصون والقلاع وسووها بالأرض، بيد أن العثمانيين ما لبثوا أن استعادوا القطيف والأحساء، وأنهوا الوجود البرتغالي ليس في المنطقة الشرقية فحسب، بل في منطقة الخليج على وجه العموم.

وهذا يدفعنا إلى ترجيح أن النقش التأسيسي المؤرخ في سنة ٩٦٨هـ يعود إلى عمارة العثمانيين للقلعة عقب تمكنهم من طرد البرتغاليين، وأنه بعد قرابة ٧١ سنة أعيد إعمار القلعة، كما اتضح لنا من تاريخ النقش التأسيسي، موضوع هذه الدراسة. ولعل تدميرها هذه المرة كان نتيجة لقتال وفتن داخلية، وربما بفعل عوامل الزمن.

٣- الألقاب والنعوت الواردة في النقش:

يجدر بنا ملاحظة نعت الوالي العثماني بنعوت وألقاب اختص بها الخلفاء والسلاطين، فعادة ألقاب "الملك الهمام" و "القائم بأمور الإسلام" هي ألقاب ينعت بها رأس الدولة. كما أن النص ختم بالدعاء له

(٢٢) المسلم، ساحل الذهب الأسود، ص ٤٤.

(٢٣) المسلم، القطيف، ص ٢٨.

بدوام الإقبال، وهو ما يدعى به عادة لصاحب السلطان ورمز الدولة؛ مما يقودنا إلى الاعتقاد بأنها هنا ما هي إلا ألقاب ونعوت فخرية ولا تمثل سلطة حقيقية، خاصة وأنها أصبحت على أحد الولاة العثمانيين دون تضمين النص لاسم السلطان العثماني الذي شيدت القلعة في عهده.

* **الملك الهمام:** أي الملك العظيم للهمة، والسيد الشجاع السخي. (٢٤) والملك لقب يطلق على الرئيس الأعلى للسلطة، وهو من الألقاب المعروفة في اللغات السامية الجنوبية والشمالية القديمة، فأول إشارة لهذا اللقب وردت في نقش صرواح الذي تركه "كرب ال وتر" ملك سبأ، كما ورد اللقب نفسه في النقوش الشمالية، ويعد نقش النمارة المؤرخ في سنة ٣٢٨م، والذي يؤرخ لوفاة الملك امرئ القيس بن عمرو ملك الحيرة أول نقش عربي ترد فيه هذه الصيغة.

ولم يعرف هذا اللقب بصفة رسمية في صدر الإسلام والعصر الأموي، بيد أن بعض ولاة بني العباس أخذوا في الاستقلال عن مركز الخلافة- حتى وإن احتفظ بعضهم

بالتبعية الاسمية- فتلقبوا بهذا اللقب، كما أن بعض رجال الدولة العباسية استبدوا بالسلطة السياسية في مركز الخلافة- وتلقبوا بهذا اللقب الذي يحمل في طياته معنى السيادة العليا. (٢٥)

* **القائم بأمور الإسلام:** كان لفظ "القائم" يضاف إلى كلمات أخرى لتكوين ألقاب مركبة مثل "القائم بأمر الله" و"القائم بأوامر الدين" و"القائم بدعوة الله" و"القائم بالسنة والفرائض" و"القائم بفرض الله". (٢٦) بيد أن هذا اللقب الذي ورد في النقش، موضوع دراستنا، يعتبر-حسب علمي- الأول من نوعه، حيث تخلو النقوش والكتابات الإسلامية منه، سواء النقوش التأسيسية، أو الشاهدية، أو الكتابات التذكارية، أو المسكوكات وغيرها.

* **باشا:** لقب تعظيم بمعنى: رئيس، يطلق على كبار العسكريين في الدولة العثمانية، مثل كبار القادة، وحكام الولايات، ثم أطلق على كبار الموظفين المدنيين. (٢٧) وفي نهاية العصر العثماني تدهور مستواه فأصبح

(٢٤) الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت (١٤١٥هـ/١٩٩٤م)، ص ١٥١٢.

(٢٥) الباشا، حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، دار النهضة العربية، القاهرة (١٩٧٨م)، ص ص ٤٩٦-٤٩٧.

(٢٦) الباشا، حسن، الألقاب، ص ص ٤٢٨-٤٣٠.

(٢٧) النهر والي، قطب الدين محمد بن أحمد المكي، السرى اليماني في الفتح العثماني، تحقيق حمد الجاسر، الطبعة الأولى، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ص ٧٥؛ المصفاي، أحمد المرسى، معجم مصفاي تركي - عربي، كلية الآداب بجامعة عين شمس، القاهرة (١٩٧٩م)، ص ٣٩٠.

هذا وقد شرع علي باشا في مواجهة القلاقل والفتن التي اعترضت الإيالة خصوصاً من قبل القوى الموالية للصفويين، حيث كانت على مقربة من المنطقة، وشكلت مع القوى المحلية تهديداً مباشراً للإيالة، فقام علي باشا بتنظيم الأمور الإدارية، وعزز قواتها العسكرية واستحكم دفاعاتها وتحصيناتها بدعم وتأييد من المجلس السلطاني في استنبول.^(٣٣)

ويعد علي باشا من نتاج أفراد الطبقة العسكرية العثمانية التي استقرت في المنطقة العربية وازدادت صلتها بها نتيجة للتزاوج وترباط المصالح، وقد لقب بالبغدادي نسبة إلى نشأته ببغداد، وارتباطه بها. عرف هو وأفراد عائلته بالتدين والغنى، ونالوا قسطاً وافراً من المعرفة والثقافة خصوصاً في العلوم الشرعية واللغة العربية وآدابها، واشتهر لذلك فضلاً عن طول المدة التي قضاها أميراً لأمراء الإيالة، وأحد أبنائه من بعده.^(٣٤)

وقد استمر علي باشا في منصبه أميراً لأمراء الإيالة حتى سنة ١٠٤٤هـ/١٦٣٤م، حيث تذكر الروايات المحلية أن أحد أبنائه قد زور رسالة باسم أبيه أثناء إحدى زيارته

يعطى لكل من تريد الدولة استمالته وكسب تأييده.^(٢٨)

٤- الأعلام الواردة في النص:

اللافت للنظر عدم تضمين النص اسم السلطان العثماني الذي أنشئت القلعة في فترة حكمه، واقتصر النص على إيراد اسم الوالي العثماني علي باشا.

علي باشا: (١٠١٨-١٠٤٤هـ/١٦٠٩-١٦٣٤م).

تولى علي باشا أمير أمراء إيالة الأحساء قرابة ٢٦ عاماً، وذلك بعد وفاة أمير أمراء الإيالة بهرام باشا.^(٢٩) وفيما يبدو أنه كان يشغل قبل ذلك منصب أمير لواء في الإيالة، وتوليته أمير أمراء كانت بمبادرة محلية من أمراء ألوية الإيالة وقادتها العسكريين، إضافة إلى بعض أعيان الإيالة،^(٣٠) وذلك لمواجهة الفراغ الحاصل في منصب أمير الإيالة،^(٣١) وفيما بعد أقر المجلس السلطاني بتاريخ ١٠ جمادى الآخرة ١٠١٨هـ/ ٩ سبتمبر ١٦٠٩م ذلك الإجراء، وتم تعيين علي باشا بصفة رسمية أمير أمراء علي إيالة الأحساء.^(٣٢)

(٣٠) الغرابي، أحمد بن عبدالله البغدادي، تاريخ الغرابي، مخطوط بالمتحف العراقي في بغداد تحت رقم ٩٣١١، ص ١٣٤-١٣٥، الوهبي، الحكم العثماني في الحسا، ص ٢٥٧.

(٣١) الوهبي، الحكم العثماني في الحسا، ص ٢٥٧.

(٣٢) الوهبي، الحكم العثماني في الحسا، ص ٢٥٧.

(٣٣) الوهبي، الحكم العثماني في الحسا، ص ٢٥٧.

(٣٤) الوهبي، الحكم العثماني في الحسا، ص ٢٥٧.

(٢٨) غبان، علي بن إبراهيم حامد، شمال غرب المملكة العربية السعودية "الكتاب الأول": بحوث في التاريخ والآثار، (د.م)، الطبعة الأولى (١٤١٤هـ/١٩٩٣م)، ص ١٢٨.

(٢٩) الوهبي، الحكم العثماني في الحسا، ص ٢٥٧.

السنوية لاستنبول تضمنت طلب علي باشا إعفاءه من منصبه نظراً لكبره وعجزه، وأنه يوصي بتعيين ابنه حامل الرسالة بدلاً منه، فاستجابت استنبول لطلبه فعزلته، وعينت ابنه بدلاً منه.^(٣٥)

غادر بعد عزله المنطقة متوجهاً إلى المدينة المنورة، حيث جاور الحرم النبوي، وعاش بقية حياته هناك، وعرف هو وابناه اللذان قدما معه من إيالة الحسا بالجود والعلم والصلاح.^(٣٦) وتوفي بالمدينة سنة ١٠٥١ هـ/١٦٤٠-١٦٤١ م.^(٣٧)

ثالثاً: الدراسة التحليلية لخصائص الخط الفنية:

نفذ النقش بأسلوب ونمط كتابي يمثل تلك الكتابات المنفذة على غالبية النقوش التأسيسية العثمانية، وتحديدًا تلك المنفذة بخط الثلث المركب. ومما لا شك فيه أن هذا النقش قد نفذ بطريقة فنية رائعة أبدعها خطاط ماهر محترف، وبأسلوب واضح بسيط يمكن قراءته بيسر وسهولة، ولعل هذا هو المطلوب في النقوش التأسيسية التي عادة ما توضع لتاريخ عمل ما، وإصباح الشهرة والتخليد على اسم من قام بهذا العمل.

وقد التزم الكاتب بقواعد خط الثلث، وأتقن الشكل العام للنقش من حيث توزيع الكلمات

على الأسطر، وطول الأسطر وتناسقها، ووضعها بجداول منسقة (خراطيش)، وبالرغم من ذلك فإنه من فرط حرصه على تحقيق هذا التوازن، قام بقطع بعض الأطراف الداخلية للإطار العام، ولأسيما من الجهة اليسرى، كما هو الحال في الكلمات: (القلعة) في السطر الأول، و (علي) في السطر الثالث، و (ألف) في السطر الرابع، (لوحة رقم ١، شكل رقم ١).

ويمكننا ملاحظة جملة من صور الإبداع الفني في أسلوب هذا الخطاط، (انظر جدول أشكال الحروف)، منها:

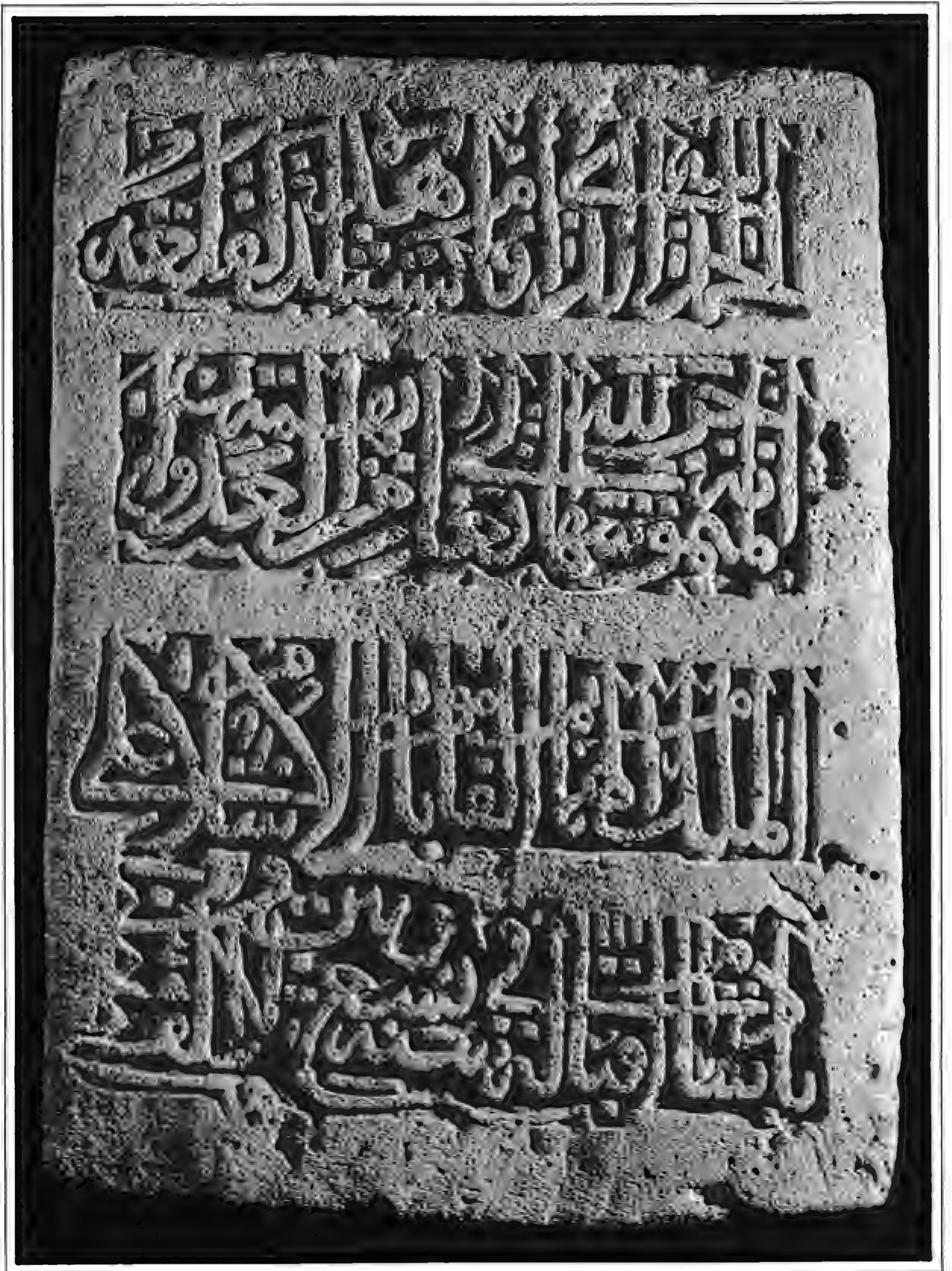
- قدرته على سحب قوائم الألفات في رشاقة متناهية.
- دقة تنفيذ عراقات الحروف النازلة عن الأسطر، ومنها: الراء، والزاي، والواو.
- تكرار حالات قطع حرف بحرف آخر أو أكثر، وإخراجها بشكل واضح ومتقن.
- إبداعه ومهارته في تدوير رأس الفاء، والقاف، والواو.
- تلويح رأس العين.
- إسباله للميم النهائية.
- تقديم حروف بعض الكلمات عن موضعها دون إخلال بالكتابة أو الشكل العام للنقش.

(٣٧) المحبي، محمد، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج ١، دار صادر، بيروت (د.ت)، ص ص ٩٠-٩٢؛ الوهبي، الحكم العثماني في الحسا، ص ٢٦٠.

(٣٥) الوهبي، الحكم العثماني في الحسا، ص ٢٥٧.

(٣٦) الوهبي، الحكم العثماني في الحسا، ص ٢٦٠.

- تقاطع الياء العائدة مع ما سبقها من حروف دون التباس هيئتها مع الحروف الأخرى.
- تنفيذ الكلمات وحروفها بطريقة مركبة على دورين، وثلاثة أدوار.
- ورد لفظ الجلالة مرتين، رسم الثاني منهما بالـ ف طويلة مسحوبة، ولامين قصيرتين، وهاء نهائية مخطوفة.
- ملء الفراغات بنقط الإعجام، ونفذت على هيئة مربعات.
- توظيف رؤوس حروف الألف واللام والكاف في السطر الثالث لتؤدي دوراً زخرفياً على هيئة شريط دال، أو ما يعرف بالزقزاق، فضلاً عن دورها
- جزءاً من هيئة الحرف، ولم يقف الأمر عند ذلك الحد فحسب بل نجد أن الخطاط ختم النقش بالهيئة الزخرفية نفسها، وذلك في نهاية الجدول (الخرطوش) الرابع بعد التاريخ المدون كتابة ورقماً.
- وبعد فإنه يتضح من خلال ما سبق عرضه، مدى أهمية هذا النقش التأسيسي، وقيمته العلمية، سواء من حيث مدلولاته التاريخية، أو الأثرية، أو مواكبته للأحداث التاريخية العائدة إلى تلك الفترة، أو من حيث ما اشتمل عليه من صيغ وتراكيب وألقاب ونعوت ذات مدلول رسمي، فضلاً عن قيمته الأثرية الخطية، وما يبرزه من معطيات فنية، وقيم جمالية.





شكل رقم (١)

الحرف	البدائیة		الوسطیة		النهائیة	
	مفرد	مركب	مفرد	مركب	مفرد	مركب
س		س		سس		
ش				شش		
ص						
ض						
ط						
ظ						
ع		ع		عه	ع	
غ						
ف		ف			ف	
ق				قو قو		
ك					ك	
ل		ل		لل		
م		م		مم	م	ما

الحياة الزراعية في الريف الفلسطيني في أواخر العهد العثماني

د. محمد الحزماوي

ملخص البحث :

يهدف هذا البحث إلى دراسة الحياة الزراعية في المجتمع الريفي الفلسطيني في أواخر العهد العثماني، من خلال تتبع الباحث للعمل الزراعي للفلاح الفلسطيني منذ بداية الحراثة وحتى الحصاد. وقد تركزت محاور هذا البحث على ثلاثة مواضيع مهمة هي المحاصيل الزراعية في الريف الفلسطيني، والأدوات والأساليب الزراعية بالإضافة إلى المشاكل التي كانت تواجه المزارعين. وخلص الباحث إلى أن الزراعة بالرغم من أساليبها البدائية والمشاكل التي كانت تواجهها بقيت تشكل العمود الفقري في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للفلاح الفلسطيني.

المقدمة :

الاجتماعية وكانت السمة الأساسية للأسرة
الريفية هي العمل بالزراعة.

ونظراً لما تشكله الزراعة من مصدر أساسي في حياة الفلاحين ودعامة رئيسية في مواردهم فقد ارتبط الفلاح الفلسطيني بالأرض ارتباطاً وثيقاً، فغدت الحياة الاقتصادية في الريف الفلسطيني تستند بشكل أساسي إلى ملكية الأرض، كما كان العمل الزراعي أساساً للحياة الاقتصادية. وكان للتباين في التضاريس الطبيعية وتنوع المناخ دور مهم في تنوع المنتجات الزراعية، ومما لا شك فيه أن التربة والمناخ والمياه تعتبر من العوامل الرئيسية التي تؤثر على الإنتاج الزراعي، فالتربة في فلسطين تتباين من منطقة لأخرى، كما أن المناخ أيضاً متباين بشكل واضح، أما

تعد فلسطين بلداً زراعياً، ويعمل الغالبية العظمى من سكانها بالزراعة لا سيما الفلاحين الذين شكلوا أكثر من ثلثي السكان، فكانوا بذلك القاعدة الرئيسية في المجتمع الفلسطيني، كما شكلوا قاعدة النظام الزراعي وكان الفلاحون يقطنون في القرى التي تعتبر أكبر الوحدات الاجتماعية في الريف الفلسطيني، وتضم كل قرية حمائل كبيرة يتفرع عنها العشيرة التي تشكل الدعامة الرئيسية للحياة الريفية، وكان على رأس كل عشيرة شيخ يحكمها وفق العادات والتقاليد الاجتماعية السائدة في المجتمع القروي وتضم العشيرة مجموعة من الأسر وتعتبر الأسر أصغر الوحدات

المياه فمصادرها متنوعة من أنهار ومياه جوفية وعيون وينابيع، إلا أن أهم مصادر المياه هي الأمطار، لذلك فإن الزراعة في فلسطين تعتمد بشكل رئيسي على مياه الأمطار، الأمر الذي يعني أن السمة الغالبة على الزراعة في فلسطين هي الزراعة البعلية.

ترتب على إصدار الدولة العثمانية لخط همايون عام ١٨٥٦م، صدور قانون الأراضي العثماني لعام ١٨٥٨م الذي يضمن ١٣٢ مادة وخاتمة، وقد صنفّت الأراضي بموجبها إلى الأصناف التالية^(١):

١. الأراضي المملوكة : وهي الأراضي المملوكة ملكية خاصة ولا يحق لأحد أن يتصرف بها دون إذن صاحبها^(٢)، وقسمت هذه الأراضي إلى أربعة أقسام :

القسم الأول - العرصات : وهي الأراضي

الواقعة داخل المدن والقرى أو التي تمتد حولها لمسافة نصف دونم. والقسم الثاني - الأراضي الأميرية : التي تحولت إلى ملك خاص بعد فرزها. والقسم الثالث - الأراضي العشرية : وهي الأراضي التي تم توزيعها على الفاتحين خلال الفتح الإسلامي أو التي بقيت بأيدي أصحابها الأصليين المسلمين. والقسم الرابع - الأراضي الخراجية : وهي الأراضي التي تقرر بقاؤها بأيدي أصحابها من غير المسلمين شريطة دفع الخراج عنها^(٣).

٢. الأراضي الأميرية : وهي الأراضي التي تعود ملكيتها لبيت المال كالمحاطب والمشاتي والمراعي والغابات، وكان التصرف بها يتم بتفويض من قبل الدولة. وفي حال إهمالها من قبل المتصرف بها لمدة ثلاث سنوات متتالية يبطل حقه في التصرف بها وتصبح أرضاً محلولة^(٤).

(١) لمزيد من التفاصيل حول قانون الأراضي العثماني: انظر: الدستور (جزآن). ترجمة نوفل نعمة الله نوقل، بيروت: المطبعة الأنبيية، ١٨٨٣. ج ١، ص ١٤-٤٣. نقولا أفندي نقاش، أصل وترجمة قانون ونظام منامة الأراضي مع بعض مواد مهمة نظامية متعلقة بهذا الخصوص وبخصوصات آخر تشبهها تلزم إلى عامة الناس كما يتبين ذلك بالفهرست، بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٨٧٣، ص ١-٥٩.

المر، دعبس، أحكام الأراضي المتبعة في البلاد العربية المنفصلة عن السلطنة العثمانية، جزآن، القدس، ١٩٢٣. ج ١، ص ٧-٣٢.

(٢) ويذكر المر أن الأراضي المملوكة هي "الأراضي التي يتصرف بها صاحبها كيف شاء كما يتصرف بالمنقولات فله رقبته وكافة حقوقها ويجوز له بيعها أو رهنها أو الإصاء بها، كما أنه يورثها لورثته الشرعيين، فلا تعود إلى بيت المال بعد وفاته إلا إذا =

= لم يوجد أحد من ورثته ولو بعيداً، المر، أحكام الأراضي ج ٢، ص ٨.

(٣) وكان هذا الخراج على نوعين هما خراج المقاسمة ويؤخذ من المحصول على أساس الغلة الفعلية وتتراوح قيمته بين العشر والنصف وذلك حسب جودة الأرض. والخراج الموظف وهو عبارة عن ضريبة مقطوعة تفرض على الأرض سواء زرعت أو لم تزرع. انظر، الدستور ج ١، ص ١١.

(٤) لا بد من الإشارة إلى أن الحكومة لم تطبق هذا الإجراء في جميع المناطق بالتساوي، ففي فلسطين كانت ثلاث سنوات وفي سوريا ولبنان خمس سنوات، وفي العراق كانت تتراوح ما بين ٣-٤ سنوات وذلك حسب نوع وطبيعة الأرض الميري.

انظر: محمد الحزماوي، ملكية الأراضي في فلسطين ١٩١٨-١٩٤٨، عكا: دار الأسوار، ١٩٩٨، ص ٣٧.

الأقدام، وسمح القانون للأهالي بأحيائها شريطة موافقة الحكومة على أن يكون بأحيائها في مدة لا تزيد على ثلاث سنوات.

٦. الأراضي المشاع : وهي الأراضي التي تعود ملكيتها للجماعة، وغالباً ما تكون لأهل قرية واحدة، حيث يكون التصرف في هذه الأراضي للجماعة، ويشترك الجميع في حقوق الرعي والاحتطاب وموارد المياه وغير ذلك من المصالح العامة المتوفرة في الأرض. وقد قدرت مساحة الأراضي المشاع في فلسطين حتى عام ١٩١٨م نحو ٧٠% من مجموع مساحة الأراضي الفلسطينية. وكان يتم توزيع الحصص في هذه الأراضي، إما حسب نظام الذكور وإما حسب نظام الفدان، وتوزع الحصص على حسب نظام الذكور إما على الأفراد وإما الجماعات، بينما توزع الأراضي حسب نظام الفدان على البالغين أو الذين يمتلكون محاريث وحيوانات، وبالتالي يستند هذا النظام إلى إعطاء حصص لوحدات الإنتاج أي الأشخاص القادرين على زراعة الأرض^(٦).

٣. أراضي الوقف : وقسمت من حيث نوع ملكية الأراضي إلى نوعين، أراضي الوقف الصحيح : وهي الأراضي التي أوقفها أصحابها طبقاً للشرع الشريف وتكون رقبتها وجميع حقوق التصرف فيها عائدة إلى جانب الوقف، ولا تجري عليها المعاملات القانونية والأحكام النظامية بل تعامل بموجب شروط الواقف. والنوع الثاني أراضي الوقف غير الصحيح : وهي الأراضي المفروزة من الأراضي الأميرية التي أوقفها السلاطين أو غيرهم على جهة من الجهات الخيرية بالإذن السلطاني^(٥).

٤. الأراضي المتروكة : وهي الأراضي التي ترك حق الانتفاع بها لعامة الناس أو لأهالي قرية أو مجموعة قرى كالطرق والأسواق العامة والمراعي والبيادر والساحات والمحتطبات والمشاتي.

٥. الأراضي الموات : وهي الأراضي الخالية والبعيدة عن العمران مسافة لا تقل عن ميل ونصف الميل أو نصف ساعة سيرا على

(٥) وقسمت أراضي الأوقاف من حيث الجهة التي حبست عليها والأهداف التي شكلت من أجلها إلى قسمين هما أراضي الأوقاف الخيرية وأراضي الأوقاف الذرية أو الأهلية. أما من حيث الإدارة فقد قسمت إلى ثلاثة أصناف هي الأوقاف المضبوطة، والأوقاف الملحقة والأوقاف المستثناة. قسمت من حيث الانتفاع إلى قسمين هما المسققات والمستغلات، ومن حيث الإجارة كانت على شكلين ذات الإجارة الواحدة وذات الإجارتين. انظر المر، المصدر السابق، ج ٢، (قانون تقسيم الأموال المشتركة الغير =

= (منقولة) ص ٩٧-١٠١. ولمزيد من التفاصيل حول أراضي الأوقاف في فلسطين انظر: مايكل دمير، سياسة إسرائيل تجاه الأوقاف الإسلامية في فلسطين ١٩٤٨ - ١٩٨٨ بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٢.

(٦) الحزماوي، مرجع سابق، ص ٤٤-٥٠ ولمزيد من التفاصيل حول الأراضي المشاع انظر:

Bergheim, Samuel. "Land Tenure in Palestine." Palestine exploration Fund, 1894, PP192-195.

فضلاً عن التأثير الناجم عن طول فصل الصيف وجفافه في بعض المناطق على المحاصيل الزراعية^(٨).

وينعكس تنوع المناخ بما في ذلك كمية الأمطار والندى ودرجة الحرارة ونوع التربة على تنوع المحاصيل الزراعية في مختلف أنحاء فلسطين وذلك كما يلي :

أ. السهل الساحلي : ويمتد من حدود فلسطين الجنوبية قرب رفح إلى الحدود الشمالية قرب الناقورة، وتعتبر أراضيها خصبة جداً، كما أن تربته في أغلبها رملية أو رملية ممزوجة بالصلصال أو الطين. وأهم المحاصيل التي تزرع في هذه المنطقة الأشجار الحمضية والخضار، كما تزرع به الحبوب كالحنطة والشعير والقطاني والذرة الصفراء والسمسم بالإضافة إلى الأشجار المثمرة.

ب. السهول الداخلية : وتشتمل على مرج ابن عامر وسهل الحولة وسهل البطوف وسهل صانور، وتربتها خصبة جداً وهي بالأكثر من الصلصال الثقيل تتخللها مناطق تربتها خفيفة، وتزرع فيها الحبوب والأشجار المثمرة والخضراوات.

وبعد صدور قانون الأراضي العثماني، أصدرت الدولة عدة أنظمة وقوانين لاحقة اعتبرت مكملة لهذا القانون وذلك بهدف ضبط الأراضي وتسجيلها بشكل دقيق، ففي عام ١٨٥٩م صدرت لائحة تعليمات بحق سندات الطابو، ثم صدر قانون الطابو عام ١٨٦١م وملحقته عام ١٨٦٧م^(٧).

ونظراً للخصائص الطبوغرافية والمناخية في فلسطين، فقد تعددت المحاصيل الزراعية في مختلف أنحاء البلاد. ومن الممكن التمييز بين نوعين من الزراعة :

(أ) الزراعة البعلية : وتعتمد بشكل رئيسي على مياه الأمطار الساقطة خلال فصل الشتاء وتشتمل على الكثير من الأشجار المثمرة والحبوب.

(ب) الزراعة المروية : وتعتمد على سقي المزروعات طوال الدورة الزراعية سواء عن طريق الآبار أو القنوات أو الخزانات.

وبشكل عام فإن الإنتاج الزراعي يتأثر بكميات الأمطار التي تسقط خلال فصل الشتاء، وهذا بدوره يؤدي إلى عدم انتظام الإنتاج الزراعي خلال السنوات المتعاقبة،

(٧) ولمزيد من التفاصيل حول هذه الأنظمة والقوانين. انظر: الدستور، ج١، ص٤٤-٥٥ المر، أحكام الأراضي، ج٢، ص٦٥-٨٥.

(٨) العامري، عنان، التطور الزراعي والصناعي الفلسطيني ١٩٠٠-١٩٧٠، بيروت، د.ن، ١٩٧٤، ص٢٩.

= Fire stone, Yaakov. The Land-equalizing musha village, In Gad G. Gilbar 3 (ed), Ottoman Palestine 1800-1911: studies in economic and social history , Haifa, gustav Heineman institute of Middle eastern studies, 1990, PP.85-101

أهم المحاصيل الصيفية، وكانت الذرة تزرع خلال موسم الصيف بعد حصاد القمح والشعير، وبلغت المساحة المزروعة بالذرة عام ١٩٠٩م/١٩١٠م نحو ١٩١٢٥٠ دونماً أنتجت ١٨٥٠٠ طن، علماً أن المعدل العادي لإنتاج الذرة السنوي كان ٢٧ ألف طن وكان يصدر من ميناء حيفا إلى جزيرة مالطا والجزائر ليصنع منه كحول الإيثيلين^(١١).

وتحتاج زراعة السمسم إلى عناية بالغة سواء فيما يتعلق بضرورة إزالة الأعشاب الضارة من الأرض المزروع بها أو العناية الخاصة في طريقة اجتثاثه، إذ إن سنوفه (قرونه) لا تتضج في وقت واحد، ولذلك يضطر الفلاح إلى التجول يومياً في حقول السمسم وجمع الناضج وسنوفه باليد لأنه إذا ترك الناضج منها على نبتته مدة بعد نضوجه تتشقق السنوف ويسقط الحب على الأرض. أما الذرة البيضاء فمع أنها تستعمل كعلف للحيوانات وفي بعض الأحيان كغذاء إضافي للإنسان في المواسم الرديئة، وهي أيضاً تثبت في مناطق يكون المطر فيها منخفضاً نسبياً، إلا أن قيمتها عند الفلاحين كموسم صيفي أقل من السمسم، وذلك لأنها تستنزف القوة الغذائية في الأرض^(١٢). وقد انتشرت زراعة السمسم

ج. سلسلة الجبال : وترتبتا على الأغلب من الطين الصلصالي، وأهم منتجاتها^(١٣) أشجار المثمرة والزيتون.

د. غور الأردن : وترتبه من الطين الراسبي الصلصالي، وأهم ما يزرع فيه الموز وبعض الأشجار الحمضية.

هـ. هضبة بئر السبع : وترتبتا من الطين الرملي، ونظراً لقلّة سقوط الأمطار فيها فإن مزروعاتها قليلة، ومن أهم المحاصيل الزراعية فيها الشعير^(١٤).

المحاصيل الزراعية :

تعتبر زراعة الحبوب من أكثر المحاصيل التي يزرعها الفلاحون، إذ يتبعون طريقة تناوب المزروعات وتتراوح مدتها ما بين سنتين إلى ثلاث سنوات، ويكون تناوب السنتين بين الحنطة أو الشعير من جهة والمزروعات القطانية الشتوية أو المزروعات الصيفية كالذرة والسمسم من جهة ثانية، أما تناوب السنوات الثلاث فتتم عادة بزرع القطاني بين الحبوب الصيفية والشتوية المزروعة^(١٥).

وتعتبر الذرة البيضاء والسمسم والقطن من

(١١) أبو رجيلي، خليل، "الزراعة العربية في فلسطين قبل قيام دولة إسرائيل". مجلة شؤون فلسطينية، العدد ١١، ١٩٧٢، ص ١٣٢.

(١٢) برون، مرجع سابق، ص ١٦٨. أوين، مرجع سابق، ص ٥٥٣.

(٩) براون، مونتاكيو، الزراعة، ضمن كتاب سعيد حماده (محرر)، النظام الاقتصادي في فلسطين، بيروت، الجامعة الأمريكية، ١٩٣٩، ص ١٣٩-١٤١.

(١٠) برون، المرجع السابق، ص ٥٥٦. روجر أوين، تاريخ فلسطين الاقتصادي في القرن التاسع عشر، الموسوعة الفلسطينية، القسم الخاص، المجلد الأول، بيروت، ١٩٩٠، ص ٥٥٣.

- القمح الهيتي : وتمتاز سنابله بأنها ذات سفا يميل لونه إلى الأصفر وحبه حنطي يميل إلى الحمرة. ومن أنواع القمح الهيتي، الهيتية القطمة الحمراء ذات اللون الفاتح وتصلح للخبز والبرغل، والصفراء التي تتعرض للصدأ وتصلح للخبز والبرغل^(١٦).
- القمح النرسي (النورسي) : ويكون على شكل أربع صفوف من الحب، سنابله غليظة تبنة جيد وطحيته جيد.
- القطراوي : أربع صفوف من الحب، سنابله ضعيفة.
- أبو حربه : صفان من الحب وذات سفا يميل لونها إلى الرمادي.
- الطوباسي : نسبة إلى طوباس، حبوبه بيضاء وشفافة.
- البلدي : تميل حبوبه إلى اللون البني.
- قمح أم طوبار : تميل حبوبه إلى اللون الأسود.
- القمح الغوراني، سنابله غليظة ويميل إلى اللون الأبيض.
- القمح الغزاوي : نسبة إلى غزة، ويميل إلى اللون الأسود، وغير محبذ عند الفلاحين نتيجة لاحتواحه على زوان كثير.

في مختلف المناطق لا سيما منطقة جبل نابلس، وكان يستفاد منه في صناعة الحلويات وبعض المأكولات الشعبية، كما يستخرج منه الزيت الذي يعرف بالسيرج^(١٣). وقدرت المساحة المزروعة بالسهم عام ١٩٠٩م/ ١٩١٠م نحو ١٢٤٠٠٠ دونم أنتجت ٥٩٠٢ طن، أما المعدل العادي لإنتاج السهم السنوي فقد كان ضعف هذا الإنتاج. وكان يصدر منه سنوياً من مرفأ حيفا إلى فرنسا وإيطاليا ٩٠٠٠ طن بسعر ٤٠٠ فرنك للطن الواحد^(١٤).

غير أن أهم المحاصيل الزراعية التي كان يزرعها الفلاحون، وتأتي من حيث الأهمية عند الفلاح الفلسطيني كشجرة الزيتون إن لم تكن تزيد عن ذلك، هي القمح إذ إنه مادة أساسية في غذاء الفلاحين، وقد انتشرت زراعته في مختلف أنحاء فلسطين لاسيما في مناطق السهول والمرتفعات نظراً لخصوبة تربتها، وتركزت بشكل رئيسي في مرج ابن عامر^(١٥). وكان القمح على أنواع عدة منها :

- القمح الحوراني : نسبة إلى حوران ويمتاز بأن ساقه متوسطة الطول، وسنابله غليظة وكثيفة ذات سفا لونها يميل إلى السمرة، كما أن حبه سمين وقاس يميل إلى الحمرة.

(١٦) Baldensperger, Philip. J. The Immovable east, Palestine exploration Fund quarterly statement, January, 1907, P16.

طريف، جورج، السلط وجوارها ١٨٦٤-١٩٢١، عمان، منشورات بنك الأعمال، ١٩٩٤، ص ٥١١.

(١٣) حسين، عبد الله محمود، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في نابلس ١٨٥٠-١٨٧٥، رسالة دكتوراه غير منشورة، دمشق: جامعة دمشق، ١٩٨٩، ص ٤٢٩.

(١٤) أبو رجيلي، مرجع سابق، ص ١٣٢.

(١٥) المرجع نفسه، ص ١٣١.

صفات، من أهمها الفرکدي التي تكون سنابله طويلة، والغزاوي وبذوره طويلة والقمح السبعيني الذي يحصد بعد ٧٠ يوماً من بذره^(٢٠). وقد بلغت مساحة الأراضي المزروعة بالشعير عام ١٩٠٩/١٩١٠ نحو ٣٣٨٤٠٠ دونم أنتجت ٢٠٧٧٢ طناً في حين كان المعدل السنوي لإنتاج الشعير في متصرفية القدس ٣١ ألف طن وكان يصدر منه سنوياً إلى بريطانيا ٨ آلاف طن لاستعماله في صناعة الخمر^(٢١).

ويلي الحبوب من حيث الأهمية الزيتون، إذ تعتبر شجرة الزيتون عند الفلسطينيين بشكل عام جزءاً من التراث الوطني الفلسطيني، كما أن قيمة الثروة المادية للعائلة الفلاحية في معظم القرى الفلسطينية لاسيما شمال فلسطين كانت ولا تزال حتى الوقت الحاضر تقاس بعدد جرار الزيت الذي تنتجه أشجارها سنوياً^(٢٢). ونظراً لأهمية هذه الشجرة فقد غدت :

"أيقونة وطنية عند الفلسطينيين، فانتشارها الكثيف في التلال المكففة والأودية، ومثله عمرها العنيد في تماديه، يرمزان إلى الرسوخ والتجذر والانتماء والبقاء على الرغم من الصعوبات كافة. وهي إذ تمتدح في الشعر، وتنقش صورتها في القلائد الفضية، تستحضر

• القمح النابلسي : نسبة إلى نابلس.

• القمح العجلوني : نسبة إلى عجلون.

• القمح الدبواني : من مؤاب وسنابله طويلة^(١٧).

ووفقاً لبعض الإحصائيات التي تعود إلى عام ١٩٠٩/١٩١٠ قدرت المساحة المزروعة بالقمح في فلسطين خلال هذا العام نحو ٤٦١٠٠ دونم أنتجت ٣٣٩٥٠ طناً. وكان المعدل السنوي العادي لإنتاج القمح في متصرفية القدس نحو ٥٠ ألف طن، وقد انخفضت سنة ١٩٠٩/١٩١٠ إلى ثلثي معدل الإنتاج السنوي العادي وذلك لرداءة الموسم في تلك السنة^(١٨).

غير أنه لا بد من الإشارة إلى أن كمية القمح المبذور قد تصل عند الحصاد إلى عشرة أو عشرين أو ثلاثين ضعفاً، وذلك حسب نوعية التربة ومساحة الأرض المزروعة، بالإضافة إلى موقع الأرض^(١٩).

أما الشعير فقد كان يزرع في المناطق التي تسقط عليها الأمطار بشكل قليل خصوصاً في هضبة بئر السبع وسهل غزة لاسيما أن هذا المحصول يمتاز بقدرته على تحمل العطش. وكان الشعير على عدة أنواع ولكل نوع

(٢٠) Ibid, P16

(٢١) أبو رجيلي، مرجع سابق، ص ١٣٢.

(٢٢) دومانى، بشارة، إعادة اكتشاف فلسطين: أهالي جبل نابلس ١٧٠٠-١٩٠٠، ترجمة حسني زينة، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٨، ص ١٦٢.

(١٧) Baladensperger, The Immovable east, January 1907, PP.15-16.

(١٨) أبو رجيلي، مرجع سابق، ص ١٣١.

(١٩) The Immovable east, January 1907, P16.

ماضيا رفع إلى مصاف المثاليات، يوم لم يكن الفلسطينيون لاجئين، ولا أقلية مهضومة الحقوق تنوء تحت حكم استعماري، وإنما فلاحون أحرار يعيشون من ثمار الأرض وغلّالها^(٢٣).

ولذلك فلا تكاد قرية فلسطينية تخلو من شجر الزيتون، وكانت قرى شمال فلسطين ولاسيما جبل نابلس تعتمد اعتماداً كلياً على زراعة الزيتون سواء في حياتها اليومية أو للتجارة في الأسواق المحلية من خلال زيت الزيتون^(٢٤). وقد قدر معدل الإنتاج السنوي لزيت الزيتون في فلسطين في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى بنحو ٧٠٠٠ طن سنوياً^(٢٥). ومن خصائص شجرة الزيتون أنها تخصب سنة وتمحل سنة أخرى بغض النظر عن عدم انتظام سقوط الأمطار، كما أن طبيعة أشجار الزيتون ملائمة لاحتمال الأحوال الصعبة في المناطق الصخرية^(٢٦).

وكان يتم عصر الزيتون بطريقة بدائية ومتعبة تعمل يدويا تعرف باسم "البد" إذ يتم

عصر الزيتون المقطوف في الخريف قبل هطول الأمطار الشتوية، ويحول إلى عجينة داخل أحواض صخرية ودائرية بعد هرسه بواسطة أحجار كبيرة، ثم توضع هذه العجينة في صوان من القش توضع فوق بعضها البعض بين مكسين، وبعد ذلك يتم الضغط على الصواني بواسطة برغي يتحرك على عمود فتتضغط العجينة وتصدر فيخرج منها الزيت، ثم ترفع العجينة من الصواني وتوضع في حوض معدني من النحاس ويجري رشها بالماء الساخن ثم تعصر مرة أخرى، بعد ذلك يتم جمع الزيت في أحواض كبيرة ثم يعبأ في جرار من الفخار ويحفظ في خزانات كبيرة داخل المنازل أو الآبار^(٢٧).

وأشارت بعض الدراسات عن منطقة نابلس خلال الفترة ١٨٥٠-١٨٧٥ التي استقت معلوماتها من سجلات محكمة نابلس الشرعية، إلى أن بعض القرى كان فيها بد واحد والبعض الآخر كان فيها أكثر من بد وذلك حسب الجدول التالي^(٢٨):

(٢٣) دوماتي، المرجع نفسه، ص ٢١٦.

(٢٤) المرجع نفسه، ص ١٨٥.

(٢٥) الجندي، إبراهيم رضوان، الصناعة في فلسطين أبان الاستداب البريطاني، عمان: دار الكرمل، ١٩٨٦، ص ١٩.

(٢٦) برون، مرجع سابق، ص ١٨٥.

(٢٧) حسين، عبد الله، مرجع سابق، ص ٤٣٤.

(٢٨) المرجع نفسه، ص ٤٥٣.

القرية	أعداد الأبداد	القرية	أعداد الأبداد	القرية	أعداد الأبداد
طلوزة	٢	كفر لبد	١	بورين	١
سبسطية	٢	عقربا	٤	فلاميه	١
روحيب	١	تلفيت	١	جبع	٢
جماعين	٤	كفر دان	١	حجه	١
قباطية	٢	تل	٢	بيت وزن	٢
زيتا	١	بيت ليد	١	عصيرة الشمالية	٢
قبلان	٢	عزون	١	بديا	١
مسالية	٢	دير غصون	٢	صانور	١
سلفيت	١	بلعا	٤	ذنابة	١
برقة	٢	بروقين	١	سيريس	١
رفيديه	٥	نصف جبيل	١		
عورتا	٢	بيت فوريك	٢		

الذهاب إلى قرى أخرى لدرس زيتونهم، وبالإضافة إلى ذلك فوجود بد واحد في بعض القرى ربما كان ذلك لقلة عدد أشجار الزيتون في تلك القرى فالبد الواحد يكفي لدرس زيتون أهالي القرية.

واهتم الفلاحون أيضاً بزراعة القطن، فمنذ القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر خلال عهدي ظاهر العمر وأحمد باشا الجزائر ازدهرت زراعة القطن في فلسطين لاسيما في منطقة عكا، ومما ساعد في ذلك ازدياد الطلب الأوروبي وبخاصة فرنسا على هذا المحصول. غير أن منطقة جبل نابلس سرعان ما أن بدأت بالتفوق على عكا في زراعة هذا المحصول، حتى غدت خلال فترة الثلاثينيات

ويتضح من هذا الجدول أن بعض القرى كان فيها ٥ أبداد كقرية رفيدية وقرى أخرى كان فيها ٤ أبداد وأخرى بدان وأخرى بد واحد، وهذا يدل إما على كثرة أشجار الزيتون في بعض القرى التي وجد فيها ٥ أبداد مثلاً، ولذلك فالحاجة تقتضي وجود هذا العدد، غير أنه إذا ما علمنا أن قرية رفيدية هي قرية صغيرة كما أنها قريبة جداً من مدينة نابلس وهي اليوم ضاحية من ضواحي نابلس فيكون التفسير لوجود ٥ أبداد فيها تفسيراً آخر فربما كان وجود البد لعصر الزيتون بمثابة تجارة مربحة لصاحب البد هذا من جانب، ومن جانب آخر فلم يكن بمقدور فلاحي بعض القرى لإقامة بد في قريتهم، فيضطرون إلى

من القرن التاسع عشر بمثابة المنتج الرئيسي للقطن ليست في فلسطين فقط بل في سوريا الكبرى، وكان القطن المستتبت في جبل نابلس قد وطد شهرته باعتباره الأفضل في الهلال الخصيب^(٢٩).

إلا أن إنتاج القطن وزراعته في فلسطين أخذت بالتراجع خلال الخمسينيات من القرن التاسع عشر، وجاء ذلك نتيجة لأسباب عدة مرتبطة بالمنافسة الإقليمية لاسيما مصر، ثم طبيعة الطلب الأوروبي المتقلبة، بالإضافة إلى ركود صناعة النسيج. فقد أخذ القطن المصري يلقي رواجاً كبيراً في الأسواق الأوروبية مقارنة بالقطن الفلسطيني وذلك نظراً للنوعية الجيدة التي كان يمتاز بها القطن المصري ذو التيلة الطويلة، كما أن الأراضي المصرية لاسيما وادي النيل كانت تنتج كميات كبيرة تسد حاجات الأسواق الأوروبية^(٣٠).

أما العامل الآخر الذي ساهم في تراجع زراعة القطن في فلسطين، فقد جاء نتيجة لازدياد الطلب الأوروبي لاسيما البريطاني على الحبوب (القمح والشعير)، الأمر الذي أدى إلى تحول الفلاحين الفلسطينيين من زراعة القطن إلى زراعة الحبوب، وقد رحبوا بهذا التحول لأنهم كانوا يفضلون زراعة

الحبوب أكثر من زراعة القطن، نظراً لقدرتها على التحمل وسهولة زراعتها، كما أنها تحتاج إلى مياه وعمل وجهد أقل مما يحتاجه القطن، بالإضافة إلى أن الحبوب لا تستنزف التربة كما هو الحال في القطن، وأخيراً فإن زراعة الحبوب كانت عملية تجارية أقل مجازفة مقارنة مع القطن، إذ كان هناك أسواق محلية أو إقليمية دائمة للقمح، في حين كان سوق القطن معرضاً للمخاطر نظراً لتقلب الأسعار العالمية وتقلب صناعة النسيج الإقليمية^(٣١).

غير أن القطن سرعان ما أن استرد مكانته القديمة كمادة مهمة في الزراعة والتصدير في أواخر الخمسينيات ومطلع الستينيات، فقد أدت الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦٠م-١٨٦٤م) إلى ارتفاع أسعار القطن واتساع كبير في زراعته^(٣٢). ففي عام ١٨٦٣ قدرت مساحة الأراضي المزروعة بالقطن في منطقة يافا أربعة أضعاف عما كانت عليه عام ١٨٦٢، وفي عام ١٨٦٤ زرع ستة أضعاف ما زرع عام ١٨٦٣ وقامت بعض القرى بتخصيص ثلث أراضيها لزراعة القطن بدلاً من السمسم، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع قيمة صادرات هذا المحصول عام ١٨٦٣ بنحو عشرة أضعاف الكمية التي صدرت عام ١٨٦٢، ثم أخذ

(٢٩) دوماتي، مرجع سابق، ص ١٢٨-١٢٩.

(٣٠) المرجع نفسه، ص ١٣٠.

(٣١) شولش، الكسندر، تحولات جندرية في فلسطين ١٨٥٦-١٨٨٢، ترجمة كامل العسلي، عمان: منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٩٨، ص ٩٩.
دوماتي، مرجع سابق، ص ١٣٠-١٣١.

(٣٢) عيساوي، شارل، التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب ١٨٠٠-١٩١٤، ترجمة رؤوف عباس حامد، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٠، ص ٤١٦.

غور الأردن. وشهد أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين اهتماماً واضحاً وزيادة ملموسة في زراعة الأشجار الحمضية، فقد ارتفعت مساحة الأراضي الزراعية المزروعة بالحمضيات من ٦,٦٠٠ دونم عام ١٨٩٥ إلى ٣٠,٠٠٠ دونم عام ١٩١٥^(٣٦).

ويعتبر البرتقال اليافاوي من أهم الأصناف التي تنتج في فلسطين نظراً لثخانة قشرته ورائحته العطرة فضلاً عن خلوه النسبي من الحموضة^(٣٧). ففي عام ١٨٧٠ وجد في يافا ٣٨٤ بستاناً من البرتقال أنتجت ٣٨,٤٠٠,٠٠٠ برتقالة بيعت في يافا بما يعادل ٤٠,٠٠٠ ليرة إنجليزية، وارتفع عدد البساتين عام ١٨٨٤ إلى ٥٠٠ بستان تضم حوالي ٨٠٠,٠٠٠ شجرة، وفي عام ١٨٨٦ قدرت مساحة الأراضي المزروعة بالبرتقال حول يافا بما يعادل ألف فدان وارتفع إلى ٣٠٠٠ فدان عام ١٨٨٩، وتتم زراعة أشجار البرتقال على بعد ٤,٥ م الواحدة عن الأخرى، وتحمل الشجرة الثمر في السنة الثالثة أو الرابعة وتستمر في الثمر إلى فترة تتراوح ما بين ٢٠-٣٠ سنة^(٣٨).

الطلب الأوروبي في الازدياد مما دفع التجار لاستيراد محالج القطن نظراً لعدم قدرة الأدوات المحلية البسيطة على تلبية الكميات المطلوبة^(٣٩).

وقامت الدولة العثمانية بتشجيع الأهالي على زراعة القطن، فأصدرت عام ١٨٦١ "تعليمات تشجيع زراعة القطن" حاولت من خلالها تشجيع زراعة القطن في مختلف ولاياتها عن طريق فتح معرض سنوي في مدن وقصبات الولاية، كما أمرت بصرف مكافآت للمزارعين النشيطين في مجال إنتاج القطن، وأعفت آلات القطن المستوردة من الخارج من الرسوم الجمركية^(٤٠).

غير أنه سرعان ما بدأ التراجع في زراعة وإنتاج هذا المحصول - فمذ خريف عام ١٨٦٤ - انخفض سعر القطن بنسبة ٥٠٪، ثم جاءت نهاية الحرب الأهلية الأمريكية لتدفع باتجاه التراجع الحاد في زراعة هذا المحصول وتصديره^(٤١).

أما الحمضيات فقد تركزت زراعتها في السهل الساحلي بين حيفا وغزة بالإضافة إلى

(٣٣) شولش، مرجع سابق، ص ١٩٣.

(٣٤) عوض، عبد العزيز محمد، الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤-١٩١٤، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٩.

(٣٥) عيساوي، مرجع سابق، ص ٤١٦. شولش، مرجع سابق، ص ١٠٦.

(٣٦) Reilly, James. The peasantry of Late Ottoman Palestine, Palestine studies, Vol. X. No4, 1981, P85.

= بيسو، فؤاد حمدي، الاقتصاد العربي في فلسطين في عهد الانتداب البريطاني ١٩٢٠-١٩٤٨م، الموسوعة الفلسطينية، القسم الخاص، بيروت، ١٩٩٠م، المجلد الأول، ص ٦٥٨.

(٣٧) بيسو، المرجع السابق، ص ٦٥٨.

(٣٨) رافق، عبد الكريم، فلسطين في عهد العثمانيين من مطلع القرن الثامن الهجري / التاسع عشر الميلادي إلى العام ١٣٣٦هـ / ١٩١٨م، الموسوعة الفلسطينية، القسم الخاص، م ٢، بيروت، ١٩٩٠، ص ٩٥٢.

كما اهتم الفلاحون أيضاً بزراعة أشجار التين والكرمة (العنب) لاسيما في المناطق الجبلية، وما زالت معظم القرى في منطقة الخليل تهتم بزراعة أشجار العنب حتى اليوم وهم يجيدون تصنيعه للزبيب والدبس.

وتعد نوعية التربة من أهم العوامل التي يتوقف عليها تطوير زراعة الأرض، ويصنف الفلاحون الأرض إلى صنفين حسب درجة صعوبة فلاحتها، الصنف الأول التربة الثقيلة وهي طينية تحتوي على مواد عضوية كثيرة، ويعرف هذا النوع عند الفلاحين باسم تربة دسمة. أما الصنف الثاني فهو التربة الخفيفة وتكون رملية وتحتوي على كميات أقل من المواد العضوية، كما أن حرارتها بالمحراث تكون أسهل من التربة الثقيلة^(٣٩).

غير أن الفلاح الفلسطيني كان يدرك تماماً أهمية الحفاظ على دورة زراعية تحفظ للتربة خصوبتها بل وتعمل على زيادتها، نتيجة لاختلاف المزروعات واختلاف استهلاكها للمواد الكيماوية^(٤٠). ولذلك فقد عرف الفلاح الفلسطيني دورتين زراعتين، ففي الشتاء تزرع الحبوب (القمح والشعير والعدس والكرسنة) ويكون موعد زراعتها خلال النصف الثاني من شهر تشرين الثاني

والنصف الأول من كانون الأول أي بعيد بواكير الأمطار الخريفية، وتتضح هذه المحاصيل بين نيسان ونهاية أيار وذلك حسب المنطقة وكمية الأمطار الساقطة. أما المزروعات الصيفية كالقطن والذرة البيضاء أو الصفراء والسمسم والحمص والمقايي بمختلف أنواعها (الكوسا والخيار والفقوس والقرع والبطيخ) فكانت تزرع ابتداء من أواخر آذار وحتى أوائل أيار وتحصد في آب وأيلول. ومن خلال المزروعات الدورية التي تزيد من كمية الأوزوت في التربة كالفول والتي تطلق جذوراً عميقة كالسمسم والذرة من ناحية، والمزروعات التي تزيل الأوزوت والتي تطلق جذوراً قصيرة كالقمح والشعير من ناحية أخرى، يحاول الفلاح المحافظة على توازن العناصر التي تغذي التربة وعلى توازن تركيبها^(٤١).

كما أن الزراعة في معظم المناطق الفلسطينية لم تكن أحادية المحصول، بل كان الفلاحون يزرعون محاصيل مختلفة في وقت واحد، وقد ساهم هذا النمط من الزراعة في تجنب الخسائر المادية التي قد يتعرض لها الفلاح الفلسطيني إذ إن الانخفاض في إنتاج أحد المحاصيل قد يعوضه الارتفاع في إنتاج

(٤٠) بدران، نبيل، الريف الفلسطيني قبل الحرب العالمية الأولى، مجلة شؤون فلسطينية، العدد ٧، ١٩٧٢، ص ١٢١.

(٤١) نسكايا، مرجع سابق، ص ٧٣.

(٣٩) نسكايا، ايرينا سميليا، البنى الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي على مشارف العصر الحديث، ترجمة يوسف عطا الله، بيروت: دار الفارابي، ١٩٨٩، ص ٤٩.

محصول آخر^(٤٢). فقد كانت بعض القرى لاسيما تلك التي يوجد فيها ينابيع مياه كسلوان والولجة ولفته وبتير وارطاس وسلوان تنتج محصولين من الخضراوات خلال العام يتم بيعها في أسواق مدينة القدس. وتعتبر قريتا جوره وحمامة بالقرب من غزة من أفضل المناطق في فلسطين حيث تنتج الخضراوات المبكرة كالبندورة والفاصولياء في أوائل شباط في الوقت الذي لم يكن يوجد فيه هذان المحصولان في أي مكان آخر في فلسطين. وفي قضاء القدس اشتهرت قرية سلوان بالقرنبيط والسلق والبقدونس، واشتهرت قرية بتير بالبادنجان، أما قرية ارطاس فقد اشتهرت بالبندورة والأجاص والدراق. وتنتج بسايتين عين جدي الخضراوات المبكرة كالفخوس والخيار، كما اشتهرت أراضي فطير بالقرب من قرية بيت جمال غرب القدس بالبصل^(٤٣).

وفضلاً عن ذلك فقد امتازت الزراعة الفلسطينية بالقدرة على التأقلم مع الظروف الطارئة والعرض والطلب في الأسواق الخارجية والمحلية، إذ إن انخفاض الطلب على محصول معين قد لا يلحق الضرر بالفلاح، بل يعني التحول إلى زراعة محصول آخر. فعندما قل الطلب الأوروبي على القطن

المحلي تحول السكان إلى زراعة السمسم الذي ازداد عليه الطلب^(٤٤).

كما اهتم الفلاحون أيضاً بتسميد أراضيهم، وكان من أكثر أساليب التسميد الشائعة هي روث الحيوانات خلال موسم الفلاحة والحصاد، وقد كانت تعقد اتفاقيات بين أصحاب المواشي أو الرعاة من جهة والمزارعين من جهة أخرى بشأن رعي الماشية واحتجازها في أراض محدودة. وقد عرفت أشكال مختلفة من أساليب دفع قيمة الخدمات المتبادلة عيناياً ثم مالياً في نهاية القرن التاسع عشر بين من كان يقدم العلف للماشية ومن يحتفظ بها لتسميد الأرض^(٤٥).

ومهما يكن من أمر، فقد حاولت الدولة العثمانية الاهتمام بأمور الزراعة، فقد نص قانون الولايات الصادر عام ١٨٦٤ على ضرورة تعيين مدير للزراعة في مركز كل ولاية من الولايات للنظر في أمور الزراعة وإجراء التنظيمات المتعلقة بذلك فناً وعملاً بحسب ما يقتضيه الموقع الجغرافي لكل محل داخل الولاية وقابليته الطبيعية فضلاً عن القيام بالإجراءات التي من شأنها أن تعمل على ترقية الزراعة وتطهيرها، وتشجيع الأهالي على زراعة مختلف أنواع المحاصيل والبحث على الوسائل التي من شأنها أن تعمل على

(٤٢) Baldensperger, The Immovable east, October, 1907, P272

(٤٤) غنايم، مرجع سابق، ص ٣٨٦.

(٤٥) نسكاي، مرجع سابق، ص ٧٤.

(٤٢) غنايم، زهير عبد اللطيف، لواء عكا في عهد

التنظيمات العثمانية ١٨٦٤-١٩١٨، بيروت:

مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٩، ص ٣٨٤.

توفير أصول الزراعة والحراثة على الوجه المطلوب، وطالبت الدولة مدراء الزراعة بأن يقوموا بتعيين ممثل أو وكيل في كل قضاء وناحية وقرية لمتابعة أمور الزراعة وكان على المدراء أو الوكلاء حضور مجالس الدعاوى التي تعقد للفصل في قضايا المزارعين والفلاحين التي تخص أمور زراعتهم. كما أصدرت تعليمات تخص وظائف مديري الزراعة في الولايات نصت على أن "الزراعة والحراثة هما أساس عمار المملكة فالسعي على استحصال وسائل تكثيرهما وتوفيرهما من واجبات ذمة الحكومة، وكذلك ترغب أهل الزراعة وإفادة الحكومة المحلية وتبليغها ما يحتاجون إليه هما مترتبان على عهدة حمية مأموري الزراعة" (٤٦).

كان الفلاح يقوم بحراثة الأرض مرتين في السنة، المرة الأولى وتدعى "كراب" أو "كسارة" وتتم في شهري تشرين الأول وتشرين الثاني؛ وذلك بهدف تحضير الأرض للزراعة حتى تستقبل مياه الأمطار وتزداد فيها نسبة الرطوبة، أما الحراثة في المرة الثانية فتعرف بالثنائية وتتم أوائل الربيع (٤٧)، وفيها يقوم الفلاح ببذر الحبوب في الأرض قبل البدء بالحراثة، حيث يضع كمية من البذار في حجر

ديمايته ويبدأ بنشر الحبوب على الأرض مراعيًا في ذلك أن لا تكون متلاصقة كثيرًا أو متباعدة كثيرًا، غير أن عملية البذار لا تخلو من بعض المخاطر ففي حالة البذار البديري يخشى على الحب من الموت بسبب الصقيع أو الجفاف، وفي حالة البذار الوخري فمن الممكن أن تتعرض الحبوب للجفاف في حال انحباس المطر (٤٨). كما تشكل الطيور عاملاً مزعجاً للفلاح، وبخاصة الزرزور الذي يأتي إلى فلسطين خلال شهري تشرين الأول وتشرين الثاني، إذ تجبر الفلاح أحياناً على إعادة بذار الأرض مرة أخرى بسبب أكلها للحبوب المبذورة، ومع ذلك فالفلاح الفلسطيني يتفاعل بمجيء هذه الطيور وهناك مثل شعبي شائع عند الفلسطينيين يقول "سنة الزرزور احترث في البور" وفي ذلك دلالة على أن تلك السنة ستكون سنة خصبة (٤٩).

الأدوات الزراعية :

يعتبر المحراث البلدي (الخشبي) من أهم الأدوات التي يستخدمها الفلاحون في الزراعة. ويتكون هذا المحراث من الأجزاء التالية :

١. السكة : وهي الجزء الرئيسي في المحراث، مصنوعة من الحديد ويتراوح

(٤٨) سرحان، نمر، موسوعة الفولكلور الفلسطيني، عمان، ١٩٨٩، ص ٣٩٠.

(٤٩) Baldensperger, The Immovable east, January, 1907, P.11.

(٤٦) النجار، جميل موسى، الإدارة العثمانية في ولاية بغداد ١٨٦٩-١٩١٧، القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩١، ص ٤٠٤-٤٠٥.

(٤٧) Baldensperger, The Immovable east, January 1907, P11.

٨. الحلقة : وهي قطعة معدنية من الحديد تربط بالأعلى بالنير من خلال الشرعة ومن الأسفل تكون مربوطة بالوصلة.

٩. السبلانات : وهي أربع قطع خشبية، تكون كل قطعتين على طرفي النير وتوضعان على رقبتَي الحيوانين^(٥٠).

ويستخدم الحراث أثناء عملية الحرث يديه الاثنتين، يد تمسك الكابوسة والأخرى يمسك بها المنسّاس أو الناخوزة وهي قطعة خشبية يربط بأحد طرفيها قطعة معدنية تكون حادة لوخر الحيوان وحثه على الحرث، أما الطرف الآخر ففيه أيضاً قطعة معدنية لإزالة ما يعلق بالسكة من طين.

أما القوة التي تجر المحراث فهي زوج من ثيران البقر تعرف باسم فدان، وقد استخدمت أيضاً البغال والحمير^(٥١). غير أنه في الأغلب كان الفلاح يستخدم الثيران نظراً لقدرتها على الحراثة مقارنة مع البغال والحمير، ولذلك فقد كان الفلاح يقتني أكثر من زوج من الثيران ويقوم بتربيتها وتدريبها على الحراثة والجر في السنة الثانية من عمرها. وتتطلب عملية التدريب جهداً كبيراً من الفلاح، وغالباً ما كان يبدأ بذلك في بداية فصل الخريف وفي

طولها ما بين ٤٠-٦٠ سم، وتكون مدببة وحادة من الرأس حتى تخترق الأرض بسهولة ثم تأخذ بالعرض، كما أن طرفيها حادان ولكن أقل حدة من الرأس.

٢. الكابوسة (اليد) : وهي قطعة خشبية صغيرة يبلغ طولها نحو ٣٠ سم، يمسك بها الحراث ويستطيع من خلالها أن يتحكم في السكة من حيث التعمق في الأرض من خلال الضغط أو عدم الضغط، ومحاولة رفع السكة في حال وجود مناطق صخرية أثناء الحراثة.

٣. الذكر : وهو قطعة خشبية يبلغ طولها نحو ١،٥ م تصل ما بين الكابوسة والسكة.

٤. البرج : وهو قطعة خشبية يتراوح طولها ما بين ١-١،٥ م ويصل ما بين الذكر والوصلة.

٥. الوصلة : وهي أيضاً قطعة خشبية تصل ما بين البرج والنير من خلال الشرعة التي تصنع من جلود الحيوانات.

٦. الناطح : وهو قطعة خشبية يوصل الذكر بالبرج من خلال ثقب موجود في البرج.

٧. النير : وهو أيضاً مصنوع من الخشب يوضع على رقبتَي الحيوانين اللذين يجران المحراث، ويحافظ على توازن المحراث.

= كذلك قارن: محمد سالم الطراونة، تاريخ منطقة البلقاء ومعان والكرك ١٨٦٤-١٩١٨، عمان: وزارة الثقافة، ١٩٩٢، ص ١٤٦. طريف، مرجع سابق، ص ٥٠٧.

Post , op.cit , P115.

(٥١)

Post, George E., Essays on the sects (٥٠) and nationalities of Syria and Palestine, Palestine exploration Fund, April, 1891, PP112-113. =

- النصاب : وهو أداة صلبة تحمل سائر الأدوات.
 - السكين : وهي أداة تشق الأرض بشكل عمودي.
 - المقطع : وهي أداة تفصل الكتل الترابية بشكل أفقي.
 - المقلب : وهي أداة تفصل الكتل الترابية المفصولة.
 - المزحف : وهي أداة يرتكز عليها المحراث فتزحف به ويكون لها عقب يعرف باسم عقب المزحف.
 - الميزان : وهي أداة يعين بها عمق الحرث وعرضه.
 - أداة يقبض بها الحراث لتسيير محراثه^(٥٤).
- أما عملية الحصاد فمما لا شك فيه أن مواعيد حصاد المحاصيل تختلف من محصول إلى آخر بالرغم من تقاربها، فالعدس والكرسنة يحصد في الفترة ما بين ١٥ أيار إلى أوائل حزيران، أما الشعير فيحصد في أواخر أيار إلى أواسط حزيران، بينما يحصد القمح بعد ١٥ حزيران. ولذلك فإن هذا الفارق في المواعيد أعطى الفلاح مجالاً للاهتمام بكل صنف من مزروعاته الشتوية، فضلاً عن ذلك فإن فترة الزرع والحصاد بشكل عام

منطقة سهلية غير مزروعة. وتكون عملية التدريب من خلال وضع النير على رقبتَي الثورين، وبدلاً من المحراث يربط النير بحبل جذع من شجر الصبر الأخضر بعد إزالة الأشواك منه فيصبح شبيهاً بعجل المطاط وذلك حتى لا يؤذي أرجل الثورين كلما ضرب بهما^(٥٢).

وفي بعض الأحيان يستخدم الفلاح حيواناً واحداً للحرثة وغالباً ما يكون ذلك في المناطق الوعرة والضيقة والمشجرة حيث من الصعب أن تحرث بالفدان. وفي هذه الحالة يتكون المحراث من الكابوسة والسكة والمربط الذي تربط به القلادة والرياحات التي تربط في القلادة التي توضع حول رقبة الحيوان ويتم توجيهه بواسطتها، والفرق بين الفرد والفدان هو أن الوصل يكون في سكة الفدان أطول منه في سكة الفرد ويكون مربوطاً في النير^(٥٣). وبالرغم من سهولة استخدام هذا المحراث، إلا أنه لا يتعمق كثيراً في التربة لاسيما إذا كانت صلبة، الأمر الذي يقلل من نسبة وصول الرطوبة داخل الأرض، مما يتطلب ضرورة حرثة الأرض أكثر من مرة من أجل شق التربة بشكل جيد.

وفي أواخر العهد العثماني ظهر محراث جديد عرف بالمحراث الأوروبي، ويتكون من الأجزاء التالية :

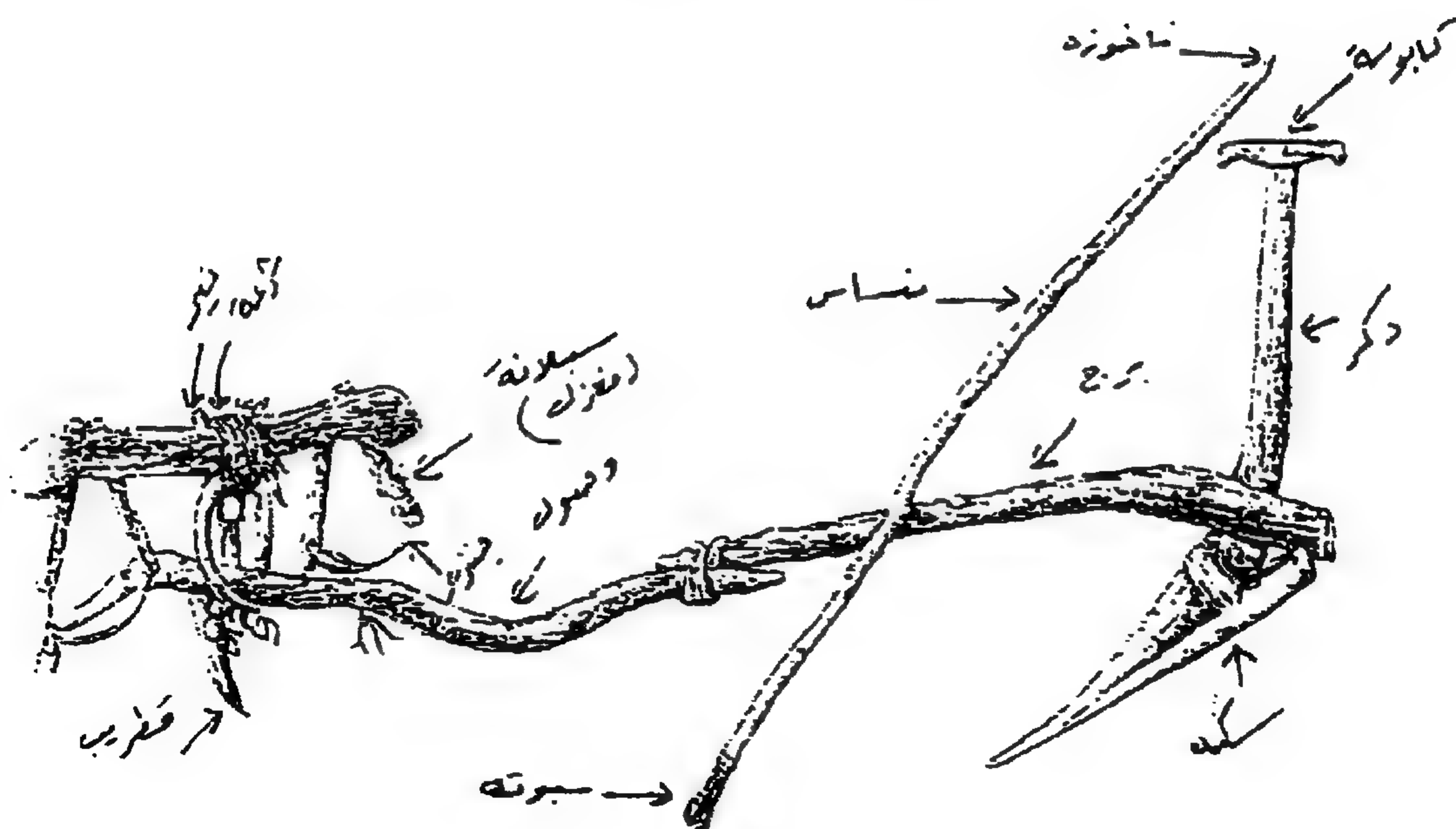
(٥٢) أبو بكر، أمين، ملكية الأراضي في متصرفية القدس ١٨٥٨-١٩١٨، عمان: مؤسسة عبد الحميد شومان، ١٩٩٦، ص ٥١٨ هامش رقم ١.

(٥٣) Baldensperger, The Immovable east, January, 1907, P.14.

= كذلك انظر: عبد العزيز أبو هدبا، قرية دير أبان، البيرة: جمعية إنعاش الأسرة، ١٩٩٠، ص ١٩٩.

(٥٤) طريف، مرجع سابق، ص ٥٠٧ - ٥٠٨.

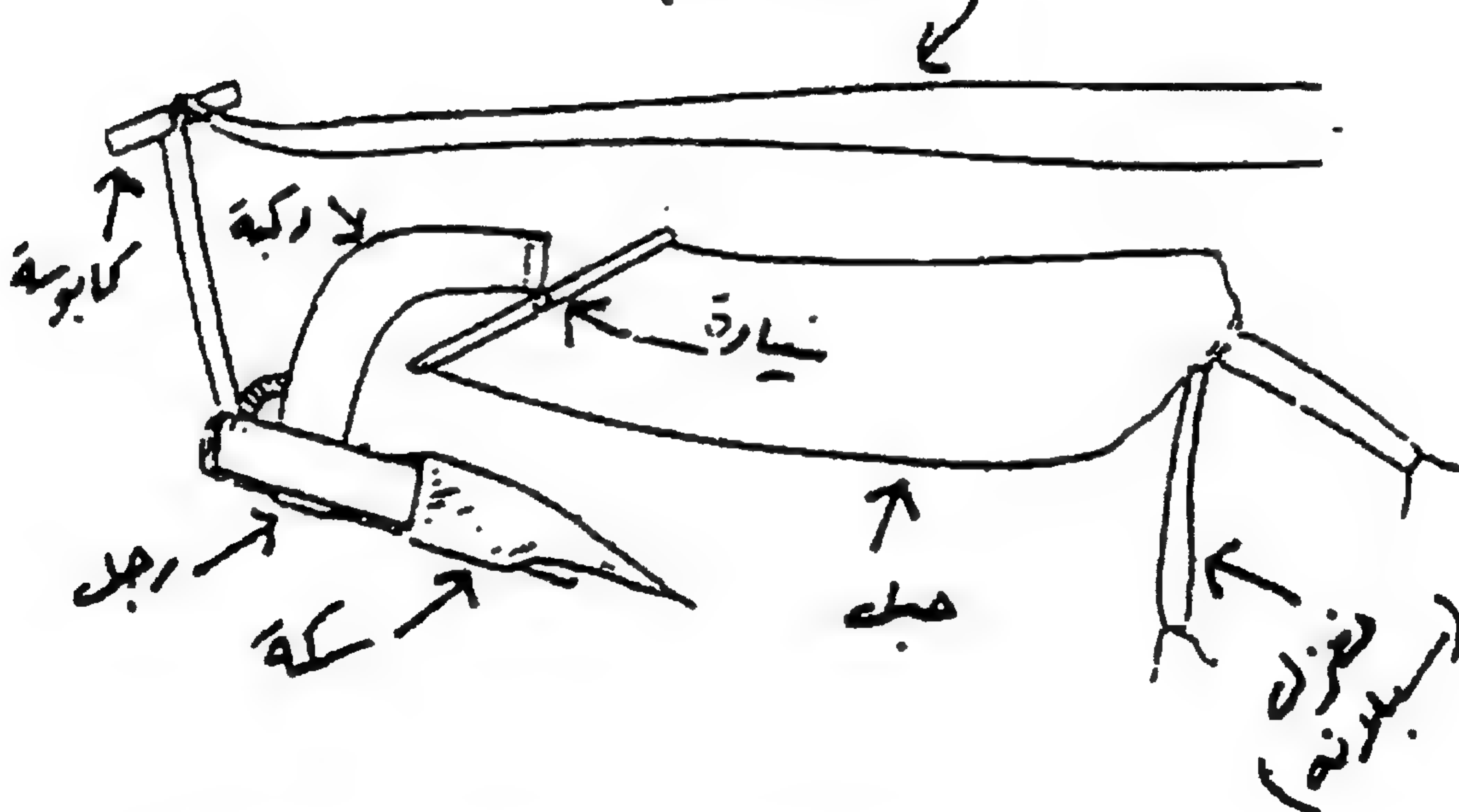
محراث يجره زوج من الثيران



Post, E. George. Essays on the sects and nationalities of Syria and Palestine, P. E. F., April, 1891, P.113.

محراث يجره حيوان واحد

سبلنة (رداد)



Baldensperger, Philip. The Immovable East, Jan, 1907, P14.

المحاصيل المزروعة، وتزويد المزارعين بالطعام والشراب^(٥٧).

ومن أهم الأدوات التي يستخدمها الفلاح في حصاد المحاصيل هي الحشاشة والكالوش والمنجل. وخلال عملية الحصاد كان الحصادون يربطون كل كمية صغيرة من القمح والشعير بساق واحدة أو اثنتين تعرف باسم "شمال" وتوضع على شكل أكوام تسمى "غمور" ثم يتم جمع هذه الغمور بكومة أكبر تعرف باسم "حلة". وبعد الانتهاء من حصاد المحصول، تبدأ عملية النقل إلى البيادر "الجرون" لدرس المحصول. وتتم عملية النقل على الدواب (الحمير والبغال). ويستخدم في ذلك أداة تعرف باسم "القادم" وتتكون من أربع قطع خشبية يتراوح ارتفاعها من ١-٥،٥م اثنتان منهما خشبها ثقيل، ويتصل بهما من الأسفل حبلان متوازيان تسمى "الرواجل" أو "الرميات"، وتنتهي بقطعة خشبية نصف دائرية تسمى "الطراحة" ويتصل بالقادم من الأعلى حبلان يتوسط كل منهما قطعة من الخشب المثني على شكل قوس تسمى "خرص" حيث يوضع القش بطريقة منظمة بعد نصب القادم على الحبل، ويدعى كل جزء من جزئي القادم "الشاطرة" وتكون وظيفة الخرص والحبل المتصل به إحكام الربط على

تختلف بين المناطق الجبلية والسهلية، إذ إن الفارق يكون أسبوعين، مما مكن أصحاب الأراضي من القيام بأعمالهم في هذين المجالين دون المساس بنجاعة أحدهما^(٥٥).

وإذا أراد صاحب الأرض أن يحصد كثيراً ويريد أن ينجز عمله في أقل وقت ممكن، فإنه يدعو جميع أصدقائه وأقربائه لمساعدته في الحصاد وتسمى هذه العملية بـ "العونة"، وإذا كانت الأراضي الزراعية بعيدة عن القرية فإن جميع السكان يذهبون إلى أراضيهم ويقومون فيها طوال فترة الحصاد التي تستمر عدة شهور بأكواخ يقومون ببنائها تعرف باسم "العرائش". وتكون القرية شبه خالية ومهجورة من السكان ما عدا عدد قليل من الحراس لحراسة الأثاث والأغراض التي يتركها الأهالي والتي لم تكن على الأغلب ذات قيمة كبيرة^(٥٦).

وكان بعض ملاك الأراضي يشغلون عمالاً يعرفون باسم "القطاريز" وهم شبان صغار تتراوح أعمارهم ما بين ١٠-١٨ سنة، وكانت مهامهم تتعلق بتقديم الخدمات التي يحتاجها صاحب الأرض، كإسقاء الدواب وعلفها، ونقل الماء من العيون إلى المنازل وأماكن العمل، ومنع الحمير من الدوس على

(٥٥) عراف، شكري، الأرض، الإنسان والجهد - دراسة لحضارتنا المادية على أرضنا، عكا: مطبعة أبو رحمون، ١٩٨٢، ص ١٩.

(٥٦) The Immovable east, January 1907, PP.18-19.

(٥٧) مرعي، إبراهيم جميل، قرية زرعين، بيرزيت: جامعة بيرزيت - مركز دراسة وتوثيق المجتمع الفلسطيني، ١٩٩٤، ص ٨٣.

الدرس، فهي بالنسبة إلى البقر كنسبة ٩:١٣، كما أن الحصان لا يُكم أثناء عملية الدرس لعدم مقدرة على تحمل الجوع، بينما كانت الحيوانات الأخرى تُكم بكمامات إما من أغصان شجرية مجذولة وإما من معدن، حتى لا تبالغ في الأكل من الحبوب. وكان الدراس يضع اللقاية على حافة النورج لجمع براز الحيوان وإلقائه على طرف البيدر، أما البول فلا يجمع^(٦٢).

ويكون النورج الذي يستخدمه الفلاح في الدرس عبارة عن لوح خشبي أو لوحين موصولين من أعلى إذا جره ثوران وأحياناً يكون ثلاثة ألواح إذا جره حصان، ويوجد في أسفله ثقب يترأوح عددها ما بين ٢٥٠-٣٠٠ ثقب توضع بها حجارة صلبة من البازلت أو الصوان، أو قطع حديدية حادة، ويترأوح عمق كل ثقب ما بين ٢-٣ سم أما قطره فيصل إلى ٥،٢ سم^(٦٣). ويقف على ظهر اللوح غلام أو رجل لحث الحيوانات على الدوران على المحصول بشكل دائري فيتكسر القش الجاف، وينتشر حب السنابل، وتستمر العملية حتى يصبح القش المدروس شبه هرم في وسط البيدر^(٦٤). ولا بد من الإشارة إلى أن الفلاح لا

القش بتوصيل الحبل من الخرص إلى الطراحة في أسفل القادم^(٥٨).

ويتم تجميع المحاصيل في البيادر من أجل درسها، وغالباً ما تكون البيادر أراضي مشاع لجميع أهل القرية، وكل فلاح يعرف حصته فيها، وقد روعي في اختيارها أن تكون بعيدة عن القرية وغالباً ما تكون في الجهة الشرقية للقرية وذلك حتى لا تحمل الرياح الغربية التبن الناعم إلى البيوت^(٥٩). كما روعي في اختيار مكان البيدر وجود طبقة صخرية صلبة قدر الإمكان لا سيما في المناطق الجبلية، وذلك حتى لا يختلط التراب بالحبوب والتبن خلال عمليتي الدرس والتذرية، كما تكون البيادر أيضاً في أماكن مرتفعة ومفتوحة على التيارات الهوائية التي تساعد في عملية التذرية^(٦٠) وعلى الأغلب ما يكون في القرية بيدر واحد، غير أنه في بعض الأحيان يكون أكثر من بيدر إما بسبب اتساع مساحة الأرض المزروعة، وإما بسبب سوء العلاقات الاجتماعية بين حمائل وعائلات القرية^(٦١).

وبعد نقل المحاصيل إلى البيادر، تبدأ عملية الدرس بواسطة البغال والحمير والأبقار والخيل، ويتميز الحصان بقدرة أكبر في

(٥٨) الطراونة، مرجع سابق، ص ١٤٧. طريف، مرجع سابق، ص ٥٠٩.

(٥٩) The Immovable east, Jan. 1907, P.21. عراف، الأرض، ص ٢٩.

(٦٠) The Immovable east, Jan 1907, P.21. أبو بكر، مرجع سابق، ص ٤٢٩.

(٦١) عراف، الأرض، ص ٢٩.

(٦٢) المرجع نفسه، ص ٣٥.

(٦٣) المرجع نفسه، ص ٣١.

(٦٤) نيوتن، فرنسيس املي، خمسون عاماً في فلسطين، ترجمة وديع البستاني، عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٤٧، ص ٦١-٦٢.

يستطيع درس محصوله إلا بعد أن يحصل على إذن من الحكومة وذلك من خلال لجنة خاصة تضم ٤-٥ أشخاص تعرف باسم لجنة التخمين تقوم بتخمين وتقدير قيمة المحصول^(٦٥).

وبعد الانتهاء من درس المحصول، تبدأ عملية التذرية التي تتم على الأغلب إما في الصباح الباكر وإما وقت العصر حيث تكون هناك بعض الرياح أو النسيم. ويستخدم الفلاح بذلك أداة تعرف باسم "المذراه" وهي عبارة عن عصا خشبية يبلغ طولها حوالي ٥،٥م وتشتمل في أسفلها على ٤-٥ أصابع من الخشب تربط بالعصا من خلال قطعة جلدية. ويقف الفلاح بجانب المحصول المدروس. وتكون التذرية من خلال غرس المذراه في المحصول ورفعها إلى أعلى باتجاه الشرق، فينفصل بذلك القش عن حبات القمح أو الشعير. ويطلق على كومة القمح المفصول "الصليبية". ويكون القش المفصول ثلاثة أنواع، قش خشن ويسمى "القصل" والأنعم قليلا ويسمى "التبن" والناعم ويسمى "الموص"، ويأتي ترنيبها من الغرب إلى الشرق القصل ثم التبن ثم الموص وذلك حسب اتجاه الرياح^(٦٦).

وبعد الانتهاء من التذرية تجري عملية تنقية الحبوب من الشوائب العالقة كالحجارة والكدر وبذور النباتات الأخرى بواسطة "الكربال" وهو عبارة عن وعاء دائري من الخشب وباطنه مجموعة من الخيوط الجلدية المتشابكة، وتختلف ثقوبه حسب المحصول المراد تنقيته فتكون أوسع في حال تنقية بعض المحاصيل كالحمص والشعير وتضيق في حال تنقية محاصيل أخرى كالقمح والعدس. وهناك وعاء آخر على غرار الكربال ولكن ثقوبه صغيرة يعرف باسم "الغربال" ويستخدم لتنقية المحاصيل من الأتربة والشوائب الصغيرة^(٦٧).

ويتم نقل التبن إلى المنازل من خلال تعبئته بأكياس كبيرة تسمى "شوال" ويخزن في أماكن خاصة يطلق عليها "المتبن"^(٦٨) وقد ضمت الدار الواحدة أكثر من متبن، وبخاصة دور الفلاحين الذين يزرعون مساحات واسعة من الأراضي ويخزنون كميات كبيرة من التبن^(٦٩).

أما الحبوب ولاسيما القمح فتعبأ بأكياس من الخيش أو شعر الماعز تعرف باسم "الفردة" وعند البدء بعملية التعبئة يسود الصمت الكامل لدى الموجودين وذلك كما يعتقد الفلاحون

(٦٧) Post, op.cit, P115. The Immovable east, October, 1907, P.269.

الطراونة، مرجع سابق، ص ١٤٨.

(٦٨) The Immovable east, Jan 1907, P.21.

(٦٩) غنايم، مرجع سابق، ص ٢٠٦.

(٦٥) The Immovable east, Jan 1907, P.20.

(٦٦) Post, op.cit, P115. The Immovable east, Jan. 1907, P20. The Immovable east, October 1907, P269.

عن قراهم ولا يستطيعون الوصول إليها يومياً للقيام بالأعمال الزراعية المختلفة، فقد كانوا يلجأون إلى الإقامة المؤقتة في أماكن قريبة من أراضيهم تعرف باسم "خربة"، حيث يقيمون في الكهوف والمغر ويبقون فيها حتى نهاية الموسم الزراعي^(٧٤). ومع استمرار عمليات الإعمار الموسمية، قام الفلاحون بإعمار الكهوف والصير لإيواء الحيوانات وخزن الأعلاف اللازمة لحيواناتهم خلال فصل الشتاء، فتحوّلت هذه الخرب إلى قرى ناشئة ودائمة فيما بعد^(٧٥). وقد تطورت بعض الخرب ونمت نتيجة لانخراط الفلاحين في أمور أخرى غير الزراعة لاسيما تربية المواشي، إذ إن بعض الفلاحين ممن لا يمتلكون أراضي في قراهم يضطرون إلى النزوح عن قراهم والإقامة في مناطق محاذية لها معتمدين في حياتهم على الرعي والتحطيب^(٧٦). ويبدو أن الأراضي التي يقيمون عليها في مثل هذه الحالة غالباً ما تكون أراضي دولة.

ويلعب المناخ دوراً مؤثراً في إعمار الخرب، فارتفاع درجات الحرارة وقلة الأمطار في برية القدس والخليل حالت دون

حتى يبارك الله في كمية المحصول، ويجلس الفلاح على ركبتيه ويبدأ بالتسمية (بسم الله) قبل أن يبدأ بعد الصاعات^(٧٠).

وكان الفلاحون يقومون بخزن الغلال الجافة (الحبوب بمختلف أنواعها) أو السائلة كالزيت في أبار يتم حفرها داخل ساحات المنازل^(٧١) واحتوت بعض البيوت على أماكن تعرف باسم "الخابية" وهي خزانة من الطين داخل جدار المنزل وتستعمل لحفظ الحبوب وتصب فيها الحبوب من أعلى لتستقبل من أسفل بواسطة فتحة صغيرة تغلق بقطعة قماش^(٧٢).

ومن الأدوات الأخرى التي استخدمها الفلاحون في أعمالهم الزراعية، المجرفة لتسهيل الأرض وجر المياه إلى القنوات، واستخدمت الفأس لنقش الأرض الضيقة التي لا تتسع للحيوان لحراثتها، كما استخدم الفلاحون أيضاً أدوات أخرى منها الرفش والفراغة والمعول^(٧٣).

الخرب والنزلات :

بالنظر إلى أن بعض الفلاحين كانوا يمتلكون مساحات واسعة من الأراضي البعيدة

(٧٤) Post, Op.cit, P.172. The peasantry, P.89.

(٧٥) أبو بكر مرجع سابق، ص ٣٧٧.

(٧٦) Granott, A. The land system in Palestine, history and structure, Eyre and patts wood, London, 1952, P.172.

(٧٠) The Immovable east, October, 1907, P.269.

(٧١) حسين، عبد الله، مرجع سابق، ص ٤٣٧.

(٧٢) سرحان، مرجع سابق، ص ١٦١.

(٧٣) Post, op.cit, P.111. The Immovable east, October 1907, P.271.

"العزبة" وقد شاعت هذه التسمية في بعض المناطق الفلسطينية، إذ كان الفلاحون يعزبون في المناطق الزراعية إذا كانت بعيدة عن القرية، ويقيمون في خيام أو في أماكن أثرية قريبة من حقولهم. وتتم عملية الحصاد الدرس في العزبة حيث تستمر ما بين ٢-٣ أشهر، ثم يعودون إلى قريتهم^(٨٠).

غير أن العزبة لم تكن مقتصرة فقط على الأعمال الزراعية أو الفلاحين الذين يزرعون أراضيهم، بل كان أصحاب المواشي ينتقلون بمواشيهم موسمياً إلى مراعي تكفل الكلاً والماء لمواشيهم، وتتم هذه العملية بشكل خاص خلال فصل الشتاء حيث يشتد البرد في الجبال ولا ينمو العشب بالسرعة التي ينمو فيها في الساحل الدافئ نسبياً، وهذه الفروقات في درجات الحرارة دفعت الرعاة وأصحاب المواشي أو الأجيرين إلى ترك القرى والنزول في السهول والمروج أو ما بين مناطق الصحراء كجبال النقب والغور الدافئ، ويقيمون في المغاور والحظائر، وهناك بعض القرى التي اشتقت اسمها من المغاور التي كان الرعاة يقيمون فيها أيام العزبة، كقرية عراق الشباب في وادي عارة المقامة بجوار مغارة كان رعاة أم الفحم يقيمون فيها^(٨١).

إحياء وإعمار الخرب في تلك المناطق بالرغم من توغل الفلاحين فيها من القرى المجاورة خلال فصل الربيع لرعي مواشيهم، وذلك خلافاً للسفوح الشرقية لمرتفعات طوباس التي تهطل عليها أمطار وفيرة، ودرجات الحرارة تكون فيها أقل حدة، فقد عمرت فيها أربع خرب وهي خربة يرزة وعطوف وبيت كعون وتل مسكه^(٧٧).

وعلى غرار الخربة، أقام الفلاحون أيضاً في مناطق عرفت باسم "النزلة"، وتخدم نفس غرض الخربة إلا أنها غير متطورة^(٧٨). فالفلاحون الذين يقطنون في القرى الجبلية ويمتلكون أراضي زراعية في السهول تبعد عن أماكن إقامتهم، يتركون بيوتهم ويقيمون في أراضيهم في السهول لفترة معينة لاسيما أن المحصول الزراعي في السهول ينضج قبل المحاصيل المزروعة في المناطق الجبلية بفترة تتراوح ما بين ٤-٦ أسابيع، وفي هذه الحالة يكون لدى الفلاحين متسع من الوقت لإنهاء أعمالهم الزراعية قبل موعد الحصاد في المناطق الجبلية^(٧٩). وتسمى هذه العملية بالنزلة أي النزول من الجبال إلى السهول.

وبالإضافة إلى الخربة والنزلة، فقد أقام الفلاحون أيضاً في أماكن عرفت باسم

(٨٠) Granott, op.cit, P.174. Gilmour, David. Dispossed: The ordeal of the Palestinians 1917-1980, London, sidgwick and Jackson, 1980, P.26.

أبو هندا، مرجع سابق، ص ٢٠٢.

(٨١) عراف، الأرض، ص ٢٠٢.

(٧٧) أبو بكر، مرجع سابق، ص ٣٧٨.

(٧٨) Post, The peasantry, P.89.

(٧٩) Granott, op.cit, P.173.

بالمسحة وتساوي خمسة أرطال^(٨٣) ويذكر فيليب. ج. بالدنسبرجر (Philip. J. Baldensperger) أن الصاع يساوي ٣ أرطال من القمح و٤ أرطال من الشعير^(٨٤)، كما أن صاع نابلس كان يتسع إلى ٢,٥ رطل حنطة^(٨٥). وهذا يعني أن سعة الصاع وحجمه كانا يختلفان من منطقة إلى أخرى بل ومن قرية إلى أخرى في نفس القضاء، كما أن سعته أو حجمه يختلفان حسب المحصول.

ومن المكايل الأخرى التي شاعت في كيل الحبوب كان المد، وكان يساوي في فجر الإسلام ¼ صاع أو ما يعادل ١,٠٥ لتر، وكان يساوي في سوريا في أواخر العصور الوسطى ٢,٨٤ كغم من القمح أو ٣,٦٧٣ لتر، أما في القدس فكان يساوي ١٠٠ لتر^(٨٦).

ومن المكايل الأخرى التي شاعت في كيل الحبوب الغرارة، وتعني حرفياً "العدل من صوف أو شعر" وتتألف من ١٢ كيلاً أو ٧٢ مداً دمشقياً، وبالتالي يكون وزن الغرارة

ومهما يكن من أمر، فقد تحولت بعض الخرب والعزبات والنزلات إلى قرى دائمة وثابتة انفصلت عن القرية الأم على مدار الزمن وهناك عدد من القرى الفلسطينية كانت بالأصل إما خربة وإما عزبة نذكر منها خربة أبو فلاح قضاء رام الله وعزبة سلمان قضاء قلقيلية وقرى النزلات الثلاث نزلة عيسى والنزلة الشرقية والنزلة الغربية قضاء طولكرم.

المكايل والأوزان والمقاييس :

شاع في بلاد الشام بما في ذلك فلسطين خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر العديد من المكايل والأوزان والمقاييس^(٨٧)، وقد كانت المكايل الشائعة في الأسواق المحلية مختلفة الأحجام ومتعددة الأنواع، فبينما كانت بعض القرى تستخدم مكيالاً معيناً كانت قرى أخرى لا تعرفه، بل وصل الأمر في أن بعض القرى كانت تستخدم مكيالاً واحداً لم تتفق على سعته أو حجمه. فقد كانت الحبوب تكال بالصاع ويساوي ستة أرطال، أو

(٨٣) عوض، عبد العزيز، مقدمة في تاريخ فلسطين الحديث ١٨٣١-١٩١٤، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٣، ص ١٠٢.

(٨٤) The Immovable east, January, 1906, P.15.

(٨٥) حسين، عبد الله، مرجع سابق، ص ٥٨.

(٨٦) هنتس، فالتر، المكايل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المترى، ترجمة كامل العسلي، عمان: منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٧٠م، ص ص ٧٤-٧٥.

(٨٧) إن أفضل ما كتب حتى الآن عن المكايل والأوزان والمقاييس في العالم الإسلامي على مر العصور هو كتاب المكايل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المترى للمؤلف فالتر هنتس. وبالرغم من أن هذا الكتاب لا يزيد على مائة صفحة إلا أنه كتاب قيم ولا يستطيع الباحث في التاريخ الاقتصادي للعالم العربي أو الإسلامي أن يستغني عنه. وقد ترجم هذا الكتاب عن اللغة الألمانية عام ١٩٧٠ من قبل العلامة المقدسي الدكتور كامل العسلي رحمه الله ويكون بذلك قد قدم خدمة كبيرة في تاريخ العرب والمسلمين.

حوالي ٢٠٤,٥ كغم قمح ٢٦٥ لتراً بوصفها مكيالاً، وفي غزة كانت الغرارة تساوي ١,٥ غرارة من غرائر دمشق أي حوالي ٦١٣,٥ كغم قمح أو حوالي ٢٩٥ لتراً^(٨٧) كما استخدم الفلاحون الكيل أو الكيلة في كيل الحبوب، وكان الكيل في دمشق يساوي نصف غرارة أو ١٧ كغم قمح أو ما يعادل ٢٢,٠٨ لتر، وفي حلب كان يساوي ٦,٥٦ لتر^(٨٨).

أما الكيلة فكانت كيلة القمح في استنبول تساوي ٢٥,٦٥٦ كغم، وكيلة الشعير تساوي ٢٢,٢٥ كغم وكيلة الأرز تساوي ١٢,٨٢٨ كغم، ومنذ عام ١٨٤١ أصبح للكيلة في الدولة العثمانية قيمة ثابتة وموحدة إذ حددت بـ ٣٥,٢٧ لتر^(٨٩).

واستخدمت الجرة لكيل المواد السائلة كالزيت، وما زال هذا الكيل قائماً حتى الوقت الحاضر، وكانت تساوي ١٥ حقة والحقة تساوي ٤٠٠ درهم والدرهم يعادل ٣,١٢ غرام فيكون وزن الحقة الواحدة :

$$٤٠٠ \times ٣,١٢ = ١٢٤٨ \text{ غرام أو } ١,٢٤٨ \text{ كغم.}$$

$$\text{أما وزن الجرة فيساوي } ١٥ \times ١٢٤٨ = ١٨٧٢٠ \text{ غرام أو } ١٨,٧٢٠ \text{ كغم}^{(٩٠)}$$

ومن المكييل الأخرى التي كان يستخدمها

الفلاحون هو الحمل، وهو ما يحمل على ظهر دابة النقل، وكان يعادل ٤٨ صاعاً^(٩١). ويذكر هنكس أن حمل الجمل كان يساوي ٢٥٠ كغم^(٩٢). بينما يذكر رافق أن حمل الحنطة في غزة كان يتكون من ٣٢ ربعا فإذا كان الربع ٣,٢٧٣ كغم فيكون وزن حمل الحنطة ١٠٤,٧٣٦ كغم، ولذلك فإن هذا الفارق بين حمل الجمل وحمل الحنطة جاء نظراً لأن حمل الحنطة حمل على حيوان أضعف من الجمل كالبعل أو الحمار^(٩٣).

واستخدمت الطبة كمكيال للحبوب، وجاءت هذه التسمية نظراً لأن الكيل الذي كُلت به كان يفرغ على الأرض أي يطب على وجهه لتفريغ محتوياته، وتعرف الكمية المفرغة بـ "الطبة". وتصف الطبة إلى جانب أختها ثم تتم عملية تعدادها^(٩٤). وكانت تعادل ١٣,٥ رطل من القمح وعشرة أرطال من الشعير^(٩٥).

أما فيما يتعلق بالأوزان فقد كانت على غرار المكييل تختلف من منطقة إلى أخرى، فكان منها الرطل، وقد انفرد بعض أنواع البضائع برطل خاص به، فكان رطل التبغ يساوي ١٦ أوقية ورطل العسل ١٨ أوقية ورطل اللحم ١٦ أوقية أو ١٨ وربما ٢١

(٩٢) هنتس، مرجع سابق، ص ٢٧.

(٩٣) رافق، عبد الكريم، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث

دمشق، ١٩٨٥، ص ٨٤.

(٩٤) المرجع السابق، ص ٨٤.

(٩٥) حسين، عبد الله، ص ٥١٠.

(٨٧) هنتس، المرجع نفسه، ص ٦٤.

(٨٨) المرجع نفسه ص ٧٠-٧١.

(٨٩) المرجع نفسه، ص ٧٢-٧٣.

(٩٠) حسين، عبد الله، مرجع سابق، ص ٥١٢.

(٩١) الطراونه، مرجع سابق، ص ٢٢٣.

أوقية، ولذلك فهو يتفاوت من منطقة إلى أخرى، وكان الرطل أنواعاً فالرطل الشامي يساوي ١٠ أواق، أما الرطل البلدي فكان يساوي ١٢ أوقية^(٩٦).

وقد استخدم الفلاحون القنطار وما زالوا يستخدمونه حتى الوقت الحاضر لا سيما في كيل التبن، وكان القنطار على نوعين، القنطار الشامي ويساوي ١٠٠ رطل شامي والقنطار النابلسي ويعادل ١٠٠ رطل نابلسي^(٩٧).

وفيما يتعلق بالمقاييس، فقد كان الفدان أكثر المقاييس شيوعاً، وفي واقع الأمر فإن مساحة الفدان غير ثابتة ومحددة، وتعتمد على طبيعة الأرض وبشكل خاص خصائص التربة، فيذكر غرانوت (Granott) أن المساحة الشائعة للفدان عام ١٨٧٨ في المناطق الجبلية تتراوح بين ١٠٠-١٦٠ دونم^(٩٨)، وقدّر كوندر (Conder) مساحة الفدان عام ١٨٧٨ في المناطق الجبلية ما بين ١٤٤-١٦٠ دونم، أما في مناطق السهول فتتراوح ما بين ١١٢-١٤٤ دونم، أما شوماخر (Schumacher) فقد ذكر عام ١٨٨٩ أن الفدان هو مساحة الأرض التي يحرقها زوج من الثيران في موسم الحراثة والتي تبلغ نحو شهر، وقدّر هاب ٢٠٠ دونم^(٩٩).

وذكر هنتس أن مساحة الفدان في العصور الوسطى كانت تساوي ٦٣٦٨ م^٢ وأصبحت بعد عام ١٨٣٠ تبلغ ٨٣٣,٨٢٠ م^٢^(١٠٠).

ووفقاً لما ذكره جورج بوست (George Post) أن الفدان هو مساحة الأرض التي يحرقها زوج من الثيران في يوم واحد، ويذكر أنه وفقاً لما سمعه من بعض الفلاحين في دمشق في أواخر العهد العثماني، أن مساحة الفدان تساوي ٢٦٠ قصبة مربعة، كما ذكر له البعض بأنها تساوي ٣٣٣ ½ قصبة مربعة بينما ذكر بعض آخر أنها تساوي ٤٠٠ قصبة مربعة^(١٠١). فإذا كانت القصبة تساوي كما حددتها الدولة العثمانية ٣,٥٥ م^٢^(١٠٢) فإن مساحة الفدان تكون كما عبر عنها الطرف الأول من الفلاحين هي ٣,٥٥ م^٢ × ٢٦٠ = ٩٢٣

وتساوي كما عبر عن ذلك الطرف الثاني $٣,٥٥ \times ٣٣٣ \frac{1}{2} = ١١٨٣,٩٢٥$

بينما تساوي كما عبر عن ذلك الطرف الثالث $٣,٥٥ \times ٤٠٠ = ١٤٢٠$

وبين أبو بكر استناداً إلى تقرير مسح وتسجيل أراضي ناحية بني حارثة عام ١٨٧٠ الذي اشتمل على ٤٦ موقعاً وقرية، أن متوسط مساحة الفدان في هذه المنطقة يتراوح ما بين

(٩٩) هنتس، مرجع سابق، ص ٩٨.

(١٠٠) Ibid, P.184.

(١٠١) Post, op.cit P.110.

(١٠٢) هنتس، مرجع سابق، ص ٩٥.

(٩٦) عوض، مقدمة، ص ١٠٣.

(٩٧) طريف، مرجع سابق، ص ٥٨٣.

(٩٨) Granott, op.cit, P.184.

٢٠٠-٢٧٥ دونماً، ويعتمد ذلك على مظاهر سطح الأرض ودرجة وعورتها وسهولتها وعمق تربتها وصلابتها للشق والحراثة^(١٠٣). كما ذكر أن مساحة الفدان تختلف من موقع لآخر، إذ إن متوسط مساحة الفدان في جبل القدس ونابلس وبئر السبع، أكثر من متوسط مساحة الفدان في مناطق السهول، وذلك نظراً لطبيعة الأرض التضاريسية وعدم خصوبة تربتها وانخفاض معدل سقوط الأمطار في بعض المواسم، مما يعوق زراعتها باستمرار إذ يضطر الفلاح في هذه الحالة إلى اتباع دورة زراعية وفقاً لتلك المعطيات، وذلك من خلال تقسيم الأرض إلى عدة أقسام يزرع قسم ويبور آخر لاستراحة الأرض وتقويتها مما يرفع نصيب المحراث في مناطق الجبال^(١٠٤) وهكذا فيستنتج بالاستناد إلى دفاتر اليوقلمة^(١٠٥) أن مساحة الفدان تتراوح ما بين ٢٠٠-٤٠٧ دونمات، وذلك حسب طبيعة الأرض وخصائص التربة ومظاهرها التضاريسية^(١٠٦).

أما القيراط فقد استخدم لتقسيم الكل إلى أجزاء تبلغ ٢٤ قيراطاً، وجزيء القيراط إلى

نصف وثلث وربع وثمان وسدس وخمس. أما السهم فقد استخدم عادة للدلالة على حصة في أرث أهلي واعتبر السهم جزءاً من مائة سهم^(١٠٧).

كما استخدم الذراع لقياس الأراضي والأبنية، ويذكر هنتس أن معدل طول الذراع وفقاً لدراسات الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام في أواخر القرن الثامن عشر، والتحقيق الذي قام به ك. أ. س. كرزويل (K. A. C. Creswell) عام ١٩٢٧ يساوي ٥٤،٠٤ سم^(١٠٨).

وكان الذراع على عدة أنواع، منها الذراع الاستانبولية وبلغ طوله في القرن التاسع عشر ٦٨،٥٧٩ سم^(١٠٩). والذراع المعمارية أو الذراع البناء التي كان يستخدم لقياس الأراضي داخل المدينة ومساحات الدور والأحواش، وبلغ طوله ٧٥ سم^(١١٠). وذراع العمل وطوله ٦٦،٥ سم^(١١١) وجزيء هذا الذراع إلى وحدات أصغر، منها نصف ذراع العمل وثلث ذراع العمل وسدس ذراع العمل^(١١٢)، وذراع الملك وطوله

(١٠٣) أبو بكر، مرجع سابق، ص ٤١١.

(١٠٤) المرجع نفسه، ص ٤١٢.

(١٠٥) دفاتر اليوقلمة وهي الدفاتر التي سجلت مانتها ميدانياً خلال عمليات مسح الأراضي المشمولة بالعمران داخل المدن والقرى وديار العربان وما يقوم عليها من مبان، وكذلك الأراضي الأميرية والموقوفة المتصرف بها من قبل الأهالي في المواقع المأهولة، وأراضي المواقع الأيالة للخراب المعطلة أو المحولة. انظر أبو بكر، مرجع سابق ص ٢٠.

(١٠٦) أبو بكر، مرجع سابق، ص ٥٠٢.

(١٠٧) رافق، بحوث، ص ٨٠.

(١٠٨) هنتس، مرجع سابق، ص ٩٠.

(١٠٩) هنتس، المرجع نفسه، ص ٨٤.

(١١٠) هنتس، المرجع نفسه، ص ٩٠. رافق، بحوث، ص ٧٨.

(١١١) هنتس، المرجع نفسه، ص ٨٩.

(١١٢) حسين، عبد الله، مرجع سابق، ص ٥١٦.

٦٦,٢١ سم^(١١٣)، وذراع المساحة وطوله ٦٦,٥ سم^(١١٤).

أما وحدة القياس الأكثر شيوعاً فهي الدونم، وكان نوعين : دونم عتيق وحددت مساحته بـ ٤٠ خطوة طولاً و ٤٠ خطوة عرضاً بالخطوات المتوسطة أي ١٦٠٠ خطوة مربعة أو ما يعادل ١٦٠٠ ذراع مربع. أما الدونم الجديد فيساوي ١٠٠٠ م^٢. واعتبرت المقاييس في الأراضي المفروغة دونمات وأذرع. وفي حال كون الأرض المفروغة على أساس تعيين الحدود فإن الدونم والذراع في هذه الحالة يعتبران مقياساً سواء كانا مذكورين أم غير مذكورين بل تعتبر الحدود فقط، فإذا أفرغ أحد الأشخاص أرضه لآخر موضحاً له حدودها ومتفقاً معه على مساحتها بالدونم ثم ظهرت بالقياس أكثر من ذلك فلا يجوز للمفترغ المداخلة فيها مع المفروغ له أو المطالبة بدفع فرق المساحة، كما لا يحق لورثة المفترغ المطالبة أو المداخلة في ذلك^(١١٥).

وهكذا فمن الواضح أن المكايل والأوزان والمقاييس لم تكن موحدة وثابتة سواء في المنطقة أو في القضاء أو في القرية نفسها، ويعود ذلك إلى تقصير واضح وعدم اهتمام من قبل الدولة العثمانية، إذ كان من المفروض أن تحدد بشكل دقيق وثابت قيمة أو مقدار كل

من هذه الوحدات. وبالإضافة إلى ذلك فإن الفارق بين قيمة أو سعة أو مساحة هذه الوحدات قد يؤدي أحياناً إلى وقوع الخلافات والمنازعات بين الفلاحين في حال شراء المحاصيل أو الأراضي نظراً لسهولة التلاعب فيها.

العوامل المؤثرة في الزراعة :

كان من أهم المشاكل والعقبات التي واجهتها الزراعة انتشار الجراد ومهاجمته للمحاصيل الزراعية، وغالباً ما كان ينتشر ويهاجم المزروعات خلال موسم الجفاف وارتفاع درجات الحرارة، حيث يتعرض الغطاء النباتي بشكل عام للهلاك بما في ذلك أشجار الغابات والنباتات البرية في المراعي^(١١٦). ومن بين السنوات التي انتشر فيها الجراد بشكل واسع كانت سنوات ١٧٤٥، ١٧٩٧، ١٨١١، حيث كان يقضي على المحاصيل الصيفية والشتوية^(١١٧).

ومن أعنف غزوات الجراد في فلسطين في القرن التاسع عشر كانت تلك التي حصلت عام ١٨٦٥، وقد وصف القس أسعد منصور ذلك بقوله : "كانت سنة ١٨٦٥ سنة بلايا ومحن شديدة، فيها تأخر المطر فجاء الموسم الشتوي رديناً جداً، ولكنه نجا من أنياب الجراد الذي جاء في أواخر الربيع وأوائل الصيف، وجرّد

(١١٦) أبو بكر، مرجع سابق، ص ٥٢٢.

(١١٧) غنيم، مرجع سابق، ص ٤٠٢.

(١١٣) هنتس، مرجع سابق، ص ٩٠.

(١١٤) هنتس، المرجع نفسه، ص ٨٩.

(١١٥) طريف، مرجع سابق، ص ٥٨٥.

الأرض من كل خضرة وأفنى الموسم الصيفي، غير أن الذرة عادت فأفرخت وأخصبت وقد دخل الزحاف بيوت الناصرة ودكاكينها حتى اضطر أصحابها إلى قفلها. وفي الصيف جاء أبو هـلان فأفنى أكثر البقر، وفي الخريف جاءت الكوليرا وفتكت فتكا ذريعاً^(١١٨).

وقد أكد ذلك أحد المطارنة المسيحيين في تقرير له بتاريخ ١٣ تشرين الثاني عام ١٨٦٥ إذ قال: "تأخر المطر هذه السنة كثيراً فكان الخوف من القحط شديداً. ثم جاء الجراد في أيار وحزيران وتموز غطى الأرض من غزة إلى لبنان، ولحسن الحظ وجد الحنطة والشعير قد قست على أنيابيه ولكنه التهم كل نبت أخضر الخضرة والموسم الصيفي وأوراق الأشجار وأغصانها. والجهات التي نجت منه قليلة جداً ولكن الرب في وسط الغضب ذكر الرحمة. فبعد أن أكل الجراد الذرة أكثر من مرة عادت فأفرخت بعد انصرافه شرقاً في تموز وأنتجت نتاجاً جيداً"^(١١٩).

غير أن أهم غزوات الجراد هي تلك التي شهدتها البلاد عام ١٩١٥ حتى وصل الأمر في أن سطوح المنازل والأشجار والأحجار والطرق كانت مكسوة به طبقات فوق بعضها، وقد وصف ذلك أسعد منصور ما حصل في الناصرة بقوله "فكان الناس يسرون في

الطرق يكسوهم الجراد مما يتساقط عليهم عن الحيطان ومما يصعد عن الأرض تحت أقدامهم التي كانت تغور فيه ما فوق الكاحل. ودخل البيوت والمخازن والدكاكين من الأبواب والنقوب وأتلف كثيراً مما فيها وأقفلت بعض الكنائس أحدين متواليين... والكنائس التي جرت فيها العبادة وضعت شباكاً معدنياً على شبابيكها ووضع الفعلة على أبوابها لمنع دخوله. واشتد الحر في أوائل حزيران فضاقت الأمور بالناس فلا هم قادرون على أن يفتحوا منافذ البيوت ولا هم قادرون على أن يقفلوها. وأضف إلى ذلك نتن الجراد الحي والميت فكنت ترى الناس وفي أيديهم مناديل معطرة"^(١٢٠). ووصل الأمر إلى درجة انزلاق حوافر الخيل على الجراد أثناء السير عليه، وقد ألحقت تلك الهجمات أضراراً بالغة بالزراعة لم يسلم منها إلا المحاصيل الحقلية وبيارات الحمضيات في المناطق الساحلية نتيجة لجهود الأهالي في مقاومته فضلاً عن الرياح الآتية من البحر التي كانت تجبر الجراد إلى التراجع باتجاه الشرق^(١٢١).

ونظراً لعدم توفر العلاجات والمواد الكيماوية اللازمة للقضاء على هذه الآفة فقد اعتمدت الحكومة العثمانية في مقاومة الجراد على الطاقة البشرية حيث كلفت الأهالي من سن ١٥-٦٠ سنة بجمع الجراد، إذ يجمع كل

(١٢٠) المصدر نفسه، ص ١١٤.

(١٢١) أبو بكر، مرجع سابق، ص ٥٢٢.

(١١٨) منصور، أسعد، تاريخ الناصرة، القاهرة: دار الهلال، ١٩٢٣، ص ٩٥.

(١١٩) المصدر نفسه، ص ٩٦.

مكلف ٢٠ كيلو من الجراد أو يدفع البديل المقرر البالغ ٢٠ ليرة عثمانية^(١٢٢). وحتى يعرض الأهالي عما لحق بهم من خسارة مادية نتيجة لتلك الهجمات، فقد قام الأهالي بزراعة بعض المحاصيل الصيفية كالشمام والبطيخ، غير أن الآثار السلبية لتلك الهجمات استمرت بعد زواله أو موته، فقد ماتت أغلب المواشي التي رعت على أثر الجراد كما صار لون بيض الدجاج الذي أكل الجراد أحمر^(١٢٣).

أما فيما يتعلق بالأمطار فبالرغم من أهميتها بالنسبة للزراعة، إلا أنها تترك في بعض الأحيان آثاراً سلبية على الزراعة، لاسيما أنها متذبذبة ومتباينة في السقوط من منطقة إلى أخرى. فالمناطق الساحلية تسقط عليها أمطار أقل من الأمطار التي تسقط على الجبال والمرتفعات في وسط البلاد، إلا أنها أكثر من الأمطار الساقطة على المناطق الغورية في الشرق. ونظراً لتأثير عامل الارتفاع ومحاور التضاريس فإن السفوح الغربية للمرتفعات الفلسطينية الواقعة في مواجهة الرياح القادمة من البحر تتلقى أعلى كميات من الأمطار خصوصاً خلال فصل الشتاء. ويعود ذلك إلى عامل الارتفاع فوق مستوى سطح البحر، وإلى تعامد أو قرب تعامد محور المرتفعات والجبال الفلسطينية مع

رياح المحصلة الغربية، فضلاً عن عامل العرض الجغرافي للمناطق والمحطات المناخية. ونظراً لاندراج التضاريس الفلسطينية للانخفاض من الشمال إلى الجنوب بنفس الاتجاه، فإن كميات الأمطار تقل كلما ازداد التوجه نحو الجنوب، ووفقاً لخرائط التوزيع المكاني للمعدل السنوي لسقوط الأمطار فإن نصف مساحة فلسطين تتلقى أمطاراً تتراوح ما بين ٢٥٠-٣٠٠ ملم وهذا هو الحد الحرج لقيام نشاط زراعي بعلي يعتمد فقط على مطر السماء^(١٢٤).

أما المناطق الغورية فنظراً لبعدها عن البحر وانخفاضها عن مستوى سطح البحر فضلاً عن وقوعها في ظل الأمطار خلف جبال فلسطين وهضابها التي تستأثر بأكبر كمية من الرطوبة والأمطار فإن الأمطار الساقطة عليها تكون قليلة^(١٢٥).

غير أن سقوط الأمطار بغزارة وزيادة عن الحد المألوف من شأنه أن يلحق أضراراً بليغة بالنشاط الزراعي، ففي حال استمرار سقوط الأمطار بغزارة وتجمع المياه في الأراضي السهلية الراكدة وتأخر جفافها يؤدي إلى بوار الأراضي^(١٢٦). وفضلاً عن ذلك فإن ارتفاع معدل سقوط الأمطار السنوي والشهري لا يبشر بموسم زراعي جيد يزيد من فعالية

(١٢٤) عبد السلام، عادل، المياه في فلسطين، الموسوعة الفلسطينية، القسم الخاص، م ١، ص ١٩٦.

(١٢٥) المرجع نفسه، ص ١٩٦.

(١٢٦) أبو بكر، مرجع سابق، ص ٨٥.

(١٢٢) صبري، بهجت، فلسطين خلال الحرب العالمية الأولى وما بعدها ١٩١٤-١٩٢٠، القدس: جمعية الدراسات العربية، ١٩٨٢، ص ١٣٣.

(١٢٣) منصور، مصدر سابق، ص ١١٣-١١٤.

الأرض كوسيلة إنتاج رابحة، خصوصاً إذا لم يكن الهطول موزعاً بانتظام بشكل يسمح للأرض بأن تشرب وتخزن أكبر كمية من المياه اللازمة لنمو المحاصيل الحقلية والشجرية والغابات والأعشاب البرية، فضلاً عن تعزيز المياه الجوفية، ومن ثم حماية العيون والينابيع من الجفاف، بالإضافة إلى وفرة الأرض للحرارة حتى يتمكن الفلاح من القيام بالأعمال الزراعية المختلفة^(١٢٧).

كما أن سقوط الأمطار بغزارة يؤدي إلى خسارة كبيرة للفلاحين لاسيما القاطنين في المناطق الجبلية، حيث تجرف كميات كبيرة من التربة، مما يدفع السكان في تلك المناطق إلى تدعيم التربة بجدران استنادية من الحجارة^(١٢٨).

وتؤثر الرياح إما سلباً وإما إيجاباً على المزروعات، وذلك حسب اتجاهها وسرعتها، وقد عبر الفلاح الفلسطيني عن ذلك بالعديد من الأمثال الشعبية، والمثل التالي يبين بشكل واضح تأثير الرياح بمختلف اتجاهاتها على المزروعات :

إن هبت غربي يا سعد قلبي
إن هبت شرقي يا ظيعة ابني
إن هبت شمالي يا ظيعة أعيالي
رياح الشمالي بطرد المطر

كل شيء من الشمال مليح ما عدا الرجال والريح

ويوضح هذا المثل موقف الفلاح الفلسطيني من الرياح، فإذا كانت الرياح غربية قادمة من البحر، يتفاعل الفلاح نظراً لأنها تكون مشبعة بالرطوبة وتبشر بسقوط الأمطار. أما الرياح الشرقية والشمالية فهي نذير شؤم للفلاح، فالرياح الشرقية تأتي من الصحراء وبالتالي تكون جافة وخالية من الرطوبة وتؤدي إلى جفاف الأرض والمزروعات، كما تلحق الرياح الشمالية التي تكون باردة وغير ماطرة أيضاً أضراراً بالغة بالمزروعات^(١٢٩).

غير أن أخطر الرياح هي الرياح الجنوبية والجنوبية الشرقية لاسيما رياح الخماسين الجافة والحارة والتي تحمل عادة غباراً رملياً، ومن شأن هذه الرياح أن تعمل على رفع درجة الحرارة خلال ساعات قليلة أكثر من عشر درجات. وتهب الرياح الخماسينية في أيلول وتشرين الأول وفي الربيع لمدة تتراوح ما بين ٣ - ٨ أيام وقد تستمر أحياناً إلى أسبوعين، كما تؤدي خصوصاً إذا هبت خلال الربيع إلى جفاف الأرض وذبول المحاصيل بل تخفض كمية المحاصيل إلى درجة كبيرة إذا لم تهلكها^(١٣٠).

ويؤثر التهطل بكافة أشكاله سواء الندى أو الثلج أو البرد سلباً على المزروعات. فالندى وهو عبارة عن أحد أشكال التكاثف السطحي لبخار الماء الموجود في الطبقة الملاصقة

(١٢٩) سرحان، مرجع سابق، ص ١٧٨.

(١٣٠) نسكايا، مرجع سابق، ص ٤٥.

(١٢٧) المرجع نفسه، ص ٨٧.

(١٢٨) نسكايا، مرجع سابق، ص ٤٣.

يوماً وينحصر سقوطه خلال فصل الشتاء، كما يسقط في بعض الأحيان خلال فصل الربيع مما يؤثر على الأشجار المثمرة الربيعية كاللوز والمشمش^(١٣٣).

وعلى غرار الأمطار من حيث تنذب سقوطها واختلافها من منطقة إلى أخرى في فلسطين، فإن درجات الحرارة أيضاً متذبذبة ومختلفة نظراً للعديد من العوامل، منها الموقع الجغرافي والارتفاع فوق مستوى سطح البحر والقرب والبعد عن البحر. وبشكل عام فإن ارتفاع درجات الحرارة نسبياً في فصل الصيف، وفي المستوى السنوي العام لفلسطين بالرغم من أن لها جوانب إيجابية في فترات نمو النبات ونضج المحاصيل، إلا أنها تحمل في طياتها آثاراً سلبية نظراً لانعكاسها على كميات المياه، ومن الممكن أن تشكل أزمات خطيرة في السنوات القليلة الأمطار وفترات الجفاف التي تتعرض لها البلاد، وبخاصة المناطق التي تعتمد في زراعتها على الأمطار كمصدر رئيسي، نظراً لعدم وجود الينابيع والعيون الطبيعية والأنهار الجارية وبحيرات المياه العذبة^(١٣٤).

ومن المشاكل التي واجهت الزراعة أيضاً نقص رؤوس الأموال المتاحة. وقلة خدمات الإرشاد الزراعي والبحث العلمي والتعليم

لسطح الأرض من الغلاف الغازي، ويرتبط شكله بدرجة التبريد الليلي الناتج عن برودة سطح الأرض بالإشعاع الليلي، ونتيجة لركود الهواء وصفاء السماء وتكون انعكاساً حرارياً مع توفر رطوبة جوفية كافية في الهواء، ومع انخفاض درجة الحرارة يصل الهواء إلى نقطة الندى ويتكاثف بخار الماء على شكل قطرات ماء على أوراق النباتات في المناطق الجافة وشبه الجافة، وتزداد أهميته أيضاً خلال فصل الصيف خصوصاً بالنسبة للمزروعات غير المروية، غير أنه من جهة أخرى يؤثر ويعوق عملية التبخر والنتح وخفض معدلها، نتيجة لخفض الندى لدرجات حرارة أوراق النباتات والأديم العلوي للتربة الندية^(١٣١).

أما بالنسبة للثلج فبالرغم من قلته وندرته في معظم أنحاء فلسطين، إلا أن الفلاح الفلسطيني ينظر له نظرة خاصة، ويعبر عن ذلك المثل الشعبي "الثلج ملح الأرض"، نظراً لما يحمله من فائدة ولو قليلة ومحدودة الأثر للأرض الزراعية^(١٣٢). أما البرد فيؤدي إلى إلحاق الأذى والضرر بالمحاصيل الزراعية لاسيما الحمضيات في السهل الساحلي. إلا أن سقوطه في أيام قليلة يساعد على عدم ازدياد الأضرار بالمزروعات، إذ تتراوح أيام سقوطه في السهول الساحلية ما بين ٦-٨ أيام، وفي المناطق الجبلية ما بين ١٠-١١

(١٣٣) عبد السلام، المرجع نفسه، ص ١٩٩-٢٠٠.

(١٣٤) عبد السلام، المرجع نفسه، ص ١٨٤.

(١٣١) عبد السلام، مرجع سابق، ص ١٩٩.

(١٣٢) عبد السلام، المرجع نفسه، ص ١٩٩.

والتدريب الزراعي^(١٣٥). كما عانى الفلاحون أيضاً من عدم الحصول على السعر المناسب لمحاصيلهم في أسواق المدينة^(١٣٦). كما أن الحكومة العثمانية ساهمت خلال الحرب العالمية الأولى بإيقاع أضرار كبيرة بالمحاصيل الزراعية الرئيسية لاسيما أشجار الزيتون، حيث كانت تقوم بقطعها واستخدامها كوقود للقاطرات لقلّة الفحم، وقد بلغت نسبة المقطوع من أشجار الزيتون في مناطق القدس ونابلس ٤٠%، وفي غزة عمدت الحكومة إلى قطع أشجار النخيل لاستخدامها في الاستحكامات العسكرية^(١٣٧).

وبالإضافة إلى ذلك فقد شكلت الضرائب لاسيما ضريبة العشر التي فرضت على المحاصيل الزراعية بنسبة ١٠٪ عيناً أو نقداً عبئاً ثقيلاً على كاهل الفلاح، خصوصاً أن هذه النسبة لم تكن ثابتة. ففي عام ١٨٨٣ أضيف إلى العشر ضريبة إضافية بنسبة ١٪ لتمويل البنك الزراعي، وأخرى بنسبة نصف بالمائة للتعليم، ثم أضيف إليها عام ١٨٩٧ نصف بالمائة ربما كان لها صلة بحرب اليونان وضريبة أخرى بنسبة ٠,٦٣٪ للتسليح عام ١٩٠٠ فأصبحت قيمة ضريبة العشر ١٢,٦٣٪. تم تخفيضها إلى ١٢,٥٪ عام ١٩٠٦ لتسهيل أمور الجباية وقد طبق هذا المعدل على الناتج الإجمالي للمحصول دون حسم قيمة البنور

والنفقات الأخرى، مما يؤدي إلى وجود مفارقات بين محصول وآخر إذ يدفع فلاح يزرع القمح ذو الأرض الجيدة وكلفة إنتاج منخفضة ١٦,٨٪ من صافي دخله، في حين يدفع فلاح آخر يزرع أرضاً رديئة وكلفتها عالية ٣١,٨٪^(١٣٨). ولم تكن الحكومة تتوانى في معاقبة من يتخلف عن دفع هذه الضريبة بالحجز على أثاث بيته أو حيواناته وبيعها بالمزاد العلني^(١٣٩).

ويُلخص القس ميخائيل قعوار أحد القساوسة في مدينة الناصرة الوضع الاقتصادي للفلاحين عام ١٨٧٠ مبيناً المشاكل والعراقيل التي تواجه الزراعة والفلاحين بقوله: "ابتدأ الجوع والضيق من تشرين ثاني سنة ١٨٧٠ في القرى الكبيرة والمراكز، وامتنع التجار عن تسليم الفلاحين بسبب حرب أواسط أوروبا، ومما زاد البلاء سماع الدولة بدخول عربان البادية إلى هذه البلاد فرعت مواشيهم فضلة الجراد واشتروا أهم غلال البلاد فضلاً عن التشليح والخطف وقطع الطرق، ثم طردتهم الحكومة ولكن بعد فوات الوقت ونفاد القوت، فارتفعت أسعاره ارتفاعاً فاحشاً لم يعهد له مثيل، كيل الحنطة من ٥٠ قرشاً إلى ١٢٠ نقداً و ١٨٩ إلى ٢٠٠ ديناً، والذرة من ٣٠ إلى ٣٣ والسكر من ١٤ إلى ٢٤"^(١٤٠).

(١٣٨) عوض، الإدارة العثمانية، ص ١٦٨. عيساوي، مرجع سابق، ص ٦١.
(١٣٩) طريف، مرجع سابق، ص ٥٩٨.
(١٤٠) منصور، مصدر سابق، ص ٩٨.

(١٣٥) بسيسو، مرجع سابق، ص ٦٥٨.
(١٣٦) رافق، تاريخ فلسطين، ص ٩٥٠.
(١٣٧) صبري، مرجع سابق، ص ١٣٣.

غير أن نسبة الفائدة لم تكن ثابتة ومحددة، بل تعتمد على الدائن، فكانت تصل في بعض الأحيان إلى ١٠٪^(١٤٢). وفي أحيان أخرى كان المرابون يقدمون للفلاحين مقابل رهن محصوله القادم بفائدة تتراوح ما بين ٣-٥٪ في الشهر، أو بشراء المحصول جميعه سلفاً مقابل ثلثي أو نصف ثمنه. وفي بعض الأحيان أيضاً كان المرابي يعطي الفلاح كمية من الحبوب للبذار ويسترجعها بشكل مضاعف بعد الحصاد في العام التالي^(١٤٣).

وقد روت اليزابيث فن (E. Finn) زوجة القنصل البريطاني في القدس في منتصف القرن التاسع عشر، قصة امرأة من قرية بيت جالا بالقرب من بيت لحم بينت فيها كيف كان التجار يتعاملون مع الفلاحين دون رحمة أو شفقة، وتتلخص القصة أن حما هذه المرأة أي والد زوجها رهن أرضه المزروعة بالزيتون لأحد التجار مقابل ٥٠٠ قرش وتعهد بدفع ١٥ جرة زيت لهذا التاجر، وفي حال نقص الكمية فعلى صاحب الأرض أن يدفع جرتين في العام التالي عن كل جرة، وذكرت المرأة أن ذلك العام كان رديئاً ولم تنتج أرض عائلتها سوى ثلاث جرار من الزيت مما حدا بالتاجر أن يكتب على حماها صكاً بأربع وعشرين جرة زيت للموسم التالي، وإذا نقص شيء منها فعليه أن يدفع اثنتين عن كل جرة، ثم تتابع

ومهما يكن من أمر، فقد أدت هذه العوامل مجتمعة إلى تردي الأوضاع الاقتصادية للمزارع الفلسطيني، الأمر الذي أدى إلى اضطرار الكثير منهم إلى الاستدانة من المرابين والتجار وشيوخ القرى ومخاتيرها بفوائد باهظة قلما كانوا يستطيعون تسديدها، بالإضافة إلى القروض التي كانوا يحصلون عليها من البنك الزراعي العثماني ويعجزون عن تسديدها، فعندئذ يضطر المزارع إلى التنازل عن أرضه مكرهاً.

ويلخص مؤلفا كتاب ولاية بيروت هذه الحالة في منطقة جبل نابلس بقولهما "إن الأغنياء من أعيان نابلس يقرضون الفلاح أموالاً بفائض خمسة عشر في المئة لسته أشهر. وأما الجاهل المحتاج للدراهم فإنه لا يفكر بتقل الشروط أو ضعفها بل غاية ما يتصوره الوصول إلى الدرهم بأي طريقة كانت. وبعد أن يقرض الغني من المال للفلاح يصبح سيّداً له وحاكماً عليه لأن القروي الفقير الذي لا يملك سوى النذر القليل من الدخل السنوي لا يتمكن حين حلول الوعد من أداء الدين فيتهدده الغني الدائن بما له من النفوذ لدى رجال الحكومة فيضطر القروي أخيراً إلى تجديد معاملة الدين بشروط أثقل من الأولى. ومن المحقق أن أكثر أغنياء نابلس تقريباً يقرضون أموالهم سنوياً بفائض يتراوح ما بين ٦٠-٧٠٪^(١٤١).

(١٤٢) الحزماوي، مرجع سابق، ص ٥٧.

Post, op.cit, P.105.

(١٤٣)

(١٤١) التميمي، محمد رفيق وبهجت، محمد، ولاية بيروت، بيروت: مطبعة الإقبال، ١٣٣٣هـ/١٩١٤، ص ١٠٥.

القصة مبينة كيفية عدم القدرة على التسديد حتى وصل عدد جرار الزيت المدين بها حماها إلى ٨٠ جرة^(١٤٤).

وبغض النظر عما إذا كانت هذه القصة حقيقية أم لا لاسيما أن وصول عدد الجرار المدين بها أصبح كثيرة، إذ من الممكن أن المرأة قد بالغت في ذلك وأرادت أن تستعطف زوجة القنصل البريطاني، إلا أن ذلك يبين مدى الإجحاف والظلم الذي كان يمارسه التجار بحق الفلاحين.

ومن الوسائل الأخرى التي كان يتعامل بها التجار والمرابون مع الفلاحين هي عقود السلم أو الشراء مسبقاً وهو شكل من أشكال التسليف، ويتم ذلك من خلال إبرام عقد بين فريقين يدفع الفريق الأول وهو غالباً ما يكون تاجراً من المدينة، وفي بعض الأحيان يكون من الطبقة المتنفذة من أبناء القرى، إلى الفريق الثاني وهو فلاح مبلغاً من المال سلفاً يكون الثمن الكلي للسلعة المرتهنة، وهي غالباً ما تكون زيت الزيتون أو الحبوب مقابل تسليم الكمية المتفق عليها بغض النظر عن سعرها في السوق خلال موسم القطاف أو الحصاد، وكان المبلغ المسلف ينطوي على نسبة من الفائدة المستترة أو غير القانونية تكفل للمسلف ربحاً ملموساً حتى لو انخفضت أسعار السوق إلى أقل من السعر المتوقع^(١٤٥). وفي حال

تخلف المستلف عن تنفيذ عقد السلم يرفع المسلف القضية إلى المحكمة الشرعية، حيث لم يتوان القاضي في إصدار القرار بنقل ملكية المدعى عليه إلى المدعي^(١٤٦). ولا بد من الإشارة إلى أن صدور مثل هذا الحكم كان متوقفاً عند الفلاحين، لاسيما أن القاضي وموظفي المحكمة هم من سكان المدينة وربما يكون القاضي أو أحد الموظفين من أقارب المدعي، ولا يقصد بهذا الكلام الطعن في نزاهة المحكمة، غير أن الفساد الإداري كان مستشرياً في الأجهزة الإدارية بشكل عام ليست في فلسطين فحسب بل في كافة أرجاء الدولة العثمانية. ومن جهة أخرى فإن التمييز الاجتماعي ما بين سكان المدينة وسكان القرى كان ولا يزال ظاهرة ملموسة في المجتمع الفلسطيني. ولذلك فلم تكن المحكمة تعطي الفلاح وقتاً كافياً لتسديد ديونه بقدر ما أن كان القرار بنقل ملكية الأرض يصدر مباشرة.

ولعب البدو دوراً تخريبياً في الزراعة، فقد أدت الهجمات والغارات التي كانت تقوم بها بعض القبائل البدوية على مناطق الأرياف إلى اضطراب الفلاحين الذين يقطنون في القرى المتاخمة للبادية لترك قراهم وأراضيهم والعمل بالنشاط الرعوي، الأمر الذي أدى إلى تقليص الأراضي الزراعية لصالح الرعي وبالتالي إلحاق الضرر بالزراعة^(١٤٧) وحتى يتجنب سكان القرى الاعتداءات البدوية في

(١٤٧) كوثراني، وجيه، السلطة والمجتمع والعمل السياسي: من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٨، ص ١١٧.

(١٤٤) دومانى، مرجع سابق، ص ١٧٤-١٧٥.

(١٤٥) المرجع نفسه، ص ١٦٦.

(١٤٦) المرجع نفسه، ص ١٩٥.

خدمة^(١٥٠)، وعندما يعجز الفلاح عن تسديد القروض كان البنك يلجأ إلى حجز على أرضه ويطرحها بالمزاد العلني وترسو على من يدفع السعر الأعلى، وغالباً ما كانت تؤول في النهاية إلى التجار وكبار الملاك^(١٥١).

ومما زاد في فقدان الفلاحين وخسارتهم لأراضيهم هي تلك القروض التي كانوا يحصلون عليها من التجار والمرابيين والصيارفة مقابل رهن الأرض لهم، وكان هؤلاء يجدون طرقاً للتخلص من بعض القيود القانونية على الاقتراض كقانون الرهونات العثماني الذي كان ينص على أن لا تزيد قيمة الفائدة على الرهن عن قيمة المبلغ المقرض أصلاً، إلا أن الفوائد المفروضة كانت مرتفعة^(١٥٢). ولما كان المزارع يعجز عن تسديد القروض يضطر إلى التنازل عن أرضه للدائن.

ووصف أحد الرحالة الذين زاروا فلسطين في أواخر العهد العثماني حالة الفلاح الفلسطيني بقوله: "فمن كميات القمح والشعير التي بقيت بعد الدرس كانوا (أي الفلاحين) يدفعون أولاً الضرائب إلى الحكومة والوقف، وجزء من الناتج الذي كان قد رهن مسبقاً لأحد تجار المدينة يذهب إلى هذا التاجر سداداً

ظل غياب سلطة الدولة، فقد كانوا يدفعون ضريبة "الخاوة" لبعض القبائل البدوية مقابل حمايتهم وعدم الاعتداء على قراهم وأراضيهم، وقد تكون هذه الضريبة إما مبلغاً من المال وإما كمية من الإنتاج تدفع للقبيلة^(١٤٨).

كما كان للتجنيد الإجباري أيضاً تأثير سيئ على الزراعة، فكان شديد التأثير على السكان بشكل عام في فلسطين وخصوصاً الفلاحين، فقابلوا الخدمة العسكرية بفتور وعدم ارتياح، لاسيما أن المدة الزمنية للخدمة العسكرية كانت طويلة بلغت عام ١٩٠٩م ٢٥ سنة، ولما كانت العناصر التي فرضت عليها الخدمة هي العناصر الشابة، فقد أدى ذلك إلى افتقاد الأرض لهذه العناصر القادرة على العمل بالزراعة والإنتاج^(١٤٩).

وبالإضافة إلى ذلك فقد ساهم البنك الزراعي العثماني في إفقار الفلاحين وغرقهم بالديون وبالتالي إفقادهم لأراضيهم، ففي عام ١٨٨٨ أنشأت الدولة العثمانية البنك الزراعي العثماني بهدف تقديم القروض للفلاحين، وقد أنشأ له أكثر من ٤٠٠ فرع في مختلف أنحاء الدولة، وكان هدفه تقديم قروض قصيرة الأجل ومتوسطة تصل إلى عشر سنوات بفائدة منخفضة هي ٦٪ يضاف إليها ١٪ بمثابة رسم

(١٥٠) Granott, Op.cit, P61 ؛ أوين، مرجع سابق، ص ٥٨٤.

(١٥١) Granott, Op.cit, P.61.

(١٥٢) أوين، مرجع سابق، ص ٥٨٤.

(١٤٨) محافظة، علي، تاريخ الأردن المعاصر ١٩٢١-١٩٤٦، عمان: مركز الكتب الأردني، ١٩٨٩، ص ٧.

(١٤٩) النجار، مرجع سابق، ص ٣٠٣. عوض، مقدمة، ص ١١٠.

للأموال التي استدانها منه، وإذا كان الفلاح قد شغل عنده عاملاً أي حراثاً فإنه يأخذ حصة من البيدر، وبعد ذلك يأتي شيخ القرية الذي يعمل حلاقاً فيأخذ نصيبه ... ثم يأتي الدراويش والفقراء في القرية إلى البيدر ونادراً ما يرجعون خاليي الأيدي، فكان نصيب العديد من الفلاحين بعد أن يوفوا بكافة التزاماتهم أن لا يبقى لهم سوى الحد الأدنى الذي يتطلبه إطعام عائلاتهم وحيواناتهم حتى الموسم التالي..^(١٥٣).

وهكذا فنتيجة للأوضاع السابقة، ترسخت طبقة كبار ملاك الأراضي التي حازت مساحات واسعة من الأراضي في مختلف أنحاء فلسطين، وقد تراوحت مساحة ممتلكات بعضهم ما بين ٤٠٠٠-١٠٠,٠٠٠ دونم كآل جرار وآل رشيد وآل الجيوسي وآل الحسيني وآل النشاشيبي وآل العزة وآل عمرو وآل الغصين وآل السعيد وآل البيطار وآل العلمي وآل الصوراني وآل الخيال وآل الرئيس وآل رمضان وآل المسعود وآل البسطامي. في حين زادت ممتلكات البعض الآخر على ١٠٠,٠٠٠ دونم كآل عبد الهادي إذ قدرت مساحة أراضي هذه العائلة بـ ٢٠٠,٠٠٠ دونم في مناطق نابلس وجنين وجنوب عكا،

(١٥٣)

Granott , Op.cit, P.62.

(١٥٤) لمزيد من التفاصيل حول طبقة كبار ملاك الأراضي في فلسطين انظر: أبو بكر، مرجع سابق، ص ٥٢٦-٥٣٦. الحزماوي، مرجع سابق، ص ٥٨-٦٩. Granott, Op.cit, PP30-90 =

وآل أبو خضرة حيث بلغت مساحة أراضيهم نحو ٢٣٠,٠٠٠ دونم في قضائي غزة ويافا، وآل الشوا التي بلغت مساحة ممتلكاتهم نحو ١٠٠,٠٠٠ دونم في غزة والسهل الساحلي^(١٥٤).

وبقي الفلاحون الذين كانوا أصحاب الأرض السابقين، يعملون في تلك الأراضي كمزارعين مستأجرين مقابل نسبة معلومة يتم الاتفاق عليها مع المالك الجديد وكانت هذه النسبة تعتمد على طبيعة تقديم الخدمات الزراعية، وكان يتم استثمار الأراضي الزراعية بعدة طرق منها :

١- الاستثمار المباشر : وفي هذه الحالة يقوم صاحب الأرض باستثمار أرضه بنفسه بالاستعانة ببعض العمال خلال مواسم الحراثة والحصاد والدرس، وقد ساد هذا النوع في الملكيات الصغيرة، وكان أكثر فائدة وإنتاجاً^(١٥٥).

٢- الاستثمار غير المباشر : وبموجبه يقوم كبار الملاك بتأجير جزء من أراضيهم للفلاحين مقابل جزء معين من الناتج والأرض معاً أو أجر نقدية.

= غنيم، مرجع سابق، ص ٣٣٥-٣٥٤.

(١٥٥) عوض، عبد العزيز، نظام ملكية الأرض في بلاد الشام وآثاره الاقتصادية والاجتماعية ١٨٣٩-١٩١٤. مجلة دراسات تاريخية، السنة ١١، العددان ٣٥، ٣٦، ١٩٩٠، ص ٥٦.

- وكان هذا الأسلوب من التعامل يتم بعدة أشكال أهمها المزارعة^(١٥٦)، وقد اتخذت أشكالاً متعددة أهمها :
- المربعة : وفي هذه الحالة يحصل الفلاح (المربع) على ربع الناتج من المحصول مقابل جهده.
- المثلثة : ويحصل الفلاح على ثلث المحصول حيث يقدم العمل والأدوات الزراعية أما المالك فيقدم الأرض والبذار.
- المناصفة : وهنا يقدم صاحب الأرض الأرض ويشترك الاثنان في جميع النفقات، ويقسم المحصول بينهما مناصفة.
- المخامسة : وفي هذه الحالة يحصل صاحب الأرض على خمس الغلة مقابل تقديمه لأرضه فقط^(١٥٧).
- الضمان : وهو اتفاق بين صاحب البستان والمستأجر يدفع بموجبه المستأجر مبلغاً من المال مقابل ثمر البستان، وينتهي الاتفاق بانتهاء موعد قطف الثمار^(١٥٨).
- التأجير : وبموجبه يؤجر صاحب الأرض أرضه للفلاح لمدة معلومة مقابل مبلغ معين من المال أو من الغلة^(١٥٩).
- كما عرفت طرق أخرى في استثمار الأراضي منها المساقاة وهي عبارة عن اتفاق على استثمار الشجر يكون فيها الشجر من جانب والعمل من جانب آخر يعرف بالمساقى يتعهد بالقيام بكافة المستلزمات التي يحتاج إليها الشجر مقابل حصة معينة من الشجر^(١٦٠). كما شاعت طريقة أخرى عرفت بالمغارسة وبموجبها يقوم الفلاح بغرس

= العامل قبلت أو رضيت أو ما يدل على قبوله ورضاه، فإذا أتم العقد بينهما". انظر: علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني الحنفي، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، ٧ أجزاء، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٦، ج ٦، ص ١٧٦.

(١٥٧) عاشور، عصام، نظام المربعة، ترجمة أنيس فريخه، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية، بيروت، السنة الأولى، الجزء الثالث، ١٩٤٨، ص ٤٠.

الطراونة، مرجع سابق، ص ١٤٢. عوض، نظام ملكية الأرض، ص ٥٦.

(١٥٨) الطراونة، مرجع سابق، ص ١٤٤.

(١٥٩) المرجع نفسه، ص ١٤٣.

(١٦٠) لمزيد من التفاصيل انظر: أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، ١٤ ج، بيروت: دار صادر، ١٩٥٦، ج ٤، ص ٣٩٤.

مالك بن أنس، الموطأ، ٢ ج، تحقيق فؤاد عبد الباقي، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥١، ج ٢، ص ٧٠٥. اللبناني، شرح المجلة، ص ٧٦٥.

(١٥٦) اللبناني، سليم رستم باز، شرح المجلة، جزآن، بيروت: دار الكتب العلمية، دت، ج ٢، ص ٧٥٩.

وقد عرفها القانون المدني العراقي بأنها "عقد على الزرع بين صاحب الأرض والمزارع فيقسم الحاصل بينهما بالحصص التي يتفقان عليها وقت العقد" انظر: مناع مرار خليفة، المزارعة والمساقاة في الشريعة الإسلامية، بغداد: دار الرسالة، ١٩٧٥، ص ٨٤ أما عن أهمية المزارعة فقد ذكر ذلك ابن قدامة بقوله "إن الحاجة داعية إلى المزارعة لأن أصحاب الأرض قد لا يقدر على زراعتها والعمل عليها والأكرة يحتاجون إلى الزرع ولا أرض لهم فاقتضت حكمة الشرع جواز المزارعة". انظر محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، المغني، ١٢ ج، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٣، ج ٥، ص ٥٨٧. وللمزارعة ركنان هما الإيجاب والقبول وقد وضع ذلك الكاساني بقوله "وأما ركن المزارعة فهو الإيجاب والقبول وهو أن يقول صاحب الأرض للعامل دفعت إليك هذه الأرض مزارعة بكذا، ويقول =

الأشجار المثمرة في قطعة أرض يقدمها صاحبها، ويتكفل الفلاح بالعناية بالأرض وبالأشجار مقابل حصوله على جزء من الشجر أو جزء من الشجر والأرض معاً^(١٦١).

الخاتمة :

وفي خاتمة البحث يتضح لنا أن الحياة الاجتماعية في الريف الفلسطيني كانت تعتمد بالدرجة الرئيسة على الزراعة التي تعتبر الحرفة الأساسية ومصدر الرزق للفلاحين، واتضح أيضاً أن العمل الزراعي في العائلة الريفية كان عملاً جماعياً يشترك فيه الجميع سواء بالحرثة أو الحصاد أو الدرس والتخزين، كما تبين أيضاً أن الأوضاع الاقتصادية للفلاحين الفلسطينيين بشكل عام كانت متردية وبائسة، فقد عانى الفلاح من

اضطهاد ملتزمي الضرائب ومن الكوارث الطبيعية التي كانت تشكل عقبة رئيسية في وجه الزراعة، بالإضافة إلى الدور السلبي الذي لعبه المرابون والتجار وكبار الملاك في أنقال كاهل الفلاح بالديون والفوائد المستحقة عليها، مقابل ذلك فالدولة العثمانية أيضاً تتحمل جزءاً كبيراً من سوء الأوضاع الاقتصادية للفلاحين وعدم تطوير الزراعة إذ لم تضع حداً لتعسف الملتزمين أو تخفيف قيمة ضريبة العشر لاسيما في المواسم الزراعية الرديئة، كما أنها أيضاً لم تحاول وضع حد لقيمة الفوائد المستحقة على القروض أو الديون التي كان يحصل عليها الفلاح من المرابين والتجار ولذلك فقد ساهمت الدولة بإفقار الفلاح الفلسطيني وإفقاده لأرضه.

(١٦١) عاشور، مرجع سابق، ص ٤٢-٤٣.

اللغة كمتغير مصاحب لبعض المناشط الاجتماعية دراسة سيويأنثروبولوجية لدور اللغة في عمليات التشييد والبناء في قبيلة بني عمرو

د. سليمان بن عبد الله العقيل

ملخص البحث :

هذه الدراسة ليست دراسة مورفولوجية لمجتمع قبيلة بني عمرو، ولكنها دراسة تحليلية لمجموعة من المفردات والمقاطع والجمل والرموز والأهازيج التي يستخدمها مجتمع البنائين في القبيلة، والتي تعينهم على استمرارية العمل وإنجازه، ومحاولة استكشاف التأثير الذي يقع على العاملين في هذا المجال، جراء سماعهم لتلك الكلمات أو النغمات الصادرة من المسؤول عن عملية البناء (المعلم) بأشكالها المختلفة، سواء كانت حثاً أو استعمالاً أو ندباً أو تقريباً لبعضهم حتى تتكامل الصورة لديهم ويكون الجميع على مستوى واحد من الإحساس بالمسؤولية وبالعمل وسرعة إنجازه.

هذه المجموعة اللغوية قد تكون مثلاً، أو حكمة، أو بيتاً من الشعر أو غيرها، معروفة في المجتمع المحلي وتستخدم لتعني شيئاً آخر في ثقافة هذه المجموعة (البنائون) أو يكون كلاماً عاماً يعني شيئاً معيناً في المجتمع، ويخرج به عن مدلوله ليحمل مدلولاً آخر مختلفاً عند هذه الجماعة. لذا فقد اختيرت مجموعة من الأهازيج وبعض المقاطع اللغوية والرموز، التي يستعملها البنائون ويرددونها أثناء القيام بعملهم لتكون وحدة التحليل، في محاولة من الباحث للكشف عن مضمونها الاجتماعي، واستجابة العاملين وتفاعلهم مع هذه العبارات والأهازيج. يضاف إلى ذلك دورها الضبطي، وتنظيم التفاهم بين الأفراد داخل الجماعة.

مشكلة الدراسة وأهدافها :

المجتمع والتي يمكن أن تكون في طور الاندثار لإحلالها بمظاهر الحياة الجديدة، فإن من المفيد محاولة البحث في تراث المجتمع لتأكيد العلاقة بين فعل المجتمع وقيمه.

ومن المعلوم أن كل جماعة معينة، ذات ثقافة خاصة تملك لغة خاصة بها، لا يعلمها

يمر المجتمع السعودي بمرحلة من التحول الكبير في معظم مظاهر الحياة الاجتماعية مما يترتب على ذلك تجاوز الكثير من صور وممارسات مجتمع الجيل السابق. ولأن هذه الظاهرة ذات علاقة وطيدة بتراث وثقافة

وخلاف ذلك مما تحتاجه تلك اللحظة. وتحاول الدراسة الإجابة عن السؤال التالي:

هل للغة دور في إنجاز بعض النشاط في الحياة الاجتماعية ؟

كما أن الدراسة تهدف إلى : (١) معرفة دور اللغة المهنية - للبنائين - في تنشيط وتحفيز العاملين. (٢) معرفة مدى التفاعل بين العاملين (البنائون) من خلال لغتهم الخاصة بهم. (٣) إبراز دور اللغة في عملية الضبط داخل الجماعة المهنية (البنائون). (٤) رصد وحفظ التراث الثقافي للمجتمع في هذا الجانب من جوانب حياة المجتمع.

منهج الدراسة :

نظراً لأن موضوع الدراسة يتعامل مع فئة محدودة من فئات المجتمع والتي تقوم بمهمة محددة للمجتمع، وقد طرأ على هذه المهنة الكثير من التحديث واندثرت بعض أجزائها ولم يعد المجتمع في حاجة ماسة إلى هذا النوع من العمل إلا في أضيق الحدود، فقد أصبحت مهمة هذه الفئة محصورة جداً، وبقي أصحاب هذه المهنة من كبار السن. لذا فإن أنسب مناهج العلوم الاجتماعية للدراسة هو المنهج التاريخي، وهذا المنهج يعتمد على الظواهر التاريخية ليستفيد منها في الحاضر وذلك عن طريق جمع المعلومات من الشخصيات حول موضوع معين ثم تصنيف تلك الموضوعات وتحليلها، ويقصد باستخدام هذا المنهج تحليل الحقائق المتعلقة بالمشكلات الإنسانية والقوى

سوى أفراد تلك الجماعة، لما تحمله من معان محددة ولا تفهم إلا في إطارها الاجتماعي، لذا فمن الصعوبة ملاحظتها بشكل مباشر. ذلك ما قرره (Reed) من خلال الدراسة التي أجراها على بعض المغامرين (Sky Divers) وهم يقفزون من الطائرات، وقد لاحظ أن لدى هؤلاء المغامرين لغة خاصة بهم ذات رموز وإشارات. وخلصت الدراسة إلى أهمية المشاركة في تلك الأنشطة لمعرفة أبعاد تأثير تلك اللغة على هذه الفئة من الناس، إذ إنها تحمل معاني اجتماعية ونفسية قوية لدفعهم، وتفعيل نشاطهم^(١).

في هذا الإطار تركز هذه الدراسة على البعد الاجتماعي للغة التي يستعملها البنائون في (بلاد بني عمرو). فعندما يتفق الجميع على بناء منزل لأحد أفراد القبيلة، ويبدأ العمل فإن العاملين في هذه المهنة لهم لغة خاصة ذات تأثير اجتماعي ونفسي على الأفراد العاملين مما يشحذ همهم ويدفع بهم ليكونوا في حالة نفسية تؤهلهم للقيام بالعمل المكلفين به على أكمل وجه، حيث تشتمل هذه اللغة على مجموعة من الأهازيج والرموز ونبرات أصوات معينة قد ترتفع أو تنخفض بناء على ما يراه "المعلم" وهو رئيس المجموعة، وفي الحالة التي يحتاجها الأفراد، كأن يضاعف الجهد أو ينبه الكسول، أو التنبيه للوقت

(١) Reed Richard: Thrills and Skills: ethnography of sky diving (New York, 1973)

الاجتماعية^(٢). وقد اعتمد الباحث أيضاً المنهج الأنثروبولوجي، وذلك ليتمكن من الحصول على المعلومات الأثنوجرافية الكافية عن مجتمع الدراسة، وقد استخدم في ذلك وسيلة المقابلة المتعمقة والملاحظة وتاريخ الحياة^(٣).

أدوات جمع البيانات وتحليلها:

استخدم الباحث في هذه الدراسة مجموعة من الأدوات لجمع المادة العلمية من الميدان، وهذه الأدوات جاءت حسب مقتضى الحاجة لها نظراً لأن مجتمع الدراسة يعتبر شبه منقرض ولم يعد سوى مجموعة بسيطة من كبار السن الذين يمارسون هذا العمل في أوقات متباعدة - يساعدهم في ذلك بعض العمالة الوافدة في بعض الأعمال التي لا تحتاج إلى مهارة. لذلك فقد استخدم الباحث وسائل منها المقابلة ذات الأسئلة المفتوحة النهايات وغير المنمطة، لأنها تعطي حرية واسعة للباحث من ناحية صياغة الأسئلة البحثية بما يتناسب مع الموقف ومراعاة الحالة النفسية والوضعية الاجتماعية التي يكون فيها المبحوثون^(٤).

ومن الوسائل الأخرى التي استخدمها

الباحث، الملاحظة دون المشاركة في محاولة لتوفير أكبر قدر من المعلومات بشكل أكثر دقة لتكون وصفاً دقيقاً من ملاحظ خارجي لعملية التفاعل بين أفراد الجماعة الواحدة^(٥) بالإضافة إلى القرب من المبحوثين ومعايشتهم بل والتفاعل معهم ومحاولة فهم بعض الأفعال الصادرة من البنائين من خلال الدلالات المرتبطة بها سواء كانت إشارات أو رموزاً أو مقاطع أو أهازيج وتحليلها وربطها بثقافة المجتمع. ومن الوسائل أيضاً، تاريخ الحياة، إذ إن هذا النوع من الوسائل يعطي بعداً مهماً لجمع المعلومات من هذه الفئة، حيث يطلب من بعض أفراد المجتمع (الإخباريون) أن يقص كل منهم تاريخ حياته بشكل عام وما تعرض إلى موضوع البحث بشكل متعمق وذلك بمساعدة الباحث، وفي نهاية المقابلات يتكون لدى الباحث قاعدة معرفية واسعة عن موضوع الدراسة^(٦).

ولقد عمد الباحث إلى استخدام وسيلة تحليل المضمون، ويهدف من استخدام هذا الأسلوب في التحليل وصف لمجتمع البحث وتحليل بعض الروابط الاجتماعية التي لها دور في عملية الدفع والتحفيز أو التثبيته إلى التقصير

(٥) Philips, Susan Urmston, *The Invisible Culture: Research on Teaching Monograph Series*, New York, 1983, P. 14.

(٦) إسماعيل، محمد زكي، الأنثروبولوجيا والفكر الإسلامي، جدة: شركة عكاظ للنشر، ١٩٨٢م، ص ١١٤.

(٢) حسن، عبد الباسط، أصول البحث الاجتماعي (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٧٧م)، ص ٢٠٦.

(٣) الجوهري، محمد والخريجي، عبدالله، طرق البحث الاجتماعي، القاهرة: دار الثقافة للنشر، ١٩٨٣م، ص ٣٥١.

(٤) الاعرجي، عاصم محمد، الوجيز في مناهج البحث العلمي: منظور إداري، عمان: دار الفكر للطباعة، ١٩٩٥م، ص ٧٣.

العمال العاملين (٤) تنبيه شخص معين، أو صاحب مهمة محددة لحثه أو طلب شيء معين منه (٥) الشد على يد العاملين في الإسراع وإنجاز العمل (٦) بعض الرموز المستعملة في عملية البناء كالتصفيق أو الطرق على الجدار لإنجاز مهمة معينة. وتشتمل شرح معاني بعض المفردات في الهامش وكذلك تحليل محتوى تلك المقاطع والرموز اجتماعياً.

الصعوبات التي واجهت الباحث:

يعتبر هذا النوع من الدراسات غريب الشكل والمضمون لدى الكثير من أبناء المجتمع، وقد قابل البعض منهم الباحث بنوع من الاستهجان أو عدم المبالاة، إذ يعتبر البعض أن هذه المهنة شبه منقرضة والسؤال عنها أو البحث فيها خصوصاً لأفراد ليسوا من أبناء المنطقة نوعاً من الاحتقار أو ندب الحظ.

وعلى هذا كان من المتعذر إجراء دراسة ميدانية حول لغة البنائين - مهنة البناء بالحجر في قبيلة بني عمرو - لولا أن الباحث وبمساعدة بعض أبناء المنطقة استطاع التعرف على الكثير من الأفراد في المجتمع، وعقد صداقات، بالإضافة إلى الاستعانة بالذين يعرفهم الباحث والتعرف على مجموعة من الإخباريين، وقد اشترط الباحث أن يكونوا

والحث على مضاعفة الجهد ومحاولة الربط بين محتوى الاتصال - اللغة - وأهدافه وتحديد المعايير التي تسير عليها تلك الجماعة من الناس. ويعتبر تحليل مضمون المادة الثقافية في هذا المجتمع المدروس تعبّر بصدق عن الواقع الاجتماعي لهذا المجتمع ومحتوى المادة الثقافية^(٧).

قرر بعض دارسي علم الاجتماع أن وحدة التحليل في هذه الوسيلة قد تكون الكلمة وقد تكون المفردة أو الموضوع^(٨)، وقد تكون مجموعة من الكلمات أو المقاطع الكلامية أو الأهازيج لتكون وحدة التحليل^(٩). لذلك فإن هذه الدراسة عبارة عن تحليل مضمون مجموعة من الأهازيج أو المقاطع أو الرموز التي يستعملها البنائون أثناء أداء عملهم في تشييد منازل أهل القرية. هذه المقاطع بالإضافة إلى كونها نوعاً من التسلية وإعطاء الحافز والدافع للعمل فهي مقاطع تخصصهم، إذ لها فهم خاص لديهم وهي ذات معنى معين لهم، لذا فهي لغة خاصة بالبنائين على الرغم من أن هذه الكلمات لا تخرج عن نطاق ثقافة المجتمع إلا أن لها معنى يخصهم.

وتنقسم الدراسة إلى تحليل المقاطع التي تكون عند (١) البدء في العمل (٢) الحث على العمل والإسراع فيه (٣) تنبيه الغافل من

(٧) Barker, Theresel, *Doing Social Research* New York, McGraw-Hill, 1988, pp. 255 - 256.

(٨) حسن، عبد الباسط، أصول البحث الاجتماعي (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٧٧م)، ص ٤٠٨.

(٩) السالم، فيصل وتوفيق فرح، مقدمة في طرق البحث في العلوم الاجتماعية، الكويت: مجموعة أبحاث الشرق الأوسط، ١٩٧٩م، ص ٧٤.

معينة تميزها عن بقية الثقافات المهنية المختلفة، فإن الاتصال المباشر بين تلك الثقافات المهنية المتقاربة مجالياً دون أي تأثيرات خارجية، تكون وظائف هذه العناصر مكونة من الواحدة للأخرى ومعتمدة بعضها على بعض في أداء وظائفها بحيث تكون تكاملاً وظيفياً يعكس الوظيفة العامة للثقافة. فالتكامل الوظيفي يحصل بين عناصر الثقافة المتصلة بصورة مباشرة^(١١). ورغم هذا التكامل بين اللغة والثقافة في المجتمع إلا أن هناك لغات خاصة لكل فئة اجتماعية أو مهنية، وهناك اختلاف بين طبقات المجتمع أو الجماعة داخل المجتمع الواحد من حيث استعمالات اللغة وما تحمله في طياتها من معان. ويمكن أو ينظر إلى هذه الاختلافات من خلال الحواجز والمسافات الاجتماعية بين فئات وجماعات وأفراد المجتمع الواحد^(١٢). وأينما تكن هذه المفارقات بين استعمالات اللغة بين فئات المجتمع المختلفة، فإن الأدوار والوظائف التي تؤديها هذه الجماعات أو الفئات ونشاطاتها المختلفة وبناءاتها البسيطة تعمل في النهاية على صيانة المجتمع الكلية وتوازن العناصر المؤلفة منها^(١٣)، إذ إن المجتمع يعتبر جسماً متكاملاً يؤدي كل عضو فيه وظيفة خاصة ليستمر بقاء هذه الجماعة أو

أصلاً من البنائين أو ممن عمل معهم. يضاف إلى ذلك البعد المكاني بين مجتمع البحث ومقر إقامة الباحث. ومن الصعوبات التي واجهت الباحث اختلاف اللهجة وصعوبة مواصلة الحديث مع المبحوثين لكبر سنهم وضعف التفاعل مع الباحث. يضاف إلى ذلك أن المقابلة لم تكن أمراً محبباً لدى بعض مجموعة من المبحوثين. ومن الصعوبات التي واجهت الباحث أيضاً عدم وجود دراسات أنثروبولوجية سابقة أجريت عن هذا اللون من التراث الثقافي للمنطقة - على حد علم الباحث - إذ إن هناك العديد من الدراسات حول المنطقة، ولكنها لم تتناول محور الدراسة الحالية.

المدخل النظري:

تعتبر اللغة جزءاً من ثقافة المجتمع، بما تحمله من دلالات متعددة ووظائف متنوعة يكون لها تأثير في حركة وتفاعل الأفراد، فقد تكون دافعاً نحو العمل والجد، وقد تكون محدرة ومؤنبة في مكان آخر. والتلازم بين اللغة والثقافة يؤدي إلى تكامل الأجزاء في كل واحدة، والاعتماد المتبادل بين العناصر المختلفة فيهما^(١٠). ولأن ثقافة المجتمع الرسمية تشمل مجموعة من الثقافات الفرعية منها ما قد يكون ثقافة مهنية ذات خصائص

(١٢) Trudgill, Peter, Sociolinguistics, An Introduction to Language and Society, New York, 1983, Penguin Books Ltd.

(١٣) الخوري، فؤاد اسحق، مذهب الأنثروبولوجيا وعبقريّة ابن خلدون، بيروت: دار الساقى، ١٩٩٢م، ص ٦٩.

(١٠) أحمد، سمير نعيم، النظرية في علم الاجتماع: دراسة نقدية، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٩م، ص ١٩٧.

(١١) عمر، معن خليل، نقد الفكر الاجتماعي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٢م، ص: ١٤٣.

الأفراد، والحفاظ على الهوية والأمن النفسي والاجتماعي.

إن البناء الاجتماعي - كما حدده راد كليف براون امتداداً لأعمال دوركايم - يعني شبكة العلاقات الاجتماعية بين وحدات مكونة، هي الجماعات الاجتماعية والطبقات المختلفة والأدوار الاجتماعية^(١٤). ويشاطر براون آخرون في عملية تفسير الواقع الاجتماعي والثقافي للمجتمع، فنجد أن نظرية الأنماط الثقافية تؤكد مفهوم نمط الثقافة ليكون محوراً ومنطلقاً لتحليلاتها^(١٥)، وكلتا النظريتين تسعى لتفسير الواقع الاجتماعي والثقافي للمجتمع، ولكن كل يعطي أولوية لمجموعة من العوامل. ويعبر عن هذا الالتقاء (فيرث firth) بقوله "إذا أخذنا المجتمع بوصفه تنظيمياً لمجموعات من الأفراد لهم أسلوب حياتهم الخاصة، فإن الثقافة هي هذا الأسلوب في الحياة. وإذا أخذنا المجتمع بوصفه تجمعاً للعلاقات الاجتماعية تصبح الثقافة هي محتوى هذه العلاقات. والمجتمع هو تأكيد للعنصر البشري، وتجمع الأفراد والعلاقات المتبادلة بينهم. والثقافة تؤكد عنصر تراكم الموارد المالية واللامادية، والتي يرثها الناس ويستخدمونها في حياتهم، ويتناقلونها، ويضيفون إليها"^(١٦).

(١٤) محمد، علي محمد، الوعي الثقافي والتنمية من الداخل: دراسة في مفهومات وقضايا الثقافة مع التطبيق على مكانة المرأة في مصر الإسكندرية: مكتبة جامعة الإسكندرية، ١٩٨٠م، ص ١٤٩.

(١٥) محمد، مرجع سابق، ص ١٥٢.

إن ثقافة المجتمع أو الجماعة هي التي تحدد معايير استعمال اللغة، فالفرد يتعلم اللغة وأسرارها واستعمالاتها ورموزها وإشاراتها، ويتعلم أيضاً التخاطب والكلام عن طريق المشاركة في التخاطب^(١٧)، ويتعلم الفرد أيضاً ما يطلق عليه لغة السلوك الاجتماعي الذي يتعارف عليه المجتمع ليحقق مصلحة اجتماعية يحث عليه العرف السائد، كأن تكون حركات أو تصرفات معينة ذات دلالة. فمثلاً رجل قام من مقعده ليجلس عليه رجل مسنّ أو ابتعد عنه لتشغله امرأة أو ضيف قادم، هذا التصرف دلالة احترام وشعور بالمسؤولية ونوع من الأخلاق تجاه بعض الفئات الاجتماعية الأخرى^(١٨). وكما يؤدي الكلام وظيفة عديدة في مختلف المواقف والمناسبات، ومن الأمثلة على ذلك ما نسمعه من عمال نقل الأثاث أثناء عملهم "خذ عليك... ودلوقتي ارفع... شويه لفوق... الخ" حيث يقوم الكلام بالتحكم في الأنشطة الجسدية والجهد البشري المبذول^(١٩). هذه لغة تستعمل في المجتمع ويؤديها سلوكنا، وقد تكون على العكس من ذلك في المجتمعات الأخرى، لذلك فإن التصرف الاجتماعي يكون مبنياً على بعض القواعد في ثقافة هذا المجتمع أو ذاك. ويدخل في ذلك ما يطلق عليه "الإتيكيت" وهو

(١٦) نفسه، ص ١٥٣.

(١٧) نهر، هادي، علم اللغة الاجتماعي عند العرب، (بغداد: الجامعة المستنصرية، ١٩٨٨م)، ص ١١٨.

(١٨) نهر، مرجع سابق، ص ١٨٨.

(١٩) نفسه، ص ٢٠٨.

ملاح مجتم قبيلة بني عمرو:

تعددت التعريفات لمعنى ووظيفة القبيلة، وأجد أن أنسب التعريفات التي تناولت القبيلة والتي يمكن أن تكون تمهيداً لدراسة قبيلة بني عمرو هو تعريف (بيج) فقد عرّف القبيلة على أنها عدد من الناس ينتمون إلى أصل مشترك كما يشتركون في ملكية منطقته من الأرض، وتقوم بينهم صلات القرابة ويتكلمون لغة أو لهجة واحدة^(٢٢). ولأن الدراسة تتعلق بقبيلة بني عمرو فإن من المناسب الحديث عن بعض ملامح ومكونات البناء الاجتماعي لمجتمع القبيلة، مثل الظروف البيئية التي تركت بصماتها على المجتمع ونوعية الأرض والمنتجات الزراعية والمناخ وعلاقة ذلك بالفرد، وردود الأفعال المجتمعية تجاه تلك الظروف وانعكاساتها لتشكل أنماط السلوك والوحدات الاجتماعية القائمة، على الرغم من أن الدراسة لا تتعامل مع البناء الاجتماعي للقبيلة ولكن نوع من التمهيد والتعريف.

قبيلة بني عمرو إحدى قبائل رجال الحجر التي تنسب إلى الحجر بن الهنود الأزدي بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن قحطان. هذه القبائل هي قبيلة بلحمر وبلسمر وبني شهر

أحد نظم التواصل والتعبير في المجتمعات أو ما يطلق عليه اللغة السلوكية عند علماء الدلالة^(٢٠) التي تتكون من مجموعة من الكلمات أو الإشارات أو التصرف الذي يعمل في مواقف معينة. ويؤكد ذلك قول مالمينوفسكي B.Malinowski من أن اللغة في استخداماتها تقوم بدور حلقة في سلسلة الأنشطة الإنسانية باعتبارها جزءاً من السلوك الإنساني، وهي وسيلة من وسائل الفعل^(٢١).

ومن هنا يمكن القول أن اللغة تحدث في سياق اجتماعي، هذا السياق يشمل عدداً كبيراً من العوامل من بينها الجماعة أو الجماعات الاجتماعية التي ينتمي إليها الفرد والعلاقات الاجتماعية بين المتحدث والمتلقي وكذلك نوعية التعامل الاجتماعي، تجاري، ودي، حلّ معضلة، شجار... إلخ، وكذلك المعارف المشتركة بين المشتركين في الحديث. وبذلك يكون الشفهي وغير الشفهي والمحسوس والمرئي والمسموع والاتصال الجسدي ووضع المظهر الخارجي وتعبيرات الوجه وحركة الرأس واليدين واتجاه النظر وتوقيت الكلام أو النبذة العاطفية وغير العاطفية أو الأخطاء ونوعية العبارات المنطوقة والبنى اللغوية، كل هذه التصنيفات تقوم بدور متميز في التعامل الاجتماعي^(٢٢).

(٢٠) نهر، مرجع سابق، ص ٢٠٧.

(٢١) هـسن، علم اللغة الاجتماعي: ترجمة محمود عبد الغني عياد، بغداد: وزارة الإعلام، ١٩٨٧م، ص ١٨٦.

(٢٢) هـسن، مرجع سابق، ص: ١٨٦.

(٢٣) الفوال، صلاح، البناء الاجتماعي للمجتمعات البدوية، بيروت: دار الفكر العربي، ١٩٨٣م، ص ٨٩.

وقبيلة بني عمرو^(٢٤). وقيل أن هذه القبيلة يعود أصلها إلى بني عبد من بني عامر^(٢٥). ويقع بلاد بني عمرو في الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية، وتأخذ الجزء الشمالي من سرة الحجر وتغطي مساحة واسعة من الإقليم، حيث تبلغ ٢١٠٠ كلم مربع، وتمتد مع قبيلة بني شهر بين ٥٠ - ١٠٠ كلم من الجنوب إلى الشمال و ٨٠ - ١٢٠ كلم مربعا تقريبا من الغرب إلى الشرق^(٢٦). على منطقة جبلية مرتفعة، وعرة المسالك، معتدلة المناخ، ذات مناظر خلابة، وترتفع عن سطح البحر (٩٠٠٠) قدم تقريبا^(٢٧). ويبلغ تعداد القبيلة حوالي ثلاثين ألف نسمة، ويعمل معظمهم بالزراعة والتجارة وتربية الماشية إلا أن مهنة الزراعة تكاد تكون الغالبة على المجتمع. وتعتبر القبيلة كإحدى القبائل العربية من حيث قوة سلطان الأعراف والعادات والتقاليد، ويتميز أفراد القبيلة بقوة تماسكهم وبقوة الروابط الاجتماعية فيما بينهم.

وتعتبر الثقافة المحلية لمجتمع (بني عمرو) ثقافة فرعية من ثقافة المجتمع السعودي، ولأن لبلاد (بني عمرو) حدوداً جغرافية متعارفاً عليها عند أفراد المجتمع المحلي وكذلك المجتمعات المجاورة لهم، فإن هذا

المجتمع يتميز بعادات وتقاليد بل وبثقافة خاصة بهم تميزهم عن غيرهم. فالبيئة الجغرافية والاجتماعية تفرض نوعاً من التكامل في الإنتاج، وتوزيع المهمات. لذا فإن كل فرد يقوم بمهنة معينة تتناسب مع ميوله ورغباته وطاقاته، وكذا مع احتياجات أفراد المجتمع. وبذلك تعطي الثقافة المحلية لمجتمع (بني عمرو) أفرادها مساحة من الحركة داخل المجتمع في شتى أنواع النشاط الإنساني، وفي نفس الوقت تفرض عليهم قيوداً وضوابط محدودة متعارفاً عليها تفرضها العادات والتقاليد والأعراف التي اتفق عليها أبناء المجتمع. وتحتوي الثقافة أيضاً على مجموعة من المعاني الجميلة كالصدق والمحبة والأخوة والإخلاص في العمل وبذل الجهود في كل عمل يخدم مصالح الفرد والجماعة. ويرجع تمسك أفراد المجتمع بما تمليه عليهم ثقافتهم، إلى ذلك الدور الذي تلعبه الأسرة في المراحل الأولى من عمر الفرد حيث يكون تعليم الانضباط والتقيّد بما هو قائم في المجتمع من المهمات الرئيسية للأسرة، ذلك أن التنشئة الاجتماعية تعمل على غرس الثقافة في نفوس الأجيال وتعلمهم ماذا يجب عليهم أن يفعلوه، وبما يضمن استحسان وتقدير الجماعة. وذلك يدفع الفرد للامتثال

(٢٦) جريس، غيثان علي، صفحات من تاريخ عسير جدة: دار البلاد للطباعة، ١٩٩٤م، ج ١، ص ١٦.

(٢٧) الغامدي، سعيد فالح، البناء الطبقي والتحضر في المملكة العربية السعودية، الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، ١٩٩٠م، ط ٥، ص ٧٨.

(٢٤) شكري، علياء، بعض ملامح التغير الاجتماعي في الوطن العربي: دراسة ميدانية لثقافة بعض المجتمعات المحلية في المملكة العربية السعودية (القاهرة: دار الثقافة، ١٩٨٣م)، ص ٣٥٩.

(٢٥) العمري، عوض ظافر، أدب وتاريخ بني عمرو ١٣٩٨هـ، ص ١٢.

للمعايير المجتمعية من أجل أن يحقق هذا الهدف^(٢٨).

ويعمل الأفراد في مجتمع (بلاد بني عمرو) على احترام قرارات القبيلة والتي هي في غالب الأمر تكون شفوية، وتشمل الاتفاقيات مثل الزواج، وحل الخلافات التي تحدث بين المتخاصمين من أبناء القبيلة دون اللجوء إلى الجهات الرسمية في الدولة، ومعاقبة الخارجين على تلك الاتفاقيات، وتحديد الأشخاص الذين يقومون بحل ما قد يتعرض له المجتمع من مشاكل. ويعتبرون هذه الاتفاقيات أو القرارات تعبيراً عن إرادة جماعية وتهم المجموع، لأن الخروج على إرادة الجماعة، وعدم المحافظة على القيم السائدة في القبيلة هو خروج على العادات والتقاليد التي تقضي بوجوب احترام رأي القبيلة وتنفيذ قراراتها. وإذا لم يتحقق ذلك، فإن ثقافة المجتمع لديها من الضوابط المادية والمعنوية ما تجعل الأفراد يلتزمون بها.

اللغة والثقافة المحلية:

يعزو ابن رشد التفاهم بين أفراد المجتمع إلى التعاقد الضمني، ويعبر عنه بمبدأ تطابق

الكلام عند المرسل والمستقبل في الوقت نفسه^(٢٩). لذا تعتبر اللغة عقداً اجتماعياً بين أفراد المجتمع المحلي الواحد أو المجتمع العام، يكون له من القوة والتأثير بحيث يوجه أفراد المجتمع نحو القضايا المشتركة بينهم^(٣٠). ولتلاقي الثقافة باللغة وتساندهما فإن هناك مجموعة من المعاني العامة لكلمات معينه تستخدم لمعان خاصة وذلك بتأثير الثقافة ولأسباب اجتماعية معينة^(٣١). وكذلك تتمثل أحد الأسباب التي تؤدي إلى نشوء بعض الكلمات التي لم تكن موجودة في اللغة من قبل، في مقتضيات الحياة الاجتماعية وضرورتها، لأن اللغة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمظاهر الثقافة المختلفة في المجتمع. لذا فإن اللغة تتطور حسبما تقتضيه حاجة المجتمع وإلحاح ثقافته. وفي هذا الإطار تخرج الكلمات أحياناً عن مدلولاتها الأولى، وذلك عائد للثقافات والمجتمعات والمناطق الجغرافية والمهن وكذلك الجماعات الواحدة. والثقافة لها دور بارز في هذه العملية، فهي الشكل الذي تكون عليه حياة الناس الذين يعيشون كأفراد في مجتمع معين ويشعر كل منهم بالمسؤولية

= إن الحصول على المادة العلمية بيسر وسهولة، لا يتم إلا عن طريق توافر بعض الإخباريين (Informants) أو بعض الباحثين ذوي الاتصال المباشر بهذا المجتمع.

(٣١) Williams, T., *Field Methods in the study of culture*, New York, 1967 Holtr & Winston.

(٢٨) بيومي، محمد أحمد، الأنثروبولوجيا الثقافية، الدار الجامعية للطباعة والنشر، ١٩٨٣م، ص ١٨٦.

(٢٩) المصري، عبد الفتاح، التفكير اللساني في الحضارة العربية، دمشق، مجلة الموقف الأدبي العددان ١٥٣ - ١٣٦، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٢م، ص ٢٤٢.

(٣٠) إسماعيل، فاروق، اثنوجرافيا كارلنجا، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٣م، ص ١٠.

تجاه الآخرين، وتتخذ هذه الجماعة اسماً معيناً يعرف أعضاؤه به^(٣٢).

وفيما يتعلق بالعلاقة الوثيقة بين الثقافة المحلية واللغة، فإن اللغة تعمل كوسيلة ضبطية في المجتمع. لذا فإن (هياكاوا) يرى أن اللغة التوجيهية تحمل دائماً معنى ضمناً عن المستقبل، أي أننا نستخدمها لننقل للآخرين نوعاً من التوقع والأمل والخوف لنحثهم على عمل يقومون به في الحاضر، وبذلك تستطيع اللغة أن تجعل الفرد منضبطاً اجتماعياً، لو اتبع ما تمليه عليه ضوابط المجتمع^(٣٣).

وذلك يعني أن النظام اللغوي يعمل على تنظيم الناحية المتصلة بالتفاهم بين أفراد المجتمع، ويستطيع الفرد من خلالها إيصال ما يريد من التعبير عنه للغير. وهي الوسيلة التي ينقل بها الأفراد قبولهم أو رفضهم للأشياء. ولأنها أهم الوسائل الضبطية الاجتماعية فهي مرتبطة بالقيم والمعايير التي يؤمن بها المجتمع وبواسطتها يعبر عن تلك القيم والمعايير بما يكون متوافقاً معها بتعابير سلوكية لفظية أو غير ذلك من أجل أن يكون متوافقاً مع ثقافة المجتمع. ورغم التحديث

والتغير الاجتماعي الذي أصاب المجتمع السعودي بأسره ونال مجتمع (بلاد بني عمرو) نصيباً لا بأس به، فإن الالتزام بثقافة المجتمع المحلية لا يزال قائماً وكذلك فإن لها تأثيرها على أفرادها الذين لا يزالون في نفس المنطقة.

إن هناك نوعاً من التلازم بين اللغة والثقافة، وإذا قسّمت الثقافة تبعاً لمناشط الحياة الاجتماعية، فإن الثقافة المهنية تكون واحدة من ذلك. وبذلك تتأثر اللغة بمظاهر النشاط المجتمعي بأنواعه فتطبع مفرداتها، ومعانيها، وأساليبها، وتركيبها بطابع خاص وتختلف تبعاً لعدة عناصر منها الاختلاف في نوع الإنتاج ونظم الاقتصاد وشؤون الحياة المادية، كما تختلف بالنسبة للمهن السائدة من زراعة وصناعة وتجارة ورعي وبناء مساكن وغيرها^(٣٤). لذلك قد يؤدي هذا التأثير المتبادل إلى تشكيل أعضاء نطقهم في صورة خاصة تتأثر بها مخارج الحروف والألفاظ وطرق الأداء، وكذلك اللغة غير المكتوبة مثل الرموز والإشارات أو الإيماءات أو ما يتعلق بوسائل الاتصال بين الأفراد في تفاعلهم مع بعضهم^(٣٥). وهذا التفاعل الذي يحدث بين

Hymes, D., Two types of linguistic relativity, (Inw Bright (ed) Sociolinguistics, 1968), The Hayue: Mouton (114 - 165).

ضرب مثلاً مستعملاً لجماعة

Warm Springs From that Anglos People's use of English differed.

عرفت الثقافة منات التعريفات بطرق مختلفة، من هذه التعاريف تعريف مارفن هاريس بقوله إن الثقافة أنماط سلوكية ترافق مجموعة معينة من =

Harris, Marvin , The Rise of Anthropological Theory, New York, 1968.

(٣٣) جلال، سعد، علم النفس الاجتماعي، الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٨٤م، ص ٢٨٦.

(٣٤) الحاج حسن حسين، علم الاجتماع الأنثي (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٩٠م)، ص ١٨٠.

عليها معاني عديدة^(٣٨).

ويتطلب بقاء المجتمع واستمراره وإشباع احتياجاته من أفراد، العمل من أجل المحافظة على كيانه وحفظ أمنه واستقراره^(٣٩). من هنا فإن ظروف المجتمع وبيئته تملّي على الأفراد الذين يعيشون ثقافة واحدة أن يعملوا داخل تلك الثقافة في مهن مختلفة، بحيث يكون هناك توزيع متناسق يفي بحاجة المجتمع ويلبي ميول ورغبات واحتياجات أفراد المجتمع نفسه ولا تخرج هذه المهن عن الإطار العام لثقافة المجتمع، لأن بقاء واستمرار المجتمعات يتطلب من أفرادها أن يبرز كل منهم في مهنة معينة وهذا يحدث بشكل ملحوظ في المجتمعات المتقدمة؛ لأن المجتمع يصبح عضواً يعتمد كل واحد في نشاطه على عمل الآخر، وفق ثقافة خاصة تملّيها عليهم طبيعة العمل والتخصص الذي سلكوه، مثل مهن الطب والهندسة والزراعة والصناعة والتجارة وغيرها. كل هذه التخصصات (مهن) تفرض على المنتمين إليها ثقافة مهنية معينة ذات علاقة بنوع التخصص وتميزهم بالتالي عن غيرهم من أصحاب المهن الأخرى، وتنظم أسلوب حياتهم العلمية والعملية من تعلم المهنة وتعاملهم معها ومع المستفيد، وكيفية التعامل

الأفراد من خلال اللغة أو الإيماءات أو الإشارات أو الرموز، عبارة عن أوعية تجمع المعاني التي يضيفها الفاعلون على أفعالهم لتسهيل عملية التفاعل^(٣٦). ويفرق ميد (MEAD) بين نوعين من التفاعل، فالأول التفاعل غير الرمزي وهو مجرد استجابة لأفعال الآخرين دون إضفاء أي معنى عليها، والثاني التفاعل الرمزي وهو فهم طرفي التفاعل للمعاني الكامنة خلف ظروف الفعل والسلوك^(٣٧).

وقد لا تتم الاتصالات بين الأفراد في المهنة الواحدة أو في المجتمع المحلي الواحد عن طريق اللغة، بل إن هناك الإشارات والتعبيرات الخارجية للوجه وحركات الجسم، حيث تعتبر كلها رسائل بدون كلمات. وتختلف الإشارات في معانيها حيث إن الإنسان الذي يخلع عليها هذه المعاني عن طريق التحكم في الرموز، فمثلاً الابتسامة، تدل على الفرح، ولكن هناك ما يسمى بالابتسامة الصفراء التي قد تدل على الحسد وهي ذات مشاعر سلبية. وكذلك الدموع التي تدل على الحزن، إضافة إلى أن هناك حسب القول الشائع، دموع التماسيح مثلاً. فاللغة إذن تعتبر الوسيلة التي من خلالها يفهم الفرد العالم المحيط به ويضيف

= الناس وتظهر في شكل عادات أو في طريقة حياة الناس.

(٣٦) زايد، أحمد، علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨١م، ص ٤٢٥.

(٣٧) حسين، مرجع سابق، ص ١٨٥.

(٣٨) زايد، أحمد، مرجع سابق، ص ٤٢٥.

(٣٩) مدبولي، جلال، دراسات في الثقافة والمجتمع القاهرة: المكتب الجامعي الحديث، ١٩٨٣م، ص ٥٩.

مع زملاء المهنة في العمل وخارجه، وفي حياتهم الخاصة والعامة^(٤٠).

ولا تتطلب المهن الحرفية في القرى بالمناطق الريفية من المنتمين إليها أن يحصلوا على تلك المهن بالتعليم في المدارس، بل يتعلمها الفرد عن طريق المشاهدة والممارسة من والده أو أقربائه ويتعلم أيضا أدواتها التي تستعملها وأخلاقياتها وضوابطها والرموز والإشارات واللغة الخاصة بتلك الحرفة. وهذه الحرف مثل نجارة الأخشاب ودباغة الجلود وبناء المساكن بالحجر والطين. كل من هذه المهن لها ثقافتها الخاصة بها سواء كانت ذات تعليم عالٍ يتطلب مدارس ومعاهد وممارسة أو تلك التي لا تتطلب سوى المشاهدة والممارسة. تلك الثقافة تحتوي على مجموعة كثيرة من الضوابط التي تحكم سيرها. سواء كانت من الثقافة المادية التي تتطلب المعرفة بالأداة واستعمالاتها وكيفية إصلاحها أو حتى صنعها، أو في جانب الثقافة المعنوية والتي تتمثل في النظم واللغة والعوامل الدافعة أو العوامل المثبطة لذلك.

اللغة عند عمال البناء:

تعد مهنة البناء بالحجر والطين إحدى المهن الرئيسية التي يقوم بها مجموعة من الأفراد وتعتمد عليهم القبيلة في إنشاء البيوت السكنية أو كل ما يتعلق بالعمارة بشكل خاص، ويستوحى فن العمارة أو طريقة البناء من ثقافة المجتمع ومن وحي البيئة الجغرافية لهذه

القبيلة. كما أن أدوات البناء تكون كذلك مستوحاة من البيئة. ويعمل في عملية بناء المسكن مجموعة من الأشخاص يبلغ عددهم في الغالب خمسة أفراد بناء مسكن، وقد يزيد العدد تبعاً للظروف التي تحيط بالعمل. ولأنهم يعملون في هذه المهنة لفترات قد تكون طويلة، فمن المؤكد أن يحدث بينهم نوع من التفاعل والتكامل من النواحي النفسية والاجتماعية الذي يُنتج بالضرورة لغة خاصة ورموزاً متعارفاً عليها فيما بينهم. وعندما يحتاج أحد البنائين التخاطب مع أحد زملاء المهنة في شيء يتعلق بعملهم في مجال بناء البيوت، مثل طلب الحجر أو الطين، فإنهم يتخاطبون فيما بينهم بكلمات ورموز ومقاطع شعرية أو أمثال شعبية متعارف عليها بين المجموعة بماذا تعني أو المطلوب من السامع عمله. هذه الأهازيج والأغاني مستمدة في الأصل من ثقافة المجتمع، ولا تخرج عن إطارها، ولا تقال إلا حينما يكون العاملون أثناء قيامهم ببناء أحد البيوت.

وفي العادة يكون للغة المتمثلة في الأهازيج والرموز، تأثير اجتماعي على أفراد تلك المجموعة. حيث إنها تكسبهم نشاطاً وقوة وجدية في العمل وسرعة الإنجاز. وتعمل أيضاً على ضبط سلوكهم وتوجيههم. وفي العادة تقال هذه الرموز والأهازيج بصوت مرتفع إذا أحس "المعلم"، وهو رئيس هذه المجموعة، بأن أحد العاملين معه ينتابه نوع من الخمول أو الكسل، وذلك لأن المعلم له

(٤٠) الغامدي، المرجع السابق، ص ١٣٣.

بيوت أخرى في بلاد بني عمرو. لذلك فإنهم يعملون على شحذ همهم بلغة خاصة بهم، تتمثل في أهازيج ورموز وأغان يعملون من خلالها لأن عليهم بذل طاقة أكثر في سبيل القيام بالعمل على الوجه الذي يرضى عنه الجميع في القرية وتعدّ هذه اللغة من أهم وسائل الاتصال ونقل المعلومات والملاحظات على أفراد المجموعة.

ولأن لهذه اللغة وظائف متعددة تخدم سير العمل والتأثير على المجموعة وشحذ الهمم وضبط سلوكهم. فإنه يتم اختيار المستوى اللغوي، واختيار المفردات والتراكيب التي تخدم مصالح هذه الفئة أثناء عملهم في مجال البناء. وفي الغالب فإن مواقف العمل هي التي تفرض على "المعلم" أو المجموعة اختيار الأغاني أو الأهازيج والرموز المتداولة بينهم في مجال عملهم في هذه المهنة. هذه اللغة تميز البنائين عن غيرهم من أصحاب المهن الأخرى في بلاد بني عمرو.

من خلال الملاحظة والمعايشة والإبحار في ذاكرة المجتمع لإبراز ما كان في الماضي، وما بقي في الحاضر، نناقش تلك اللغة الخاصة بهذه المجموعة والتي تحتوي على مجموعة الجُمْل والأمثال وبعض الرموز والإشارات التي تحمل تلك الدلالات الاجتماعية والنفسية التي تميز هذا المجتمع عن غيره من المجتمعات.

شخصيته ذات القدرة على التأثير فيمن حوله من العاملين معه. وهذه اللغة تعدّ الوسيط الأساسي للتفاعل بين أفراد هذه المجموعة وتؤدي إلى تقوية الانتماء إلى هذه المجموعة، وتعد أيضاً الوسيلة التي يستطيع المعلم التأثير بها على بقية العاملين معه في هذه المهنة. وذلك من خلال ترديد الأغاني والأهازيج والرموز وغيرها من العناصر التي تتكون منها لغة البنائين في مواقف ومراحل معينة من سير العمل. وتتضح وظيفة هذه اللغة من خلال عملية التفاعل والتعاون بين المجموعة، لأنها في نظرهم من أهم أدوات التكامل وضبط سلوك القائمين على العمل في هذه المهنة.

ويتطلب العمل في مجال البناء من العاملين في هذه المهنة، أن يكونوا في حالة صحية جيدة وببنية جسمية قوية تمكنهم من القيام بالمهمة التي توكل إليهم، لأن لكل فرد مهمة محدده يقوم بها ويقوم أيضاً بمساعدة زملائه في العمل إذا احتاج أحد منهم ذلك. ومن الواضح أن هذه المهنة شاقة ومتعبة نظراً لوجود الحجارة الكبيرة التي يتطلب نقلها إلى أماكن محدده في جدران البيت. وكذلك حمل الطين والرمل والماء والخشب، كل ذلك يتطلب من العاملين أن يكونوا مؤهلين للقيام بعملهم بالشكل الصحيح وحتى لا يتعرضوا لنقد صاحب العمل، أو من أهل القرية. لأنهم يعلمون مسبقاً بأنهم لو تعرضوا للنقد فلن يكسبوا ثقة القبيلة وبالتالي لن يتمكنوا من بناء

النتائج والتحليل:

١ - في البداية. إذا أراد أحد أفراد القرية إقامة بيت فإنه يذهب إلى أحد معلمي البناء من أبناء المجتمع المحلي، ويخبره بأنه يرغب في بناء بيت يأويه وأفراد أسرته، وأنه قد وقع عليه الاختيار ليقوم ببناء البيت، نظراً لما يتمتع به من ثقة، ولما عرف عنه من الإخلاص في العمل، ويكون هذا بمثابة اتفاق مبدئي بينهما. ومن ثم يذهب المعلم بعد الاتفاق ويحضر مجموعته من أفراد القبيلة، الذين يمتحنون هذه المهنة ويثق بهم في إنجاز العمل. ويذهبون إلى الرجل الذي يريد أن يبني له البيت، ويطلعون على الموقع والشروط التي يملئها صاحب الملك. وبعد المداولات يتم الاتفاق على الشروط المعقودة بينهم ثم يتفرق الجميع. وفي صبيحة اليوم التالي يأتي البناؤون إلى موقع العمل ثم يصيح "المعلم" بهذا المقطع "أول القول بسم الله، نسمى ونبدأ في عملنا، الله دركم يا رجال" أيذاً ببدء العمل. والافتتاح يتم عادة بالتسمية فهي جزء من تراث المجتمع الديني وفيها طلب العون والبركة من الله على إتمام هذا العمل، وفيها أيضاً إعلان عن التعريف به وبمجموعته. ويحمل هذا المقطع الكثير من المعاني والتي تدور في محور اهتمام العاملين، حيث إن المعلم هنا يوضح أهدافه للمجموعة، وبدورهم يعملون بشكل جماعي ويتعاون تام ومحاولة تكييف أنفسهم

مع هذا الموقف. لأنهم فهموا ما يرمي إليه المعلم. فهو بذلك يدعوهم لترك كل تفكير قد يشغل بالهم خارج العمل، وأن يصبوا كل تفكيرهم وطاقتهم لإنجاز ما أوكل إليهم من مهمة. وفي نفس الوقت يحرص على أن يضبطوا سلوكهم حتى لا يتعرضوا للانتقاد. ثم إن فيها دعوة للجهد والاجتهاد، وتنطوي على ما يبديه من مديح لهم وذلك في قوله الله دركم يا رجال فهذا نوع من التحفيز لهم ولشحن همهم. ويدعون الله أن يرزقهم القوة حتى يتمكنوا من أداء العمل المناط بهم.

٢ - وبعد التسمية، والتي هي جزء من تراث وثقافة المجتمع، حيث لا بد من البدء بذكر اسم الله في أول كل عمل مهما كان صغيراً أو كبيراً، يبدأ العمل بطلب العون والقوة من الله حتى ولو كانت الجملة الأولى تتضمن ذلك فلا بد من قولها صراحة، إذ يقول "يا لله يا الله يا معين عاوننا، وننجز شغلنا". فالمعلم يطلب العون من الله حتى يتمكن مع جماعته من إتمام العمل في بناء هذا المنزل. هذه العبارة دائماً يرددها المعلم ويرددها خلفه العاملون معه. وتعد وسيلة للتفاعل والتعبير عن الأهداف التي يرجونها من إنهاء العمل المناط بهم في الوقت المناسب وبدون أية عوائق. وأن يكون عملهم متقناً يرضي صاحب البيت وغيره من أفراد مجتمع القرية، أو الذين يمرّون بهم لمشاهدة عملهم وإبقائهم لمهنتهم. ثم يبدأ العمل بهمة ونشاط لأن كل ما

سبق نوع من الإحماء لنفسه وللعاملين معه حتى يضع المعلم الجميع في الجو المطلوب للعمل.

٣ - وأثناء العمل إذا استدعى أحد العاملين، من قبل المعلم، لغرض أن يحمل حجراً أو طيناً أو ماءً أو رملاً، حيث تقال هذه العبارة "يا شَيَال شَدَّ جالك، وريح بالك". أي، يا أيها العامل الذي تقوم بحمل الأشياء امسك مكانك أو العمل الذي تقوم به. تقال له من أجل حثه على أن يبذل الجهد وأن يستعد لهذه المهمة لأن الاختيار وقع عليه. فما عليه إلا أن يكون أهلاً لهذه المهمة، وأن يريح باله من أي تفكير في غيرها من أجل أن يقوم بما أوكل إليه بجد ونشاط. وبذلك يعمل على التكيف وضبط سلوكه بما يتناسب مع هذه المهمة.

غير أنه أثناء العمل، عندما يحمل أحد العاملين حملاً ثقيلًا، ويمشي به لغرض إيصاله إلى المكان المخصص له، ويحسّ زملاؤه الذين وضعوا الحمل عليه بثقل ذلك الحمل وأنه قد لا يستطيع مواصلة المسير، فإنهم يحاولون الشدّ من أزره وبعث الهمة في نفسه وذلك بترديد هذا المقطع، "يا جمل يا شَيَال الأحمال، قم بحملك وعتلي". ويعلم العامل من خلال ذلك أنهم قد أحسّوا منه قصورا في أداء تلك المهمة. ومن ثم فإنه يعيد تقييم سلوكه ويحاول إعادة التوازن بين سلوكه وبين الموقف الذي يحتم عليه ذلك التقييم، مما يجعله يتفاعل مع الموقف ويبذل جهداً أكبر

حتى يثبت لهم أنه أهل لهذه المهمة وأنه قادر على التكيف في كل المواقف.

٤ - وإذا كلف المعلم أحد معاونيه بعمل ما، وتأخر في إحضار المطلوب بسرعة، فإن المعلم يقول، "لاخير فيك يامن تأخر بطلبنا". عسى حيلك ماهوب باير". حيث ينطق بهذا البيت من الشعر ليلفت انتباه هذا العامل إلى أنه قد تأخر في إحضار ماكلف به أكثر مما يجب، وأن الواجب عليه أن يكون أكثر سرعة وجدّية في أداء العمل المناط به. فقولته عسى حيلك ما هوب باير أي أنني لاحظت التعب عليك وأرجو أن لا تكون متعباً أو مريضاً. فيفهم هذا الشخص أنه المقصود بذلك فيستعجل في إحضار المطلوب ويحس أنه قصر في أداء عمله مما يجعله يبذل جهداً أكبر يرضي المعلم عنه. وفيها أيضاً نوع من التوجيه لجميع العاملين من أن التقصير في أداء الواجب ليس له مكان في هذه الجماعة، وكذا فيها نوع من ممارسة الضبط والعقاب لمن يقع في مثل هذا النوع من التقصير، وهذا العقاب نفسي واجتماعي قبل أن يكون أي شيء آخر.

٥ - هناك أحد العمال يقوم بخلط التراب والماء من أجل توفير كمية الطين اللازمة للعمل. وعندما ينتهي من تجهيز الطين ويطلب المعلم إحضار شيء منه، يقوم العامل بأخذ كمية من الطين ودحرجتها على التراب حتى تتماسك معه ثم يحملها بيديه ويسير إلى المعلم، وعند اقترابه من جدار المبنى يرفع

العامل صوته بالنداء للمعلم لإخباره بحضوره ثم دعوته للاستعداد لتلقي ما سوف يلقيه إليه. ثم يرمي له تلك الكمية من الطين التي أحضرها. ففي بعض الأحيان يكون استقبال المعلم لكمية الطين التي أرسلت إليه، غير صحيح مما يجعل قسماً منها يتساقط على الأرض. وفي حالة تكرار ذلك من المعلم يعمد العامل إلى ترديد هذه المقولة "شأنك شأنك، يا معلمنا ترينا حلفنا ما فيك سره" وهذا يعني أن الأسلوب الذي تعامل معه المعلم في استقبال الطين لم يكن معهوداً منه. ويعني أيضاً أن المعلم إذا استمر على هذه الحال من عدم الانتباه، فسيعلم الجميع أنه "ما فيك خير"، وهذا يدعو المعلم إلى التركيز أكثر في عمله حتى لا يكون عرضة للنقد المخل مرة أخرى. ويلاحظ أيضاً أن العمل الجماعي يكون الضبط فيه عملية متبادلة، بمعنى أن التأنيب يكون من العاملين للمعلم أيضاً، ويظهر ذلك في المقولة شأنك شأنك يا معلمنا.

٦ - وفي التنظيم الوظيفي داخل مجموعة البنائين، هناك أحد العاملين يكلفه المعلم بأن يكون مسؤولاً عن إحضار الدمك والطين، فعندما يحتاج المعلم إلى الدمك والطين يصيح بصوت مرتفع قائلاً "يادماكان عجل بدمكك وطينك حيث القود فاضي" والمعلم هنا يشرح موقفه من أنه يحتاج إلى دمك وطين وأن العمل عنده متوقف وينتظر أن يأتي ذلك المطلوب، وفي ذلك أيضاً نوع من الحث على سرعة الإنجاز وعدم التراخي في أداء

الواجب. وهو تنبيه لذلك العامل ولفت نظره لتقصيره، حيث الواجب الانتباه إلى أنه من المفروض مراعاة توفر الدمك والطين قبل نفاذ الكمية. ويقصد بالقود مكان العمل كالجدار أو الأساس أو السطح أو أي جزء من المنزل.

ولأن المعلم هو الشخص المسؤول عن هذه المجموعة من حيث تفعيل طاقاتهم واستثمارها وملاحظة مواطن القوة والضعف في مسيرة العمل والعاملين بشكل عام، فإنه إذا رأى مثلاً أن المكلف بعمل الدمك والطين وإحضاره لا يكفي للقيام بهذه المهمة وحده نظراً لحاجته إلى كمية أكبر من تلك المواد، وذلك لسرعة العمل في التشييد والبناء وأن هذا العامل يحتاج إلى مساعدة من زملائه، فإن المعلم يصيح بصوته ويردد تلك العبارة، "وينك يادماك وينك يادماك، وينك ياطيان وينك ياطيان" وبشكل مستمر وعلى نغمة معينة تلفت نظر العاملين، ومن خلال ذلك القول يعرف العاملون الآخرون أن على من يرى منهم أنه مكلف بعمل غير مهم سرعة التوجه نحو مكان عمل الدمك والطين لمساعدة زميله في ذلك العمل. وتتم هذه العملية بسرعة وبشكل طبيعي وبدون أن يلحظ أحد من الخارج هذا التغيير، لأن هذه لغة خاصة بهم. غير أنه إذا حدث تأخير في إحضار المطلوب، يرتفع صوت المعلم بقوله، "القود خالي، وش بلاك يادماك باير". هذه العبارة، عبارة عن نقد مباشر للدمك، وتأتيب له، يقولها المعلم إذا تأخر الدماك في إحضار الدمك في الوقت المحدد لطلبه، فيعرف العامل

أن هناك ملاحظة عليه من معلمه، عند ذلك ينطلق بسرعة مذهلة وكأنه لا يحمل شيئاً على ظهره لكي يثبت للمعلم بأنه يستطيع أن يحمل أكثر من ذلك الحمل، وهو دفاع عن النفس وإثبات لوجوده للمعلم وكذلك أهليته لهذا العمل. هاتان المقولتان تقال في إطار سريع من العمل وفي جو يدعو للتحفيز حتى يكون الجميع على مستوى واحد من الانتباه والسرعة.

٧- ومن الأعمال التي يتطلبها تقسيم العمل في هذه المهنة، أن يكلف المعلم أحد العاملين بحمل المسحاة والعمل بها، من أجل حفر بعض الأماكن التي تحتاج إلى تسوية، من أجل استقامة الجدار وعدم حدوث اعوجاج فيه، ومن ثم يسحب بقية الأتربة إلى خارج ساحة البناء، وهذا العمل يتطلب جهداً كبيراً من هذا العامل حتى ينجزه في الوقت المطلوب. فإذا لاحظ زملاء حامل المسحاة أو المعلم أن الكسل بدأ يدب فيه ويظهر عليه التعب، يقوم من لاحظ ذلك بترديد هذه العبارة "ياراعي المسحاة عجل ترى السيسان بانك مالك اليوم باير" يفهم العامل أن الجميع قد لاحظ عليه التقصير في عمله، من خلال حركة يديه عندما يحمل المسحاة - انظر الملحق رقم (١) - ويضرب بها في الأرض، أو من خلال حركة رجليه وبطنهما عند حمله للتراب وإخراجه خارج ساحة البناء، فيقوم العامل بترديد هذه العبارة كذلك مع الجميع، ومن خلال ترديده لهذه العبارة مع إحساسه بملاحظة زملائه له،

يدب الحماس فيه ثم يكون لزاماً عليه أن يثبت أنه يخيل لهم بأنه مقصر، فيعمد إلى حركات بهلوانية في نظره، مثل حمله المسحاة بسرعة ورفعها عالياً ومن ثم الضرب بها على المكان الذي يريد حفره ومن خلال قوة أو عمق الأثر الذي يحدثه الضرب بها على المكان يكون في نظره قد أثبت لهم أنه لم يكن مقصراً في أدائه لعمله الموكل إليه، وأنه يبذل جهداً مضاعفاً في سبيل إنهاء عمله بالسرعة المطلوبة منه.

٨ - ومن جزيئات هذه المهنة أنه إذا كانت هناك بعض الحجارة الكبيرة في الحجم والتي يتطلب الأمر الاستفادة منها في مجال البناء، يكلف المعلم أحد العاملين بأن يحضر حطباً من أجل شب النار على الحجر الذي يرى المعلم أن يكسر، فيذهب هذا العامل لإحضار الحطب من الجبل أو المكان القريب من موقع البيت الذي يبنونه ثم يوقد النار عليه، والمعلم في هذه الأثناء يلاحظ من مكانه يشرف على المبنى، فإذا كان جمع الحطب وبالكمية المطلوبة، وأوقدت النار بالشكل المطلوب الذي يرضي المعلم باعتباره أعرف المجموعة بذلك، وإلا عمد إلى إطلاق هذه العبارة "شب ياشيبا وخل النار تواره". وبهذه العبارة يعطي المعلم إنذاراً وأمرأ لهذا الرجل بأن عليه أن يحضر الحطب المطلوب والكافي لشب نار تكون شعلتها أكبر من الشعلة السابقة، فيهب الرجل مسرعاً بنشاط تلقائي ليحضر الحطب، بكل جدٍ ونشاط منقطع النظير، حتى لا يلاحظ عليه المعلم أو أحد من زملائه أي تقصير في

أداء عمله وليبرهن للجميع شدة حرصه وحضوره ونشاطه.

غير أنه إذا استغرق من هو مكلف بإيقاد النار على الحجر المراد تكسيره للاستفادة منه في عملية البناء وذلك عن طريق تجزئته إلى أجزاء وقتاً طويلاً، واستغرقت عملية التكسير مدة أطول مما يجب، فإن المعلم يردد "احطب يا حطاب وشب يا شباب نارك وكسر". وهذه العبارة يقصد بها أن الرجل الذي كلف بهذه المهمة، ربما لم ينتبه للمدة التي قضاها في عملية شب النار على الحجر المراد تكسيره، وأن هذا الحجر لم يعد يحتاج إلى إيقاد نار زيادة وأن مهمته الآن أن يقوم بتكسير الحجر، لأن المعلم في حاجة إلى إحضار حجارة من النوع المكسر بالنار. ونتيجة لذلك يكون في نظر المعلم غير أهل لهذه المهمة فيعمد إلى تكليف غيره من زملائه بهذه المهمة. وبعملية تبديل المراكز هذه، يعطى العامل البديل دفعة قوية في سبيل أن يثبت جدارته وأهليته بهذه المهمة الجديدة، وأنه يستطيع أن يقوم بها على أكمل وجه. وكذلك يحس العامل الأول أن عليه أن يبذل جهداً مضاعفاً في المهمة الأخرى التي كلف بها بعد أن أبدى قصوره في مهمته الأولى. وبذلك يعطى كل منهما الفرصة لإثبات وجوده في عمله وضمان استمراريته في هذه المجموعة العاملة وذلك عن طريق تبديل المراكز. ويلاحظ أيضاً قوة الضبط وتماسك الجماعة والتفاعل القوي بينهم عن طريق تلك اللغة الخاصة التي لا يفهمها إلا هم.

٩ - في هذا الإطار لابد أن يوجد نوع من التناغم بين العامل والمعلم، وذلك من خلال الخبرة والمدة الزمنية التي يقضيها معا في ذلك النوع من المهن. حيث يلاحظ ذلك من خلال التقاهم القائم بينهم وسرعة استجابة العامل للمعلم. في هذا المقطع إذا حضر العامل المكلف بإحضار الحجر للمعلم وهو على الجدار أو في أساس البناء، فإن المعلم ينظر إلى الحجر، فإن كان هو المطلوب أخذه ووضع في مكانه على جدار المبنى، وإذا لم يكن هو الحجر المطلوب فإنه يخاطب العامل بهذه العبارة "يا علي خذ حصاتك وطوعها بالفانوس"، أي أن هذا الحجر الذي أحضرته ليس هو المطلوب وعليك أن تعود به وتعمل على تعديله بالفانوس - كتلة من الحديد لتكسير الحجارة - وأن ينتبه لذلك في المرات القادمة، وبهذه العبارة ينتبه كذلك إلى الاهتمام بما كلف به من عمل وأن لا يحضر له الحجارة كيفما اتفق، بل عليه أن يختار ما هو مناسب.

تحتاج أركان البيت للربط بينها إلى نوع من الحجر، المستطيل الشكل والكبير الحجم - الحدة -. غير أن نقله إلى المكان الذي يجب أن يوضع فيه - في أحد أركان البيت حسبما يرى المعلم - يحتاج إلى رجل يتمتع بقوة جسميه وعضلية وعزيمة تفوق قدرات زملائه في العمل. وعندما يأتي دور نقل هذا النوع من الحجارة يطلق الجميع هذه العبارة "راعي الحدة ما فيه مده حليلة ما عجلبها"، وبدوره يعرف هذا الرجل أنه المقصود بتلك المقولة،

ويأتي مهرولاً إلى مكان الحجر وهو يردد هذه العبارة ويردها زملاؤه معه ويحمل الحجر ويوضع على ظهره ثم يسير به نحو المكان المخصص لوضعه. فإذا كان مكان الحجر في أعلى الجدار، فإن هناك سُلماً يصعد عليه، وعندما يُلاحظ عليه زملاؤه بطناً في الحركة، يرفعون أصواتهم عالياً بهذه العبارة وبشكل جماعي مما يزيد من حماسه ويبذل جهداً مضاعفاً في سبيل إيصال الحدة إلى مكانها ويثبت لهم أنه رجل لا يقهر ولديه من القوة والطاقة ما يؤهله للقيام بهذه المهمة الصعبة، وأنه فرد منهم ولا يمكن أن يشذ ويكون أقل من ذلك.

وعندما يرتفع البنيان وتظهر الحاجة للوصول إلى أعلى الجدار بالمواد اللازمة للبناء من حجر وطين وخلافه يكون وضع العمل قد تغير عما كان عليه في البداية. وبذلك يحتاجون إلى سلال من الخشب لكي يستطيع العمال من خلالها إيصال ما يحتاج إليه المعلم من مواد البناء وغيرها، وهذا يتطلب منهم بذل جهد مضاعف عن ذي قبل. فإذا أحس المعلم بنوع من التراخي أو بالتقصير من قبل العمال، فإنه بخبرته وبتأثيره القوي عليهم، يصيح وبصوت مرتفع "أمس غير اليوم واليوم غير أمس وينكم يا رجال"، ففيها نوع من رفع لمعنوياتهم وحفزهم أكثر فأكثر. ويرى فيها جانب آخر، وكان المعلم يندب حظه على وجود هذه المجموعه معه وكأنها لا تبيض الوجه، وهذا نقد مباشر ولكنه مبطن

يدفع بهم نحو البذل أكثر وزيادة الهمة والنشاط.

(أ) فإذا اقترب المساء يتغنى المعلم "روحو روحو، جاكم الليل جاكم"، حيث يقال هذه العبارة للتحفيز ولبذل جهد أكبر. فالمعلم يطلق هذه العبارة حتى يستمر العمل بحماس وإنجاز على وتيرة واحدة، فيردد العاملون مع المعلم هذه العبارة. ويلاحظ على الجميع سرعة الحركة والإنجاز وذلك لتفاعل الجميع مع هذه العبارة لما لها من تأثير في حفز الهمة والشعور بالمسؤولية.

في الساعات الأخيرة من يوم العمل الطويل، يكون العاملون قد استنفدوا طاقاتهم، حيث يُلاحظ ذلك في حركاتهم وتعابير وجوههم ويبدو عليهم التعب، حينئذ يرتفع صوت المعلم بقوله "سرى الليل وحننا تونا ماسرينا". وهذا نوع من التنبيه من قبل المعلم من أن وقت الرحيل لم يحن بعد. ويبدو عليكم التعب والإعياء، فالوقت يمضي بسرعة وعليكم استعادة نشاطكم لتصبحوا كما كنتم في أول النهار، هنا يعلم الجميع بملاحظة المعلم فيتغير إيقاع العمل.

(ب) بالإضافة إلى ذلك، هناك أوقات للراحة أثناء العمل، يحددها المعلم بناء على خبرته أو حاجة العمال لذلك. فإذا حان وقت الغداء أو شرب الشاي، يعمد البعض إلى تنبيه المعلم من أن وقت الغداء أو شرب الشاي أو الراحة لبعض الوقت من العمل قد حان. فإذا

رأى المعلم غير ذلك فإنه يرد عليهم بقوله " حلفت لكم ما تطعمونه لو كنتم على السدة من أمس " ويعني بذلك أن الوقت لم يحن بعد، وأن عليكم أن تستمروا في العمل حتى أعطيك الأمر. ويعني أيضاً حتى لو كنتم جالسين على الأكل وشرب الشاي، فإنني سوف أمنعكم من ذلك باعتباري صاحب الكلمة في هذا الموقف فيقبل العاملون هذا الكلام من المعلم ويستمرون في أداء عملهم بجِد ونشاط دون ما اعتراض وتامل.

(ج) وإذا اكتمل بناء جميع جدران البيت، فإن العاملين في حاجة إلى إحضار الخشب والجلاغ "لحاء خشب العرعر" من أجل عمل سقف البيت، فإن المعلم أو أحد العاملين يقول "أجدد جردك شيل جلاغك يا عفنان" فيذهب العاملون في الدمك والطين وعامل تكسير الحجارة لمساعدة ذلك العامل الذي كلف بتجهيز الخشب والجرد "نوع من الخشب صغير الحجم" والجلاغ وإحضاره إلى المكان المخصص له. بهذه العبارة يفهم هؤلاء العمال أنهم هم المعنيون، فيتوجهون مسرعين للعمل في ذلك المجال بجِد ونشاط لأن هذه العبارة تعني في نفس الوقت أنهم على وشك الانتهاء من بناء البيت ويحتاج ذلك إلى مضاعفة الجهد حتى ينتهي العمل بالسرعة المطلوبة.

١٠ - ولأن هذه الجماعة فيها نوع من التماسك فإن عملية الضبط لا تقف عند حد المسؤول فقط، بل إن للعمال دوراً في ممارسة

الضبط والتوجيه وحفز الهمة للمعلم كذلك. وبذلك يصبح التكامل داخل هذه المجموعة واضحاً وجلياً، الأمر الذي قد يجعل العمال بما فيهم المعلم، يتغنون بالمقطع الشعري التالي:

" طولت بالك يا عفنان وحنا

عجالا مجالنا شد وخط "

" إن كنت تعبان فسر تريحا

عمنا تراه في شد وخط "

ومعنى هذا المقطع الشعري ليس موجهاً لشخص بعينه ولكنه لأي من العاملين، و"عفنان" اسم نكرة ويقصد بذلك أنك متباطئ ونحن مستعجلون وعلنا يقتضي السرعة، فإذا كنت تعباناً فاذهب واسترح فصاحب المنزل في قلق شديد يريد أن ينجز في أسرع وقت ممكن.

يقول هذا المقطع أحد العمال القريبين من معلم البناء، في حالة مشاهدته لبطء حركة المعلم في أداء عمله. فهذه الأبيات تطلق حتى تدفع بالمعلم نحو الجِد والإسراع في إنجاز المطلوب. ولأن المعلم يعتبر حجر الزاوية وهو الدافع الأساسي والمحرك الرئيسي لهذا العمل، فإن المجموعة تعتمد السرعة في أداء عملها على ما يطلقه المعلم من أهازيج ورموز يفهمها العاملون كل فيما يخصه. لذا لزم تنبيه المعلم عن حالته التي هو فيها، فيتغنى العامل القريب منه بهذه الأبيات فيسارع الجميع إلى ترديدها وراءه. وعند ذلك يردد المعلم معهم تلك الأبيات ويعلم أن الجميع قد لاحظوا

بالإضافة إلى ذلك، هنالك اللغة الرمزية حيث توجد بعض الرموز في هذه المهنة والتي تساعد على سرعة أداء العمل، وهي جزء حيوي في لغة البنانيين. تلك الرموز لا يفهمها إلا أصحاب المهنة أنفسهم، من تلك الرموز "الضرب مرتين بالمطرقة على الجدار"، فإذا رأى المعلم أن العامل الذي يقوم بإحضار الحجارة له قد تأخر ويريد حثه على الاستعجال، فيضرب المعلم بالمطرقة التي يحملها معه مرتين على الجدار فيعرف هذا العامل أنه المقصود بذلك، لأنه لاحظ عليه البطء في إحضار المطلوب لمعلمه.

وكذلك "التصفيق باليدين"، إذا احتاج المعلم إلى الطين فإنه يعمد إلى التصفيق بيديه مرتين أو ثلاثاً فيدرك العامل المكلف بعمل الطين أن المعلم يريد منه إحضار الطين إليه بسرعة.

الخاتمة:

من خلال استعراض اللغة وعلاقتها بالتفاعل الاجتماعي في مجتمع البنانيين في بلاد بني عمرو، وهي اللغة المتمثلة في مجموعة من الأغاني والأهازيج والرموز وبعض الأقوال والحكم، يظهر لنا أنها جزء من ثقافة المجتمع المحلي. وهي تعمل على تنظيم حياتهم العملية وضبط سلوكهم، وتعتبر وسيلة من وسائل الاتصال بين أفراد المجموعة. وتدعو أيضاً إلى المزيد من التفاعل والتكامل فيما بينهم. لأنها عبارة عن

تقصيره في أداء عمله ويعتبرها نقصاً في حقه لكونه المسؤول الأول عن سير العمل، فيعمد إلى بذل جهد مضاعف في سبيل أن يثبت لهم عدم صحة ما لاحظته عليه ذلك العامل الذي يتغنى بتلك الأبيات.

وإذا لم يبق إلا القليل على اكتمال تجهيز البيت وتسليمه لصاحبه، وكان آخر اليوم ويريد المعلم أن يكون البيت جاهزاً بنهاية ذلك اليوم فإنه يرفع صوته بقوله "هانت يار جاجيل هانت"، وهذا تنبيه وتحذير قوي يؤكد أن على الجميع الانتهاء من العمل في البيت وتسليمه لصاحبه في نهاية هذا اليوم دون ما تأخير. ويقوم الجميع بترديد هذه العبارة وراء المعلم، فتعطيهم دافعاً قوياً لبذل قصارى جهدهم لكي ينفذوا توجيهات المعلم، وبالفعل يستلم صاحب البيت بيته في نهاية ذلك اليوم.

١١ - فإذا انتهى العمل في المنزل يتغنى الجميع قائلين "وين عدتم يا جماعه، عدنا من وراء الحده". حيث تقال هذه العبارة من قبل الجميع من أجل أن يعلم (عمهم) صاحب البيت بأنهم انتهوا من العمل، وأن عليه أن يستعد لإكرامهم ودفع الأجر المتفق عليه لهم. فيهب صاحب البيت إذا كان في مكان بعيد عنهم مسرعاً فرحاً بانتهاء العمل في البيت - انظر ملحق رقم (٢) - ويشكرهم على ذلك، ويقدم لهم وجبة عشاء دسمة، ويسلمهم أجرهم وبعض الهدايا الرمزية التي تنم عن رضاه عن الجميع.

حصيلة خبرات سابقة توارثوها عن آبائهم أو عن طريق التعلم لهذه المهنة من خلال المشاهدة ومحاكاة العاملين، وهو الأمر الذي يشير إلى كونها عنصراً ثقافياً واضحاً في بناء المجتمع.

من خلال هذه الدراسة اتضح لنا كيف أن لهذه اللغة فاعلية في إدارة العمل بشكل كامل وفي التفاعل بين العاملين من حيث ضبطهم أو كونها تشكل قوتهم الدافعة نحو الجد والنشاط وسرعة الإنجاز، عن طريق ما يطلقه المعلم أو المجموعة من الإشارات والرموز المعبرة عن السرعة أو الطلب أو الحث أو خلاف ذلك من الجوانب والأبعاد ذات التأثير النفسي والبدني بالنسبة للعمال، وتلك التي يحتاج إليها سير العمل.

يضاف إلى ما سبق شخصية المعلم ومدى قدرته في التأثير على معاونيه في هذه المهنة، لأنه بحكم خبرته يعرف نقاط الضعف والقوة، والأوقات التي يستطيع فيها التأثير على

أعضاء الفريق من خلال ترديدهم كمجموعة لتلك الأغاني والأهازيج. يحدث بينهم تفاعل أكثر ويعمل بعضهم على مساعدة البعض الآخر إذا كان في حاجة إلى مساعدة. وبفضل هذا التفاعل والتكامل الاجتماعي بين أعضاء ورئيس فريق البنائين، فإنهم يستطيعون تخطي الصعاب التي قد تواجههم في سبيل إنهاء ما يكلفون به من عمل والمحافظة على مكانتهم واللغة الخاصة بهم.

بذلك نستطيع القول بأن اللغة عند البنائين تؤدي عدة وظائف، حيث تتمثل الوظيفة الأولى في الدعم السيكولوجي الذي تقدمه اللغة للأفراد أثناء العمل. بينما تتمثل الوظيفة الثانية في عملية تنظيم البناء من خلال النظر إلى اللغة باعتبارها آلية من آليات ضبط الاجتماعي. بينما تكمن الوظيفة الثالثة والأخيرة في كون اللغة وسيلة من وسائل الترويج لتجديد النشاط الإنساني من خلال مقاطع الأهازيج التي يرددونها جميعاً.

ملحق شارح لمفردات لغة البنائين في مجتمع بني عمرو

ملحق رقم (١)

أسماء الأدوات المستخدمة في البناء واستعمالاتها

اسماء الأدوات	استعمالاتها
مسحاة	وهي أداة مصنوعة من الحديد مستطيلة الشكل حادة يوجد في أعلاها حلقة توضع فيها قطعه من الخشب طولها حوالي متر لكي يمسك بها العامل، وتستعمل للحفر وجمع وخلط الطين.
مطرقة	كتلة من الحديد صغيرة الحجم تستعمل لتشذيب الحجارة وتسويتها.
قدوم	أداة تصنع من الحديد مستطيلة الشكل تستعمل لتشذيب الخشب.
فأس	أداة تصنع من الحديد مستطيلة الشكل لها رأس عريض وحاد تستعمل لقطع الخشب.
فانوس	وهي كتلة من الحديد تستعمل لتكسير الحجارة.
عتلة	أداة من الحديد طولها متر ونصف تقريبا تستعمل في عتل الحجارة الكبيرة ودحرجتها.
فاروع	وهي أداة تصنع من الحديد لها رأسان أحدهما مدبب والآخر عريض تستعمل في حفر الأماكن الصلبة.
رحلة	وهي تصنع من الجلد أو سعف النخل صغيرة الحجم توضع كل خرج على ظهر الحمار، وتستعمل لتحميل التراب.
حصيرة	وهي حصيره كبيرة الحجم تصنع من سعف النخل وتغطي بالخيش أو الجلد وتستعمل لحمل التراب من الأماكن البعيدة على ظهر الجمل إلى المكان الذي سيقام فيه البيت.
شداد	حبل يصنع من جلود البقر يستعمل في ربط الأشياء.
البطن	وهو خشب العرعر يوضع على سطح البيت وهو بمثابة الحديد الآن.
الجرد	نوع من الخشب يقطع وهو صغير الحجم يوضع فوق البطن.
الجلاغ	هو لحاء العرعر ويستعمل في تغطية سطح المنزل بعد وضع البطن والجرد ليمنع نزول الطين إلى أرضية البيت.
الرقعة	وهو ما يبقى من سيقان القمح والشعير بعد دياسته ويخلط مع الطين من أجل تقويته وتماسكه.
الكبس	وهو التراب ويستعمل بعد خلطه بالماء في تثبيت الحجارة في الجدار وتغطية السطح وهو بمثابة الأسمنت اليوم.

تابع : ملحق رقم (١)

اسماء الأدوات المستخدمة في البناء واستعمالاتها

اسماء الأدوات	استعمالاتها
الدمك	وهي الحجارة الصغيرة الحجم توضع في وسط الدماك وتغطي بالطين.
الدعامة	نوع كبير الحجم من خشب العرعر توضع في وسط الغرفة الواسعة المساحة في البيت، وتمثل الأعمدة في البيوت.
الجباهة	حجر مستطيل الشكل يبلغ طوله حوالي متر يوضع فوق الباب والنافذة حتى يتحمل ما يوضع عليه من الحجارة.
العتبة	خشبة توضع في مدخل الباب.
الحدة	حجر يكون مستطيل الشكل تربط به أركان البيت من أسفل إلى أعلى ويسمى الجزء العلوي من البيت باسمه.
الصلبة	وهي أجزاء تتناثر من الحجارة الكبيرة عند التكسير بالنار وتستعمل في الأماكن الفارغة بين الحجارة في الجدار.
القترة	فتحة تعمل في الجدار لغرض دخول القطط منها إلى داخل البيت.
المعلق	قطعة من الخشب تغرس في جدار الغرفة لتعليق بعض الأشياء بها.
العنك	قطعة من الخشب توضع بالجدار من جهة الباب تكون متحركة وتسحب لتأمين البيت.
الظبة	قطعة من الخشب توضع في ظهر الباب من داخل الغرفة لضمان عدم فتح الباب من الغير (المزلاج).
الميزان	قطعة من الخشب تحفر من الوسط وتستعمل لغرض مرور المياه التي تتجمع على سطح البيت نتيجة الأمطار إلى خارجه (الميزاب أو المرزاب).

ملحق رقم (٢)

المفردات المتعلقة بمسميات أجزاء البيت

أجزاء البيت	الموقع في البيت
السفلي	غرفة في الدور الأرضي من البيت توضع فيها الماشية في أوقات المساء.
العلو	غرفة تقع في الدور العلوي وهي مجلس للضيوف.
الدكة	وهي مكان مرتفع نوعاً ما تقام أمام مدخل البيت يجلس فيه أفراد العائلة في أوقات راحتهم نهائياً.
الجرين	وهي الساحة الواقعة أمام البيت (الحوش).
السفلة	غرفة تقع في آخر ركن من البيت.
السرحة	غرفة تقع في الدور الأرضي تستعمل في فصل الشتاء.
الخارجة	وهي غرفة لها ثلاثة جدران في الدور العلوي ويبقى الجدار الرابع مفتوحاً وتطل على الوادي وتكون مجلساً للضيوف في فصل الصيف.
القور	ويشمل جميع جدران البيت وهو عبارة عن حجرين متقابلين يوضع بينهما الدماك والطين.
المدماك	يطلق هذا المسمى على الجدار في العادة.
الداخلية	وهي غرفة تفتح على غرفة أخرى في البيت وتعتبر هي المستودع.
السك	طريق تربط بين إحدى الغرف العلوية والسفلية.
البداية	هي نافذة درفتين من الخشب يحيط بها أربعة أعمدة من الخشب كذلك.
الجون	وهو جدار دائري يحيط بسطح البيت بارتفاع متر تقريباً.
الشرفة	وهو نهاية الجرين من جهة الوادي (الحوش).
الكانون	مكان في وسط الغرفة الرئيسية للعائلة على شكل مربع يقام من الطين وتوقد فيه النار لطهي الطعام ولغرض التدفئة أيضاً.
حوض الرحي	وهو عبارة عن حوض دائري الشكل يبني من الطين وتوضع الرحي في وسطه لكي يستقر فيه الطحين ويكون في إحدى الغرف.
الأذافي	وهي عبارة عن حجرين مستطيلي الشكل، وفي حجم واحد يستعملان لوضع قدر الطبخ عليه عند إعداد الطعام.
العشة	وهي أربع من الخشب تنصب في مكان قريب من البيت وتربط فيه البقر خلال النهار.
المذود	وهي خشبه كبيرة توضع في مقدمة العشة تربط بها البقر ويوضع فيها الطعام الخاص بها.

Consultants

Prof. Abdullah Yoursif Al-Shibl, Former-President of Imam Mohammad Ibn Saud Islamic University, Riyadh.

Prof. Abd Al-Aziz Al-Duri, Department of History, College of Arts. The University of Jordan, Jordan.

Prof. Abd Al-Aziz Al-Helabi, Department of History, College of Arts. King Saud University, Riyadh.

Prof. Abd Al-Aziz bin Abdollah, Director, Arabization Bureau, Rabat, Morocco.

Prof. Abd Al-Jelil Temimi, Le Centre d'Etudes et de Recherches Ottomanes, Morisquesm de Documentation et d'Information, Tunisia.

Prof. Ali Mohafza, Faculty of Humanities and Social Sciences, University of Jordan, Jordan.

Prof. Daif Allah Yhya Al Zahrani, Department of Modern History and Islamic Civilization, Umm Al-Qura University.

Prof. Ekmeledin Ihsanoglu, Director General, Research Centre for Islamic History, Art and Culture, Istanbul, Turkey.

Dr. Fahd Ibn Abdullah Alsmari, Secretary General, King Abdul Aziz Foundation for Research and Archives.

Prof. Halil Inalcik, The University of Chicago, U.S.A.

Prof. Ibrahim Shbbuh, Director general de la Bibliotheque Nationale.

Prof. Irfan Shahid, George Town University, Washington D.C., U.S.A.

Prof. Jamal Zakaria Qasim, Department of History, Faculty of Arts, Aim Shams University, Egypt.

Prof. Khairia Kasmieh, Modern and Contemporary History, Dept. of History, Damascus University, Syria.

Prof. Mostafa Kamal Abdul-Alim, Department of History, Cairo University, Egypt.

Prof. Mohammad Adnan Al-Bakhit, President of Al- alBait University, Jordan.

Prof. Mohammad Fantar, Director du Centre de la Civilisation Punique.

Prof. Mohammed Zaid Kebbe, College of Arts, King Saud University, Riyadh.

Prof. Naser Al-Din Al-Asad, Director, Royal Academy for Islamic Civilization Research, Jordan.

Prof. Richard L. Chambers, The University of Chicago, U.S.A.

Ages

© 2002 MARS PUBLISHING HOUSE, Riyadh,
Saudi Arabia,

P.O. Box 10720 Riyadh 11443 , Tel 4647531 – 4658523 ,
Fax 4657939 .

Email : marspub1@zajil.net

No part of this work may be reproduced or utilized in any
form or by any means, electronic or mechanical, including
photocopying, recording, or by any information storage and
retrieval system without prior written permission from the
publisher.

Web Site : <http://alosour.netfirms.com>

E-mail : al_Osour@hotmail.com

- ANNUAL SUBSCRIPTION RATE :

- | | |
|--------------------------|------------|
| - Saudi Arabia | S.R. 100 |
| - All Arab Countries | U.S. \$ 35 |
| - All European Countries | U.S. \$ 40 |
| - U.S.A. & Canada | U.S. \$ 45 |
| - Australia & South Asia | U.S. \$ 50 |
-

All MSS should be addressed to :

- Mars Publishing House,

P.O. Box : 10720, Riyadh 11443,

Saudi Arabia.

The Arabic Publishing & Distribution House Ltd.

49 Goldhawk Road

London W12 8 QP

England

Agēs

A Semal – annual Journal of Historical, Archaeological and Civilizational Studies

CHIEF EDITORS

Prof. Abdel Fattah H. Abu-Alieh

Prof. Sayed Farag Rashed

Prof. Raafat M. El-Nabarawi

Dr. Adnan M. Al-Harthy

Dr. Abdullah A. Al-Wazrah

Administrative Manager

Abdullah Al-Magid

VOLUME 12

PART 2

JULY 2002

RABP II 1423



Published by : Mars Publishing House London